الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

الأُخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

١

السيرة

أديب مصلح

الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

الأُخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

١

السيرة

٢٠١٩

طبعة أولى

٢٠١٩

*

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب.: ١٢٥
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إلى جميع راهبَات العالم. . . !

تمهيد

عندما وعد يسوع كنيسته بالوقوف دائمًا إلى جانبها، مزوّدًا إيّاها بمنعةٍ كفيلةٍ بدحر قوى الجحيم، كان يرى، بنظرته الإلهيّة، مواكب أصدقائه الأوفياء، وكتائب شهدائه وقدّيسيه، الذين، على مدى الأجيال، سينبرون لاقتفاء خطاه، وتلبية ندائه، كلٌّ في الحقل الذي سيُنتدَب لاستثماره. فمنهم من يمثّل عطفه، بالبذل السخيّ في سبيل انتشال المهملين من براثن العوز، والمرض، والتخلّي، والحرمان من مقوّمات الحياة الأساسيّة، وملاذات الحبّ والاهتمام والعناية، أمثال ڤـــنسان دي پـــول، والأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، والأب پـــيير، وجان ڤـــانييه، وكوكبة أبطال المحبّة الكُثُر؛ ومنهم نسَّاكٌ حرموا ذواتهم، طوعًا، كلّ متع الحياة ومباهجها، وآثروا عزلة المحابس، وشظف العيش، منقطعين للصلاة عوضًا عمّن ألهتهم توافه العيش عن شؤون نفوسهم؛ ومنهم من عشقوا الصليب فتمثّلوا بالحبّ اللامحدود الذي دفع ابن الإنسان إلى اعتلائه، افتداءً لمن توغّلوا في صحارى التيه، فتطوّعوا لاحتمال شتّى ألوان الآلام الجسديّة والنفسيّة بلا تحفّظٍ، افتداءً لمن باعوا نفوسهم بأبخس الأثمان، أو مواساةً لمن وقعوا ضحيّة ظلم البشر والقدَر، وتخفيفًا لأوجاعهم. تلك كانت حال الأُخت الطوباويّة "أنّا كاتارينا إِيمّيريك"، التي نوجز سيرتها في هذه الصفحات، وسنفرد مجلّدًا آخر لرؤاها المتعلّقة بسيرة يسوع وآلامه.

فعلى نقيض من انتُدبوا للعمل النشيط، قيّد المرض حركة تلك الطوباويّة، ولكنّ النعمة الإلهية زوّدتها بقدراتٍ روحيّةٍ أهّلتها لتحقيق إنجازاتٍ مذهلةٍ. ربّما

سلبها المرض بعض طاقاتٍ، ولكنّ النعمة أغدقت عليها طاقاتٍ أعظم شأنًا بما لا يقاس، إذ إنّها أبقتها على مقربةٍ من نبع القوّة، وارتقت بها إلى مستوى الصوفيّة. والصوفيّة وحيٌ أسمى من الحكمة، لأنّها اتّصالٌ مباشرٌ بالواقع الحقّ، ومعرفةٌ له تتخطّى الظواهر إلى الجوهر، ومن ثمّ هي أكثر امتلاكًا للمعرفة والنور، وعلى تواصلٍ دائمٍ مع الكائن اللامحدود.

بيد أنّ هذا التميّز يضع الصوفيّ في موضع الشبهة، وعدم الفهم، ويجعل منه هدف انتقادٍ واضطهادٍ. وهذا ما عانته الأُخت "أنّا كاتارينا"، فضلاً عن تطوّعها للتكفير عن خطايا الآخرين، وللتخفيف من وطأة أوضاع المتألّمين، بتحمّلها أوجاعًا وآلامًا من كلّ لونٍ، إلى أن أصبحت صليبًا حيًّا، كرّسه المصلوب بطبع سماتِ صلبه في جسدها.

ولئن كانت سمات الصلب دليل حظوةٍ نادرةٍ، وكرامةٍ إلهيّة فريدة، إلاّ أنّها أضحت للأخت "أنّا كاتارينا" مصدر اضطهادٍ، وعلّةَ اتّهاماتٍ مُذِلَّةٍ، وتحقيقاتٍ مهينةٍ، ولا سيّما في محيطٍ ينكر، باسم علمٍ مغرورٍ بعلمه الزهيد، كلّ فائقٍ للطبيعة، حتّى ما يشهده بعينيه، ويلمسه بيديه كلتيهما. ومن المفارقات التي تبدّت، في هذا السياق، والتي ما برحت تتبدّى في حالاتٍ مماثلةٍ، أنّ ملحدين صادقين مع ذواتهم، يسلّمون بالواقع الماثل، في حين يمضي لاهوتيّون في إنكاره بعنادٍ، خشية اتّهامهم بالرجعيّة، والتخلّف العلميّ.

لقد غاصت الأُخت في لجّة آلامٍ نفسيّةٍ هاصرةٍ، وأوجاعٍ جسديّةٍ مضنيةٍ، وعللٍ من كلّ نوعٍ، احتملتها بصبرٍ، ورضًى، وبفرحٍ طاغٍ، لأنّها كانت ترى ثمار هذه المعاناة التي تؤتي تكفيرًا عن خطأةٍ، وتخفيفًا لآلام أبرياء.

من الشائع أن يفصل الألمُ عامّة الناس عن محيطهم، ويقوقعهم على ذواتهم، فتحول صفاقة أوهامهم ومرارتهم وهواجسهم دون رؤيتهم للنور الثاوي في أعماقهم. بيد أنّ من يتألّمون مع يسوع، ومن أجل الآخرين، يكتسبون سخاءً

وتعاطفًا، ويستمدّون من الألم فرحًا راسخًا، ورؤيةً واضحةً للواقع، ويتحوّلون، داخليًّا، ويصبح لهم الألم مدرسة حبٍّ وعطاءٍ بلا حدود.

فمن يروز ثقل الحبّ الذي يُقطّره الصليب، يفجّر الصليب في داخله ينابيع حبٍّ تتدفّق بلا توقّفٍ، ولا قيدٍ. ومن يتأمّل المصلوب حانيًا بكلّ ألوهته على أوجاع البشر وأوصابهم، يجد نفسه مدفوعًا، بكلّ طاقات ذاته، إلى معانقة كلّ متألّمٍ. فالتحديق إلى الصليب يفتح أبواب القلوب، ويملأها تعاطفًا مع آلام البشر، وينعش في الإنسان شعوره بإنسانيّته. ومن المحقّق أنّ لأصغر عمل محبّةٍ قيمةً عظمى لامحدودة، فهي ليست قطرة ماءٍ في محيط، بل هي بحرٌ في قطرة ماءٍ، حسب قول المهتدي المعاصر "أندريه فروسّار".

وإنّما يثور على الألم من لا يدرك معناه، فينكفئ على بؤسه، وينسلخ عن منبع الحبّ الفيّاض، ويضحي أسير مرارته وإحباطه.

لقد أدخل الألم الطوعيّ، مع يسوع، وحبًّا به، الأُخت "أنّا كاتارينا"، في حميميّة المصلوب، فعاشت معه، وانقادت لإرشاداته، وهو قاد خطاها على دروب الفضائل التي اكتنـــزت منها أسماها، فتسنّمت من القداسة أشمخ ذراها، واستنار ذهنها بما خفي عن العلماء، ورأت كلّ مراحل الخلاص، ومسيرة المخلّص الأرضيّة، واطّلعت على تفاصيل خفيّةٍ منها، وخلّفت، من خلال رؤيتها لها، كنـــزًا نفيسًا، ومنهلاً عذبًا، وأثبتت أنّ الإيمان يساعد العقل على تخطّي قدراته.

وقد ألهب حبّها ليسوع، في نفسها، حبًّا لجسده السرّيّ، المتمثّل في الكنيسة، فتقرّت تاريخها، وأظهرت إنجازاتها، ومواطن ضعف بعض أعضائها ومسؤوليها الذين حَنِثوا في نذورهم، وخانوا رسالتهم، وأمعنوا في الإصغاء إلى مغريات الزمن، ذاهلين عن مقتضيات الأبديّة.

وقد التزمت، كلّ حياتها، بالإنجيل وبمقتضياته الشاقّة، فنعمت بتحقيق وعوده

التي يصعب تصديقها، وكانت جوهرةً نادرةً، واتّضح للعديد من المفكّرين أنّ تلك القرويّة شبه الأمّيّة قد أثّرت تأثيرًا حاسمًا على مجرى التاريخ.

فيا أُختنا "أنّا كاتارينا"، كم نحن بحاجةٍ حيويّةٍ إلى نفوسٍ سخيّةٍ، مثلك، كفيلةٍ بالحدّ من استفحال مخازٍ تسامقت أهرامها إلى مستوى قممٍ مذهلةٍ، وبإيقاظ الضمائر على مخاطر جنونٍ شاملٍ منذرٍ بانتحارٍ كونيٍّ مريعٍ!

وكم نحن بحاجةٍ إلى أنبياءٍ نظيرك، يسرّبون إلى روعنا اليقين بأنّ المستقبل هو يسوع، وأنّ شمسه التي تطمسها غيوم اليوم القاتمة، ستنفرج على إشراقٍ ساطعٍ، رائعٍ!

أديب مصلح

حياةٌ حافلةٌ برؤى السماء وبصلبان الأرض

الفصل الأول

نشأةٌ ريفيّةٌ فقيرةٌ ورعةٌ

وُلدت "أنّا كاتارينا إِمّيريك" (Anna Katharina Emmerich) يوم ١٧٧٤/٩/٨، الموافق لعيد مولد السيّدة العذراء، في دسكرة "فلامسك" (Flamske)، وعُمّدت، في ذلك اليوم عينه، في كنيسة القدّيس يعقوب بقرية "كوسفيلد" (Coesfeld)، التي لا تبعد سوى بضع مئات أمتارٍ عن مسقط رأسها، والتابعة لأُسقفيّة "منستر" (Munster) الألمانيّة.

هي خامسة تسعة إخوةٍ وأخواتٍ، ستّة ذكورٍ، وثلاث فتياتٍ. كانت أُسرتها تقطن بيت فلاّحين صغيرًا ومتواضعًا، يؤوي، إلى جانب ساكنيه، بهائمهم وغلالهم، التي تفصلها عنهم حواجز خشبيّةٌ بدائيّة الصنع، بابه المنخور يُشرَع على حجرةٍ صغيرةٍ، أرضها من التراب المرصوص، تُستخدَم لجلوس العيلة. يتصدّرها موقدٌ مبنيٌّ في إحدى الزوايا، تُشعل فيه النار للطهو والتدفئة، ويتسرّب دخانه من ثغرةٍ في الجدار بعد أن يزركش الحجرة بسخامه. ومن حول الموقد صفّ كراسٍ واطئةٍ عتيقةٍ متحلّقةٍ حول منضدةٍ كان الأجداد يتناولون طعامهم فوقها. وتفصل هذه الحجرة عن غرف النوم حواجز من ألواحٍ خشبيّةٍ، فيما تنعم البقرات بالمساحة المتبقّية من المكان. ويطلّ البناء على فناءٍ تظلّله سنديانةٌ عتيقةٌ، ويستخدمه الأولاد ساحةً للعبهم.

لّما ذاعت شهرة الأُخت "أنّا كاتارينا"، رغب مدوّن سيرتها ورؤاها الكاتب الألماني "كليمنس برينتانو" (Clemens Brentano)، في الاطّلاع عن مرابع صباها، فزار مسقط رأسها، وطالعنا بالوصف التالي:

"دفعت بابًا لم يكن محكم الإغلاق، وطالما أُصلح ورُقِّع، فوجدت نفسي وسط غمامةٍ من الدخان لا تتيح لي الرؤية أكثر من مسافة بضع خطوات. حيّاني أحد أشقّاء الأُخت "أنّا كاتارينا" وزوجته، في شيءٍ من الدهشة، غير أنّ تحيّتهما اكتسبت دفئًا وترحيبًا ودّيًّا عندما بلّغتهما تحيّات الأُخت.

"حضوري المباغت جفّل الأولاد، للوهلة الأولى، ولكنّهم سرعان ما امتثلوا لأوامر والديهم وحيّوا. في المساحة الممتدّة بين الجدران الأربعة لم أشهد ما يمكن تسميته غرفة. ولكن كان في زاويةٍ معزولةٍ من المكان نولٌ بدائيٌّ يعمل عليه أحد الإخوة. وكانت خزائن عتيقةٌ سوّدها الدخان تنفرج، عند فتحها، عن مراقد محشوّةٍ قشًّا، وُضعت فوقها وسائد محشوّةٌ ريشًا، تُستخدم للنوم. وفي الجانب المقابل كان القطيع يسترق النظر من وراء الأوتاد.

"الأثاث وأدوات الطهو منشورةٌ أو معلّقةٌ في كلّ مكانٍ. وعلى السقالة التي تدعم السقف، عُلِّق قشٌّ، وعلَفٌ، وكتّانٌ صبغه الدخان والسخام بالسواد. الدخان يملأ المكان ويطمس المشهد".

في هذا الجوّ القاتم، وفي إطار هذا الفقر وهذه الفوضى، وُلدت ونشأت تلك المخلوقة الطاهرة، النيّرة، الغنيّة بمواهب الفهم، وفي هذا المحيط احتفظت ببراءة أفكارها وأقوالها وأفعالها. هناك لم يكن ذووها يتلفّظون بكلمةٍ إلاّ مرفقةً بعبارة "بعون الله".

وفي قرية "كوسفيلد" كنيسةٌ أُخرى، مكرّسةٌ باسم القدّيس "لمبير"، تؤوي صليبًا عجائبيًّا يُعتقد أنّه جيء به من أورشليم في القرن الثامن. في تلك الكنيسة نالت تلك الفتاة المختارة سرّ التثبيت، وفيها ظهر لها خطيبها الإلهيّ، إذ كانت في الرابعة والعشرين من سنيها، عام ١٧٩٨.

في تلك القرية أيضًا، عملت "أنّا كاتارينا"، سنواتٍ عديدةً، مساعدةً لخيّاطةٍ تقيّةٍ، ثمّ خدمت مدّة ثلاث سنواتٍ في منـــزل مرنّمٍ وعدها بتلقينها العزف على الأُرغن، علّ ذلك يشفع بها في الانضواء إلى جمعيّةٍ رهبانيّةٍ، ومن تلك القرية انطلقت إلى الدير.

في تلك الحقبة كان أهالي تلك المنطقة ملتزمين بالإيمان المسيحيّ الموروث، ومحافظين على الأخلاق الحميدة والورع، ومواظبين على الكنائس والأسرار. ويروي

كاهنٌ زار تلك المنطقة، بعد وفاة الأُخت إيمّيريك، أنّه، فيما كان مارًّا، صباحًا، قرب سياجٍ، سمع صوت طفلٍ، فاقترب من مصدره، وإذ براعيةٍ صغيرةٍ، في نحو السابعة من عمرها، مرتديةٍ أسمالاً رثّةً، تقتاد سربًا من الإوزّ إلى حقلٍ، وبيدها عصا، وهي تردّد بلهجةٍ حافلةٍ بالورع والصدق: "صباح الخير يا الله، ربّي! وليُبارَك يسوع المسيح. وأنت أيّها الأب العطوف في السماء! السلام عليك يا مريم، يا ممتلئةً نعمةً. أريد أن أكون طيّبةً، أريد أن أكون تقيّةً. يا قدّيسي الفردوس، وأيّها الملائكة، أريد أن أكون طيّبةً. لديّ كسرة خبزٍ، تكفيني غذاءً، فلك الشكر يا الله. واحمِني لكي لا تشرد إوزّاتي في حقول القمح، ولكي لا يقتل ولدٌ شرّيرٌ إحداها بحجرٍ. إحمِني، أيّها الأب الحبيب الموجود في السماء. أنا أريد أن أكون فتاةً طيّبةً".

وقد أشار الراوي، مع ذلك، إلى أنّ زاد الكهنة من الثقافة، في تلك القرى، ضئيلٌ، وزيّهم ريفيٌّ، وأنّهم لا يعيرون شأنًا كبيرًا لتنظيم الكنيسة وتزيينها، ولأناقة الطقوس. وهم يعظون بلغة عامِّيَّةٍ بسيطةٍ، ولكنّها أكثر قدرةً على النفاذ إلى القلوب من الخطابات المنمّقة باللغة الأدبيّة. والقوم بسيطون، سُذّجٌ، خشنون، ولكنّهم طاهرون، أبرياء، مؤمنون، ورعون، ورغم هزال ثقافتهم قادرون على استيعاب أُمورٍ عميقةٍ، ونعمة الله حيّةٌ فيهم. والكنيسة ما زالت مصدر بركةٍ وتقديسٍ، وموضع احترامٍ.

وما زالت تلك المنطقة زاخرةً بالبراءة، فلا فساد، ولا انحلال أخلاقٍ، ولا فحش، وحتّى البذخ نادرٌ، بل ثمّة سيادةٌ للاستقامة، والتواضع، والنشاط الجادّ.

طفولةٌ مغمورةٌ بأنوارٍ سماويّةٍ

كانت "أنّا كاتارينا"، بعد مضيّ سُويْعاتٍ على مولدها، قد تلقّت مع ماء العماد، مواهب نبويّةً نادرةً. وقُيِّض لها أن ترى بالروح، بعد سنواتٍ عديدةٍ، كيف حملتها إلى جرن المعموديّة ثلاث نساءٍ، وكيف نالت سرّ الولادة الثانية بحضور ملاكها الحارس، وشفيعتيها القدّيستَيْن حنّة، وكاترينا السييّناويّة، وأمّ الله وطفلها

يسوع الذي اقترنت به منذئذٍ. ورأت أيضًا الكوخ الذي كانت أُسرتها تقطن فيه، آنذاك، قبل أن تطرأ عليه تعديلاتٌ وإضافاتٌ عديدةٌ.

موهبة الرؤى هذه واكبت مسيرتها كلّها، فأضحى لها كلّ ما هو مقدّسٌ ومباركٌ، وكلّ ما له بالكنيسة علاقةٌ، حيًّا ومحسوسًا. عن هذه الموهبة أقرّت، في إطار ما باحت به:

"رأيت صورًا رائعةً للكنيسة في جوهرها، وأحسستُ بالحضور الإلهيّ في القربان الأقدس، ورأيت رفات القدّيسين المدفونين في الكنيسة متألّقًا. رأيت جميع أجدادي الذين نالوا العماد، حتّى القرن السابع، فمنهم بناة كنائس، ومنهم ناسكٌ كان، بعد أن تزوّج ورزق أبناءً، وتبوّأ مركزًا اجتماعيًّا مرموقًا، هجر العالم، وساق سيرة زهدٍ وقداسةٍ، ومنهم العديد من الراهبات، اثنتان منهنّ وُسمتا بسمات الصلب، ولكنّهما ظلّتا مغفلتَيْن؛ ورأيت، أيضًا لوحاتٍ رمزيّةً تنبئ بمخاطر حياتي المستقبليّة..."

هكذا، إذن، فيما أطفالٌ آخرون لا يشعرون إلاّ بالبرد والألم، ولا ينشدون سوى ثدي أمّهاتهم وحضنهنّ، غزت نفس "أنّا كاتارينا"، منذ طفولتها، مشاعر كلّ العلاقات والمؤثّرات الآتية من العالم العلويّ الذي أقحمها فيها العماد، أي كنيسة الله بصفتها جماعة القدّيسين، وجسد يسوع الصوفيّ. كانت تشعر بكلّ ذلك حسّيًّا، وأدركت، في سنٍّ مبكّرةٍ، قدسيّة الطقوس الكنسيّة، وممارسات ذويها التقوّيّة، وسبَحَ ذهنها الطفوليّ في لجّة أنوارٍ سماويّةٍ.

منذ طفولتها عقدت علاقةً حميمةً مع سكّان السماء. فملاكها الحارس كان يظهر لها بهيئة طفلٍ، والراعي الصالح كان يواكب الراعية الصغيرة بهيئة راعٍ صغيرٍ. وملكة السماء العذراء كانت تتراءى لها تفيض جمالاً ورقّةً وجلالاً، وتغمرها بحنانها وحمايتها، وتسعدها بالسماح لها أن تلهو مع يسوع ابنها الطفل. والقدّيسون يوافون ويتناولون من يديها عقود الزهور التي كانت تنظمها إكرامًا

لأعيادهم. وفضلاً عن كلّ ذلك، ألّمت بمحتوى الكتب المقدّسة، قبل أن تتعلّم القراءة، من خلال رؤى وإلهاماتٍ سماويّةٍ.

ومع ذلك حمتها براءتها من الاعتداد بذاتها، ولم يخطر لها ببالٍ قطّ، أنّ ما كان يحدث لها هو امتيازٌ تفرّدت به، فهي كانت موقنةً أنّ جميع أترابها يرون ويعلمون ما هي ترى وتعلم، وينعمون بمثل ما هي تنعم.

وفي مرحلةٍ باكرةٍ من حياتها وُهبت قدرة التمييز بين الخير والشرّ، وبين المبارك والملعون. فإذا حلّت مكانًا ارتُكبت فيه آثامٌ تسارع إلى الفرار منه، وإلى التكفير عن أفعال الخطأة، وبالمقابل كانت تتعرّف المطارح التي قُدِّست بأفعال برٍّ، وتسعد بالمكوث فيها شاكرةً الربّ.

وكذلك تفرّدت بمعرفة الأعشاب المحتوية عناصر شفاءٍ، فكانت تجمعها كي تفيد بها المحيطين بها، وكانت تنتزع وتتلف الأعشاب الضارّة، والمستخدَمة في أعمال السحر.

وكانت تتذرّع بأيّة حجّةٍ كي تنأى عن كلّ مكانٍ خالٍ من حضور الله ومخافته، ومن كلّ ما يستأهل السماع والرؤية ويفضي إلى بناء الفضائل وتقديس النفس. وإن اتّفق أن وُجدت في مثل هذه الأماكن، فكانت تغمض عينيها، وتسدّ أُذنيها، وتسارع إلى مغادرتها. وكانت وطيدة الإيمان بأنّ كلّ نافلٍ هو خطيئةٌ، وأنّ كلّ انسلاخٍ عن الحواسّ الخارجيّة يُستعاض عنه، مئات الأضعاف، حياةً داخليّةً خصيبةً، كما يجعل التشذيب الكرمة والأشجار المثمرة أوفر إثمارًا.

وكانت تحيط المقدّسات بأسمى إجلالٍ، وكلّما مرّ كاهنٌ حاملاً القربان المقدّس، حتّى بعيدًا عن كوخ ذويها، أو عن المرعى الذي كانت تحرس فيه الماشية، كان جاذبٌ لا يُقاوَم يدفعها نحوه، فتركع على الطريق الذي سيمرّ به الكاهن، عابدةً سرّ الإفخارستيّا.

وطوال حياتها تواصلت مع نفوسٍ مطهريّةٍ، وكرّست لها أعمالها، وصلواتها وتضحياتها. ولطالما هزّتها دعوات استغاثةٍ آتيةٌ من تلك النفوس، وإذا أغفلتها

كانت تتلقّى ملامتها. وفي مرحلة فتوّتها كانت جماعاتٌ من تلك النفوس تنتزعها من نومها. وحتّى في أقسى ليالي الشتاء كانت تواكبها، حافيةً، على درب الصليب الممتدّ حتّى مدينة "كوسفيلد".

وقد تميّزت بضميرٍ شديد الاقتضاء، تحزنه أدنى هفوةٍ حتّى المرض، ولا يحرّرها منها إلاّ حلّة الكاهن المعرّف.

ومع كلّ الكرامات التي حظيت بها، كانت تضطلع بكلّ الأعمال القرويّة حتّى الأشدّ قسوةً وعناءً. واعتادت التضحيات واحتمال الآلام، مضحّيةً بنومها وأكلها، مُنفقةً معظم ساعات الليل في الصلاة، غير متوانيةٍ حتّى في فصل الشتاء، عن الخروج والركوع على الثلج.

كانت ترقد على الأرض فوق أخشابٍ منضّدةٍ على شكل صليبٍ. ولا تتردّد عن تناول ما يرفضه الآخرون من مأكلٍ وشربٍ. مؤثرةً التبرّع بأطيب نصيبها من الطعام لفقراء أو مرضى، وإن لم تعرف لمن يجب إعطاؤه، فكانت، في براءتها الطفوليّة، تقدّمه لله، سائلةً أن يوصله لمن هو في أشدّ حاجةٍ إليه.

ومنذ صباها أُنعم عليها برؤى رمزيّةٍ تدلّها إلى هدف حياتها، وسبل بلوغه، وما يعترضه من صعابٍ ومخاطر، ومعارك سيتعيّن عليها خوضها.

نقاء قلبها الذي قدّسته النعمة، لم تكدّره أيّة لوثةٍ قطّ، واختاره الربّ كي يجعل منه صورةً لقلبه، طهرًا، ومحبّةً، وألمًا فدائيًّا؛ واتّخذ منه الروح القدس مسكنًا استولى على كلّ خلجاته، وعلى كلّ طاقات نفسها، وقبل أن يتمكّن فمها من التفوّه بألفاظٍ مفهومةٍ، وجّه تطلّعات قلبها إلى الله وحده. ومن ثمّ، ما كادت تلك الطفلة تبلغ سنتها الثانية، حتّى غدت ترتجلُ صلواتٍ تفوق صلوات كثيرين من البالغين عمقًا وحرارةً. ولا ريب أنّه كان لورع والدها سهمٌ في هذه الظاهرة. وقد اعترفت، هي، في هذا السياق: "لقد بذل والدي، معي، جهدًا جمًّا. لقّنني الصلاة، ورسْم إشارة الصليب. كان يجلسني على ركبتيه، ويطوي يدي الصغيرة كي

يعلّمني رسم إشارة صليبٍ صغيرةٍ، ثم يفتحها كي يعلّمني رسم إشارة صليبٍ كبيرةٍ. وبفضله تمكّنت من تلاوة نصف دعاء "أبانا" في سنٍّ باكرةٍ جدًّا.

وإلى جانب هذه المواهب، نعمت تلك الطفلة بسجوّ النفس، وطهر الجسد، فلم تشاهَد قطّ، غاضبةً، ولم يُسمَع لها صراخٌ، بل كانت، دائمًا، هادئةً، وديعةً، ودودةً، ومصدر فرحٍ وبهجةٍ لذويها ولجيرانهم، الذين كانوا يتخاطفونها. مجرّد رؤية طلعتها البريئة كان يسيل البهجة إلى القلوب، وكانت إيماءاتها البريئة، وألفاظها الخجول، وألق الطهر منقطع النظير، المنبعث منها، تشيع فتنةً لا تُقاوَم، وتحدث تأثيرًا قدسيًّا في محيطها. وقد تعاظم هذا التأثير وتكثّف ذلك الألق، بعد أن جعلت منها الآلام الفدائيّة، وسمات الصلب، صورةً للفادي.

منذ طراوة عودها، نمت لديها نـــزعةٌ إلى حرمان ذاتها في سبيل الآخرين، حبًّا بالله، مؤثرةً الفقراء من أترابها الذين كانت تتنازل لهم عمّا تشتهيه، وعن الزهيد الذي تحصل عليه. وكانت تختار لنفسها، من طعام أُسرتها، الأقلّ استساغةً، وتقتصر على الضئيل الزهيد حتّى بات ذووها يتساءلون كيف لها، مع ذلك، أن تظلّ على قيد الحياة. أمّا هي، فكانت، في سريرة نفسها، تخاطب الله قائلةً: "أُعطيك يا إلهي ما أتخلّى عنه كي تجود به على من هم أشدّ منّي عوزًا".

وكانت قد علّقت في زاويةٍ من الكوخ الوالديّ صورةً للسيّدة العذراء ويسوع الطفل، ووضعت تحتها خشبةً، بمثابة هيكلٍ، كانت تزيّنه بكلّ ما تُهداه من دمى وحلوى، ومن هناتٍ صغيرةٍ يسعد بها الأطفال، وبذلك ازدادت تمرّسًا بالتضحية إكرامًا للربّ. ويبدو أن إخوةً لها ورفاقًا لحظوا ذلك، فدأبوا على سلب تقادمها، في غيابها، فكان يُخيّل إليها أنّ يسوع هو الذي استلطف تقادمها وأخذها، وتستمدّ من تلك الخاطرة سعادةً طاغيةً.

هذه الاستعدادات السامية، منذ صغرها، ألهمتها، وهي في الثالثة من العمر، هذه الصلاة:

"يا ربي المحبوب، إجعلني أموت الآن، لأنّ الإنسان الذي يكبر يهينك بخطايا كبيرة!"

منذ طفولتها، إذن، استأثر الفقراء والمحتاجون والمتألّمون بكلّ حبّها، واحتلّوا مكان الصدارة من عواطفها. فكانت، كلّما التقت فقيرًا، تستوقفه وتجري إلى بيت ذويها، وتعود إليه بخبزٍ وطعامٍ. وللأطفال المجايلين لها كانت تتبرّع ببعض ثيابها.

وكلّما صدفت ولدًا سيّئ السلوك، كانت تلتمس من الله إصلاحه، وتُلزم نفسها بغفّارةٍ كي يُستجاب ملتمسها، وتتطوّع للتكفير عن أخطائه. وقد أقرّت، لاحقًا بهذا الشأن:

"تراءى لي أنّ الآلام غالبًا ما تبهظ بعضنا، لأنّ لا أحد يرضى بوفاء دينه لله. فسألت الله أن يتيح لي أداء دين بعضٍ منهم، والتمست من يسوع الطفل مؤازرتي على القيام بهذه المهمّة، وكنت أتلقّى، في الحال، قسطي من الآلام".

ولكم من ناسٍ أُعتقوا من مِحنهم الجسديّة والروحيّة بفضل استعارة "أنّا كاتارينا" لشدائدهم!

وكان والدها يستصحبها، غالبًا، إلى "كوسفيلد"، لابتياع حاجيّاته من بائعٍ يهوديٍّ. وكانت تشفق على ذلك الرجل الذي أوصد نفسه دون الخلاص. وصرّحت في هذا السياق:

"لم أكن أتمالك نفسي من البكاء المرير، بسبب تحجّر نفوس اليهود الذين أفسدتهم الفرّيسيّة. أوجعني عمى بصيرتهم. لقد امتلكوا، قديمًا، بذرة الخلاص، ولكنّهم لم يجنوا ثمارها، ونبذوها، والآن، أقلعوا عن نشدانها".

ومن العادات الحميدة التي تمرّست بها منذ سنوات طفولتها، اقتطاع ساعاتٍ طويلةٍ من نومها وراحتها، وإنفاقها على الصلاة. فمنذ سنّ الخامسة، كانت، حالما يستسلم ذووها للكرى، تنهض من فراشها، وتسترسل في الصلاة حتّى انبلاج الفجر. وفي الليالي الصاحية كانت تتسلّل إلى حقلٍ بجوار البيت، وتنتقي مرتفعًا – لأنّه أقرب إلى الله – وتركع، وتبسط ذراعيها، وتشخص بعينيها إلى كنيسة "كوسفيلد"، وتغوص في حوارٍ مع الله. من المحقّق أنّ هذه الممارسات لم تكن سهلةً عليها. فمقاومة الاحتياجات

الطبيعيّة إلى قسطٍ وافٍ من النوم والطعام، كانت تكلّفها جهودًا وتضحياتٍ، وجواري دموعٍ، ومع ذلك كانت تقدم عليها، إكرامًا ليسوع، طوعًا، بل بفرحٍ، وبعونٍ سماويٍّ كان يواكبها، خطوةً خطوةً، على درب السموّ والقداسة. وكانت، في سبيل التغلّب على سطوة النعاس، تدسُّ أخشابًا وعِصيًّا في فراشها، وتتمنطق بأحزمةٍ مليئةٍ بعقدٍ كبيرةٍ، تعقدها بيدها. وقد راقت هذه الجهود ودوافعها لله، فكافأها بتحريرها من الحاجة إلى النوم والطعام، سحابة حياتها.

ومن ثمّ استطاع معرّفها الروحيّ أن يصرّح: "منذ سنّ السادسة، لم تعرف "أنّا كاتارينا" فرحًا، إلاّ في الله. الأمر الوحيد الذي كان يوجعها ويحزنها هو أن يهين البشر هذا الإله الفيّاض عطفًا. ومذ شرعت تمارس التجرّد والتضحية، استعر في قلبها حبٌّ لله من الاضطرام بحيث غالبًا ما طلبتْ في صلواتها: "حتّى إن لم يكن وجودٌ للسماء والجحيم والمطهر، فأنا أودّ، مع ذلك، أن أحبّك، يا إلهي، من كلّ قلبي، وفوق كلّ شيءٍ".

رؤاها

تجلّت موهبة الرؤى لديها، منذ طفولتها، إذ كان يطيب لوالدها، كلّما عاد من عمله مساءً، أن يجلس إلى جانب الموقد، ويضع ابنته على ركبتيه، ويطلب منها أن تروي له شيئًا. فتسترسل "أنّا كاتارينا" في وصف أحداث العهد القديم، وأماكنها بالتفصيل، ويدهش والدها ويستوضحها عمّن علّمها ما ترويه، فتجيبه: "هكذا أنا رأيتها" فيسكت الوالد، وينصت صامتًا، مذرّفًا الدموع.

كانت الرؤى توافيها وهي مستيقظةٌ، منصرفةٌ إلى اهتماماتها المختلفة، وفي كلّ وضعٍ. وهي كانت، في سذاجتها وبراءتها، تظنّ أن جميع أترابها يرون ما هي تراه، في حين لم يكن هؤلاء يعرفون سوى ما يعلّمهم المدرّسون، وبالتالي ما لبثوا أن بلّغوا المدرّسين أنّها تروي رواياتٍ تتباين مع ما هم تعلّموه، فمُنعت من الاستمرار في سرد رؤاها. واتّفق، يومًا، أن استمعت "أنّا كاتارينا"، مع ذويها، إلى ناسكٍ ادّعى أنّه سافر إلى روما وأورشليم، وأسهب في وصف تينك المدينتين، مختلقًا صورًا

ولوحاتٍ من نسج خياله، لا تمتّ إلى الواقع بصلة. فلم تتمالك الطفلة الرائية من التصدّي له، ومعارضته، وحتّى وصفه بالكذب. فأُحرج ذووها وأنّبوها، ومنذئذٍ أمست أكثر تحفّظًا. وفي نوبةٍ أُخرى، روت أحداث قيامة الربّ كما رأتها، فامتعض المعلّم، إذ إنّ روايته لهذا الحدث كانت أكثر إيجازًا، وأقلّ إلمامًا بالتفاصيل، فأمرها بالصمت. ومنذئذٍ أضحت أقلّ استرسالاً في سرد رؤاها أمام الغرباء. غير أنّ وتيرة رؤاها استمرّت، وظلّت تزوّدها بالوقائع التي يقوم عليها تاريخ الإيمان المسيحيّ.

وفضلاً عن الرؤى أُعطيت "أنّا كاتارينا" أن تحيا مع الأبرار والقدّيسين والنسّاك القدامى، وتشاركهم نسكهم وزهدهم وصلواتهم، وصمتهم، وتأمّلاتهم، وحتّى بعض أعمالهم مثل حياكة الأنسجة الخشنة، وجدل السلاسل والحصر، والتضحيات الكفيلة بفصلها فصلاً تامًّا عن الخلائق، والاتّحاد الوثيق بالله. وبين أكثر من عقدت معهم علاقاتٍ وثيقةً، واتّخذت منهم نماذج وحذت حذوهم، القدّيسون بولس وانطونيوس، وباخوم وهيلاريون. وكانت تحيا في أُلفةٍ عذبةٍ مع يواكيم وحنّة وإيليصابات. وكانت تتابع، في رؤاها، سلسلة تاريخ الفداء، بكلّ حلقاتها، بدءًا بالعهد القديم، والنبوءات الممهّدة لمجيء المسيح، حتّى تجسّد ابن الله، وفدائه المضرّج بالدم الإلهيّ، وبتأسيس الكنيسة ومسيرتها. وكان الله هو دليلها، والمرشد الذي يساعدها على استيعاب أكثر الأسرار صعوبة فهمٍ. وهذا الإدراك كان يؤهّلها لتقييم غنى رؤاها اللامحدود، ولإقامة تناغمٍ بين تأمّلاتها وانخطافاتها وسلوكها اليوميّ. فكانت تستغرق مدى أيّامٍ كاملةٍ، في تأمّلٍ عميقٍ، وذهنها في غربةٍ عن العالم الخارجيّ. ومع ذلك كانت تؤدّي كلّ المهامّ المطلوبة منها بسرعةٍ ودقّةٍ، كما لو كان ذهنها محصورًا بهذه المهامّ فقط.

هذه الرؤى ملأت سني صباها، إلى أن ارتأى الربّ استخدامها لدحض البدع التي شاعت في تلك الحقبة، والتي دفعت مطلقيها إلى إنكار وجود الوحي الإلهيّ، وأسرار التجسّد والفداء، وانتهى بهم الإلحاد إلى الكفر والتجديف، وشتم الربّ

والأنبياء، والرسل وقدّيسي الكنيسة، وتمكّن مكرهم من استجرار كهنةٍ ضالّين إلى صفوفهم. فوهبها الربّ نعمة استقراء مسيرة الفداء وأسراره، وتمعّنها. ودعاها إلى إعلان وتمجيد تدابير الله الخفيّة، بقلبٍ يفيض طهرًا، ويخفق حبًّا مضطرمًا، تعويضًا عن عقوق الملحدين وإهاناتهم.

وقد حظاها الله بامتيازاتٍ نادرةٍ، فاستطاعت القراءة بمجرّد فتحها كتابًا، وأتقنت الأعمال اليدويّة قبل أن تتعلّمها أو تختبرها. وكلّ ما كانت تلمسه أو تباشر عمله كان يتحوّل برَكةً، ويُذهل محيطها. فتلك الفتاة الهزيلة كانت تكبّ على أعمالٍ شاقّةٍ تفوق طاقاتها، وتنجزها بنجاحٍ وإتقانٍ. وكان الجميع يكبرون فيها سجوّ نفسها، وخشوعها الداخليّ، ويحترمون صمتها. وقد اعترفت: "في طفولتي، كنت، دائمًا، غارقةً في الله، مأخوذةً به. كنت أعمل كلّ ما يترتّب عليّ عملهُ، وأنا مغتربةٌ عن الواقع، ومستغرقةٌ في التأمّل. وعندما كنت أرافق ذويّ إلى الحقل، أو أنكبّ على أيّ عملٍ، كنت خارج نطاق الأرض...".

ولم يقتصر المعلّم الإلهيّ على تدريبها وتثقيفها بواسطة الرؤى والإيحاءات، بل كان يستخدم، أيضًا، وسائل ملموسة، ويسير معها خطوةً خطوةً، على دروب الكمال والتوافق التامّ معه. فيظهر لها، تارةً، بهيئة ولدٍ حاملٍ صليبًا على منكبيه، وبمعزلٍ عن أيّ كلامٍ يُضرم فيها مشاعر التأثّر والتعاطف، فتهرع إلى حمل خشبةٍ ثقيلةٍ على كتفها، بقدر ما تقوى قواها على الاحتمال؛ وتارةً أُخرى يظهر لها باكيًا من جرّاء إهاناتٍ يُلحقها به أولادٌ وقحون، عاقّون؛ فكان هذا المشهد يدفعها، غالبًا، إلى الارتماء فوق الأشواك والقرّاص، تكفيرًا عن ذنوب الآخرين. وعندما كانت تؤدّي طقس درب الصليب، كان الربّ يوافي ويلقي صليبه على كتفها. ولّما كانت، في الخامسة من عمرها، ترعى أبقار ذويها، كان يزورها بهيئة ولدٍ راغبٍ في مساعدة أترابه ومواكبتهم، ويعلّمها، بالقول وبالفعل، كيف ينبغي أن يستهدف كلّ عملٍ محبّةً لله، وتصويب حتّى مسرّات الأطفال وعبثهم، نحو السماء.

ولأنّا كاتارينا، في هذا السياق، حكايا طريفةٌ، فهي تروي مثلاً: "عندما كنت صغيرةً، كان الصبيّ الصغير يشاركني العمل. وفي العاشرة من عمري علمت أن أخًا لي سيولد قريبًا. ورغبت في صنع أيّ شيءٍ يفيده، ويسعد أُمّي. ولكن لم يكن لي، آنذاك، بالخياطة معرفةٌ ولا خبرةٌ. فجاءني الصبيّ الصغير، وعلّمني كلّ شيءٍ، وساعدني على صنع طاقيّةٍ وأشياء أُخرى للطفل. ودهشت أمّي لتمكّني من صنعها، وتقبّلتْها بسرورٍ، واستخدمتْها".

وتروي "أنّا كاتارينا"، أيضًا: "لّما كنت أرعى الأبقار، كان الصبيّ الصغير يأتيني، ويجعل الأبقار ترعى بحالها، ونتبادل، نحن الاثنين، أمتع الأحاديث، ونعقد العزم على خدمة الله ومحبّة يسوع، موقنين أنّنا دائمًا تحت أنظار الله. كنّا غالبًا معًا، ومن ثمّ لم يكن يستحيل علينا أمرٌ. فنتحادث، ونصنع طواقي وجوارب للأولاد الفقراء. كنت أستطيع فعل كلّ ما أريد فعله، وأحصل على كلّ ما أحتاج إليه، وكان يُخيّل إليّ أنّي أنا من يفعل كلّ شيءٍ، في حين أنّ الصبيّ الصغير هو الذي يفعل كلّ شيءٍ".

ولم تكن "أنّا كاتارينا" الصغيرة تحتفظ لنفسها بكلّ هذه الإرشادات والنعم، بل كانت تُشرك أترابها بها، فتحدّثهم بأسلوب جذّابٍ، عن وجود الله، وعن يسوع الطفل، وعن الملاك الحارس. وكان رفاقها يسعدون بالإصغاء إليها، وتنفذ أقوالها إلى أعماقهم. وكانت، كلّما جالوا، معًا، في الحقول، تحرّضهم على السلوك وكأنّ ملائكتهم يرافقونهم، وكأنّ يسوع بين ظهرانيهم، فعليهم أن يمثّلوا السماء على الأرض، ويمتنعوا عن كلّ فعلٍ شائنٍ، ويحرصوا على منع الأعمال الخاطئة والشرّيرة، ويسعوا إلى تغيير العالم، حتّى تضحي الأرض صورةً للسماء.

وعندما كانت تلعب مع أترابها في أمكنةٍ يتوفّر فيها طينٌ صلصاليٌّ، كانت تصنع به مجسّماتٍ صغيرةً للجلجلة، ولبستان الأريماثيّ، حيث دُفن يسوع، كما رأتها، مؤكّدةً أنّها تعرف كلّ أزقّة أورشليم وتفاصيلها ودقائقها، مثل معرفتها لقريتها، وكوخ ذويها.

وكانت قد رأت المعمدان، طفلاً، في الصحراء، فغدت تنتابها، أحيانًا، الرغبة في اللعب معه، والتحدّث إليه، فكان يحضر مرتديًا جلد خروفٍ، ومسلّحًا بعصاه الصغيرة، ويدعوها إلى التمثّل بفضائل البساطة والطهر، التي تمرّس هو بها، والتي جعلته مرضيًّا في عيني الله. وكانت تعقد مثل هذه العلاقات المقدّسة مع العديد من شخصيّات العهدين القديم والجديد، وبخاصّةٍ مع أفراد العيلة المقدّسة الذين واكبت، روحيًّا، كلّ مسيراتهم، وألّمت بأدقّ تفاصيلها.

وكان حبّها المضطرم لأمّ الله يحملها على فعل ما كان من شأنها فعله لو كانت، واقعيًّا، معاصرةً لها، ومواكبةً لحياتها. فعندما شارف عيد الميلاد، على سبيل المثال، كانت تُعدّ طعامًا وشرابًا للمسافرين المتعبين، وترقد على الأرض، كي يبقى سريرها جاهزًا لترتاح عليه السيّدة العذراء، وكانت تشعل نارًا كي تقيها من البرد وتمكّنها من طهو طعامها، وتحتفظ بمدّخراتها الهزيلة كي تقدّمها لها، وقد ظلّت مثابرةً على هذه الممارسات التقويّة إلى أن دخلت الدير وقيّد النظام العام تحرّكاتها.

هذه العلاقات المرهفة، الرقيقة، مع الله وقدّيسيه كانت تروي في قلبها الطفوليّ ظمأً متلظّيًا إلى الطهر والتوبة، لم يكن يرويه سوى التجرّد والألم.. وكانت تأمّلاتها ورؤاها المقدّسة تغذّي نفسها، وتنمّي فيها كلفًا طاغيًا بكلّ ما هو نقيٌّ، وبريءٌ، ومقدّسٌ، ونفورًا من كلّ ما يحمل لوثة الخطيئة والفساد والدنس، ومن كلّ العيوب والنقائص.

وقد أقرّ معرّفها أنّها لم تقترف، قطّ، ولو خطيئةً طفيفةً، في ما يتعلّق بالطهارة، حتّى بالفكر. واعترفت هي ذاتها أنّ نفورها من الميول الدنسة كان فطريًّا لديها، وقد رسّخته رؤاها التي بيّنت لها مقت الربّ والعذراء لكلّ مظاهر الفسق والشهوات، وشجبهما للخطايا المرتكبة في هذا المجال. وقد ساعدتها ممارسة قمع الذات التي تمرّست بها منذ صباها، ومقاومة الميول الجسديّة، منذ طراوة عودها، على اجتثاث الأهواء الوبيلة من جذورها.

وبالإجمال، على غرار صوفيّاتٍ قدّيساتٍ شهيراتٍ، وُجدت تلك الفتاة لكي

تُعتَق من سطوة الشهوات الجسديّة، ولكي تطهّر في أتون المحبّة، وتلتهب بحبّ الله والقريب. وكانت وطيدة الثبات في هذه الدعوة، بحيث لم تقوَ وسوسات الشرّير على زعزعتها، ولا استطاعت توثّبات الكبرياء خضّها، وعجز منخس الجسد على إثارتها. وبسكناها جسدًا في مثل نقاء الزنبق، لا يخضع لأيّة شريعةٍ سوى تلك التي تجعل منه خاصّة الربّ الحصريّة، وهيكلاً له نقيًّا، تأهّلت لتلقّي ملء أنوار السماء.

نشأتها في البيت الوالدي

لقد أعدّت العناية الإلهيّة البيئة الكفيلة بوقاية ذلك الكنـــز الروحيّ الثمين، وتلك الأداة الفدائيّة المختارة، وتأهيلها للمهمّة التي انتُدبت لها. فقد وُلدت "أنّا كاتارينا" في أحضان والدَين شديديْ الورع، والامتثال لمشيئة الله، يستعينان على الفقر المادّيّ ببركة الله التي تملأ نفسيهما رضًى.

اندرجت طفولة "أنّا كاتارينا" في أُسرةٍ وفيّة الالتزام بالمقتضيات والأخلاق المسيحيّة. وقد وفّر لها هذا الالتزام الصارم التربية الفضلى التي أعدّتها خير إعدادٍ لدعوتها، ولمواهبها الاستثنائيّة. وكان يطيب لها أن تروي ذكريات طفولتها، فتقول، على سبيل المثال: "كان والدي مغرقًا في الورع والاستقامة. كان جادًّا، بمنأًى عن الحزن والكآبة. وكان فقره يقتضي منه الكثير من الجهد، ولكنّه كان متحرّرًا من الجشع، وبثقةٍ طفوليّةٍ كان يوكل كلّ شيءٍ إلى الله، وينجز أعماله الشاقّة، مثل خادمٍ أمينٍ، بلا قلقٍ، ولا مطالبة بجزاءٍ. ومثلما كان دؤوبًا على العمل، ألزمني بالعمل منذ طفولتي، فكان عليّ أن أنهض منذ الفجر، لكي آتيه، من الحقل، بالحصان الذي كان شرسًا، يرفس، ويعضّ، ويهرب غالبًا من قبضة والدي، ولكنّه كان يسلس لي القياد، لا بل كان، أحيانًا، هو الذي يجري نحوي. وفي أحيانٍ كثيرةٍ، كنت أرتقي صخرةً أو مرتفعًا. وأمتطيه، وأعود به إلى البيت. وإن خطر له أن يدير رأسه نحوي محاولاً عضّي، كنت أضربه على خيشومه، فيتابع طريقه بهدوءٍ إلى البيت.

وعندما كان والدي يستصحبني إلى الحقول، في الصباح الباكر، مع إشراقة

الشمس. كان ينـــزع قبّعته ويصلّي، مخاطبًا الله الذي يُطلع شمسه علينا. وكان يمقت أن تجدنا الشمس المشرقة في سريرنا راقدين، ويعدّ ذلك مدعاة خراب بيوتٍ، وأُسَرٍ، وبلدانٍ بكاملها. وقد اعترضتُ مرّةً بقولي: "لا شأن لي، أنا، بذلك، فالشمس لا تنفذ إلى سريري". ولكنّه أجابني بصرامةٍ: "حتّى إن لم تشهدي أنت الشمس وهي تشرق، إلاّ أنّها، هي، ترى كلّ شيءٍ، وتتألّق في كلّ مكانٍ". وقد فتح لي قوله هذا أُفقًا واسعًا للتفكير.

"وقد خرجنا، يومًا قبل انبلاج النهار، فقال لي أبي: "انظري، لم يسرِْ بعدُ أحدٌ في الندى. نحن الأوائل. وإذا صلّينا بخشوعٍ، فسنستجلب البركات على الأرض والحقول. ما أحلى السير، والندى بكرٌ لم يمسَّه أحدٌ! إنّ في ذلك بركةً نديّةً، إذ لم تُرتكَب، بعدُ، أيّة خطيئة في الحقول، ولم يُتفوّه، بعدُ، بقولٍ بذيءٍ، سيّئٍ. أمّا الخروج بعد أن يكون الناس قد داسوا الندى بأقدامهم، في كلّ مكانٍ، فحينئذٍ يبدو أنّ القذارة غمرت وأفسدت كلّ شيءٍ.

وكان والدها، في طريق عودتهما إلى البيت، يتوقّف ويقول لها: "ما أجمل ما نرى! انظري إلى كنيسة "كوسفيلد" إزاءنا، حيث يقيم الربّ، وحيث يسعنا عبادته. وهو من جهته يرانا، ويبارك عملنا". وفي أثناء الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، كان يتابعها، من بعيدٍ، عن كثبٍ، وهو يعمل، ويعلن في كلّ لحظةٍ، توالي مراحلها، ويشارك الكاهن والمحتفلين، بعض الصلوات والتراتيل، ويرسم باطّرادٍ إشارة الصليب. ولطالما قال: "يتكلّم الناس، بدهشةٍ، عن عجائب، مع أنّنا لا نعيش إلا بالعجائب، وبنعمة الله. انظري إلى حبّة القمح الصغيرة المدفونة في التراب، كيف ترسل ساقًا طويلةً، وتغلّ مئات أضعافها. أليست هذه أيضًا معجزةً باهرةً؟".

ومساء أيّام الآحاد، كان ذلك الوالد، بعد العشاء، يعيد على مسامع أبنائه عظة الكاهن ويفسّر نصّ إنجيل ذلك اليوم.

ومع كلّ معاناته من الأعمال الشاقّة، لم يكن يسهو عن دعوة أبنائه قبل

إخلادهم إلى النوم، إلى الصلاة من أجل المسافرين والجنود المساكين، والإخوة العمّال المهملين، وكان يلقّنهم هذه الصلوات.

ولم تكن الوالدة أقلّ ورعًا واستقامةً، والتزامًا بالسلوك المسيحيّ. لقد وضعت، في غضون إحدى وعشرين سنةً، تسعة أبناء، ولم تعهد للراحة طعمًا. ومع أنّ الأتعاب قد رسمت على محيّاها قسمات الوقار والتقشّف، إلاّ أنّها لم تسلب من قلبها كنوز الوداعة واللطف والدماثة حيال الجميع، لا بل كلّما تفاقمت مشقّاتها ومشقّات زوجها في سبيل تأمين أود العيلة الكبيرة، كان يتضاءل قلقها، ولا تجد اللامبالاة والشكوى إلى نفسها سبيلاً، إذ إنّها كانت تعتبر الأعمال الشاقّة والأتعاب نعمًا تُعِدّها لمكافأةٍ أبديّةٍ. أقوالها الأثيرة كانت: "فلتكن مشيئتك، يا ربّ، لا مشيئتنا"، "هبنا الصبر، يا ربّ، وحينئذٍ اضرب بقوّةٍ". وكانت لا تني تؤكّد للأطفال: "عندما تلعبون معًا، بتقوى، يكون الملائكة معكم، ويسوع الطفل، أيضًا". وكان لقولها هذا تأثيرٌ عميقٌ على سلوك الأولاد، ومن المؤكّد أنّه كان بليغ الأثر في نفس "أنّا كاتارينا"، التي حرصت، دائمًا، على أن تتّسم ألعابها مع إخوتها وأترابها بنبذ كلّ ابتذالٍ، وكلّ قولٍ بذيءٍ. وكانت في أثناء ذهابها وإيابها معهم، حريصةً على سبقهم أو التخلّف عنهم بضع خطواتٍ، لكيلا تسمح أو تشهد أيّ قولٍ أو فعلٍ يفتقران إلى النصاعة والورع. وكانت تقوم بكلّ ذلك، عملاً بإرشادات والدتها، التي أوصتها أيضًا بالصلاة، في أثناء سيرها. وكانت تُرفق تلك الصلوات بإشارات صليبٍ ترسمها على جبينها وفمها وصدرها، ولكأنّها توصد بها أبواب الفكر والفم والقلب دون كلّ قذرٍ، ثمّ تودع هذه المزاليج بين يدي يسوع الطفل.

ولم تلحظ تلك الفتاة، يومًا، في سيرة والديها، ما يخالف وصايا الكنيسة، لا بل هي تبيّنت، في كلّ حينٍ، أنّ العزاء الوحيد الذي كان يخفّف من عنائهما، كانا يستمدّانه من أعياد الكنيسة التي تسرّب إلى نفسيهما ورعًا بهيجًا.

ولطالما شاركت "أنّا كاتارينا" أخاها البكر الصلاة، ليلاً، راكعَيْن، باسطي

الذراعين. وقد وجد الوالدان أخاها ذاك، ذات ليلةٍ، راكعًا، باسطًا ذراعيه، وقد جمّده البرد. وكانا يحمدان الله على ما يشهدان في ابنتهما من مواهب استثنائيّةٍ، تجلّت باكرًا. ولكن لم يخطر لهما ببالٍ أن يتباهيا بها علنًا، ولم يميّزاها، في شيءٍ، عن سائر إخوتها وأخواتها، ولم يعفياها من أيّ عملٍ شاقٍّ، بل نظرًا لطاعتها، وتواضعها، وصمتها، كانا يؤثران إيكال هذه الأعمال إليها دون سواها، وهما واثقان أنّها لن تعترض، ولن تتذمّر، بل ستؤدّي عملها طوعًا، باندفاعٍ ومحبّةٍ وإتقانٍ. ولم تكن والدتها تتوانى عن توبيخها أصرم توبيخٍ، كلّما لم تستسغْ أيّ عملٍ من أعمالها، غير أنّ والدها كان يشعر بارتياحٍ إليها أكثر من سائر أولاده. وكان وجودها إلى جانبه، وهو يعمل، يسرّب إلى نفسه الفرح والرضى. فما تميّزت به من طاعةٍ وفطنةٍ ووضوح رؤيةٍ، كان يملأ قلبه حبورًا، ويضرم رغبته في وجودها دائمًا على مقربةٍ منه، مشيعةً في نفسه بهجتها المتدفّقة من فيض براءتها واتّصالها الدائم بساكني السماء. ولا ريب أنّ جرس صوتها الفضّيّ، وحديثها الممتع الذي يعكس حيويّة فكرها، وتناولها ببساطةٍ ووضوحٍ أُمورًا عميقةً، صعبة الاستيعاب، كانت تضفي على وجودها مزيدًا من بواعث الارتياح، ولا سيّما أنّها كانت تغلّف مواهبها الاستثنائيّة، وخصالها الباهرة، بتواضعها السحيق، وبساطتها العذبة.

مواقفها هذه كانت تفرض على الجميع محبّتها والانجذاب إليها، ولكنّها، هي، كانت حريصةً على ألاّ تفسح لأحدٍ فرصة التعبير عن إعجابه بها. وقد جعلت منها طيبتها، ومبادراتها إلى مدّ يد الغوث لكلّ محتاجٍ، ملجأً ومرجعًا لكلّ طالب عونٍ أو نصحٍ. كان جميع المحيقين بها من ذوي قرباها ومعارفها وجيرانها يستنشقون منها أريج نبتة إكليل الجبل التي تعطّر أجواء حقولهم، وتزوّد طعامهم بنكهةٍ طيّبةٍ. ومن ذكريات طفولتها ما روته بنفسها: "منذ صغري كان الجيران يقصدونني لكي أُضمّد جراحهم من كلّ لونٍ، لأنّني كنت أقوم بهذه المهمّة بلطفٍ وعنايةٍ، ولأنّني كنت ماهرةً في هذا المجال. لدى رؤيتي دمّلاً، كنت أقول في نفسي إنّني إن عصرته لربّما أصبح أسوأ حالاً، ومع ذلك لا بدّ من إفراغه من القيح، فكنت أعكف على

امتصاصه، فيبرأ في الحال. لم يعلّمني أحدٌ فعل ذلك، بل دفعتني إليه رغبتي في الخدمة. بادئ الأمر اعتراني شعورٌ بالقرف، ولكنّ القرف دفعني إلى التغلّب على ذاتي وعلى نفوري المخالف للتعاطف الحقّ. وسرعان ما تخطّيت القرف، فامتلأتُ فرحًا وتأثّرًا، إذ كنت أتمثّل بربّنا الذي فعل ذلك للجنس البشريّ بأجمعه".

ولوحظت تحوّلاتٌ جوهريّةٌ تطرأ على ملامحها، فيتحوّل لون وجهها الزهريّ إلى شاحبٍ مريعٍ، ويخبو ألق عينيها حتّى لا يكاد يتعرّفها أحدٌ، وتنتقل فجأةً من بهجةٍ ساذجةٍ إلى جدٍّ رزينٍ، ويطوف حزنٌ هاصرٌ على جبينها، غير أنّها كانت تلتزم صمتًا مطبقًا، وتأبى الإفصاح عن علّة تلك التحوّلات الغريبة المباغتة، والتي كانت تنبع من رؤاها الداخليّة لمناظر بؤسٍ وآلامٍ تنـــزل بآخرين، ولا يراها سواها. وكان الغمّ يستحوذ على كلّ مشاعرها لمجرّد تنامي خبر حادثٍ موجعٍ ألمّ بمن لا معرفة لها بهم، وتستبدّ بها الرغبة في الجري إليهم وإغاثتهم وتقدمة ذاتها ضحيّة فداءً عنهم. وفضلاً عن ذلك، كان مجرّد ذكر اسم الله أو أحد القدّيسين يخطفها من أجواء الأرض إلى ربوع الروح، ويعطّل كلّ شعورٍ لها بما يحيق بها.

هذه التحوّلات المباغتة كانت تقلق ذويها الذين استغلقت عليهم أسبابها. فكان انتقالها من حالٍ إلى حالٍ، يثير لدى والدتها تساؤلاتٍ تنقلب، غالبًا، غضبًا، إذ كانت تظنّها نـــزواتٍ وألاعيب ولاّديّةً، فتنحي عليها بأقسى لومٍ، وتفرض عليها، أحيانًا، عقاباتٍ صارمةً. في حين كان ما تنفرد به تلك الفتاة المختارة من تعاطفٍ مع آلام الآخرين ومِحَنهم، يدمي قلبها في الصميم، ويسلبها حتّى قدرة الوقوف على قدميها.

وكانت "أنّا كاتارينا" تتلقّى اللوم والتأنيب والعقاب بوداعةٍ واستسلامٍ، حتّى يخيّل لوالدتها أنّها فقدت عقلها. عاملان كانا يساعدانها على احتمال عقاب والدتها، وظنونها الظالمة فيها: أوّلهما يقينها باستحقاق العقاب والمهانة، وثانيهما دعوة ملاكها لها كي تتسلّح بالصبر والتواضع. وقد أقرّت، في هذا السياق: "في صغري، غالبًا ما كان والداي يوسعاني تأنيبًا، فيما كنتُ أسمع والدَي آخرين

يسهبون في امتداح أبنائهم، حتّى تولاّني ظنٌّ بأنّني أسوأ أولاد الأرض طرًّا. وخالجني ظنٌّ بأنّ الله غير راضٍ عنّي. ولكن اتّفق لي، بعدئذٍ، أن شاهدت أولادًا يمتدحهم آباؤهم، وهم يسيئون معاملة والديهم، ومع أنّ ذلك أحزنني إلاّ أنّه هدّأ روعي، وأعاد لي ثقتي بسلامة علاقتي بالله..."

وكانت "أنّا كاتارينا" الصغيرة مرهفة الإحساس، رقيقة القلب، تحرجها ألف هفوةٍ لا يفطن إليها الآخرون، وكانت، بفطرتها، ميّالةً إلى الاستقلال، وبالتالي كان عليها خوض معارك شاقّةٍ على ذاتها، في سبيل اكتساب فضائل الطاعة، والصبر، والتواضع. وقد دفعتها إلى خوض هذه المعارك غيرتُها الملتهبة في سبيل مجد الله، وخلاص الآخرين. وقد أثمر نضالها وداعةً قائمةً على إغفال الذات، وطاعةً متواضعةً راسخةً مستمدّةً من دأبٍ على وأد كلّ نـــزعةٍ إلى المقاومة في مهدها، فاستطاعت القول: "كانت الطاعة قوّتي وعزائي. بفضلها اتّسمت صلاتي بالفرح، ونال قلبي الحرّيّة، وتوثّقت علاقتي بالله". فهي قد عدّت نفسها أدنى الخلائق، وتوطّد فيها هذا الشعور الذي قاد مسرى حياتها، داخليًّا وخارجيًّا. ولم يكن ملاكها يتغاضى عن أيّة هفوةٍ، بل كان يؤنّبها، ويفرض عليها كفّاراتٍ موجعةً.

وقد ولّد ذلك فيها مفارقةً نادرةً: فكانت تدين نفسها بقسوةٍ على أدنى الزلاّت، وتعاقب ذاتها بصرامةٍ، فيما كان قلبها يطفح عطفًا وصفحًا حيال الآخرين. فلمّا كانت في الخامسة من عمرها. شاهدت تفّاحةً ساقطةً في حديقة جيرانها، واشتهتها، ولكن ما كادت هذه الشهوة تلامس ذهنها حتّى انتابها ندمٌ جادٌّ. وفي نوبةٍ أُخرى، اعتراها شعور مقتٍ حيال امرأةٍ قرويّةٍ قالت في ذويها قولاً منكرًا وباطلاً، فوطّنت العزم على الإحجام عن تحيّتها عندما تصدفها في طريقها. ونفّذت، مرّةً، عزمها هذا، على مضضٍ، ولكن سرعان ما انتابها ندمٌ هاصرٌ، فعادت أدراجها واعتذرت للمرأة عن وقاحتها.

وعندما شرعت تتقدّم إلى سرّ التوبة لم يكن ضميرها يعهد راحةً حتّى تبوح

لمعرّفها بكلّ هفوةٍ طفيفةٍ، متجنّبةً إخفاء أيّة هنةٍ، أو التقليل من شأنها، حتّى يفرض عليها المعرّف كفّارةً، ويهبها الغفران.

ومكافأةً لها على تحمّل الآلام طوعًا، أحلّ الله في نفسها تعاطفًا مع الحيوانات. فكانت العصافير تحطّ على كتفيها وراحتيها، فتلاطفها وتشاركها تغريداتها، وكانت تتأمّل بمتعةٍ وذهولٍ ألوان النباتات، وتستجلي فيها حنان الله وحكمته. وقد باحت في هذا الشأن: "في صغري، كانت كلّ ورقةٍ خضراء، وكلّ زهرةٍ صغيرةٍ، كتابًا أُطالعه، وأُدرك جمال كلّ الألوان والأشكال. ولكن عندما كنت أتحدّث عنها كانوا يسخرون منّي. وأثناء مسيري في البرّيّة كنت أتحدّث مع كلّ الأشياء. لقد وهبني الله حسًّا لفهم كلّ شيءٍ، ولاستجلاء مكنونات الزهور والحيوانات. وكم كان ذلك عذبًا!".

وقد روت أنّها، في صغرها، ابتليت بمرضٍ خطيرٍ جعل ذويها يخشون على حياتها، فجاءها صبيٌّ جميلٌ، وأرشدها إلى أعشابٍ نصحها باقتطافها وتناولها، فامتثلت لنصحه، وبرئت. ومنذئذٍ غدت مرجعًا لأولاد فقراء مصابين بجروحٍ كانت تضمّدها، أو بأوجاعٍ شتّى كانت تصف لها الدواء الشافي.

ومن جانبٍ آخر كانت ترى أنّ لأصوات أجراس الكنائس مفعول أشعّة بركةٍ، تُبطل، حيثما تصل، تأثير قوى الشرّ، وتخيف إبليس. فألسنتها البرونـــزيّة تدعو المؤمنين إلى الله، حيث تصمت أصوات الكهنة. وقد أقرّت في هذا الشأن: "أرى أنّ صوت الأجراس المباركة هو، جوهريًّا، أقدس، وأكثر فرحًا، وتحفيزًا، وعذوبةً، من كلّ الأصوات التي تبدو لي خرساء، مبهمةً، مقارنةً بها، حتّى إنّ صوت أرغن الكنيسة، إزاءها، يبدو أقلّ زخمًا وعظمةً".

وقد وُهبت، أيضًا، قدرة استيعاب معاني الصلوات باللغة اللاتينيّة، مع جهلها لتلك اللغة. وكانت تولي بركة الكهنة قدراتٍ كبرى. فكانت كلّما شعرت بمرور كاهنٍ تتخلّى عن كلّ شيءٍ، وتهرع إليه، التماسًا لبركته. وكانت تحمل، دائمًا،

فوق صدرها كيسًا صغيرًا يحتوي مطلع إنجيل القدّيس يوحنّا. وقد صرّحت: "منذ طفولتي، كان لي إنجيل القدّيس يوحنّا منبع قوّةٍ، وسلاحًا. وكلّما انتابني خوفٌ، أو داهمني خطرٌ، كنت أقول بثقةٍ وطيدةٍ: "صار الكلمة جسدًا، وسكن ما بيننا..."

ومثلما كانت تتحسّس الأماكن والأشياء المقدّسة كان ينتابها شعورٌ بالنفور والخشية من أماكن تنطوي على آثار خطايا وجرائم دفينةٍ. وقد أقرّت في هذا الشأن: "غالبًا ما يصعب عليّ فهم كيف يتعذّر على كثيرين التمييز بين ما هو مقدّسٌ، وما هو دنيويٌّ، بين المؤمن والملحد، بين الطاهر والملوّث، فهم لا يرون، من كلّ شيءٍ سوى ظاهره ولونه. وأنا أرى ما هو مباركٌ ومقدّسٌ، مضيئًا، مشعًّا، شافيًا، معينًا، وما هو دنيويٌّ أو ملعونٌ أراه معتمًا يشيع الظلمة والفساد..."

"أنّا كاتارينا"، تنال أسرار التوبة والإفخارستيّا

في نحو السابعة من عمرها، توجّهت الفتاة، للمرّة الأولى، مع أولادٍ آخرين، إلى كرسيّ الاعتراف في "كوسفيلد". وكان ندمها على ما اقترفت من هفواتٍ يرين عليها بثقلٍ أوهى جسمها، وجعلها عاجزةً عن مواصلة السير إلى الكنيسة، فاضطرّ رفاقها الذين كانوا يكنّون لها حبًّا صافيًا، إلى حملها حتّى الكنيسة. أكثر ما كان يقلقها، رؤاها التي عدّها الآخرون، وحتى بعض ذويها، تخيّلاتٍ باطلةً، وتشويشًا للضمائر، وخزعبلاتٍ تحاول التميّز بها. وكانت والدتها، على وجهٍ خاصٍّ، لا تني تؤنّبها، بسببها؛ ولذلك عزمت على سردها بكلّ صراحةٍ ووضوحٍ أمام الكاهن المعرّف، رغبةً في نصحه وتوجيهه. وهي، بذلك، وربّما على غير وعيٍ منها، كانت تضع المواهب الاستثنائيّة التي خصّها الله بها، تحت رقابة الكنيسة ورعايتها.

ومن جانبٍ آخر، كانت، منذ طراوة عودها، تقيم شأنًا ساميًا لأفعال المحبّة، وعملاً بنصيحة الإنجيل الداعية إلى تحويل الخدّ الأيسر لمن يصفع الخدّ الأيمن، كانت تحرص على إظهار مشاعر المحبّة لمن أهانها بأيّة وسيلةٍ. ولكنّها كانت تحمل، في داخلها، جرحًا موجعًا، لأنّها ردّت، يومًا، على ولدٍ أساء إليها، بقولٍ قاسٍ،

واعتبرت فعلها هذا خطيئةً مميتةً جسيمةً. وكانت تتمنّى، في سريرة نفسها، ألاّ يستصغر الكاهن المعرّف ثقل هذه الخطيئة، وأن يفرض عليها كفّارةً باهظةً. ولكن لّما قال لها الكاهن: "في سنّك لا تستطيعين ارتكاب خطيئةٍ مميتةٍ"، انفجرت بالبكاء حتّى اضطرّوا إلى انتزاعها من كرسيّ الاعتراف، منهارةً.

وكان والداها قد أعطياها، قبل إقدامها على الاعتراف، بضعة سنتيمات لكي تبتاع بها خبزًا أبيض كان يُعَدّ، آنذاك، الحلوى الأثيرة لدى الفقراء، ولكنّها تصدّقت بها على ولدٍ فقيرٍ، لكي يغفر لها الله ما كانت تظنّه خطايا جسيمةً. واستمرّ والداها في إعطائها بضعة سنتيمات لشراء خبزٍ أبيض كلّما قصدت كرسيّ الاعتراف، ولكنّها لم تكن تذوق لقمةً واحدةً من هذا الخبز، بل توزّعه كلّه على أفراد أسرتها.

ويروي والدها أنّه، فيما كان، يومًا، يُصلح منضدةً تخصّ جارًا، كانت هي إلى جانبه تجمع نفايات الخشب المتساقطة كي تشعل بها نار الموقد، ولاحظ أنّها تجمع فقط نفايات الخشب الجديد الذي جاء به والدها، دون سواه، فاستوضحها عن سبب فعلها هذا، وأجابت أنّ النفايات المتساقطة من الخشب الذي جاء هو به يحقّ لهم، أما النفايات الناجمة عن أخشاب الآخرين فهي للآخرين. وبُهت والدها من رهافة ضميرها، نادرة النظير.

وجديرٌ بالتنويه أنّها حرصت دائمًا على ألاّ تستعمل أيّ شيءٍ في المنـــزل إلا بعد موافقة والديها.

ومنذ سنواتها الأولى، كانت تنظر إلى القربان المقدّس نظرة تقديسٍ وعبادةٍ، وتتحرّق توقًا إلى تناوله. ولم تتحقّق لها هذه الرغبة إلاّ عند بلوغها سنّ الثانية عشرة. وقد تأهّبت لهذا الحدث، ولكأنّه الحدث الأهمّ في حياتها، فتحرّت بدقّةٍ مكامن ضميرها، خشية إغفال أو إخفاء أيّة هفوةٍ، والتمست مساعدة ذويها على هذا التحرّي، حرصًا منها على تقبّل الربّ بنفسٍ كاملة النقاء، لا تشوبها لوثةٌ. وفي ذلك اليوم الفريد، مضت إلى الكنيسة مغمضة العينين، لكي لا ينتزعها أيّ منظرٍ

من خشوعها. وكانت وطيدة العزم على تقديم نفسها بكلّيّتها لله، وبأجمل حلّةٍ، ووقف كلّ طاقات نفسها وجسدها على خدمته، والتضحية بذاتها في سبيل مجده وخلاص الآخرين.

وفي هذا السياق قال مرشدها الروحيّ: "يوم مناولتها الأولى، لم تسأل الله أمورًا كثيرةً، بل سألته، في المقام الأوّل، أن يجعل منها فتاةً صالحةً، على نحو ما يريدها الله أن تكون، ووهبته ذاتها كلّيّةً، وبلا تحفّظٍ".

وقد أضرم الحبّ الإلهيّ فيها غيرةً مقدّسةً دفعها في تيّارٍ من التضحية والتجرّد أشدّ صرامةً ممّا يفرضه أيّ نظامٍ نسكيٍّ، وذلك بمحض توجيه السماء، وبمعزلٍ عن أيّ إيعازٍ بشريٍّ. والمدهشُ أنّها مضت قدُمًا في هذا الدرب الوعر، لا بل توغّلت في شعابه ممعنةً، يومًا فيومًا، تجرّدًا، وتضحيةً، وزهدًا في كلّ مغريات العالم. وانتهت إلى اقتناعٍ بأنّه إن كان حبّ الخلائق يقود كثيرين إلى أعمالٍ مدهشةٍ، فكم بالأحرى يستطيع حبّ الله الإفضاء إلى ما هو أعظم!

وبالتالي اعتادت صرف نظرها عن كلّ رونقٍ يستهويها، وأصمّت أُذنيها عن كلّ ما قد يستأثر باهتمامها، وأمسكت لسانها عن قول ما قد ترغب في قوله، وكبحت فمها عن تناول كلّ طعامٍ تستسيغه، وقيّدت رجليها دون الذهاب إلى أيّ مكانٍ لا يدعوها إليه واجبٌ أو داعي المحبّة. وقد ألِفت أداء طقس درب الصليب حافية القدمين، ولم تضنّ على جسدها بأيّة إماتةٍ قاسيةٍ، واعتادت الرقاد على ألواحٍ خشبيّةٍ مصمّمةٍ على شكل صليب.

وكانت كلّما دنت من مخبأ قربانٍ، يهفو قلبها ويغمرها شعورٌ طاغٍ بسعادةٍ تنعكس حتّى على جسدها. وكان ملاكها يواكبها كلّما أمّت كنيسةً. وكان الربّ نفسه، في أثناء رؤاها، قد أظهر لها عظمة سرّ الإفخارستيّا وسموّه، ما ألهمها إجلالاً للكهنوت الكاثوليكيّ، الذي لم تكن ترى ما يضاهيه عظمةً وكرامةً. وبالتالي، كانت تحتمل طوعًا أشدّ الآلام ضراوةً، تكفيرًا عن خطايا الكهنة. وكلّما جثت أمام هيكلٍ كان يتعذّر عليها الإشاحة عنه، أو تحويل أنظارها إلى جانبٍ آخر، بل

كانت تنجذب إليه بكلّ كيانها، وتستغرق في حوارٍ معه، يأخذ بكلّ حواسّها. وإذ لم يكن يتيسّر لها المكوث في الكنائس بقدر ما ترغب وتشتهي، كانت، في صلواتها الفرديّة، تلتفت تلقائيًّا إلى أيّ جانبٍ تشعر فيه وجود مخبأ قربانٍ، في أيّة كنيسةٍ.

وكانت تقسم الوقت بين مناولتَيْن، إلى شطرين: أحدهما للشكر، والآخر تأهّبًا للمناولة التالية. ولا تنفكّ تتوسّل الله، بشفاعة يسوع ومريم العذراء، مساعدتها على إحسان إعداد نفسها، لتقبّل ابنه.

مكائد الشرّير

حالما امتلكت "أنّا كاتارينا" القدرة على مقاومة الشرّير، بعونٍ منيعٍ من الله، سُمح لإبليس بتجربتها، فالتغلّب على التجارب كفيلٌ بترسيخ قداستها. واستخدم إبليس كلّ وسائل مكره، لصرفها عن مسيرتها الدائبة نحو الكمال، ولكنّ كلّ مراوغاته باءت بفشلٍ ذريعٍ. فقد أزرت تلك الفتاة النحيلة بحيله، ومكره وقدراته التي استهلّها بتهديد سلامتها الجسديّة، ولكنّ الله كان يلقّنها درسًا قاسيًا، كلّما ضعفت واستسلمت لرغبةٍ طفيفةٍ، ويعلّمها التغلّب على كلّ شهوةٍ.

واشتدّت هجمات الشرّير شراسةً عندما شرعت الفتاة تنفق ساعات ليلها على الصلاة، ولا سيّما عندما كانت تصلّي من أجل توبة خطأةٍ أو إطلاق سراح نفوسٍ مطهريّةٍ، فكان الشرّير يجهد في إعاقتها وصرفها عن الصلاة بافتعال ضجيجٍ، وبعرض مشاهد مريعةٍ. وعندما أثبتت هذه المحاولات فشلها، لجأ إلى إيذائها جسديًّا، فغدت المسكينة تفاجأ بأيدٍ صقيعيّةٍ تحطّ عليها، وتجرّها برجليها، وتوقعها أرضًا، أو تقذفها في الهواء. ولكنّها في غمرة الرعب الذي ينتابها، كانت تصمد، وتواصل صلواتها بحرارةٍ مضاعفةٍ، وتجبر الشرّير على الانسحاب، جارًّا أذيال الخيبة. وكانت تتعمّد العودة إلى المكان الذي أوقعها فيه الشرّير أرضًا، ونكّل بها، كي تواصل صلاتها، متحدّيةً الشرّير، وقائلةً: "أيّها البائس، لن تنالَ منّي، ولن تمنعني من الصلاة... وكانت هجمات الشرّير تتجدّد، كلّما فرضت الفتاة على

نفسها أفعال توبةٍ وتكفيرٍ، ولكنّ الله كان يتداركها بغوثه، فيلهمها ما يتعيّن عليها فعله من أجل صدّ الشرّير، ويوفّر لها الدعم والعزاء، فيريها النفوس التي أفرج عنها المطهر، استجابةً لتوسّلاتها، والتي قدمت تعبّر لها عن شكرها وامتنانها.

وبما أنّها كانت، غالبًا، تمضي، ليلاً، للصلاة أمام صليبٍ خشبيٍّ بدائيّ الصنع، منصوبٍ في ساحة قريتها، ويفضي إليه دربٌ ضيّقٌ، عمد الشرير إلى مهاجمتها بهيئة وحشٍ مريعٍ، يشبه كلبًا ذا رأسٍ جسيمٍ، ويحاول إكراهها على التقهقر. للوهلة الأولى اقشعرّت رعبًا، وخطت بضع خطواتٍ إلى الوراء، ولكنّها ما لبثت أن استعادت جأشها، وتساءلت: "علامَ أتراجع أمام العدوّ؟". ورسمت إشارة صليبٍ، وتقدّمت صوب الصليب، فيما الوحش دائبٌ على مهاجمتها ولطمها من كلّ جانبٍ. وما عتّمت أن تغلّبت على الخوف، وأضحت تواجه الوحش ثابتة القدم والجنان؛ وبصلواتها وصلابة صمودها، غدت تكرهه على الفرار.

ولّما يئس الشرّير من صرفها عن أفعال التكفير، حرّض عليها رجلاً من أزلامه، وحثّه على مهاجمتها عند الصليب. ولكنّ الرجل أخفق في إيذائها، إذ إنّها بعون ملاكها الحارس، وبجرأةٍ راسخةٍ أكرهته على الفرار. غير أنّ الشرّير لم يقنط، واستمرّ يواجهها بكلّ وسائل الإيذاء، بلا طائلٍ، إذ كان ملاكها الحارس يهرع دائمًا إلى نجدتها.

وقد أفهمتها السماء أنّها، بإثارتها غيظ الجحيم، وبشجاعتها في صدّ حملات الشرّير، كانت تلهيه عن أشخاصٍ لا يملكون العزيمة والجرأة على مقاومة نوازع الشرّ، وبذلك يغدون فريسةً سهلةً لعدوّ الله والبشر. وبفضل آلام وتضحيات تلك النفس البريئة الطاهرة، كانت طوابير المساكين تنجو من الهلاك، وهي كانت لهم أداة فداءٍ وخلاصٍ، بأخذها على ذاتها هجمات إبليس التي لم يكن لهم طاقةٌ على صدّها. وبهذه الطريقة عينها كانت تناضل بالنيابة عن مكرّسين أُصيبوا بالوهن، وعن مقدّساتٍ معرّضةٍ للانتهاك والتدنيس، وعن مستقبل الكنيسة... وبتدبير العناية الإلهيّة كانت مخاطرتها في المضيّ للتعبّد ليلاً أمام صليب قريتها، ومجابهتها

هجمات جهنّم، تعوّض عن إهمال راعٍ مستسلمٍ للنوم، معرِّضًا الرعيّة للهلاك، ومبيحًا أبواب حظيرة القطيع للذئاب.

بمعاناتها الإيذاء كانت تنتشل فريسةً من براثن الجحيم، وبمجابهتها كلّ ألوان الرعب كانت تُعتق من المخاوف محتضرين محتاجين إلى لحظات هدوءٍ كي يستعدّوا للقاء ربّهم. وبقدر ما كانت تضحياتها تكتسب سخاءً وثمارًا، كان غيظ الشرّير يُتَرجم مزيدًا من ضراوةٍ، فيسعى جاهدًا إلى إنهاكها روحيًّا، وإبطال المناعة التي اكتسبتها بتمرّسها بالتضحية ونكران الذات، ويوسوس لها أن تكون أوفر تسامحًا مع ذاتها، ولكنّها كانت تكتشف مكره فتردّ عليه إيغالاً في التقشّف وقمع الذات. ولكن إن هو أوحى إليها أن تمعن في التشدّد، فكانت تتحفّظ، وتلتمس نصح مرشدها الروحيّ.

ومع ذلك لم يستسلم الشرّير طيلة حياة أنّا كاتارينا. ومع تيقّنه من عجزه عن النيل من طهر تلك النفس التي سكب فيها الله كراماتٍ فائقةً، وكرّست هي له ذاتها، بلا تحفّظٍ، إلاّ أنّه لم يكفّ عن المراوغة. فكان يلوّح لها بمشاهد فسقٍ تفيض غوايةً، ولكنّها أبت أبدًا أن تلقي عليها نظرةً. فأوغر صدور مجرمين كي يعتدوا عليها، ولكنّها، بعون الله، ردّهم خاسئين.

علاقتها بملاكها الحارس

سنى البراءة المنــزّهة من كلّ لوثةٍ، الذي تألّقت به نفسها، منذ ولادتها، أقامها على قدم المساواة مع الملاك المكلّف بحراسة ومواكبة تلك التي كانت في علاقتها مع شؤون الزمن والأرض طفلةً، ولكن كان لديها من النضج، في مجال الروح، ما يؤهّلها لفهم الأمور السماويّة غير المرئيّة، ولاستيعاب الأسرار الإلهيّة.

مهمّة ملاكها الأولى تمثّلت في إنارة نفسها حول قضايا الإيمان المسيحيّ، لا بأقوالٍ وتفسيراتٍ، بل بإلهاماتٍ داخليّةٍ، وصورٍ رمزيّةٍ. وبذلك مُنحَتْ فهمًا أوضح وأعمق لأسرار الإيمان ممّا كان من شأن أيّ تعليمٍ أو دراسةٍ متأنّيةٍ إسالته إلى ذهنها.

هذا الفهم الذي أكمل لديها ممارستها حبّ الله، وارتقى بهذا الحبّ إلى مستوى من النقاء والحرارة بحيث غدت قادرةً على إبقاء قلبها على اتّحادٍ دائمٍ بالله، وعلى نشدان الله في كلّ شيءٍ، والتعامل مع كلّ شيءٍ وفقًا لعلاقته بالله. فالله هو الكائن الوحيد الذي استحوذ على نفسها استحواذًا تامًّا، لم تقوَ أيّة خليقةٍ على ثنيها عنه. وكان بهاء ملاك الله شمسًا لفّها نوره منذ مولدها، والمناخ الذي درجت فيه مسيرتها، والذي حجب عنها كلّ مغريات الأرض، والخيرات الزائلة التي تغوي البشر، وتشغلهم، وتصرفهم عن مستقبلهم الأبديّ. وكانت كلّ نظرةٍ يحطّها عليها الملاك تذكي في نفسها حبّ الله، وترسّخ فيها استقرارًا وسلامًا تعجز كلّ قوّةٍ وكلّ حدثٍ عن زعزعتهما. وبذلك تمرّست، في مرحلةٍ مبكّرةٍ من مسيرتها، بتحمّل أكثر الآلام الجسديّة ضراوةً، بهدوءٍ وصبرٍ؛ وتأهّل ذهنها، مع ما تحلّى به من دماثةٍ وعذوبةٍ وخفَرٍ، لامتلاك طاقةٍ مذهلةٍ على تخطّي مشاعر الخوف، والرعب والألم، واستعادة السجوّ والسكون في غضون لحظاتٍ. وتحرّرت من كلّ تشتّتٍ، بفضل تيقّظها لتفادي التعلّق بأيّ متاعٍ زائلٍ، أيًّا كان، بحيث لم يعد لأيّة غيمةٍ عابرةٍ قدرةٌ على تعكير نقائها، ولأيّ جمالٍ أرضيٍّ أن ينال من جمال نفسها، ولأيّ ضغطٍ باهظٍ أن يوهن نوابضها، ولأيّ قيدٍ أن يعيق حرّيّتها. كلّ ذلك مكّنها من ممارسة كفّاراتٍ مذهلةٍ، وأفعال محبّةٍ بطوليّةٍ.

ولازمها الشعور بأنّها مكشوفةٌ لنظر الملاك، فجهدت في أن تبقى مرآة نفسها محافظةً على النقاء الذي كان ملاكها يقتضيه، فاحتفظت، سحابة حياتها، بطفولة النفس، وبساطةٍ فائقةٍ، وبالصدق والاستقامة، والبراءة، بمنجاةٍ عن كلّ اعوجاجٍ أو ازدواجيّةٍ. وقد أنساها تواضعها السحيق الكرامات التي ميّزها بها الله، فلم يخالجها، قطّ، شكٌّ بأنّها لا تختلف عن سائر البشر في شيءٍ. وكانت مراقبتها لنفسها توحي لها بالقلق والخجل. ومثل هذه المشاعر لا يمكنها أن تكون إلاّ ثمرة النعمة، ومكافأة الوفاء الدائم للمشيئة الإلهيّة.

وبقدر اجتهادها في أن تكون جديرةً بمواكبة ملاكها لها، كانت تتلقّى منه فيضًا

من النور، وتوثّق صلتها به، مثل وثوق الملاك بالله. منذ نشأتها الأولى، حرصت على تسليم الله إرادتها، وكلّ قواها الجسديّة والروحيّة، وعلى تقديم ذاتها ضحيّة فداءٍ للآخرين. وكافأ الله هذه التقدمة، بتولّيه قيادة دقائق مسيرتها. لقد أعطت الله وملاكها الحارس إرادتها كي يتحكّما بها، وعقلها كي ينيراه، وقلبها كي يحفظاه لله وحده، نقيًّا محرّرًا من كلّ علاقةٍ أرضيّةٍ، والتزمت، لقاء ذلك بالتجرّد وتضحية الذات، وزهدت بالطعام والنوم، وأخذت على عاتقها آلام الآخرين إلى أن أنهكت أعمال المحبّة قواها، غير أنّ فيضًا من النعم الإلهيّة والبركات كان يعوّضها عمّا كانت تحرم ذاتها منه.

ولطالما اقتادها الملاك إلى حيث كان متألّمون عاجزين عن احتمال آلامهم، فتحتملها عنهم، وإلى حيث كان طالبو رحمةٍ فتغيثهم، وإلى كلّ مكانٍ حيث من يحتاج إلى مؤازرتها. ولم تكن تقيّد اندفاع عطفها لا مسافاتٌ ولا حدودٌ، فلم تتحرّج من الشخوص إلى المطهر حيث أمطرت ندى عزاءٍ وإنعاشٍ على أنفسٍ منسيّةٍ، مهملةٍ، معذّبةٍ.

كانت قد سألت الله، في طفولتها، أن يقيها من كلّ خطيئةٍ، وأن يعاملها معاملة أبٍ محبٍّ لطفلةٍ ساذجةٍ، ويساعدها على تنفيذ مشيئته في كلّ ظرفٍ. واستجاب الله العطوف لملتمسها. وأوكل إلى ملاكه حماية تلك الفتاة النقيّة النابضة بالإرادة الطيّبة، وإنارتها، وإرشاد خطاها، على امتداد مسيرةٍ حافلةٍ بالجهود، والمخاطر، والكفاح، والآلام. ووقف إلى جانبها في كلّ حينٍ، وساندها في كلّ محنها، في العالَمَيْن اللذين اندرجت فيهما حياتها: العالم المحسوس المرئيّ، والعالم الروحيّ غير المرئيّ. وقد نفّذت، هي، بأمانةٍ وعلى وجه الكمال، كلّ ما اقتضته منها رسالتها، مهما غلا الثمن. وبعد أن نالت الأسرار، واتّخذت من كهنةٍ معرّفين ومرشدين، غدا الملاك يؤازرها على تنفيذ إرشاداتهم، ويبلّغها أوامرهم ووصاياهم كلّما نأت بالروح وبالإحساس عن الأرض، وهامت في عالمٍ علويٍّ، ومع أنّ العودة إلى جوّ الأرض كانت توجعها، غير أنّ الطاعة كانت تطغى فيها على كلّ ما تستهويه.

دعوةٌ إلى الحياة المكرّسة

رغبتها في تكريس كلّ ذاتها، وحياتها لله وحده كانت تتنامى في نفسها يومًا فيومًا، فراحت تبحث عن الوسيلة الكفيلة ببلوغها هذا الهدف. فما خلا الله، لم يسكن قلبها سوى والديها وإخوتها وأخواتها، وودّت التضحية حتّى بهذه العلاقة العذبة، كي تكون خالصةً لله. كانت رؤيتها للزيّ الرهبانيّ المتقشّف تستنهض أحبّ تطلّعاتها. ولكنّها لم تجرؤ حتّى على الحلم بأن يتاح لها ارتداء هذا الزيّ. ومع ذلك ما انفكّت تلك الأمنيّة تنمو فيها باطّرادٍ، وتستحوذ على ذهنها وقلبها.

هذه الرغبة، في الظروف العصيبة التي كانت الكنيسة تجتازها، تبدو مستغربةً، غير أنّ الله استساغ تلك الرغبة، ووفّر لابنته المختارة وسائل بلوغ غايتها، مثبتًا، بذلك، دعمه الدائم للكنيسة التي لم يضنّ عليها يومًا بسنده ومعجزاته، رغم خيانات العديد ممّن تجنّدوا لخدمتها، ولكنّهم تضافروا مع أعدائها على محاولة تدميرها. وقد اختار "أنّا كاتارينا" أداة تكفيرٍ عن حنث خدّامه وتخاذلهم، وافتداء زلّاتهم وآثامهم بآلامها.

في تلك الحقبة استرسل خدّام الكنيسة في التخاذل، وأمعن الإلحاد في عيث الفساد في كلّ مكانٍ، ولم يلقَ أعداء الكنيسة من المسؤولين عنها سوى الوهن والخمول في مقاومة جهودهم التدميريّة. وحينئذٍ انتدب الله تلك الفتاة الفقيرة الهزيلة، وسلّحها بما تسلّح به يسوع من أجل مقاومة قوى الجحيم، أثناء وجوده على الأرض؛ فدعاها، قُبيل بلوغها سنّ السادسة، إلى اعتناق الحياة الرهبانيّة، وتجلّت دعوته من خلال رؤى وأحداثٍ بسيطةٍ ذات تأثيرٍ فاعلٍ على نفسها. وكانت كلّما تقدّمت في السنّ، يترسّخ تصميمها على اعتناق الحياة الرهبانيّة الأشدّ تقشّفًا، ولكنّها كانت تفتقر إلى رؤيةٍ واضحةٍ للرهبانيّة التي يتوجّب عليها الانضمام إليها. وقد لحظت رفيقات صباها إيثارها الانـــزواء في كنيسةٍ على مشاركتهنّ مجالس اللهو، وشهدنَ أنّها تحلّت، دائمًا، بالخشوع والخَفَر، والصمت، والدأب على العمل، والتهذيب والكياسة، والتعامل بلطفٍ وطيبةٍ مع الجميع، وحشمة لباسها، ونأيها عن التباهي.

في الثانية عشرة، عملت خادمةً لدى أُسرةٍ كان والدها يعمل لديها مرابعًا، وأُوكلت إليها رعاية أبقار تلك العيلة، ومعظم أبقار الدسكرة. وقد شهدت مستخدِمتُها على تميّزها بالورع، والنشاط، والصدق، والعزوف عن اجتماعات اللهو التي تستهوي فتياتٍ في مثل سنّها، وعلى اكتفائها بالزهيد من الطعام بحجّة افتقادها للشهيّة. ولطالما جهدت تلك المستخدِمة في ثنيها عن عزمها اعتناق الحياة الرهبانيّة، ولكنّ الفتاة كانت توضح أنّ تكرار هذه المحاولات كفيلٌ بإفساد العلاقة بينهما، فهي ثابتةٌ على هدفها، ثباتًا لا يتزعزع.

كان والداها، عندما كلّفاها بذلك العمل، قد توخّيا إخراجها من صمتها واعتكافها، وتيسير دفعها إلى الاندماج في المجتمع، وسلخها عن غوصها الدائم في التأمّل، لكيلا تهدر سدًى، حسب رأيهما، ذكاءها الحادّ، ومهارتها في العمل، وطاقاتها التي كانت كفيلةً بتوفير مستقبلٍ زاهرٍ لها في العالم. ولكن، على نقيض ما توخّى ذووها، كانت "أنّا كاتارينا" كلّما ازدادت انخراطًا في العالم، تمعن توغّلاً في رحاب التأمّل، والعزلة، والحياة في الله، وتجرّدًا عن كلّ متاعٍ دنيويٍّ. ومع ذلك، كانت، في غمرة تأمّلاتها، تنجز ما يوكل إليها من عملٍ على أفضل وجهٍ، وبمزيدٍ من النشاط، والسرعة والهدوء، والتركيز، متفوّقةً في كلّ ذلك على سواها. وإن خاطبها أحدٌ فجأةً، فغالبًا لم تكن تسمع ما يُوجَّه إليها من خطاب، وعندما يصبح الخطاب أشدّ إلحاحًا، كانت تجيب بما لا علاقة له بالسؤال، وكأنّها سُلخت بغتةً عن حلمٍ مسيطرٍ على ذهنها. وحينئذٍ كان يتّضح حتّى لأبسط المحيطين بها أنّ نفسها تقطن عالمًا آخر لا صلة له بمحيطها. غير أنّ دماثتها، وطيبتها، ومحبّتها للجميع، كانت تنقذها من كلّ لومٍ.

بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ في خدمتها لدى أُسرة المزارعين تلك، رئفت والدتها بما أصابها من وهنٍ جسديٍّ، من جرّاء ما كان يلحقه بها عملها من تعبٍ وإنهاكٍ؛ وارتأت أن توكلها إلى خيّاطةٍ تلقّنها مهنةً قد تكون لها عونًا على غوائل الزمن. ولكنّ الفتاة، قبل مباشرتها عملها الجديد، نعمت بهدنة نقاهةٍ بين ذويها، كي

تساعدهم على أعمال الحقول. وانتهزت تلك السانحة كي تطلعهم، صراحةً، على تصميمها الانضواء إلى ديرٍ رهبانيٍّ، تصميمًا نهائيًّا، لا رجوع عنه.

واتّفق آنذاك، أن كانت تعمل مع أفراد أسرتها، في حقلٍ، بعد ظهر أحد الأيّام، فقرع جرس دير أخوات البشارة في "كوسفيلد". ولطالما كانت قد سمعت صوت هذا الناقوس، ولكنّها، في تلك اللحظة، سمعته يدعوها إلى ذلك الدير، وكاد وقع ندائه يوقعها مغميًّا عليها. ومنذ ذلك اليوم، اعتلّت صحّتها، واكتأبت، واختلّت مشيئتها، وغدت دائمة السهوم والقلق. واستوضحتها أُمّها عن سبب تلك الحالة، فأوضحت لها جهارًا، وصراحةً، رغبتها في دخول الدير. هذا الجواب أحزن والدتها التي اعترضت متسائلةً كيف تخطر لابنتها هذه الفكرة، وهي معتلّة الصحّة، ومعدمةٌ ماليًّا، ولا تملك فلسًا ممّا يقتضيه دخول الدير من نفقاتٍ باهظةٍ. ولكنّ الفتاة ردّت أنه إن كانت أُسرتها فقيرةً، إلاّ أنّ الله غنيٌّ، ولا يعسر عليه توفير كلّ ما يلزم لتحقيق دعوتها. وشكت الوالدة أمرها إلى زوجها، فضفرا كلاهما جهودهما في سبيل إقناعها بالعزوف عن مبتغاها، فتفاقم حزنها واعتلالها، حتّى اضطرّت إلى التزام الفراش.

وبتؤدةٍ شرعت السماء تطلعها على ما تقتضيه رسالتها الرهبانيّة من تقشُّفٍ، وتجرّدٍ، وتضحياتٍ، ومعاناةٍ، تخفيفًا لآلام الآخرين، وتعويضًا عن خطاياهم، فهي ليست مدعوّةً من أجل تحقيق كمالها الذاتيّ فحسب، بل لكي تكون أداة فداءٍ للآخرين، وإنقاذٍ لكرم الكنيسة الذي كان يواجه حملاتٍ تدميريّةً ضاريةً. ومع أنّ كلّ الظروف الواقعيّة كانت تنهض عائقًا منيعًا دون دخولها الدير، غير أنّ ثقتها بقدرة الله كانت تترسّخ، يومًا فيومًا.

وما إن أبلّت الفتاة من علّتها، حتّى اقتادتها والدتها إلى خيّاطةٍ كي تتعلّم مهنتها، وكان ما زال يراود الوالدة أملٌ بأن يصرف هذا العمل الجديد ابنتها عن حلمها الرهبانيّ. ولكن لم يتوجّب على "أنّا كاتارينا" أن تتعلّم، بصبرٍ وتؤدةٍ، مهنة صنع

الثياب، بل مثلما حدث لها، في كلّ ما عملت به سابقًا، تبيّن امتلاكها مهارةً فطريّةً، وما إن أمسكت بالإبرة حتّى أثبتت إتقانًا باهرًا في استخدامها. ومن ثمّ كانت تنجز كلّ عملٍ تُكلّف به، أيةً كانت صعوبته، وأيّا كان تعقيده، بسرعةٍ، ويسرٍ، ومهارةٍ، فيما يظلّ ذهنها حرًّا، طليقًا، هائمًا في رحاب الروح، مأخوذًا في التأمّل. وقد احتفظت بهذه القدرة الخارقة حتّى آخر أيّامها، حين غدت الأوجاع تطرد النوم عن جفونها، فكانت تنفق لياليها مصلّيةً، متألّمةً، وفي الآن عينه، عاكفةً على صنع ثيابٍ للأولاد الفقراء وللمرضى، وللنساء المعوزات، متقنةً صنعها بلا حاجةٍ إلى تركيز ذهنها الهائم في عالمٍ آخر، والمأخوذ باستيعاب المهمّات السامية والأليمة التي يتعيّن عليها الاضطلاع بها في حياتها الرهبانيّة. وكلّما توغّلت في استيعاب هذه الدعوة، كانت رغبتها في اعتناقها وممارستها، في أقرب مهلةٍ، تتعاظم استعارًا وسطوةً، إلى أن هدّت قواها العوائق الناهضةُ دونها. وكان لا مناص لها من التخلّي عن تعلّم مهنة الخياطة. وكانت حينذاك، قد شارفت السابعة عشرة من عمرها.

ثلاث سنواتٍ في "كوسفيلد"

حان لتلك الحالمة في اعتناق الحياة الرهبانيّة أن تتمرّس بالقدرة على تخطّي العقبات والمخاطر المنتصبة في درب الساعين إلى تلك الحياة، وأن تتبيّن بوضوحٍ ضعفَ كلّ إنسانٍ معتمدٍ على قواه الذاتيّة، وسبلَ تذليل العوائق.

انتقلت، إذن، إلى "كوسفيلد"، حيث عملت لدى خيّاطةٍ، بغية جمع مبلغ المال المطلوب لدخول الدير، متأهّبةً، في هذا السبيل، لبذل أقسى الجهود، وسوق أشدّ أساليب العيش تقشّفًا وتقتيرًا. غير أنّ كلّ أتعابها وتضحياتها عجزت عن إيصالها إلى غايتها، إذ إنها لم تحتفظ بشيءٍ من الأجور التي كانت تتلقّاها، والتي كانت تسارع إلى التصدّق بها على من هم أشدّ فقرًا منها. فعطفها على الفقراء كان يطغى حتّى على رغبتها العارمة في اعتناق الحياة الرهبانيّة. وفي سبيل المحتاجين كانت دائمة التأهّب للتخلّي عن كلّ شيءٍ حتّى عن ثيابها. وكلّما قست التضحية

كانت هي أشدّ اندفاعًا إلى تحمّلها، مكتسبةً مزيدًا من منْعة النفس والمحبّة. ولكنّها لم تكن تنعم دائمًا بمزيدٍ من العزاء، إذ كانت تتلاشى، بغتةً، مشاعر الارتياح التي كانت صلواتها، وأفعال التقوى والمحبّة تسيلها في نفسها ، ويحلّ محلّها شعورٌ مضنٍ بالفتور. وكان تواضعها السحيق يعزو هذا التحوّل، وهذا الامتحان الإلهيّ، إلى ما كانت تتّهم به ذاتها من إساءة استخدام النعَم التي وُهِبتها، وإلى تدنّي حرارتها الروحيّة، حتّى غدت تعدّ ذاتها غير جديرةٍ بالدعوة الرهبانيّة، وتظنّ أنّ ما من كفّارةٍ، مهما قست، تكفي لغفران ذنوبها. فدأبت على مضاعفة تضحياتها المعتادة، وغدت تتهيّب حتّى التقدّم من مائدة الإفخارستيّا، وفق وتيرتها السابقة، ولا تقدم عليها إلاّ بأمر معرّفها.

هذا الصراع النفسيّ الموجع خاضته مدى ثلاث سنواتٍ، إلى أن بثّ فيها الله الشعور بقربه منها، وبمؤازرته لها، فاستيقظت فيها عزيمةٌ ثابتةٌ وفرحةٌ، واستعادت غيرتُها الإلهيّة استعارها.

في هذه الأثناء لم يكفّ ذووها عن استخدام شتّى الوسائل الكفيلة بثنيها عن مشروع الحياة الرهبانيّة التي كانت تطمح إليها بكلّ أوتار نفسها، وكانت تضيق ذرعًا بمحاولاتهم، وتبتئس. أمّا السيّدة الخيّاطة التي كانت تعمل لديها، فقد فُتِنت بخصالها وسلوكها، ورغبت رغبةً صادقةً في استبقائها ومواكبتها مدى الحياة، وفي مقاسمتها حياةً نسكيّةً موقوفةً على العبادة وأفعال المحبّة. ولطالما تمنّت أن تقيم إلى جانبها فتياتٌ أُخرياتٌ، لعلّهنّ يكتسبنَ منها نصاعة الأخلاق، ويستفدنَ من نصائحها، ويقتفينَ خطاها. ومع أنّ محاولات تلك السيّدة الطيّبة لم تفلح في صرف "أنّا كاتارينا" عمّا وطّنت عليه عزمها، إلاّ أنّ أواصر المودّة والتقدير المتبادل ظلّت تربطهما بأروع علاقةٍ.

أمّا ذووها فلم يفقدوا الأمل في التمكّن من سدّ طريق الدير دونها، وارتأَوا أنّ خير سبيلٍ إلى هذا الهدف هو استصحابها إلى أماكن التسلية العامّة، وإلى مرابع اللهو. وكان ردّها الدائم هو الرفض. ولكن لم ترُقْ لها رؤية تأثير رفضها عليهم،

والحزن الذي كان يرتسم على وجوههم. وتفاديًا لإحزانهم لبّت دعوتهم مرّتين. وفي المرّتين كلتيهما كانت العواقب موجعةً لها. فلنستمع إلى روايتها، في هذا الشأن:

"ذات يومٍ أصرّ شقيقي الأكبر على استصحابي إلى الرقص. وإزاء رفضي القاطع، امتعض وخاصمني، وقفل عائدًا إلى البيت متوتّرًا. ولكنّ ما لبث أن عاد إليّ، وذرّف دموعًا حرّى، وجثا أمامي، بحضور والديّ، واستصفح عمّا أبداه من حدّةٍ. ولم نكن قد اختلفنا، قطّ، من قبلُ، ومنذئذٍ لم يقع بيننا خلافٌ من بعدُ.

"ثمّ، في يومٍ آخر، تنازلتُ تنازلاً مؤسفًا، وجُررتُ إلى لقاءٍ من هذا النوع، وتبعت الداعين، وأنا أعاني ما يحاكي القنوط، وتولاّني حزنٌ هاصرٌ. كنتُ غائبة الذهن والروح عن محيطي، وأُقاسي عذابًا جهنّميًّا. وشعرت بقوّةٍ تدفعني دفعًا عنيفًا إلى الخارج، لم أقوَ على مقاومتها، غير أنّي لبثتُ في مكاني، مخافة انتهاك قواعد الكياسة، ولكنّي أحسستُ أن خطيبي الإلهيّ هو من يدفعني ويدعوني، فلذت بالفرار، وتلفتّ من حولي، فرأيته واقفًا تحت شجرةٍ، مثقلاً بالحزن والغيظ، ممتقع القسمات، مضرّج الوجه بالدم. وبادرني بالقول: "كم أنت قليلة الوفاء، وكم نسيتِني وأهنتِني! فهل أنكرتني؟". فالتمست غفرانه، واستوضحته عمّا يتوجّب عليّ فعله درءًا لخطايا الآخرين، وعلمت أنّ عليّ أن أنتحي زاويةً، وأركع وأُصلّي، باسطة الذراعين، أو أمضي إلى حيث يتوجّب عليّ الحؤول دون ارتكاب خطايا.

"وفي نوبةٍ أُخرى، استسلمت استسلامًا خاطئًا للهوٍ من هذا النوع، ولكنّي لم أقوَ على مقاومة القوّة التي كانت تشدّني إلى الخارج، رغم محاولات رفيقاتي المستميتة من أجل استبقائي معهنّ. ولذت بالفرار، يلازمني شعورٌ بأنّ الأرض راغبةٌ في ابتلاعي، واعتراني حزنٌ يتعذّر وصفه. وما كدت أخطو نحو البيت حتّى جاءتني امرأةٌ جليلةٌ وقورٌ، وقالت بلهجةٍ صارمةٍ: "ما الذي فعلتِه، وما هذا السلوك؟ كنتِ قد ارتبطتِ بابني، ولكنّك قطعتِ كلّ علاقةٍ به". وحينئذٍ انضمّ ابنها الشاب إلينا، حزينًا، مكفهرّ المحيّا، ولامني لمرافقتي أصحاب سوءٍ، فيما

كان ينتظرني، وقد هدّه الألم. وكان لومه وحزنه طعنةً في قلبي، حتّى كدتُ أموت كمدًا، وتوسّلتُ أمّه أن تستصفحه عنّي، واعدةً بإحجامي عن أيّ تنازلٍ، من بعدُ. وتشفّعت أمّه بي، فظفرتُ بصفحه، وأكّدتُ وعدي بالنأي عن مثل تلك التجمّعات، وحينئذٍ غادراني. كنتُ حزينةً حتّى الموت، وعدتُ إلى البيت منتحبةً. وفي اليوم التالي انصبّ عليّ اللوم، بسبب مغادرتي الرفاق وحيدةً. غير أنّ ذويّ تركوني وشأني، فقد وقع بين يدي والدي كتابٌ ينهي الوالدين عن إرغام أولادهم على المشاركة في مثل تلك التسليات. وكان قد أحزن والدي ما حدث وبكى له بكاءً مرًّا، وهو يؤكّد: "يعلم الله أنّني كنت سليم النيّة؟. فكان عليّ أن أُواسيه بنفسي، وبكلّ ما استطعت إليه سبيلاً".

ومع ذلك شقّ على ذويها الاستسلام لفكرة اعتناقها الحياة الرهبانيّة، مع أنّ وضعهم الهشّ لم يكن يتيح لهم أيّ أملٍ في رؤيتها تنعم، بينهم، بحياةٍ مادّيّةٍ هانئةٍ. فقد كانوا يعدّونها كنـــزًا ثمينًا، واكتشفوا فيها، منذ مولدها، منجم فرحٍ وعزاءٍ. فملاكها الحارس كان يرعاها ويقود مسيرتها، والسماء كانت تغمر نفسها بأنوارها، ومن ثمّ، بفضل حكمتها وذكائها، والنصح الذي كانت تزوّدهم به، وإن لم يلتمسوه، ولم يفطنوا له، أصبحت لهم، مع صغر سنّها، ثروةً لا يستغنون عنها.

ثمّ عندما أضحت شابّةً، تفاقمت عليهم مشقّة الانفصال عنها، بعدما امتلأت طيبةً سمحاء، وسجوّ نفسٍ لا يعكّر سلامه معكّرٌ، وجاذبًا طاغيًا، فضلاً عن عنايتها الفطِنة والسخيّة بجميع أفراد الأُسرة، وسهرها الدائم على تأمين كلّ احتياجاتهم، ما جعل والدَيْها يتوسّمان فيها خير سندٍ لأيّامهما الأخيرة، ومن مجرّد احتمال بعدها عنهما خسارةً لا تعوَّض، وحرمانًا موجعًا من سعادةٍ محيقةٍ بهما. حتّئذٍ لم يكن عملها بعيدًا عنهم قد أدّى إلى إقامة حاجزٍ بينها وبين أُسرتها. ولكن لم يكن يخالج ذويها أيّ شكٍّ بأنّ الدير سيُحكم القطيعة بينهم وبين ابنتهم الحبيبة، فحتّى لو أبدى رؤساء الدير بعض إغضاءٍ أو تسامحٍ، كانوا موقنين أن "أنّا كاتارينا" لن

تستبيح، تحت أيّ ظرفٍ، أيّ خرقٍ، ولو طفيفٍ، للنظام الرهبانيّ الصارم. وبالتالي كانوا يرون في تلبيتها لدعوة الربّ حرمانهم المحقّق من كنــزٍ غالٍ لا عوض عنه.

وعدا عن ذلك كانت الفتاة وأُسرتها على اطّلاعٍ بما كانت الأديرة تواجهه، في تلك الحقبة من ضيقٍ مادّيٍّ. ما سيجعل أيّ ديرٍ قد تنضوي إليه يعدّ فقرها عبئًا عليه، ولن يقدّر ثقل تضحية والديها من جرّاء حرمانهما من وجودها إلى جانبهما. وفي سبيل ردعها عن غايتها لم تضنّ أُسرتها بأسلوب إقناعٍ، من توسُّلٍ، وبكاءٍ، والتعبير عن ألمٍ مفجعٍ، وحتّى عن التأنيب الصارم، واعتبار رغبتها في الترهّب نــزوةً باطلةً، ومحاولةً للانعتاق من الأعمال المنــزليّة والمهنيّة. وكانت هذه الاتّهامات تحطّم قلبها الرقيق، الطافح حبًّا وتضحيةً، وتلقيها في بحرانٍ من الحيرة. ولم يكن لها من ملاذٍ سوى الصلاة الحارّة، في حين كان تطلّعها إلى الحياة الرهبانيّة يشتدّ إلحاحًا، يومًا فيومًا، فاستشارت مرشدها الروحيّ ومعرّفها اللذين أوضحا أنّ وجود إخوةٍ وأخواتٍ لها قادرين على العناية بوالديها يعفيها من واجب البقاء إلى جانبهما، ونصحاها بالاستجابة لنداء ضميرها.

ولم تتدخّل السماء، في سبيل إزالة العقبات التي كانت لا تني تتراكم على درب هدفها، إزالةً معجزةً مباغتةً، بل تركت لها مهمّة النضال في سبيل بلوغ غايتها. وبما أنّ دعوتها لم تكن تعدّها لتحقيق كمالها الروحيّ فحسبُ، في زمنٍ كانت شؤون الروح هي أقلّ ما يحظى بالاهتمام العامّ، بل كانت تُعِدّها، أيضًا، للاستشهاد اليومي، في سبيل دعم الكنيسة التي كانت الهدف الأثير لهجمات المثقّفين، وأرباب المال، والسياسيّين، فيما الكثير من رعاة الكنيسة ساهون عن واجبهم، منصرفون إلى ما يرضي العالم. لكلّ هذه الأسباب، يبدو أنّ السماء، التي طالما غمرت "أنّا كاتارينا" بأنوارها، ابتغت أن توكل إلى الكنيسة مهمّة إرشادها، والإسهام في مساعدة تلك الفتاة المختارة على تقرير مصيرها، مثلما ابتغت، هي، وضع كلّ مواهبها وكراماتها بخدمة الكنيسة، وبإشرافها، طيلة حياتها.

ضحيّةٌ طوعيّةٌ

كانت "أنّا كاتارينا" التي بلغت الثامنة عشرة من عمرها، تخوض غمار الحيرة، وتواجه أزمةً روحيّةً حادّةً، ظنّت، معها، أنّها تردّت إلى فتورٍ قاتلٍ. فأنقذها نداء السماء، إذ دُعيت إلى تقبّل سرّ التثبيت الذي استعدّت له بعنايةٍ قصوى، فأعاد لها القوّة والاندفاع. بمناسبة مناولتها الأُولى، كانت قد التمست من الله أن يجعل منها طفلةً صالحةً، أمّا في هذه المناسبة فالتمست نعمة وفاءٍ صامدٍ، وحبٍّ راسخٍ يؤهّلانها لتحمّل أقسى التضحيات في سبيل الله والقريب. وغدت، باطّرادٍ، تقدّم لله كلّ قوى جسدها ونفسها، كفّارةً عن ذنوب من لا يستطيعون أو لا يريدون التكفير عن خطاياهم، وحضّت أترابها الذين شاركوها نيل ذلك السرّ على تبنّي نواياها هذه.

وفي تلك المرحلة التهب في نفسها توقٌ إلى ممارسة حياة النسك، والخفية في بلدٍ غريبٍ، وأسرّت بتلك الرغبة لصديقةٍ وثيقة القرب منها أبدت حماسًا مضطرمًا لمشاركتها هذا المشروع، وشرعتا تعدّان الخطط بغية تحقيقه، والفرار معًا إلى مكانٍ مجهولٍ. ولكن سرعان ما اتّضح لهما تعذّر تحقيقه.

عن الاحتفال بسرّ التثبيت روت: "عندما دخلت إلى الكنيسة، رأيت الأُسقف مشعًّا نورًا، تحيق به أسرابٌ من الأرواح السماويّة... ولما مسحني بالزيت المقدّس شعرت بسهمٍ ناريٍّ يخترق جبيني، وينفذ إلى قلبي، وبقوّةٍ تملأني..."

ومنذئذٍ تعيّن عليها التكفير عن خطايا الآخرين بعقاباتٍ وآلامٍ تُلحقها بها أيدٍ علويّةٌ، وتواكبها رؤى. فقد تعاقبت عليها أحداثٌ مؤذيةٌ غير متوقّعةٍ، ولا سبب ظاهرًا لها؛ فكانت، تارةً، تقع بغتةً، وتُصدَم بعنفٍ، أو ينسكب عليها ماءٌ حارٌّ، من جرّاء إهمال الغير، وتارةً تنتابها علّةٌ لا تفسير لها، ويعدّها الآخرون مهزلةً أو مسَّ جنونٍ، ويتّخذون منها مادّةً للسخريّة. وكانت تتحمّل كلّ هذه المنغّصات بوداعةٍ، ولطفٍ، وصبرٍ لامحدودٍ. وعلى هذا النحو كانت تتلقّى، أيضًا، معارضة الآخرين لها، ولومهم الجارح، وإهاناتهم، وتهمهم الباطلة. وبما أنّها كانت، بالفطرة، انفعاليّةً،

مفرطة الحساسيّة، سريعة الغضب والتأثّر، كان عليها أن تخوض، صراعًا نفسيًّا، حادًّا ومستمرًّا، لا من أجل السيطرة الدائمة على ذاتها فحسب، بل بغية الصفح، بكلّ القلب، عن المسيئين إليها، والابتهال إلى الله كي ينـــزل بها العقاب المتوجّب عليهم. كانت نعمة التثبيت قد أسبغت عليها هذه الطاقة على التحمّل والصفح، وما انفكّت هي تنمّيها بتضحياتها الطوعيّة، ولا سيّما بعد أن اجتاحت نفسها آلامٌ من كلّ لونٍ، وأنهكت جسدها عللٌ تلبس كلّ يومٍ، شكلاً مختلفًا، ولا تدع لها هدنةً، والتي كانت تتناسب، شدّةً، مع حجم الآثام والخطايا التي كان الله يريد منها أن تكفّر عنها، نيابةً عن آخرين. وبذلك كانت ترتقي، كلّ يومٍ، درجةً على سلّم تمثيل جسد الكنيسة السرّيّ، إلى أن بلغت قمّة التماهي بالمصلوب، وحظيت بسمات صلبه.

وهكذا غدا جسد تلك الفتاة مثل جسد الكنيسة المعرّض للمخاطر والاضطهادات والجراح، والتي كانت "أنّا كاتارينا" تتحمّلها تكفيرًا عن أخطاء المسؤولين الكنسيّين، وإهمالهم لواجباتهم الأساسيّة، وانتهاكهم مبادئ الإيمان، ومخالفتهم شروط القداسة المطلوبة منهم؛ وتتحمّلها، أيضًا، درءًا لحملات العداء والكراهية التي يشنّها على الكنيسة العديد من أعدائها.

بالإجمال كان سرّ التثبيت لأنّا كاتارينا مثلما كانت العنصرة للرسل، الذين منذ حلول الروح القدس عليهم، باتوا يستعذبون الموت، باسم يسوع، واحتمال القيود والاستشهاد، وكلّ ألوان التعذيب من أجله. وعلى غرارهم صرّحت تلك الفتاة المختارة أنّها، منذ لحظة تثبيتها، ما انفكّت تلتمس، في كلّ لحظةٍ، تحمُّل عقاب كلّ خطيئةٍ تتكشّف لها في رؤاها، أو التي كانت شاهدة عيانٍ لها، ودأبت على افتداء زلّات الآخرين وآلامهم بآلامها. وما عادت تعهد للراحة طعمًا ما لم تمارس، باستمرارٍ، أفعال توبةٍ وتكفيرٍ، كانت تتصاعد قسوةً، يومًا فيومًا. ولكنّها كانت حريصةً على إخفائها عن الجميع، وحتّى عن معرّفها. غير أنّ هذا الأخير اطّلع عليها، من خلال مقرّبين من الفتاة، اكتشفوها صدفةً. وفاتحها بشأنها، فاحمرّت

خجلاً، ونصحها بالاعتدال في ممارستها، والانصراف، بالأحرى، إلى مزيدٍ من التعبُّد والصلاة. وحينئذٍ أسرّت له برغبتها في اعتناق الحياة الرهبانيّة، وبخشيتها من تعذّر تحقيق حلمها هذا، بسبب فقر حالها، وحال أُسرتها، وعجزها عن تأمين الجهاز الذي تقتضيه الرهبانيّات من طالبات الانضمام إليها. وتعاطف معرّفها معها، وتوسّط مع رئيسة رهبانيّةٍ أُوغسطينيّةٍ، ارتضت أن تقابلها. ولكن عندما شخصت الفتاة لمقابلة الرئيسة خطرت لها رؤيا، تبيّنت، من خلالها، التردّي الروحيّ الذي انتهت إليه تلك الرهبانيّة، فانخرطت في انتحاب أدهش الرئيسة التي استفسرت عن سببه، فباحت لها الفتاة بعباراتٍ مبهمةٍ: أُقرّ أنّي أفتقر إلى القدر الوافي من التكريم للقدّيس أوغسطينُس، وبالتالي لست جديرةً بأن أرتدي زيّه". فصرفتها الرئيسة، ودعتها إلى إعمال الفكر مجدّدًا، حتّى الوصول إلى قناعةٍ راسخةٍ. وأمعنت "أنّا كاتارينا"، حينذاك، في ممارسة أفعال التوبة وإماتة الذات، فغدت تشدّ جسدها شدًّا لزيزًا، وترتدي تحت ثوبها مسحًا كانت تُعدّه بنفسها، مستخدمةً أكثر الأنسجة خشونةً.

وقد أَلِفت، في تلك المرحلة، أيضًا، متابعة مراحل درب الصليب، المقامة في حرج صنوبرٍ في "كوسفيلد". وبما أنّ عملها اليوميّ كان يبدأ منذ أُولى ساعات النهار، ويمتدّ حتّى ساعاتٍ متقدّمةٍ من الليل، فلم تُتَحْ لها الفرصة للقيام بهذه العبادة إلاّ بعد منتصف الليل. وكان إتمامها يقتضي منها لا أقلّ من ساعتين، ومع ذلك لم تتخلّف، يومًا، عن أدائها، حتّى في أقسى الظروف المناخيّة، ولا سيّما عندما كانت تلتمس منها هذه الخدمة نفوسٌ في محنةٍ أو شدّةٍ، تعرفها أو تتعرّفها في رؤاها. وغالبًا ما كانت ترافقها صديقةٌ تقاسمها هواجسها الروحيّة. وفي ختام هذا الطقس التقويّ كانت تركع أمام صليبٍ عجائبيٍّ منصوبٍ في ذلك المكان. وحدث لها أن رأت المصلوب ينحني نحوها مباركًا. ولكن، بالمقابل، غالبًا ما انقضّ عليها الشرّير بوحشيّةٍ، ونكّل بها، كلّما صلّت بحرارةٍ استشفاعًا بآخرين، أو تعويضًا عنهم.

وقُيِّض لها أن تشهد ثمار هذه الممارسة التقويّة، يوم كرّستها من أجل إحلال

مصالحةٍ بين زوجَيْن متخاصميْن، وشهدت، بعدئذٍ، مصالحتهما. ومع ذلك، ظلّت "أنّا كاتارينا"، سحابة ثلاث سنواتٍ، ضحيّة شعورٍ مرهقٍ بالتخلّي، إلى أن تداركها الله بمواساته، ودعمه، وشدّ عضدها بحضوره، الذي واكبها، منذئذٍ، في ممارسة مهمّة الفداء التي كلّفها بها، وتقبّلتها، هي، بفرحٍ وامتنانٍ، ومنذئذٍ غدا لها يسوع، رأس الكنيسة غير المرئيّ، هو نورها، وقوّتها، وعزاءها.

وكان كلّ ما ادّخرته من أجور عملها الشاقّ، على مدى السنوات الثلاث المنصرمة، كي تتمكّن به من دخول ديرٍ رهبانيٍّ، قد تبدّد. فقد كان يطرق بابها، كلّ يومٍ، معوزٌ لا تقوى على ردّه خائبًا، ولا تحتفظ لنفسها بشيءٍ، إلى أن ألْفت نفسها، عقب سنواتٍ من الكدّ والتقتير، أشدّ فقرًا من قبل. وإلى رقّة حالها، وقلّة ذات يدها اللتين كانتا تنهضان عقبةً دون تحقيق حلمها الرهبانيّ، أُضيفت عِلَلُها الجسديّة المتعاقبة، والمتفاقمة باطّرادٍ. صحيحٌ أنّ الله كان يريها ثمار هذه الأوجاع والعلل الفدائيّة، غير أنّ تلك الأوجاع كانت تستنفد قواها وتهدّها.

ومع ذلك لم يغرب، قطّ، عن ذهنها حلم الحياة الرهبانيّة. وإثر استبعادها الرهبنة الأوغسطينيّة، توسّلت معرّفها تسهيل انضوائها إلى دير راهباتٍ حبيساتٍ، ولكنّ الكاهن أوضح لها أنّه لا يستطيع، ضميريًّا، السماح لها، وهي على هذه الحال من الهزال والوهن، بالانخراط في حياةٍ لن تقوى على احتمالها. وحيال الحزن الذي اعتراها، من جرّاء هذه العقبة غير المتوقّعة، وعدها المعرّف بالسعي إلى انضوائها إلى دير راهباتٍ كلاريسّاتٍ، في مدينة "منستر". ولكن إدارة الدير، التي كانت تعاني أزمةً ماليّةً خانقةً، شرطت قبولها بإتقانها العزف على الأُرغن، تعويضًا عن البائنة المقتضاة عادةً، من طالبات الانضواء إلى الرهبنة. ورحّبت الفتاة بهذا الشرط، وعزمت على تعلّم هذا العزف، بيد أنّ تدهور حالتها الصحّيّة ألزمها الإخلاد إلى فترة نقاهةٍ في بيت والديها. وفي هذا السياق ورد في شهادة رفيقةٍ حميمةٍ لها، كانت قد رافقتها إلى الدير المذكور من أجل تقديم طلب انضوائها إليه، أنّها حذّرتها من خطر إقفالٍ وشيكٍ لذلك الدير، ولأديرةٍ أُخرى. ولكنّها أجابت

أنّها لو تمكّنت من الانضواء إلى رهبنةٍ، والإقامة فيها ثمانية أيّامٍ، قبل أن يُحكم عليها بالشنق، لما تردّدت في الإقدام على تلك المخاطرة.

وقد شهدت تلك الرفيقة عينها أنّ "أنّا كاتارينا" كانت مثابرةً على المناولة كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وأنّها كانت تسترسل في الصلاة، ليلاً، راكعةً، وأنّها كانت تخصّ بالتكريم جراح الربّ الخمسة، وجراح كتفه التي سبّبت له أشدّ الأوجاع إيلامًا، وكانت تصوم حتّى الظهر، أيّام الجمعة، وتمتنع عن الطعام مساءً، كلّما ضمنت ألاّ يلحظ أحدٌ ذلك؛ وأنّها تميّزت بصبرٍ فائقٍ، وبمواساة الموجوعين مذكّرةً إيّاهم بما قاساه يسوع من أوجاعٍ في سبيل خلاصهم. وكانت تسعد بافتراءات الغير، واتّهامهم إيّاها بالكبرياء، والخداع، وتصنّع القداسة، إذ إنّ البريء الأوحد لم ينجُ من مثل هذه الافتراءات والتهم الباطلة. وشهدت رفيقتها، أيضًا، أنّها، خارج ساعات العمل التي كانت تؤدّيها بجدٍّ وجدوى، كانت تحدّثها في شؤون الروح، أحاديث صادقةً وبنّاءةً، وقلّما تناولت مواضيع أُخرى. وفي شهادات الذين عرفوها عن كثبٍ، صورةٌ حيّةٌ لتلك الفتاة المختارة التي ترقّت عاليًا في سلّم الكمال والقداسة. فلنستمع إلى باقةٍ منها:

شهد أخوها الأكبر: "كانت تأبى التحدّث في الأُمور الدنيويّة، وتؤثر إسداء دروسٍ في الإيمان ونصاعة الأخلاق. وكانت تبلّغ المحيطين بها ما سمعته من عظاتٍ، ومطالعاتها عن سير القدّيسين، وتحثّنا على حبّ الخير. كانت طيّبةً حيال الجميع، وتجود على المحتاجين بكلّ أُجور عملها؛ تستنكر إفشاءَ سيّئات الآخرين وتعطينا نصائح في هذا المجال، ولكنّها ترحّب بانتقاد الآخرين لها. وعندما كنّا نستغرب هدوءها ومحبّتها حيال إهانات الآخرين، كانت تجيب: "كان هذا ضروريًّا، ولو شئتم لحذوتم حذوي. وكانت تكرّس للصلاة أوقاتًا طويلةً، ولطالما سهرت، بعد إخلادنا جميعًا إلى النوم، كي تطالع كتبًا، وتصلّي راكعةً، باسطة الذراعين. وكانت الصلاة ترافق عملها. أَصوامها كانت متواترةً، وإذا نصحناها بالعزوف عنها رأفةً بصحّتها الهشّة، كانت تؤكّد أنّها لا تجد في الصوم مشقّةً... وكانت تحرص على

الصيام، خاصّةً، في الأيّام المكرّسة لذكرى آلام الربّ يسوع، وتخضع نفسها لتضحياتٍ من كلّ لونٍ، فتلبس مسحًا تحت ثوبها، وترقد فوق أخشابٍ وأشواكٍ".

وشهدت زميلةٌ لها في الدير: "في المدرسة تميّزت تميّزًا باهرًا، وقد أكّدت معلّمتها أنّها أجابت دائمًا الإجابة الصحيحة على كلّ الأسئلة. ومع أنّها لم تختلف اختلافًا منتظمًا إلى المدرسة سوى أربعة أشهرٍ، إلاّ أنّها تعلّمت بنفسها كلّ ما لم تعلّمها المدرسة، وهي ترعى القطعان. وفيما كان أترابها يلهون، كانت تنتحي جانبًا، وتستغرق في مطالعة كتابٍ. ثمّ لمّا تقدّمت قليلاً في السنّ، وتعيّن عليها القيام بمهمّات أشدّ مشقّةً، كانت تنتهز إخلاد الجميع إلى النوم، فتتسلّل إلى حجرة الجلوس، وتمضي الليل كلّه في مطالعة كتبٍ تقويّةٍ، رغم التعب الذي تكبّدته أثناء النهار. ولمّا عملت في محترف الخياطة أفادت العاملين معها بالكثير ممّا تعلّمته وطالعته.

وكان كُثُرٌ من شبّان القرية وشابّاتها يقصدونها، ويبوحون لها بهواجسهم الروحيّة، ويلتمسون إرشادها. وبعد ظهر أيّام الأحد كانت تناشد شبّانًا تنامى إليها أنّهم تاهوا عن السراط القويم أن يشاركوها الطواف على درب الصليب، تاليةً الصلوات بصوتٍ عالٍ. ولطالما تسلّلت، ليلاً، من البيت الذي كانت تعمل فيه كي تطوف في درب الصليب، حافية القدمين. وعندما كانت أبواب المدينة مغلقةً كانت تتسلّق الجدران كي تصل إلى هدفها، وكثيرًا ما هوت من علُ، ولكنّها لم تُصَبْ، مرّةً، بمكروهٍ.

وكانت تتذوّق سعادةً كبرى، كلّما حلّ يوم أحدٍ، وتسنّى لها الاعتراف والتناول. وعندما كانت تتعاقب أيّام الأعياد، كان معرّفها يسمح لها بالتناول في كلّ تلك الأيّام. وكانت تمتنع عن كلّ طعامٍ خلال الأيّام الأخيرة من أُسبوع الآلام. ولكنّ الصوم لم يُعِقْها، قطّ، عن تأدية أشقّ المهامّ الموكلة إليها.

وشهدت فتاةٌ عملت معها في محترف الخياطة: "لقد مكثتُ إلى جانبها، مدى سنتين، وشدّني إليها ورعها العميق، وما بذلتْه من رقّةٍ وصبرٍ في سبيل تعليمي، رغم

فهمي البطيء. وقد تبيّنتُ ورعها من خلال استبحارها في الصلاة، صباحًا، وعلى امتداد النهار، ومن خلال عيشها الهادئ المنعزل. عند استيقاظي، صباحًا، كنت أجدها مستغرقةً في الصلاة، وعندما كنت أستسلم للنوم، ليلاً، كانت تبقى راكعةً، تصلّي، باسطةً ذراعيها. ولطالما شاهدت على فراشها أخشابًا موضوعةً على شكل صليبٍ، كانت ترقد فوقها. كانت تحدّثني عن الطقوس الكنسيّة، وتثقّفني في أمور الإيمان، والأخلاق السليمة. ولطالما لقّنتني تفادي قول السوء في الآخرين، ودعتني إلى عمل الخير لمن يسيئون إلينا. كانت تجود على الفقراء بكلّ ما تكسبه، وتجرّد ذاها تجريدًا تامًّا. وقلّما كان بين يديها مالٌ لأنّها كانت تعطي كلّ ما يأتيها حالما تحصل عليه. وكانت تنأى عن الاجتماعات الدنيويّة".

محاولة تعلّمها العزف على الأُرغُن

حالما استردّت شيئًا من قواها في البيت الأبويّ، اندفعت، بكلّ عزيمتها، إلى جمع مبلغٍ من المال يمكّنها من تعلّم العزف على الأُرغن، كفيلٍ بتسهيل دخولها الدير. ومنذئذٍ لم تغادر الإبرة يدها أثناء النهار في عمل الخياطة، وكانت تدأب، ليلاً، على المغزل كي تحيك أقمشةً، يمثّل ثمنها جزءًا من البائنة المطلوبة منها في الدير. وبارك الله عملها وجهودها، فاستطاعت ادّخار عشرين ريالاً من عمل الإبرة، ومؤونةً كافيةً من النسيج تقدّر قيمتها بأكثر من ثمانين ريالاً. ولولا الهدف الذي استدعى جهودها هذه، لما احتفظت لا بمالٍ ولا بنسيجٍ.

وكان ذووها، طيلة إقامتها النقاهيّة بينهم، قد دأبوا على محاولة ثنيها عن مشروع اعتناقها الحياة الرهبانيّة. وسدًى حاولت أُمّها إقناعها بأنّ وهنها وأمراضها المتواترة، ستنهض عقبةً دون اضطلاعها بالأعمال التي ستُفرض عليها في الدير، تعويضًا عن فقرها. ولكنّها ردّت، دائمًا، أنّ أعمال الدير، مهما بلغت من المشقّة، هي أهون شرًّا من مخاطر الحياة العلمانيّة. وتمادى السجال بينها وبين أُمّها التي لم تفتر لهجة توسّلاتها، وظلّت الفتاة محتفظةً بتصميمها الصلب، وفي الآن عينه برقّةٍ

ودماثةٍ كفيلتين بتلطيف غضب والدتها. ولا ريب أن إصرارها على المضيّ قدمًا في دعوتها الرهبانيّة، كان الغمّ الوحيد الذي سبّبته "أنّا كاتارينا" لأُمّها التي كانت تتوسّم في طيبة كبرى بناتها سند شيخوختها الوحيد، لأنّها لم تكن تتوقّع الكثير من أبنائها وبناتها الآخرين.

غير أنّ رياح "أنّا كاتارينا" لم تجرِ كما اشتهت سفينتها. فمعلّم العزف الذي قصدته كان يعاني ضائقةً ماليّةً خانقةً، وقد أوضحت، لاحقًا ما جرى، بقولها: "لم يحدث أيّ عزفٍ على الأُرغن... فمنذ وطئتُ عتبة ذلك البيت، لم أُقابل سوى البؤس والشقاء. وكان عليّ أن أمدّ يد العون. واضطلعت بمهمّة الخادمة، آخذةً على عاتقي العناية بالأُسرة، وأنفقتُ، في هذا السبيل، كلّ مدّخراتي، ولم يتسنّ لي، قطّ، العزف على الأُرغن".

ولو أنّه تيسّر لها تعلّم العزف على الأُرغن، لكانت أبدعت بيُسرٍ، فقد كانت تمتلك أُذنًا موسيقيّةً مرهفةً، وكَلَفًا بالنغم المؤتلف، ومهارةً يدويّةً خارقةً. ولكم تمنّت أن تنطوي قلوب البشر على مثل روعة تآلف الأنغام الموسيقيّة!

وُئِدَ، إذن، قبل مولده، المشروع الذي أرهقت "أنّا كاتارينا" نفسها في سبيله، والذي كانت تمنّي نفسها بقدرته على إشراع باب الدير لها. ويبدو أنّ خيبتها هذه قد أسهمت في جعلها أشدّ تآلفًا مع المشيئة الإلهيّة. وهي أوجزت هذه التجربة، بهذه الأسطر:

"كم تعلّمتُ، لدى تلك الأُسرة، معنى الجوع!. كانوا يقضون ثمانية أيّامٍ محرومين حتّى من كسرة خبزٍ. ولم يكن أيّ بائعٍ يسلّفهم ما يساوي ستّة ريالاتٍ. أنا لم أتلقّ أيّ درس عزفٍ، بل كنت مجرّد خادمةٍ، ولكن بلا أجرٍ. أنفقتُ كلّ مدّخراتي، حتّى كدتُ أنفق جوعًا، إلى أن أشفقت والدتي الطيّبة على حالنا، فجاءتني ببيضٍ، وزبدةٍ، وخبزٍ، وحليبٍ، ومكّنتنا من البقاء على قيد الحياة. وقالت لي، ذات يومٍ: "لقد سبّبتِ لي غمًّا شديدًا، ولكنّك ما زلتِ ابنتي. كلّما رمقتُ المكان الذي كنت تجلسين فيه، يتحطّم قلبي. ومع ذلك، ما زلتِ

ابنتي". وأجبتُها: "كافأك الله، يا أُمّاه الحبيبة! أنا لم يبقَ لديّ شيءٌ. شاء الله أن أغيث هؤلاء الفقراء، والآن سيتدبّر الله الأمر. أنا أعطيتُه كلّ شيءٍ، وهو سيعرف كيف سيغيثنا جميعًا".

ولكن، بقدر ما كانت "أنّا كاتارينا" تتجرّد في سبيل غوث الآخرين، كانت تنأى عن هدف حياتها، ويتفاقم ألمها. لقد أنفقت مدّخراتها، وعملت خادمةً بلا أجرٍ، وانتهت إلى إملاقٍ تامٍّ، ولم يُفضِ بها كلّ ذلك إلى غايةٍ. وبقي تعلّم العزف على الأُرغن بعيد المنال، غير أنّ رجاءها لم يهتزّ. فقدت كلّ ما كان كفيلاً بمساعدتها على دخول الدير، ولم يبقَ لها سوى الالتفات إلى الله بالقول: "أنت من دبّر كلّ ما حدث، فعليك أن تنتشلني ممّا تردّيتُ إليه!".

وواساها الربّ، فأراها ثمار تجرّدها، وصبرها، وعطفها ومحبّتها، والجواهر التي كان يوشّي بها ثوب عروسه، فقد كانت له دموعها وتوسّلاتها، وما أقدمت عليه من تضحياتٍ، وحرمانٍ، وكفاحٍ، أعذب من كلّ ألحان الأُرغن. إنّ الربّ الذي يؤلمه عزوف العديد من الرهبنات عن تقرّي الإشارات الروحيّة الخارقة لدى طالبات الانضواء إليها، وعن استبيان صدق الدعوات ومنشئها السماويّ، مؤثرةً الامتيازات العالميّة، والصفات الخارجيّة، والاعتبارات الشخصيّة، وشتّى العوامل التي تفضي إلى الخواء الروحيّ في كثيرٍ من الأديرة، ابتغى إحداث ثغرةٍ في جدار ازدراء تلك الرهبنات لسموّ الدعوات الحقّة، ولنعَمِها، وحقّق لمدعوّته "أنّا كاتارينا" ملتمسَها، بوسائله وباستخدامه معلّم العزف عينه الذي كان سبب إملاقها وخيبتها. فقد كان لذلك العازف ابنةٌ غاليةٌ على قلبه، تدعى "كلارا"، ماهرةٌ في العزف على الأُرغن، وتتمنّى جمعيّاتٌ رهبانيّةٌ كثيرةٌ الاستفادة من مواهبها. ولكنّ الرجل الذي لم يخفَ عليه مدى التردّي الروحي الذي انتهت إليه معظم الجمعيّات الرهبانيّة، كان حريصًا على سلامة ابنته الروحيّة، وكان قد خبَرَ ورع "أنّا كاتارينا"، وسموّها الروحيّ، وألّم برغبتها في اعتناق الحياة الرهبانيّة، وقدّر أرفع تقديرٍ تضحياتها في سبيل أُسرته، فقد وطّن العزم على تقديم ابنته لأيّة جمعيّةٍ

رهبانيّةٍ تتقبّل "أنّا كاتارينا" معها، جاعلاً من ذلك التقبّل شرطًا لا محيد عنه. ولطالما كان قد أكّد للفتاة التي أنقذت أُسرته: "لا يجوز أن تدخل ابنتي ديرًا، إلاّ وأنت معها. لقد فقدت الأديرة صرامة النظام المعتاد. ولكن إذا كنتِ، أنتِ، مع "كلارا"، فستحفظينها على السراط القويم".

وقرعت الفتاتان أبواب أديرةٍ عديدةٍ بلا طائلٍ، فقد كان فقرهما حائلاً؛ ومع أنّ بعض الأديرة طمعت في الاستفادة من مواهب "كلارا"، إلاّ أنّها كانت ترى في "أنّا كاتارينا" عبئًا. واتّفق أنّ دير الراهبات الأوغسطينيّات في مدينة "دولمن"، كان بحاجةٍ ماسّةٍ إلى عازفةٍ على الأُرغن، فرحّب بكلارا وحدها، ولكنّ والدها لم يتنازل عن شرطه، فإمّا قبول الفتاتين معًا أو لا قاطعةٌ. واستسلم الدير على مضضٍ.

ولكن قبل مواكبة "أنّا كاتارينا"، في رحلتها الرهبانيّة، لا بدّ من التوقّف عند شهاداتٍ تلقي الضوء على مسيرتها الروحيّة. فقد ورد في شهادة أحد معرّفيها، الأب "جاك ريكيرز" قوله:

"كنت، مدّة تسعة أشهرٍ، معرّف "أنّا كاتارينا إيمّيريك" في الفترة التي سبقت مباشرةً دخولها الدير. خارج كرسيّ الاعتراف، كانت تقصدني، أحيانًا، ملتمسةً النصح والعون من أجل دخول الدير، وكان يلفتني فيها، على نحوٍ خاصٍّ، بساطتها، وطيبة قلبها، واستقامتها، ولم أجد عليها مأخذًا سوى أنّها كانت، أحيانًا، بدافعٍ من محبّة المحتاجين، تبتاع لهم أشياء لا قدرة لها على أداء ثمنها في الحال. ولا بدّ من الإقرار بأنّها لم تتخلّف، قطّ، عن المشاركة، صباحًا، في الذبيحة الإلهيّة، كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وأنّها كانت تعترف وتتناول في جميع أيّام الآحاد والأعياد. وكان الناس يرون فيها شخصًا ورعًا وعطوفًا. ومع أنّ رغبتها في اعتناق الحياة الرهبانيّة قوبلت، في مناسباتٍ عديدةٍ، بالرفض، وأنّها أُصيبت بالخيبة، غير أنّها أظهرت، دائمًا، استسلامًا مثاليًّا لمشيئة الله".

وقد أفادت "كلارا" ابنة العازف، في شهادةٍ رسميّةٍ:

"قضت "أنّا كاتارينا" في منزلنا نحو ثلاث سنواتٍ. وكنت أُلاحظها، أثناء الوجبات، تتناول أسوأ الطعام. وفي نومها، كانت تستعيض عن القميص بثوبٍ صوفيٍّ خشنٍ، وتتمنطق، تحته، بزنّارٍ مشدودٍ شدًّا محكمًا، ومزوّدٍ بالعديد من العقد. وكان شدّه يحدث تورّمًا في جلدها. ولمّا تنامى الأمر إلى معرّفها نهاها عن استخدام ذلك الحبل، فخضعت، ولكنّ الحبل كان قد طبع على جسمها ما يشبه شريطًا أحمر.

"قبل إخلادها إلى النوم، كانت، غالبًا، تنتحي زاويةً من الحديقة، كي تصلّي وحيدةً. ولدى عودتها كنت ألحظ جلدها متورّمًا، وقد انتشرت عليه الخدوش، فأُلحّ في الاستفسار، فتبوح لي أنّها جلدت نفسها بأشواكٍ. وكثيرًا ما أخبرتني أنّ وحشًا أسود ضخمًا، كان يظهر لها، متظاهرًا بعزمه على طردها، وبما أنّها كانت تواجهه بلا وجَلٍ، كان يحدّق إليها بعينين مرعبتَيْن، ثمّ يتوارى".

وتروي "أنّا كاتارينا" نفسها، أنّها، في منـــزل عازف الأُرغن، واظبت على ما ألِفته منذ طفولتها، أي الصلاة، ليلاً، في الهواء الطلق. وغالبًا ما جهد إبليس في إخافتها، بأصواته المرعبة، ولكنّها كانت تمضي قُدُمًا في الصلاة، مضاعفةً حرارة صلاتها، فيأتي من ورائها على شكل كلبٍ ضخمٍ، ويلقي رأسه على كتفها، ولكنّها بعون الله تصمد، قائلةً له: "إنّ الله أقوى منك. وأنا خاصّته. أنا هنا من أجله، فلن تقوى على النيل منّي". حينئذٍ كان يدعها وشأنها. وغالبًا، في أثناء نومها، كان يشدّها من يدها، فتصدّه بالصليب والصلاة. وذات ليلةٍ، بلغ به الهياج أن حاول قتلها وتقطيعها أشلاءً، فاتحًا شدقًا ملتهبًا، فرسمت إشارة الصليب، ومدّت له يدها بجرأةٍ قائلةً: "عضّها". فلاذ بالفرار.

وكانت هجمات الشرّير تتوالى بشتّى الأشكال، في كلّ وقتٍ وكلّ مكانٍ، ولا تدع لها هدنةً. وبالمقابل، لم يكن الربّ يضنّ عليها بعزائه، فبعد استغراقها، أحيانًا، في الصلاة من أجل نفوسٍ مطهريّةٍ، كان نورٌ بهيٌّ يغمر المكان الذي صلّت فيه.

إكليل الشوك، ودخولها الدير

كانت "أنّا كاتارينا" دائبةً على إتمام زينة قرانها بعريسها الإلهيّ، موغلةً، ساعةً فساعةً، في الفقر، والتواضع والتجرّد. وشاء العريس إكمال زينتها، فأهداها جوهرةً كان قد ازدان هو بها في لحظاته الأخيرة على الأرض، ففي ظهر يومٍ من سنة إقامتها الأخيرة في بيت الموسيقيّ، وإذ كانت مع ابنة ذلك الموسيقيّ "كلارا"، في كنيسة اليسوعيّين في "كوسفيلد"، مأخوذةً في تأمّل الصليب، اعترتها رؤيا، وإذ بعريسها الإلهيّ يخرج من بيت القربان، بهيئة شابٍّ متألّقٍ، حاملاً في يسراه باقة زهورٍ، وفي يمناه إكليل شوكٍ؛ ودعاها إلى الاختيار، فاختارت الإكليل، ووضعه هو على رأسها، ثمّ تولّت هي غرسه، بيديها كلتيهما. ومنذئذٍ انتابتها آلامٌ يتعذّر وصفها، ولم تبارحها، قطّ، من بعدُ. اضمحلّت الرؤيا، واستعادت الفتاة وعيها، فسمعت رنين مفاتيح كان حارس الكنيسة قادمًا بها لإغلاق أبوابها. فعادت إلى البيت مع رفيقتها التي لم تكن قد لاحظت شيئًا ممّا حدث لها، فيما كانت الآلام تشيع في جبينها وصدغيها أوجاعًا مبرّحةً. واستوضحت رفيقتها هل ترى شيئًا غريبًا في رأسها، فأجابت بالنفي. ومع ذلك، منذ اليوم التالي ظهر تورّمٌ واضحٌ في رأسها فوق العينين، وفي وجهها من الصدغين حتّى أسفل الخدّين. ولم يظهر آنذاك أيّ نــزف دمٍ حتّى دخلت الدير؛ وهناك حرصت "أنّا كاتارينا" على إخفاء تلك الظاهرة عن أخواتها.

ولاحقًا، غدت "أنّا كاتارينا"، في الأيّام المكرّسة لذكرى آلام يسوع، ترى وتمسّ، مادّيًّا، إكليل الشوك، الذي أُهديته. وكانت، كلّما اشتدّت حرارة صلاتها، تضغط على مكان الإكليل في رأسها، كي تغرس الأشواك فيه، أعمق فأعمق. ولّما شرعت جراح رأسها تنــزف في الدير، ظهرت على حجابها علاماتٌ حمراء، ظنّتها رفيقاتها لوثات صدأ إلى أن فاجأتها إحدى الراهبات تمسح الدم عن رأسها، فاستحلفتها "أنّا كاتارينا" أن تكتم الأمر كتمانًا مطبقًا.

وأخيرًا حان موعد دخولها الدير، الذي طالما حلمت به، وسعت إليه، فعادت إلى مسقط رأسها، دسكرة "فلامسك"، للمرّة الأخيرة، كي تودّع ذويها. فشكرت

لوالديها كلّ ما أحاطاها به من عطفٍ وعنايةٍ، واستصفحتهما وأشقّاءها وشقيقاتها، بسبب تعذّر استجابتها لرغبتهم في مكوثها معهم، لأنّ ذلك يعني رفض دعوة الله. واقتصر ردّ أُمّها على تذريف الدموع، أمّا والدها، فرغم حبّه الشديد لها، شقّ عليه غيابها عنه حتّى فجّر ينابيع المرارة والغضب الكامنة فيه، فقال لها حانقًا: "إن شئتِ أن تُدفني غدًا، فسأدفع، طوعًا، نفقات دفنك. أمّا من أجل دخولك الدير فلن أدفع فلسًا".

وهكذا أمّت الدير مجرّدةً من كلّ شيءٍ حتّى من عطف والدها، ومع ذلك كانت تضجُّ فرحًا. وكان قد صعب على والدتها أن تغادر ابنتها محرومةً حتّى ممّا قد يذكّرها بذويها. فدسّت بين أمتعتها، خلسةً، قطعة نسيجٍ قيّمةً. وما إن اكتشفتها الفتاة حتّى سارعت إلى إهدائها لكلارا، ابنة عازف الأُرغن ورفيقتها في الدير، تعبيرًا عن شكرها لمساعدتها في بلوغ هدفها.

الدير الذي انضوت إليه لم يكن قد شهد، منذ تأسيسه، طالبةً تدخله خالية الوفاض من كلّ شيءٍ، حتّى من الصحّة. ورغم توسّلها الرئيسة، بتواضعٍ سحيقٍ، قبولها، حبًّا بالله، وكأنّها أدنى خادمةٍ، وتأكيدها التأهّب للخضوع بفرحٍ لكلّ عملٍ يُطلب منها، لم تفلح في تبديد الامتعاض السائد الناجم عن فرضها عبئًا إضافيًّا على ديرٍ يئنّ فقرًا، فقرًا ماديًّا، وفقرًا روحيًّا، إذ كانت قد تراخت فيه قواعد النظام الرهبانيّ، وفترت الحياة الروحيّة، ولم تعُد نـــزيلاته تتميّزنَ عن سائر النساء المسيحيّات إلاّ بثوبهنّ. وكان على "أنّا كاتارينا" أن تشقّ دربها إلى قمم الكمال، في هذا المناخ، غير الملائم، كما كان عليها، من أجل تحقيق رسالتها التعويضيّة عن أخطاء الآخرين، أن تحوّل العقبات الكأداء المنتشرة على دربها إلى حوافز للترقّي في سلّم الكمال، مستخدمةً الزاد الروحيّ الذي تراكم فيها مع كرّ السنين. وقد أرشدها الازدراء الذي قابلته به راهبات الدير إلى النهج المتوجّب عليها سلوكه، إرضاءً لساكن بيت قربان ذلك الدير، ووفقًا لإرشاداته، محقّقةً ما طلبته من الرئيسة لدى دخولها الدير، حيث عوملت، على امتداد إقامتها فيه، على أنّها الأخيرة، والقابعة في أدنى الدركات السفلى.

ابتداءٌ رهبانيٌّ، في "دولمن"

كان عليها أن تقضي الأشهر الأولى، بصفة طالبةٍ، محتفظةً بزيّها العلمانيّ. وشاركتها حجرة إقامتها "كلارا"، ابنة عازف الأُرغن. ومكّنها الله من تقديم خدماتٍ للدير بفضل عملها اليدويّ المتقَن، ومن سدّ احتياجاتها المادّيّة الزهيدة، بما كانت تكسبه من أعمال الخياطة، ومن توفير ثمن زيّها الرهبانيّ. وبذلك نجت من خطر الطرد الذي يطال من لا نفع منهنّ. وبتاريخ ١٨٠٢/١١/١٣، ارتدت الثوب الرهبانيّ، وباشرت فترة الابتداء. وخُصّصت لها أسوأ حجرةٍ في الدير، كانت تحتوي كرسيًّا بلا مسند ظهرٍ، وكرسيًّا آخر بلا مقعدٍ، وعوضًا عن المنضدة كان عليها استخدام قاعدة النافذة. ومع ذلك، أقرّت لاحقًا: "بدت لي تلك الحجرة البائسة، من الامتلاء والروعة، وكأنّ السماء كلّها تقيم فيها".

كانت توّاقةً إلى ممارسة أكثر الإماتات قسوةً وصرامةً، وأشدّ التضحيات التي كان واجب الطاعة الرهبانيّ، قديمًا، يفرضها على المبتدئات، ولكن لم يكن من يلزمها بها في ذلك الدير الذي غابت عنه الثقافة الروحيّة، فتولّى المعلّم الإلهيّ تعويض هذا النقص، واقتيادها اقتياد تلميذةٍ طائعةٍ في معارج الكمال، عبر الظروف التي كانت تجتازها. فأنقذها من ميلها الفطريّ إلى النـــزق وسرعة الغضب، وسمح بتعرُّضها، منذ مباشرتها مرحلة الابتداء، إلى اتّهاماتٍ باطلةٍ، وتأنيبٍ ظالمٍ، وعقاباتٍ مهينةٍ عن ذنوبٍ لم ترتكبها، لم يكن لها بها علمٌ، ولا تصلها بها صلةٌ. فتحمّلتها صامتةً، راضيةً، غير ساعيةٍ إلى الدفاع عن نفسها، ومفتقرةً إلى من تبوح له بشكواها، أو تؤكّد له براءتها. ولكم اقتضى منها احتمال هذه الاضطهادات من صراعٍ داخليٍّ، وصبرٍ، ونأيٍ عن كلّ شعورٍ بالحقد على أحدٍ من ملفّقي التهم الباطلة لها، ومحتفظةً لجميعهم بكلّ ودٍّ، وشاكرةً للربّ امتحانه لها! غير أنّ هذه الآلام النفسيّة المكبوتة، ما لبثت أن انقلبت أمراضًا جسديّةً خطيرةً، لم تبرأ منها بيسرٍ.

ففي عيد ميلاد عام ١٨٠٢، انتابتها آلامٌ حادّةٌ في قلبها، ومعدتها، أقعدتها عن الاضطلاع بالأعمال المطلوبة منها. ولكنّها حزمت كلّ قواها كي تتغلّب عليها،

وكيلا تكون عالةً على ديرها. بيد أنّ الآلام كانت تتفاقم باطّرادٍ، حتّى خُيّل إليها أنّ سهامًا حارقةً لا تني تنقضّ، بلا انقطاعٍ، وتصيبها في الصميم. ولكنّ تواضعها كان يمنعها من البوح لآخرين عن أسباب أوجاعها الحقّة، والتي كان قد أطلعها عليها شفيع جمعيّتها الرهبانيّة، القدّيس أوغسطينُس، مبيّنًا لها أنّ للثوب الرهبانيّ الذي ارتدته علاقةً وجوديّةً حميمةً بجمعيّتها الرهبانيّة، التي أصبح قلبها مركزًا روحيًّا لها، تتحمّل تبعات كلّ ما يُرتكب فيها من أقوالٍ وأفعالٍ خاطئةٍ، وكلّ إهمالٍ وانتهاكٍ للنظام، فهذه كلّها تتحوّل سهامًا مصوّبةً إلى قلبها.

واستُقدم طبيبٌ لمعالجتها، فشخّص لديها تشنّجًا عضليًّا، ووصف له دواءً. كانت تلك هي المرّة الأولى، في حياتها، التي تخضع فيها لمعالجة طبيبٍ، إذ كانت، من قبلُ، تعالج نفسها بأعشابٍ تكتشفها بذاتها. وهي، في تلك المناسبة، كانت واثقةً أنّ ما من طبيبٍ بشريٍّ قادرٌ على شفائها من علّةٍ تنـــزلها بها عوامل غير طبيعيّةٍ. ومع ذلك، باسم واجب الطاعة، خضعت لأوامر الطبيب.

وإمعانًا في تمرّسها بالطاعة والتواضع، ودعمها بمزيدٍ من المنعة، سمح الله للشرّير أن ينصب لها شراكًا. فظهر لها إبليس في هيئة ملاك نورٍ، وحثّها على هجر الدير الذي يكلّفها بما يفوق طاقاتها، موسوسًا لها أنّ الانحناء تحت وقرٍ أثقل ممّا يرتضيه الله هو خطيئةٌ، وملوّحًا لها بالآلام التي ستسبّبها لها الراهبات في المقبل من الأيّام. ولكن، كان حسب "أنّا كاتارينا" أن ترسم إشارة صليبٍ، كي يلوذ الشرّير بالفرار، خاسئًا.

وفي نوباتٍ أُخرى، جهد الشرّير في إيغار صدرها على الرؤساء المتجبّرين، وإخافتها منهم. وبلغ به الدهاء أن جعلها، ذات مرّةٍ، تشعر، حسّيًّا، بمجيء رئيسة الدير، ومرشدة الابتداء إلى مخدعها، ليلاً، وإيساعها إهاناتٍ، عادّتينَها غير جديرةٍ بالدعوة الرهبانيّة، وأنّ طردها واجبٌ، ثمّ غادرتاها غاضبتَيْن، صابّتَيْن عليها أقذع الشتائم. فظلّت تنتحب حتّى الصباح، وحينئذٍ استدعت معرّفها، وروت له ما حدث لها،

مستوضحةً عمّا يتوجّب عليها فعله، في سبيل تهدئة غضب الرئيسة. ولكنّ تحرّيات المعرّف أوصلته إلى يقينٍ بأنّ لا الرئيسة، ولا أيّة راهبةٍ أُخرى دخلت مخدعها، وأنّ ما حدث هو من ألاعيب أمير الشرّ. وحينئذٍ شكرت الأُخت لله أن جعلها تشعر، شعورًا صادقًا، عدم جدارتها بالحياة الرهبانيّة، وبذلك ردّت هجمات المجرّب.

وتبيّن لمسؤولي الدير، أنّ ما تلقّته الأُخت المبتدئة من علاجٍ، لم يؤتِها أيّ قدرٍ من الشفاء، فقد ظلّت تعاني من الوهن والخَوَر ما أشاع بين الراهبات اعتبارها عبئًا على الدير، لا قِبَل له على احتماله، وإيحاءً بوجوب طردها، في الحال، قبل إبرازها نذورًا تحول دون إبعادها.

وكانت "أنّا كاتارينا" قد وُهبَت، منذ صغرها، امتياز قراءة كوامن النفوس، ولم تسبّب لها، في صغرها، أيّ ضيقٍ، إذ كانت تعيش وسط قرويّين بسطاء، طيّبين، صريحين، لا يضمرون لها سوى المحبّة والنوايا الطيّبة. ولكنّها بين أسوار الدير، كانت تقرأ وتسمع كلّ كلمةٍ تتناولها بخيرٍ أو بشرٍّ. وكانت الأسباب التي يتداولها محيطها، تبريرًا لإبعادها، أسهمًا ناريّةً تدمي قلبها الرقيق. وكان الله يأذن بهذه الجراح لكي تقوى على تخطّي العقبات والمنغّصات الناهضة في دربها، وتتأهّل لدعوة التعويض عن ذنوب الآخرين، وافتداء أخطائهم بتضحياتها وصلواتها، ولكي تنتزع بوداعتها، ودماثتها، ومحبّتها، وصبرها، أسلحة الساعين إلى منعها من بلوغ النذور المقدّسة. فكانت كلّما بدرت منها تنهّدةٌ، أو لفظة شكوى، أو أمارة امتعاضٍ أو انفعالٍ تلقائيٍّ حيال تهمةٍ باطلةٍ، أو عقابٍ جائرٍ، تقمع ردود الفعل اللاإراديّة هذه باستغفار الأخوات المسيئات إليها، نادمةً، باكيةً. وبذلك كانت تمتصّ نقمة الأخريات، وتجتذب عطفهنّ. ثمّ كانت تهرع إلى الكنيسة، وتلتمس من ساكن بيت القربان القدرة على العمل، وعلى إنجاز المطلوب منها، وتقديم خدماتٍ للدير، معبّرةً عن هواجس نفسها، وهاتفةً: "إنّي حريصةٌ على البقاء في هذا المكان، حتّى إذا تعرّضت فيه للاستشهاد".

الصليب في حياتها

في يوم جمعةٍ من شهر شباط ١٨١٣، إذ كانت الأُخت راكعةً أمام القربان المقدّس، تصلّي، وحيدةً، في كنيسة الدير رأت بعينيها البشريّتين الحيّتيْن، صليبًا طوله شبران معلّقًا عليه المخلّص، مضرّجًا بالدماء، فاضطربت، وتوالت عليها هبّات حرٍّ وقرٍّ. وقد ذكرت لاحقًا: "جال بخاطري، حينذاك، أنّ الله ابتغى، من ذلك الظهور، إنبائي بآلامٍ بليغةٍ قادمةٍ. كنت أرتعش وأرتعد. ولكنّ مشهد مخلّصي الموجع تغلّب على نفوري من الألم، ووطّنت العزم على تحمّل كلّ شيءٍ، حتّى أعتى الآلام، سائلةً الله نعمة الصبر عليها".

ولم يخِبْ ظنّها. فمنذ تلك اللحظة ابتُليت بمحنة النحيب، وعجزت عن حبْس الدموع، دموع مرارةٍ وأسًى على ما كان يُنـــزل بالفادي من إهاناتٍ تشهدها حسّيًّا، أو تشعر بها بحدسها الداخليّ، والتي كانت تفجّر فيها ينابيع العبرات المريرة، وتدعوها إلى التكفير عنها. كلُّ اضطراب ينشب بالكنيسة، وكلّ سرٍّ مقدّسٍ أُعطي أو تُلقّي بلا استحقاق، كلّ عمًى روحيٍّ، وكلّ تقوى زائفةٍ تموّه خطايا خفيّةً أو مقاصد شرّيرةً، وكلّ نعمةٍ إلهيّةٍ رُفضت أو قوبلت باستخفافٍ، وكلّ عقيدةٍ إيمانيّةٍ ازدُريت بكبرياء، وبالعموم كلّ خطايا الفكر، التي لا يعترف بها مقترفوها ولا يتوبون عنها، كانت تثير فيها من الأسى، ومن الإكباب على الصلاة، ما كان يستمطر من مآقيها دموعًا حارقةً لا تقوى على حبسها، تنثال على وجنتيها وعنقها، وتغرق صدرها، قبل أن تتنبّه لها، وتغمرها بالخجل. هذه الدموع كانت تتفجّر منها تلقائيًّا، حيثما وُجدت. في الكنيسة، وأمام المائدة المقدّسة، وأثناء الطعام والعمل، وكانت تفاجئها هي ذاتها، وتُشعِرها كم هي عبءٌ على الجماعة، التي لم تأبه، بادئ الأمر، بنوبات بكائها، ولكنّها سرعان ما انقلبت هذه النوبات مدعاة لومٍ وتأنيبٍ، وموضع استياءٍ تامٍّ، وعُدَّت نـــزوةً منكرةً. فكانت تعتذر راكعةً، عمّا بدر منها لا إراديًّا، وواعدةً ببذل كلّ ما يسعها من جهدٍ في سبيل سدّ منابع الدموع. ولكن، في

اليوم التالي كانت أخواتها يجدنَ مركعها ومقعدها مبلَّلين بدموعها، فيُكلنَ لها كلّ ألوان التهم، جزافًا. ومع ذلك، كانت تتقبّل كلّ تأنيب، وكلّ ما يُفرض عليها من عقاب، بتواضعٍ وتسليمٍ، إلى أن اقتنعت رئيسة الدير بأنّ الدموع هي للأُخت "أنّا كاتارينا" مبعث إزعاجٍ، أكثر ممّا هي لسائر الأخوات، وأنّها نابعةٌ من ضعف أعصابها، أو من ميلٍ فطريٍّ لا إراديٍّ، وليست نـــزوةً، ولا تعبيرًا عن استياءٍ. ومع ذلك، كانت هي تخشى أن تكون دموعها تعبيرًا باطنيًّا تلقائيًّا عن امتعاضٍ من معاملاتٍ جائرةٍ، أو عن حنقٍ خفيٍّ، واستشارت في الأمر معرّفها الذي طمأنها بأنّ منبع دموعها هو محض تعاطفٍ، لا يشوبه لا حنقٌ ولا حقدٌ.

وتوقعّت الأُخت المسكينة أن تُضعف الأيّام حدّة تعاطفها، وتجفّف ينابيع دموعها، غير أنّ الأمور جرت على نقيض توقّعها. فكانت تبوح بشكواها لجميع المعرّفين الذين تعاقبوا على إرشادها أثناء إقامتها في الدير؛ وقد أجمعوا كلّهم على تهدئة روعها، وعلى تحرير ضميرها من كلّ شعورٍ بالذنب.

كان الربّ قد أراها عظمة الالتزام بالنذور الرهبانيّة، وفي طليعتها الطاعة. فتحرّقت توقًا إلى أن تُفرَض عليها مهامّ شاقّةٌ اختبارًا لطاعتها، ولم تكفّ عن مطالبة رئيستها بإيكال أصعب المهامّ إليها. غير أنّ ممارسة الطاعة والانضباط كانت قد تراخت كثيرًا في ذلك الدير، وكانت الرئيسة تكتفي دائمًا بإجابتها: "لديك قدرٌ كافٍ من الذكاء، كي تتبيّني ما يتوجّب عليك فعله". وكان يحزّ في نفسها ألاّ تتاح لها فُرَص امتحان طاعتها، وابتغت التعويض عن تلك الفُرَص، باطّلاعٍ عميقٍ ودقيقٍ على مقتضيات النظام الرهبانيّ، فدأبت على مطالعة هذا النظام، وهي راكعةٌ. وانبرى الشرّير لامتحانها، حيث أخفقت الرئيسة، فكان يطفئ الشمعة التي تستنير بها، أو يطبق الكتاب بين يديها، ولم تكن تخفى عليها هويّة الفاعل الخفيّ، فتسارع إلى إعادة إشعال شمعتها، وتكبّ بإصرارٍ وحرصٍ مضاعفَيْن على المطالعة. وكلّما أمعن الشرّير شراسةً في امتحانها، وحتّى في ضربها والتنكيل بها، كانت هي تتوغّل في تمعّن روح النظام الرهبانيّ.

وتسنّى لها إثبات رسوخ روح التواضع والطاعة لديها، عندما قرّرت ابنة تاجرٍ هولنديٍّ ثريٍّ، كان الدير يستضيفها، قضاء عطلةٍ طويلةٍ مع ذويها، وقبل مغادرتها أهدت كلّ راهبةٍ دينارًا. ولكنّها كانت تقدّر فضائل "أنّا كاتارينا" نادرة المثال، وتكنّ لها مودّةً خاصّةً، وشيئًا من الشفقة. فأهدتها دينارين، وسارعت الأُخت إلى إيداعهما لدى الرئيسة. واعتملت الغيرة في نفوس سائر الراهبات لأنّ الفتاة الهولنديّة ميّزت "أنّا كاتارينا" عن جميعهنّ، واتّفقنَ على الكيد لها، وأجمعنَ على ادّعاء أن الضيفة أهدتها خمسة دنانير، ولكنّها لم تودع سوى اثنين منها لدى الرئيسة، وأعطت ثلاثة دنانير لعازف الأُرغن الذي كان يزور، حينذاك، ابنته "كلارا"، حارمةً الدير من ثلاثة دنانير. ودُعيت المسكينة إلى مجلسٍ تأديبيٍّ، واستُحلِفتْ كي تقرّ بذنبها، ولكنّها أصرّت على تأكيد الواقع مثلما حدث. ورغم قسوة الأخوات لم تَحِدْ عن إصرارها على قول الحقيقة. وأُمرت ظلمًا، باستغفار الراهبات، واحدةً واحدةً، وهي راكعةٌ. وتقبّلت، راضيةً، هذا العقاب الجائر، سائلةً الله أن تسهم هذه المهانة في تليين قلوب أخواتها، فتصفحنَ عن كلّ ما لا يروق لهنّ من سلوكها. وبعد أشهرٍ، عادت الفتاة الهولنديّة، فالتمست "أنّا كاتارينا" من الرئيسة أن تستوضح منها حقيقة ما اتُّهمت به افتئاتًا. ولكنّ الرئيسة اكتفت بالردّ أنّ الأمر قد طُوي، ولا مبرّر لإحيائه. وهكذا ظلّت الأُخت المسكينة تحمل مهانة تهمةٍ باطلةٍ؛ غير أنّها أثبتت قدرتها على إطفاء نيران غيرة الأخوات، بتواضعها السحيق، وبتضحياتها البطوليّة. ومع ذلك، ظلّت فضائلها عينها تسعّر لدى بعضهنّ لهيب الحنق.

ومع كلّ الجهود المضنية، التي بذلتها، لاحقًا، في سبيل إخفاء المواهب الاستثنائيّة والكرامات الفريدة التي خصّها بها الله، لم تقوَ، طويلاً، على منع اعتلان غنى الحياة الروحيّة الكامنة فيها. ولم يُفلح ظاهرها المغرق في البساطة والتواضع في حجب تألّق جوهرها القدسيّ السامي الذي لم يكن بوسع الأُخريات إنكار تميّزها وتفوّقها به عليهنّ، فآثرنَ اعتبارها غريبة الأطوار، ومزعجةً، ومربكةً.

وكان يشدّها إلى القربان المقدّس جاذبٌ لا تجد إلى مقاومته سبيلاً. فكانت، وهي تجتاز الكنيسة، تركع فجأةً، وتنسحق، وكأنّها أُصيبت بشللٍ مباغتٍ، وتنتابها، باطّرادٍ، حالات انخطافٍ، وآلامٌ داخليّةٌ، لا تقوى، مع كلّ جهودها، على إخفائها، وتجعل منها، في نظر الأُخريات، لغزًا مبهمًا، أو يشيع فيهنّ شعورًا بالضيق.

وشهدت مرشدة المبتدئات: "لحظت لديها ميلاً آسرًا إلى إماتة الذات، وكنتُ أُضطرُّ، أحيانًا، في الساعة العاشرة من ليالي شتاءٍ قارسة البرد، إلى انتشالها من الكنيسة حيث أجدها ساجدةً أمام الهيكل. ولولا تدخّلي لكانت مكثت، هناك، الليل كلّه".

ومن جانبٍ آخر، اعترفت هي نفسها:

"من جرّاء موهبة التبصّر، وقراءة كوامن النفوس، التي أوتيتُها، كنتُ أعلم كلّ الأمور الجارحة التي تجري، وتقال، وتجول بخاطر الأُخريات، وأشعر بها رغم خفائها. ما من شخصٍ محيطٍ بي، لا راهبة، ولا كاهن، كان ملمًّا بحالتي النفسيّة، وبالإدارة الخاصّة التي كنت أخضع لها. وأنا نفسي كنت أحيا في عالمٍ آخر، لا أستطيع كشف أيّ شيءٍ منه. ولكن، بما أنّ ظروفًا عديدةً كانت تُظهر إشاراتٍ عمّا يعتمل في داخلي، مدهشةً المحيط الذي كنت أعيش في أحضانه، أصبحت، حتمًا وغالبًا، للذين أعيش وسطهم، هدفًا لريَبٍ حاقدةٍ، وللافتراءات، والاغتياب، والأقوال المهينة... التي كانت تخترق قلبي اختراق سهامٍ حادّةٍ، حتّى لم يبقَ فيَّ مطرحٌ واحدٌ ناجٍ من الطعن. ولطالما شعرتُ أنّ آلاف الطعنات أصابتني. ومع ذلك كنتُ أبدو ساجيةً، متدفّقةً ودًّا، وكأنّ لا علم لي بأيٍّ من تلك الإساءات. وفي الواقع لم يكن لي علمٌ ظاهرٌ بها، بل كان كلّ شيءٍ يجري في داخلي، كي أتمرّس بالطاعة والمحبّة والتواضع. وإنْ أنا أخلَلْتُ، في شيءٍ من هذه الفضائل، كنتُ أنال عقابًا داخليًّا شديدًا...

"وبالإجمال كان وضعي في الدير على تباينٍ شاسعٍ عن شؤون العالم، بحيث لم يكنْ يحقّ لي لوم الأخوات بسبب عجزهنّ عن فهمي، وبسبب نظرتهنّ إليّ

نظرة حذرٍ وريبةٍ، مع أنّ الله أخفى عنهنّ أُمورًا أُخرى كثيرةً، كان من شأنها الإمعان في إقلاقهنّ. ومع ذلك لم أشعر، قطّ، بغنًى داخليٍّ، وبسعادةٍ غامرةٍ، مثلما كنتُ أشعر آنذاك، رغم آلامي وشدائدي. وكنت أحيا بسلامٍ مع الله وخلائقه. وأثناء عملي في الحديقة، كانت العصافير تحطّ على رأسي، وكتفيّ، فنسبّح الله معًا.

"وكان ملاكي الحارس يواكبني، بلا انقطاعٍ، فيما كان الشرّير يحوم من حولي، ويوغر صدور الآخرين عليّ، وينكّل بي في حجرتي، ويوسعني ضربًا، ويسعى إلى إزعاجي بضجيجه المريع. ولكنّه لم يفلح في إيذائي أذًى بليغًا، إذ كان العون السماويّ يتداركني دائمًا.

"وكان يُخيّل إليّ أنّ الطفل يسوع لاطٍ بين ذراعيّ ساعاتٍ طويلةً، وأحيانًا، كنت أشعر، وأنا وسط الأخوات، أنّه يسير إلى جانبي، فأفيض سعادةً... وكان منظر محيّاي، حينئذٍ، يوحي بأنّني عاشقةٌ، فقد كان من العسير عليّ أن أُحبّ خطيبي الإلهي، بقدرٍ وافٍ. وكلّما كان أحدٌ يقول في الربّ الذي يحبّه قولاً جميلاً، كان قلبي يهفو ويخفق فرحًا".

النذور الرهبانيّة، في ١٨٠٣/١١/١٣

شارفت سنة الابتداء على نهايتها، ولم تكن الجمعيّة قد انتهت إلى قرارٍ بإبقاء المبتدئة والسماح لها بإبراز نذورها. وجاء في شهادة مرشدة الابتداء عنها: "إنّها راضيةٌ، دائمًا، بمشيئة الله، ولكنّها غالبًا ما تبكي، وتأبى الإفصاح عن سبب بكائها، أو لا تجسر على ذلك. ولم ألحظ عليها أيّ مأخذٍ أو ملامةٍ".

هذه الشهادة لم تكفِ لدعم قرار إبقائها. وبُحِثَت قضيّتها في مجلس الدير، فاتّضح أنّ العامل السلبيّ الأوحد الذي قُدِّم تبريرًا لإبعادها، هو التخوّف من هزال صحّتها الذي قد يجعل منها، خلال فترةٍ قصيرةٍ، عاجزةً عن كلّ عملٍ، ويحوّلها عبئًا دائمًا على الجمعيّة. ولكنّ رئيسة الدير ردّت هذه الحجّة، بإعلانها أنّ الذكاء الذي

تتمتّع به "أنّا كاتارينا"، ودرايتها في كلّ الأُمور، كفيلان بجعلها مفيدةً جدًّا للجمعيّة. هذه الشهادة أطاحت بحجج المعترضات اللواتي اعترفنَ، مع ذلك، أنّ "أنّا كاتارينا" أثبتت، دائمًا، وفي كلّ الظروف، أنّها راهبةٌ جيّدةٌ، وأنّ ما من مبرّرٍ جدّيٍّ لإبعادها.

وفي حين بدا أنّ كلّ العقبات قد أُزيحت عن درب نذورها، أقامت استقامتُها المغرقة في التشدّد عائقًا جديدًا؛ فقد تذكّرت أنّ عازف الأُرغن كان قد استدان مبلغًا من المال كي يتيح لابنته ولها دخول الدير، وأنّ الدائن اقتضى توقيعها على الصكّ بصفة كفيلةٍ متضامنةٍ، وخشيت احتمال إجبار الدائن لها على تسديد الدين. وباحت بهذا الهاجس لرئيستها، التي تأكّدت أنّ الدين لم يسدّد بعدُ. فقرّرت الجمعيّة إرجاء إبراز نذورها حتّى وفاء الدين الذي التزمت به. ولم تحجم "أنّا كاتارينا" عن أيّ مسعًى بشريٍّ، في سبيل توفير مبلغ الدين، بلا طائلٍ، ولا سيّما أنّ والديها وإخوتها لم يكتفوا بالإحجام عن مدّها بفلسٍ واحدٍ، بل أوسعوها لومًا بسبب توقيعها على صكّ الدين، وشمتوا بها من جرّاء ما أوصلها إليه عنادها وإصرارها على دخول الدير. وحينئذٍ، توجّهت إلى الله بتوسّلاتها الحارّة، فجعل لها مخرجًا، بطرق عنايته العجيبة، واستطاعت، أيضًا، مساعدة رفيقتها "كلارا"، ابنة عازف الأُرغن، وهكذا أبرزتا معًا نذورهما، قبيْل عيد تقدمة العذراء إلى الهيكل، يوم ١٨٠٣/١١/١٣. وكانت "أنّا كاتارينا" حينذاك، في الثامنة والعشرين من عمرها. ومنذئذٍ أقلع ذووها عن مقاطعتها، وزارها أبوها وشقيقها في "دولمن"، وأهدياها قطعتي نسيج. يصعب تخيّل المشاعر التي ضجّت بها، وهي تعلن نذورها أمام الهيكل. فلطالما تاقت إلى تلك اللحظة المباركة، ولكم عانت قبل بلوغها! تأهّبت لها بمثل هذه الحرارة التي واكبت تأهّبها لمناولتها الأولى ولتثبيتها. ومع أنّها كانت قد فرضت على ذاتها، في الأيّام السابقة، تضحياتٍ أليمةً، ولم تكن قد نجت، بعدُ، من وقع الاضطرابات والهواجس التي كابدتها، إلاّ أنّها، في ذلك اليوم الحاسم من مسيرتها الروحيّة، بدت مشعّةً عزيمةً وصحّةً. وكانت السعادة التي غمرت

نفسها وهي مقدمةٌ على الاقتران بعريسها السماويّ، تشعّ من كلّ كيانها. وكان حدْسها الذي أظهر لها سموّ معنى ذلك الاحتفال، وذكرى المِحَن التي خاضت غمارها منذ طرق مسامعَها نداءُ السماء إلى تكريس ذاتها كلّيًّا للربّ، وكلّ ما حقّق الله فيها ومن خلالها، حتّئذٍ، يفجّر في داخلها فيضًا من الفرح والشكر. كان الربّ يريها الزهور الذهبيّة، والجواهر والأحجار الكريمة التي وشّت، في ذلك اليوم، ثوبها الرهبانيّ، مكافأةً لكلّ خطوةٍ خطتها نحو هذا الهدف، وكلّ نصرٍ أحرزته، وكلّ نهدة توقٍ، وكلّ بادرة صبرٍ، وكلّ ألمٍ تحمّلته طوعًا وبفرحٍ. وانتابها شعورٌ عذبٌ بأنّ عريسها السماويّ كان يشهد، مع رهطٍ من القدّيسين، عرسها هذا، وأنّ ملكة العذارى هي التي تقدّمها لعريسها، الذي زيّنها بتلك الحلى الرائعة. واستحوذ عليها شعورٌ يندّ عن الوصف بالمنـــزلة السميا التي رُقّيت إلى قمّتها من خلال النذور الرهبانيّة، والتي زوّدت جسدها وروحها، وقلبها، وفكرها، بالبركات والنعم السنيّات، وأسبغت عليها كرامةً لم تقوَ، هي نفسها، إلاّ على إجلالها أعظم إجلال. وتيقّنت أنّها، منذ تلك اللحظة، أمست ملك الكنيسة، ومن خلال الكنيسة، ملكًا لرأسها اللامرئيّ، وأدركت العلاقة الرمزيّة التي ربطتها، ربطًا وثيقًا، بجسد الكنيسة.

من المحقّق أنّ لا أحد في الدير استطاع تخيّل ما كان يطوف في ذهن "أنّا كاتارينا"، وفي قلبها، من خواطر ساميةٍ، وما يختلج في فؤادها من مشاعر آسرةٍ. ولكنّ الربّ شاء أن يكون يوم عرسها الروحيّ، ذاك، مناسبة فرحٍ وسلامٍ، يشمل الجميع. وهي، من خلال دموع الفرح المنثالة على وجنتيها، عكست الغبطة التي أفعمت نفسها، وأفصحت عنها، أيضًا، من خلال عبارات ودٍّ وعرفان جميلٍ، استفاضت في إغداقها، شاكرةً لأخواتها توفيرهنّ لها فرصة إبراز نذورها، والإقامة بين ظهرانيهنّ، ومشيعةً جوًّا من الفرح والسلام في قلوب الجميع.

وعقب الاحتفال الكنسيّ أقيمت مأدبةٌ، دُعي إليها والداها، اللذان لم تكفّ ابنتهما، يومًا، عن سؤال الربّ أن يحلّ في قلبهما الرضى، والتسليم بالتضحية، التي

فرضتها عليهما استجابةً لدعوتها الرهبانيّة. وقد بلغ بهما التأثّر، وهما يشهدان عرسها الروحيّ، أن تضامنا على تقديمها للربّ بكلّ رضى نفسهما، وندما على ما كان قد بدر منهما، من مقاومةٍ لدعوتها. ومنذئذٍ غدا لهما تسليمهما الفرِح مبعث عزاءٍ جمٍّ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ عام ١٨٠٣ شهد تعرّض الكنيسة الكاثوليكيّة، في ألمانيا، إلى حملات نهبٍ، واضطهاداتٍ شرسةٍ، بغية تدميرها تدميرًا كلّيًّا، والقضاء على الإيمان المسيحيّ. ولكان هدف أعدائها قد تحقّق، لو لم يكن الله نفسه هو مؤسّس الكنيسة، والذائد عن حياضها. فاستخدم أعداءها أنفسهم، المبيّتين لها شرًّا، عقابًا، ورفشًا يحرّر به بيدره من الأجسام الغريبة التي اندسّت فيه. وريثما تتمّ مهمّة التنظيف والتطهير، احتفظ الربّ، في حرزٍ أمينٍ، أدواته المكرّسة، وأوانيه المقدّسة، التي تطوّعت للتكفير والتعويض عن آثام الآخرين، ومهّدت لتجلّي الكنيسة، وقيامتها متألّقةً بأبهى سنًى.

حفنةٌ من النفوس المكرّسة للتعويض والفداء هي التي وقت النار المقدّسة من الانطفاء، وطهّرت بمياه الآلام والاضطهادات والاضطرابات الأدناس التي لطّخت كنوز الكنيسة، والتي داسها بأقدام التخاذل واللامبالاة أُولئك الذين انتُدبوا لحمايتها ورعايتها. وكانت "أنّا كاتارينا" هي إحدى المختارات لهذه المهمّة الجليلة. وقد صهرها الله في بوتقة الآلام، وصقلها بمطرقة التضحية، حتّى جعل منها إناءً طاهرًا، منيعًا، أودعه كنوز الكنيسة النفيسة، حتّى يحين موعد إعادتها، نقيّةً إلى مودعها.

منذ سماعها نداء الربّ حتّى موعد إبرازها نذورها، اجتازت دربًا متماديًا ووعرًا، وأتيح لعدوّ الله والبشر، على امتداد رحلتها، استخدام كلّ فنون مكره وخبثه كي يثنيها عن غايتها، ويوهمها ببطلان جهودها وتضحياتها، ولكنّها تغلّبت على خداعه، ومراوغاته، وحملاته الخانقة بأسلحة التواضع والصبر والصمود، فاكتسبت من المنعة والسموّ الروحيّيْن ما زوّدها ببسالة الأبطال، محتفظةً بقدرٍ وافٍ من البساطة والسذاجة، وطفولة الروح التي يؤثرها الربّ.

ولكم من مشاقّ كانت ما زالت تنتظرها في حياتها الرهبانيّة الجديدة! فما كاد يخفت ألق الاحتفالات، حتّى عادت الأُخت "إيمّيريك"، في نظر معظم راهبات الدير، ذلك الدخيل الذي تقبّلْنَه على مضضٍ، والتي لم يغفرنَ لها، يومًا، فقرها واعتلالها. وظَلَلْنَ يتساءلنَ، بحيرةٍ، ما الذي دهاهنّ حتّى قبلنَها، وهي على ما هي عليه. وأشعرْنَها، باستمرارٍ، أنّها حجر عثرةٍ، ومحطّ نفورٍ لأعضاء الجمعيّة، التي كانت، هي، تضمر لها أخلص حبٍّ، وأثبت وفاءٍ.

وفي تلك المرحلة تعرّفت الراهبة الجديدة على الأب "جان مرتان لمبير"، وهو كاهنٌ فرنسيٌّ كان قد أُكره على المنفى، بسبب رفضه إعلان الوفاء لدستور الثورة الفرنسيّة، وقدم إلى أبرشيّة "مُنستر"، عام ١٧٩٤، وأُعطي مسكنًا في الدير الذي انضوت إليه "أنّا كاتارينا"، التي سرعان ما أُعجبت بما اكتشفته فيه من ورعٍ وخشوعٍ راسخين، أثناء احتفاله بالذبيحة الإلهيّة؛ وغدا ذلك الكاهن الغريب الملاذ الذي تلجأ إليه، وتبوح له بكلّ ما يثقل نفسها من هواجس. وسرعان ما تبيّن، هو، كنـــز النعَم الاستثنائيّة الكامنة في نفس تلك الراهبة، التي تمنّت أن تتّخذه لها معرّفًا، لو لم ينهض إلمامه الهزيل باللغة الألمانيّة عائقًا دون تحقيق رغبتها هذه. بيد أنّه، هو، التمس من معرّفها أن يسمح لها بتسريع وتيرة حصولها على تناول الإفخارستيّا، والتمس لنفسه إذنًا بمنحها هذا السرّ كلّما لحظ لديها توقًا مضطرمًا إليه. غير أنّ هذه العلاقة الروحيّة بين الكاهن الغريب المنفيّ العاجز والراهبة الجديدة، كلّفت هذه الأخيرة ثمنًا باهظًا كما سنرى لاحقًا.

ولا بدّ من الإقرار بأنّ تلك الأداة المختارة فشلت، في تلك المرحلة، في إقناع إدارة ديرها بالعودة إلى أصالة الحياة الرهبانيّة، وإعداد عناصر شابّةٍ أشدّ مناعةً وعزيمةً.

وفي الواقع كانت "أنّا كاتارينا" هي الراهبة الأخيرة التي أبرزت نذورها في ذلك الدير، الذي ما لبث أن أُغلق إغلاقًا نهائيًّا. ولكن كانت قد جُمّعت، في تلك الفتاة، كلّ الشروط التي تؤهّلها لتقديم أكثر الخدمات جدوى للكنيسة، وفي الخفاء. فقد

انتدبها الله لشفاء جسد الكنيسة، وبلسمة جراحه، بمقاساتها آلامًا مبرّحةً ومتواصلةً، طوعًا، وإن لم تتجلَّ، إلاّ في أجيالٍ لاحقةٍ، بركة وثمار حياتها المتواضعة، والمزدراة من قِبل العالم، والتي أثبتت، في الواقع، غناها وخصبها المدهشيْن.

كم هي رائعةٌ تدابير الله، وكم تتباين عن مخطّطات العالم وسُبُله! ففي حين كان العالم يودع بين يدي أمير الظلمات كلّ سلطانه، وعظائمه، وحيَله، بغيةَ الإطاحة بالكنيسة، كان العليّ، كلّيّ القدرة، يستدعي فتاةً راعيةً، خجولاً، مرهقةً بالعلل والآلام، كي تتصدّى لقوى الجحيم، بتواضع الصليب. وكانت كلّما أوغلت قُدُمًا في ذلك الدرب، تفاقمت آلامها. وأخيرًا انتهت البساطة الأكثر براءةً وطفولةً، بالتغلّب على قوى الشرّ، وازدهى محيط الآلام بأبهى ألوان النصر.

أمراضٌ وعِللٌ فدائيّةٌ

لقد أوجزت "أنّا كاتارينا" مسيرتها بهذه العبارة: "كنتُ قد سلّمت ذاتي، كلّيّةً، لخطيبي السماويّ. وكان يبدو لي أنّ التألّم، بسكونٍ، هو أقصى ما يمكن تمنّيه على هذه الأرض. ولكن لم يُقيَّض لي، قطّ، بلوغ هذا الهدف".

فقد انهالت الآلام عليها، سيلاً، وكانت تتقبّلها، شاكرةً، تقبُّلَها لهديّةٍ متمنّاةٍ. ولكنّها حُرمت، دائمًا من السكون، ومن الحياة الخفيّة، بمنأًى عن الأبصار، تشبّهًا بالربّ، الذي شاء أن يخوض غمار الآلام وسط تناقضاتٍ مستمرّةٍ، وحملاتٍ خارجيّةٍ، واضطهاداتٍ لا نهاية لها. وقد كان لكلّ ألوان معاناتها وآلامها، منذ صغرها، مغزًى روحيٌّ، إذ كانت، أحيانًا، مِحَن الآخرين تتحوّل، كلّيّةً أو جزئيًّا إلى عاتقها، تلبيةً لطلبها. أو كان الله يمتحنها بها تكفيرًا عن أخطاء لا علاقة لها بها. وكانت هذه الآلام قد شرعت بالتنامي إثر حصولها على سرّ التثبيت، وازدادت تفاقمًا عقب نذورها الرهبانيّة. فقد أُلقيت على كاهلها أوزار العِلَل الناشبة بجسد الكنيسة السرّيّ، ومواطن إخلال أبرشيّاتٍ ورعاياها بواجباتها الروحيّة، وعواقب خطايا إهمال رؤساء كنسيّين، وانتهاكاتهم، وجريرة الأوضاع البائسة التي تردّت

إليها طبقاتٌ بكاملها، من جرّاء ذلك. كلّ هذه المزالق والأوصاب والزلاّت الروحيّة، كانت تنقلب عِلَلاً وآلامًا تنشب بتلك الفتاة التي انتُدبت للتكفير عن أخطاء الآخرين.

كان قد سبقتها إلى هذه المهمّة الفدائيّة، في القرون السابقة، قدّيساتٌ شهيراتٌ، أمثال القدّيسة "هيلديغارد" في القرن الثاني عشر، وكاترين السييّناويّة في القرن الرابع عشر، و"ليدڤـــين" الهولنديّة في القرن الخامس عشر، وكانت هذه الأخيرة قد عانت من الآلام ما يتخطّى كلّ تخيّلٍ، وما يتعذّر على الطبيعة البشريّة تحمّله، وكانت قد لقيت كلّ أوصاب الكنيسة، آنذاك، فيها صدًى مدوّيًا، وترجمةً ماحقةً.

ولم يكن على "أنّا كاتارينا" تحمّل أوصاب الكنيسة بصفتها جماعةً، بل أوصاب كلّ فردٍ من أبنائها. وبالتالي توالت عليها، بلا انقطاعٍ، آلامٌ من كلّ لونٍ، وبأعراضٍ متعدّدةٍ، ومتناقضةٍ أحيانًا. هي أعطت الله كلّ ذاتها، كلّ عصبٍ من أعصابها، وكلّ قطرةٍ من دمها، وكلّ نفَسٍ تتنفّسه. وتقبّل الله تقدمتها، وكافأها على نقيض ما يكافئ البشر، إذ إنّه حوّل قوّتها وعافيتها وهنًا، ومرضًا، ووجعًا، وأحرق حياتها في أتّون الألم، وحوّل جسدها إلى مرجلٍ موضوعٍ فوق موقدٍ، وأعدّ فيه أدويةً لقطيعه، بأساليب مناقضةٍ لأساليب البشر المعهودة، مشرعًا طاقات نفسها الروحيّة على كلّ مشاعر الألم التي تخبرها النفس في علاقتها مع الجسد: مشاعر الرعدة، والحزن، والقلق، والتخلّي، والفتور، والقحط، والغمّ الذي يلامس الانهيار، فضلاً عن اختبارها بكلّ المكائد التي يحيكها إبليس للإيقاع بضحاياه، والشعور المرهق بدنوّ أجل تقديم الحساب لله، الذي ينتاب المحتضرين، وهواجس نفوس الخطأة، وهي تهمّ بمغادرة الجسد والمثول أمام منبر الديّان.

وتعيّن عليها، أيضًا، تحمّل أوزار كلّ فسادٍ أخلاقيٍّ، وتبعات أهواء الغضب، والرغبة في الانتقام، ونفاذ الصبر، والنهم، والفضول. وطُلب منها مصارعة هذه الأهواء، والتغلّب عليها كي ينعم مرتكبوها بالغفران والندم، والميتة الصالحة. وفوق كلّ هذه المحن، كان على "أنّا كاتارينا" أن تتحمّل معاناة خطيبها الإلهيّ،

ومعاناة الكنيسة، إذ كانت تشهد ما كان يُعدّه عدوّ كلّ خيرٍ، من أسباب تردّي أعضاءٍ من الإكليروس والمكرّسين، وانحطاطهم، بعد أن أفلح في استنفار خدّامٍ وأعوانٍ له من صفوفهم، ودسّ في سلك الكهنوت أزلامه من الملحدين، والمنضوين إلى جمعيّاتٍ سرّيّةٍ، والذين لم يتورّعوا عن التورّط في التآمر الماكر، بل في الحرب المكشوفة على رأس الكنيسة غير المنظور، وعلى ممثّله على الأرض، وعلى حقوق الكنيسة الإلهيّة، ومسؤوليها، وعقيدتها، وأسرارها المقدّسة. ولكم رأت من خلفاء ليهوذا يحشدهم إبليس لتحقيق مؤامراته! ولا ريب أنّ خيانة كلّ من نال نعمة الكهنوت لا تقلّ بشاعةً، وإمعانًا في طعن قلب المخلّص، عن خيانة يهوذا. رؤى هذه الخيانات ورؤيتها عيانًا، كانتا تطعنان قلب "أنّا كاتارينا" في الصميم، وتحمّلانها من الآلام ما يهدّها.

من خلال رؤًى متعاقبةٍ، كان الله يُريها مِحَن الكنيسة التي يتعيّن عليها التكفير عنها بتحمّل ما يوازيها من آلامٍ تتقبّلها طوعًا وحبًّا بالله. ولكن وسط جمٍّ من الإزعاج والمقاومة، والأحزان اليوميّة، وبمنأًى عن كلّ غوثٍ وعونٍ. وبذلك كان ثوابها يتنامى، وفضائلها تكتسب، يومًا فيومًا، تألُّقًا ورسوخًا، وتتصاعد عطرًا وبخورًا إلى العلاء، في حين كان محيطها يزدريها، أو لا يأبه بها. وكان الله يؤتيها، من خلال تأمّلاتها والمناسبات الكنسيّة، منعةً وعزاءً، وسلامًا داخليًّا وطيدًا، لا يتزعزع، وقدرةً على مواصلة القيام برسالتها الفدائيّة، في غمرة مضايقات المحيط واضطهاداته المتواصلة، وأمراضها التي لا يدركون لها سببًا. وإذا حاولت، هي، تفسيرها، لعدّوها مختلّةً، أو مبتلاةً بمسٍّ هيستيريٍّ. وبالتالي كانوا يخضعونها لعلاجاتٍ قاسيةٍ تضاعف أوجاعها، عوضًا عن شفائها. ولكنّها كانت ترضخ لتلك العلاجات بأمر الطاعة، وإن بدر منها تردّدٌ، أو سهوٌ، في تناول الأدوية الموصوفة، كانوا يتّهمونها بالكذب وتصنّع المرض، ويلزمونها بدفع أثمان الأدوية الباهظة، والتي كانوا يستبدلونها، غالبًا، بسواها، فيتوجّب عليها سهر الليالي، دائبةً على أعمال خياطةٍ تستعين بها على سداد أثمان الأدوية النافلة. وغالبًا ما كانت تنتهي إلى حالةٍ

من الإعياء لا تقوى، معها، على غوث نفسها، ولا تنال من أخواتها أيّ غوثٍ. ولكنّ الله كان يتداركها بعونه. واتّفق، يومًا، أن بلغت من الإرهاق أقصى دركاته، وغشاها عرقٌ باردٌ، فإذا براهبتَيْن تحضران، وتسوّيان سريرها، وتساعدانها على التمدّد عليه، وتشعرانها بالراحة والأمان. وعقب لحظاتٍ جاءتها الرئيسة برفقة إحدى الأخوات، ودهشتا، واستوضحتا عمّن أعانها، وبما أنّها كانت موقنةً أنّهما هما من أسديتا لها تلك الخدمة، فقد شكرت لهما صنيعهما، ولكنّهما أكّدتا أنّ لا هما، ولا أيّة راهبةٍ في الدير دخلنَ حجرتها، وعدّتا روايتها حلمًا وهذيانًا، وظلّ السرير المرتّب، والوضع المريح الذي وجدتاها فيه لغزًا مغلقًا. ولاحقًا علمت الأُخت "إيمّيريك" أنّ الراهبتين اللتين خدمتاها، كانتا قد عاشتا، سالفًا، في ذلك الدير عينه، وتميّزتا بالقداسة. ولم تكن تلك زيارتهما الوحيدة لها، فقد وافتاها، في مناسبةٍ أُخرى، وهي في أقصى حالات الإعياء، ورفعتاها عن سريرها كي ترتّباه. وفي تلك اللحظة، دخلت حجرتها إحدى راهبات الدير، فوجدتها ممدّدةً في الهواء، ولا شيءَ يسندها، وأطلقت صيحةً مريعةً أوقعت الأُخت "أنّا كاتارينا" أرضًا. وقد أثار هذا الحدث، في الدير، لغطًا ودويًّا، وانهالت عليها الاستفسارات عن بقائها راقدةً في الفضاء، بلا سندٍ مادّيٍّ. وعلّقت الأُخت على ذلك بقولها: "لم يكن بوسعي الإدلاء بأيّ تفسيرٍ، ولا سيّما أنّ تلك الأُمور كانت تبدو لي طبيعيّةً".

من المحقّق أنّ الربّ كان يزوّد إناء جسدها الهشّ بطاقاتٍ فائقةٍ، تساعدها على احتمال ما لا قِبَل لسائر البشر على احتماله، ويزوّدها بأدويةٍ سماويّةٍ توفّر لها شفاءً ومواساةً لا قدرة لمنتجات الصيادلة على منحها. ولطالما وجدت، قرب سريرها، عند استيقاظها، باقات زهورٍ ينعش عبيرها صدرها، وتشفي أوراقها أمراضها الجسديّة، وتهبها طاقةً على المضيّ قُدُمًا في رسالتها.

وفي نوبةٍ أُخرى، أُصيبت بعلّةٍ، امتدّت سبعة أشهر، أقعدتها عن الحركة، ومنعتها من تناول أيّ طعامٍ. وحار المسؤولون كيف بقيت على قيد الحياة، طيلة تلك المدّة، بلا طعامٍ، في حين أنّها، في الواقع، كانت منذ بدء إصابتها، قد زارتها أمّ الله،

وقدّمت لها طعامًا إلهيًّا، وجدته على راحة يدها، عند استيقاظها. وكان على شكل قربانةٍ كبيرةٍ، ناصعة البياض، ولكنّها أكثر سماكةً وطراوةً من القربانة المعتادة. وقد انتابها، لدى رؤيتها، شعورٌ بالإجلال كما لو كانت أمام ذخيرةٍ مقدّسةٍ. كانت تبعث رائحةً عذبةً، وفي الليل تصبح مضيئةً. وقد احتفظت بها، في سريرها، متناولةً منها، كلّ يومٍ، ذرّاتٍ صغيرةً، كانت كافيةً لتزويدها بقسطٍ من الطاقة يبقيها على قيد الحياة، على امتداد الأشهر السبعة.

وفي هذا السياق عينه، روت الأُخت "أنّا كاتارينا": "ذات ليلةٍ، كنت أدعو السيّدة العذراء، راكعةً أمام منضدة حجرتي، فرأيت امرأةً متألّقةً، تعبر الباب المغلق، وتتقدّم حتّى المنضدة، وتجثو بقربي وتشاركني الصلاة، فتولّتني الرعدة، ولكنّي واصلت الصلاة بهدوءٍ. وحينئذٍ وضعت الزائرة أمامي تمثالاً لأمّ الله، بحجم كفّ اليد، متألّق البياض... فتراجعت قليلاً خجلاً؛ وحينئذٍ قرّبت منّي الزائرة التمثال الصغير، فكرّمته داخليًّا. وتوارت الرؤيا، غير أنّ التمثال لبث في مكانه. وكان يمثّل أمًّا واقفةً، حاضنةً ابنها بين ذراعيها، وهو كان باهر الجمال، وبدا لي أنّه مصنوعٌ من العاج. وقد احتفظتُ به طويلاً، إلى أن أُمرتُ بإهدائه إلى كاهنٍ غريبٍ.

ولطالما تلقّت ورودًا ينشرح لفوحها صدرها، ويشفي الماء الذي تُنقَع فيه أوراقها أمراض الآخرين، وكانت تتلقّى، أحيانًا، آنية بلسمٍ تشفي جراحها وجراحهم، وأطعمةً تمسك رمقها، وتجود بمعظمها على الجياع، وإذا ما اكتشفتها الرئيسة، وحرصت على معرفة مصدرها، كانت تلك الهدايا السماويّة تنقلب لها مصدر مساءلةٍ وتأنيبٍ.

وبالمقابل، لم ينفكّ الربّ يمتحنها بمزيدٍ من الأوجاع. فقد كُلّفت، ذات يومٍ، بالمساهمة في رفع غسيل الدير إلى سطحٍ لنشره عليه. فاعتلت سلّمًا، ووقفت في قمّته، وشرعت تتسلّم الغسيل من راهبةٍ واقفةٍ في أسفل السلّم، وتسلّمه لراهبةٍ أُخرى على السطح. وبدر من الراهبة الواقفة عند أقدام السلّم إهمالٌ أدّى إلى سقوط "أنّا

كاتارينا"، على جنبها الأيسر، وسقوط سلّة الغسيل فوقها، وكاد هذا السقوط يقضي عليها، لو لم يتداركها الله بعنايته. غير أنّها أُصيبت بكسورٍ في وركها، وفي أجزاء أُخرى من جسمها، أضافت إلى آلامها السابقة مصادر آلامٍ، وأسباب إهاناتٍ جديدةٍ، كانت تتقبّلها طوعًا، تكفيرًا عن الإهانات التي يلحقها بشرٌ بالربّ. ومنذئذٍ غدا لها قرع جرس الدير مهمّةً شاقّةً، بل شبه متعذّرةٍ، فاتُّهمت بالكبرياء والكسل، في حين كان لها قرع الجرس، عادةً، بمثابة صلاةٍ، وطقسٍ مقدّسٍ، غالبًا ما ينسيها آلامها الجسديّة، إذ كان ينتابها، وهي تؤدّي هذه المهمّة، شعورٌ بأنّها تنشر البركة الإلهيّة، وتدعو الجميع، جهارًا، إلى تسبيح الله، طاردةً من قلوبهم فلول الشرّ، وداعيةً إلى تمجيد العليّ. ومنذئذٍ غدت لها أعمال غسل ثياب ساكني الدير، والأزياء الكنسيّة، وكيّها، استشهادًا حقيقيًّا، ومع ذلك كانت تصارع عجزها، ووهنها، وعللها، كي تضطلع بمهامّ مقدّسةٍ، ولا سيّما إعداد قربان الذبيحة.

عقب حادثة سقوطها تلك، اضطرّت إلى ملازمة الفراش طويلاً، وعرفها، منذئذٍ، آلامٌ في المعدة، كانت تسبّب نوبات تقيّؤ دمٍ متواترةً، من العنف أحيانًا بحيث كانت زميلاتها تخشَيْن أن تقضي عليها. بيد أن تغلّبها الدائم على مثل تلك النوبات التي تبدو قاضيةً، أوهم رفيقاتها بأنّها تنعم بمناعةٍ مطلقةٍ، وأنّ ما من علّةٍ قادرةٌ على النيل من حياتها، فأحجمنَ عن العناية بها، أيًّا كان خطر أمراضها. وإذ كان سريرها ملصقًا بجدارٍ، وحجرتها محرومةً من كلّ وسائل التدفئة، فقد تجمّد قشّ فراشها، في عزّ الشتاء، وانتابتها حمّى حارقةٌ، تمنّت معها أن تُسقى كأس ماءٍ باردٍ، رغم الجوّ الصقيعيّ. وتنامت أنباء معاناتها إلى مسامع أحد سكّان "دولمن"، فأطلع عليها دوقًا في تلك المدينة، بادر إلى إقامة مستوصفٍ مدفّأٍ في الدير، وطلب أن تُنقَل إليه الأُخت "إيمّيريك". وشهد ضيفٌ، عام ١٨١٣، أنّه وجدها ترتعد من القرّ في سريرها، سابحةً في عرقها، وقد تجمّد غطاء سريرها، وتجمّدت ثيابها وغلالاتها الداخليّة، حتّى أصبحت مثل قطع جليدٍ، ولم يكن لديها لا ثيابٌ ولا غلالاتٌ ولا أغطيةٌ تستبدل بها ما تجمّد. وكانت نوبات الحمّى المتلاحقة تضاعف آلامها.

كانت تحتاج إلى شيءٍ من القهوة، صباحًا، كي تستعيد بعض قوّةٍ تساعدها على الاضطلاع بواجباتها. وإذ كانت، غالبًا، تفتقر إلى ما تبتاع به بنًّا، فكانت تقصد المطبخ، وتجمع بقايا ما تركته أخواتها في آنية القهوة وفناجينهنّ، وتجعل منه شرابًا. وكان نظام الدير يفرض على الراهبات، بسبب ظروف الفقر السائدة، أن تتحمّل كلّ راهبةٍ كلفة إفطارها. وبما أنّ "أنّا كاتارينا"، بسبب إملاقها، وأمراضها التي تعيقها عن أعمال الخياطة التي توفّر لها بعض مالٍ تجود بمعظمه عمّن هم أشدّ منها فقرًا، وتستخدم الباقي لشراء مؤونةٍ من القهوة والخبز، كان الله يتولّى غوثها. فكانت، في بعض الأيّام، التي يشتدّ فيها إعياؤها وعَوَزُها، تعود من القدّاس إلى حجرتها التي أقفلتها بعنايةٍ، فتجد على إطار نافذتها بضعة نقودٍ تكفي لسدّ عوزها.

وإذا فضل لديها بعض مالٍ أو طعامٍ، كانت تسارع إلى البحث عمّن هم في حاجةٍ، مؤثرةً إغاثة من سبق لهم الإساءة إليها، والذين لا تخفى عنها نواياهم العدائيّة.

وفي هذا السياق روت: "ذات يومٍ، أعطاني "كونت غالن"، قسرًا، قطعتَيْن ذهبيّتَيْن، كي أتصدّق بهما على فقراء... وحوّلتُهما إلى نقودٍ صغيرةٍ، ابتعتُ بها ثيابًا، وأحذيةً، ووزّعتها. وحلّت بركة الله على ذلك المال، فكلّما كنتُ أُنفق النقود الصغيرة، أجد القطعتيْن الذهبيّتين ما زالتا في جيبي، فأعيد الكرّة. واستمرّ هذا المنوال سنةً كاملةً، أغثتُ، خلالها خلقًا كثيرًا. ثمّ مُنيتُ بعلّةٍ منعتني من الحركة مدى شهرين، كنت، غالبًا، أثناءها، فاقدة الوعي. وغابت القطعتان الذهبيّتان، تفاديًا لوقوعهما في أيدٍ قد تُثير فضيحةً".

وقد أُعطيت "أنّا كاتارينا" عزاء خدمة ربّها، من خلال المحتاجين من كلّ نوعٍ، الذين اعتادوا التوافد إلى الدير، واثقين من العثور، لدى تلك الراهبة المريضة والفقيرة، غوثًا لفاقتهم، وسدًّا لاحتياجاتهم، وفرَجًا لضيقهم. وكانت تستشعر احتياجات أخواتها الراهبات، فتسارع إلى مدّهنّ بالعون، حتّى عندما لم تكنَّ تسألنَ عونًا.

وكانت كلّما تفاقمت آلامها، يتنامى، إلى ما لا نهايةٍ، تعاطفها مع معاناة

الآخرين التي تتدنّى كثيرًا عن معاناتها الخاصّة. وكانت رغبتها في الخدمة، والمتعة التي تتذوّقها من خلالها، تسبغ عليها مظهر شخصٍ قويٍّ، منيعٍ، يحجب هوّة مرضها وبؤسها. وكان حدْسها الثاقب يرشدها إلى مركز الألم والشرّ، في كلّ شخصٍ، وإلى العلاجات الملائمة للقضاء عليهما. وبالتالي، كانت تضفي نفحة بركةٍ على كلّ ما تتولّى معالجته، شافعةً علاجها بالصلاة، وتقدّس كلّ ما تمسّه يداها الخيّرتان. وكانت تُظهر حتّى لأكثر المرضى توتّرًا وتذمّرًا، قدرًا من الصبر والمودّة، ومن الدماثة الساجية، ومن العناية الخلاّقة، ما يخفي عن أذهان من تتعاطى معهم أنّ ما من لحظةٍ في حياتها قد خلت من الألم. وكان طبيب الدير يستعين بها على تليين عناد المرضى الذين يرفضون مداخلته، فتنجح، هي، بدماثتها، ومحبّتها، وعطفها، حيث يفشل الأطبّاء.

ومن أقوالها المأثورة في هذا الشأن: "وحده عطف ربّنا على البشر كان طاهرًا، وما من عطفٍ بشريٍّ طاهرٌ، ما لم يكن متّحدًا بعطف يسوع". ومن جرّاء استدعائها الدائم لغوث محتاجين صعبي المراس، أحجم رؤساؤها عن إسناد مهمّاتٍ ثابتةٍ لها، مؤثرين الاحتفاظ بها للطوارئ ولحلّ الأُمور المستعصية. وبذلك تحقّقت الأمنيّة التي خالجتها لدى دخولها الدير، بأن تُعَدّ، دائمًا، الأخيرة، وأن تحتلّ أدنى الدركات بين الأُخريات، وألاّ تكون رئيسةً على أيّةٍ أُخرى.

وقد شهدت إحدى زميلاتها: "لقد كانت خادمةً لكلٍّ من الراهبات، بطيبة خاطرٍ، وبمنأًى عن أيّ تذمّرٍ أو تململٍ. وفضلاً عن ذلك، كانت شديدة العناية بمصالح الدير، مندفعةً إلى الخدمة، نشيطةً في عملها. أمّا حيال الخادمات والكادحات، فكانت رقيقةً، محبّةً، وكانت تغدق عليهنّ أوفر النصائح فائدةً".

وأقرّت رئيستها أنّها كانت تقوم بكلّ ما تُكلّف به خير قيامٍ، وتسعى إلى كسب رضى الجميع، وكانت شديدة الرفق بالخادمات، ومساعدةً لهنّ على أداء واجباتهنّ، ورقيقة العطف على الفقراء، الذين لا تضنّ بوسيلةٍ لغوثهم.

رؤًى وانخطافاتٌ

أكثر ما شقّ عليها في الدير افتقارها إلى إدارةٍ كهنوتيّةٍ نيّرةٍ وموثوقةٍ، وإلى معرّفٍ تستطيع إطلاعه على كلّ أسرارها الروحيّة. وحملت هذا العبء كلّه بمفردها، بغياب من يخفّفه بإرشادٍ مستنيرٍ. وقد عبّرت عن هذه المعاناة بقولها: "باستمرارٍ كنتُ أتوسّلُ الله أن ينعم عليّ بكاهنٍ أستطيع كشف كلّ مكنونات نفسي له. فقد كنتُ أُواجه أعتى الهواجس، متوجّسةً أن يكون كلّ ما يحدث لي من صنع الشرّير. تردّيت إلى الشكّ، وخشيتُ أن أكون ضحيّة وهمٍ، وأنكرت حتّى ما كان جليًّا أمام عينيّ، وما كنتُ أُعانيه، وأحياه، وما كان لي مصدر قوّةٍ. وقد جهد الأب "لمبير" في مواساتي، ولكنّ إلمامه باللغة الألمانيّة كان ضئيلاً، وتبيّنتُ عجزي عن إحاطته إحاطةً واضحةً بكلّ ما كان يحدث لي، ويحدث فيّ، مع أنّي ألِفتُه باستمرارٍ منذ طفولتي، ولم أكن أدهش له. ولكن، سحابة السنوات الأربع التي أمضيتُها في الدير، كنتُ في حالة تأمّلٍ وانخطافٍ دائمةٍ، فتعدّدت الأحداث الناجمة عن هذه الحال، ولم يكن بوسعي أن أُطلع عليها أشخاصًا يعتقدون باستحالة هذه الأحداث استحالةً مطلقةً. وفيما كنت أُعاني التخلّي في هذا المجال، سمعتُ بوضوحٍ، ذات يومٍ إذ كنتُ وحيدةً في الكنيسة، هذه الكلمات التي خلّفت في نفسي أعمق أثرٍ: "ألستُ أكفيك، أنا؟".

كان الربّ قد شرع يُعدّها لعظمة رسالتها الفدائيّة، منذ طفولتها، عندما أراها مسيرة الخلاص، ثمّ أكمل إنضاجها، وتمتين مناعتها، مع نموّها جسديًّا وروحيًّا، إذ مكّنها من رؤية المواقع المظلمة، والحملات التي يقودها عدوّ الله والبشر؛ وحمّلها آلامًا من كلّ لونٍ ما انفكّت تتنامى وتقسو وتوجع، كي تتناسب مع آلام الكنيسة المتفاقمة. لا ريب أنّ هذه الآلام كانت تلقي على نفسها المرهَقة وقرًا باهظًا، احتاجت معه إلى عونٍ وإرشادٍ لم يرفّرهما لها، غالبًا، سوى عريسها الإلهيّ، اللامرئيّ، ودعمه.

لم يكن عليها فقط، معاناة الآلام تكفيرًا عن الضربات التي ينـــزلها بالكنيسة الإلحاد، وتدنيس المقدّسات، والعمل على مواجهتها ودرئها بآلامها الجسديّة

المضنية، بل كان عليها، أيضًا، مقاومة مكر الشرّير الدائب على عيث الفساد، في كرم الله، ناثرًا فيه بذاره السامّ، فيما المكلّفون بحماية الكرم غارقون في سباتٍ أثيمٍ. وكان عليها اجتثاث الأعشاب القاتلة قبل أن تنمو وتترسّخ جذورها، كما كان عليها أن تصدّ هجمات الشرّير على النفوس، ولا سيّما النفوس المكرّسة، بفضل طهر نفسها الذي نجا من كلّ لوثةٍ، وتواضع قلبها السحيق، وثقتها الوطيدة بالله، والحرّيّة التي اكتسبتها بممارسات التجرّد وإنكار الذات، التي أمست لها سلاحًا لا يُقهر في مواجهة أحقاد الجحيم الهوجاء.

هذا الصراع الذي خاضته، كان يحتاج إلى إيمانٍ راسخٍ حيٍّ، أكثر من حاجته إلى أنوار الرؤى. وسمح الله أن تتعرّض لاضطراباتٍ روحيّةٍ مضنيةٍ، في تصدّيها لمكائد ومراوغات أبي الكذب، الذي استطاع زرع هواجس مريعةٍ في نفسها، ولكنّه لم يقوَ، قطّ، على زعزعة إيمانها. هي كانت قد حظيت برؤًى وامتيازاتٍ فريدةٍ لم تسعَ إليها، ولم تتبيّن، يومًا، أنّها محظيّةٌ بها، دون سواها، إلا بعد وقتٍ طويلٍ، ولّما أدركت هذا الامتياز، حرصت على وضعه، ووضع مواهبها الفريدة تحت سلطة الكنيسة، وعلى إخضاعها جميعًا لحكمها. ولّما اطمأنّت إلى سلامتها العقيديّة والإيمانيّة، مضت فيها قُدُمًا، ولم تخضع، قطّ، لغير حكم الكنيسة، مع افتقارها، طويلاً، إلى عونٍ كهنوتيٍّ.

كانت تجهد في تجنّب الانخطافات، وهي وسط رفيقاتها اللواتي لم تكنّ تفهمنَها فتنسبنَها إلى دوافع مشبوهةٍ. وكانت تؤثر الأماكن المعزولة للصلاة والتأمّل، حيث كانت تتعرّض للانخطافات. وحينئذٍ كانت تتجمّد في مكانها، متيبّسة الأعضاء، ملاصقةً الأرض بوجهها، أو راكعةً، باسطة الذراعين. وأثناء قيامها بأعمال الموهف (السكرستيّا)، غالبًا ما كانت تُخطَف، وتتسلّق، وهي فاقدة الوعي، أعلى زوايا سقف الكنيسة، فتنظّفها وتلمّعها، وتنظّف إطارات النوافذ العالية، وتتسلّل إلى أكثر الزوايا ضيقًا، حيث يتعذّر على إنسانٍ الوصول، وتعلق في الجوّ، بلا سندٍ، ولا ينتابها خوفٌ، وتتساءل بذهولٍ، عند استيقاظها، عمّا أوصلها إلى تلك

الأماكن، وعمّا وقاها من السقوط، ووقى ثيابها من الاتّساخ والتمزّق. ولطالما توسّلت الله أن يعفيها من الانخطافات، وهي بين أخواتها، وألاّ يطيل زمن انخطافها، غير أنّها تبيّنت غالبًا، عند عودتها إلى حالة الوعي، أنّ وقتًا طويلاً قد انقضى، وهي خارج الوعي، والأرض والزمن.

واستوضحها مرشدها الروحيّ كيف تميّز بين الانخطافات وحالات الإغماء التي تنتابها من جرّاء اشتداد وطأة الألم والإعياء، فأوضحت أنّها، في حالة الإغماء، تتألّم جسديًّا وقد تشعر بأنّها على شفا الموت؛ أمّا في حالات الانخطاف، فهي تفقد الإحساس بجسدها، وغالبًا ما تتناوب عليها مشاعر الفرح والحزن. فقد كان يُسعدها تبيُّن رحمة الله الكبرى حيال الخطأة، وبحثه عنهم من أجل ثنيهم عن آثامهم وضلالهم، واستقبالهم استقبال حبٍّ. وكانت خطايا البشر تُحزنها، فتتأوّه للإهانات التي يوجّهونها لله... وعندما يشتدّ بها الأسى، كان الربّ يواسيها بقوله: "تكفيكِ نعمتي!" ولكم كانت تستعذب هذا القول!

ولطالما أوقعتها رؤاها في حرجٍ حيال أخواتها، إذ كان الملاك يأمرها بتذكيرهنّ بواجب الالتزام بنظام الدير، فتمثل أمامهنّ، وهي ما برحت في حالة انخطافٍ، وتتلو عليهنّ، مذرّفةً وابل دموعٍ، بنود النظام الرهبانيّ المتعلّقة بالصمت، والطاعة، والفقر، وبالطقوس الكنسيّة، والانحباس عن العالم، والتي غالبًا ما كنّ ينتهكنَها. ولطالما ارتمت عند أقدام إحدى الأخوات شعرت لديها تفجّر مشاعر النفور والحقد، وتوسّلتها أن تكون أكثر محبّةً، وساعدتها على تخطّي التجربة، وعلى الاعتراف ببشاعة المشاعر التي تجول في نفسها، آنذاك. وكانت أخواتٌ عديداتٌ تلجأنَ إليها، عقب هذه الإنذارات، وتبحْنَ لها بمكنونات ضمائرهنّ، وتلتمسنَ نصحها وصلواتها من أجل اصطلاحهنّ. ولكن، إن شقّ عليهنّ، بعدئذٍ، تنفيذ نصائحها، وتحمّل التضحيات التي تشير عليهنّ بها، كنّ يحقدنَ عليها، وتظنّنَّ أنّها محتفظةٌ بمآخذها عليهنّ، في حين تكون، هي، قد مسحتها من ذاكرتها، بعد أن نفّذت أوامر السماء.

وبالمقابل كان الشرّير يوحي إلى بعض الأخوات اتّهامها بمخالفة القوانين،

وادّعاء رؤيتهنّ لها تسرق أطعمةً من مطبخ الدير، أو فاكهةً من حديقته، وتتناولها خلسةً في حجرتها، ثمّ التظاهر بالعزوف عن الطعام. ولكن سرعان ما يظهر التحقيق بطلان تلك الادّعاءات، إذ لم تكن تملك حينذاك، حتّى القدرة على الحركة، وعلى مغادرة سريرها، من جرّاء شدّة إعيائها. ولكنّها تكون، في هذه الأثناء، قد نالت قسطًا وافيًا من الإهانة.

وكان يتّفق، وهي معتلّةٌ، ملازمةٌ سريرها، أن ترى نسوةً أو فتياتٍ تجهلهنّ جهلاً تامًّا، على شفير الوقوع في براثن الشرّير، وارتكاب معاصٍ، فتُطلَب منها الصلاة من أجل إنقاذهنّ. وعقب أيّام يوافي بعضٌ منهنّ، ويشكُرنَ، باكياتٍ، مساعدتها لهنّ على الانعتاق من تجربة الخطيئة.

تكريمها لسرّ الإفخارستيّا

العزاء الأكبر الذي كانت تستمدّه الأُخت "أنّا كاتارينا" من وجودها في الدير هو إقامتها الدائمة على مقربةٍ من مخبأ القربان، حيث يقيم المخلّص إقامةً فعليّةً. وسواءٌ كانت معتكفةً، متأمّلةً في حجرتها، أو منهمكةً في العمل اليدويّ، كانت نفسها دائمة التلفّت إلى بيت القربان، حيث أقام قلبها مسكنًا ثابتًا، لا يحول بينها وبينه لا مسافةٌ، ولا صفاقة جدرانٍ. وكانت تكتشف، في كلّ عملٍ تُكلّف به علاقةً بالقربان المقدّس، فتنصرف إلى كلّ مهمّةٍ، أيًّا كان شأنها، خطيرًا أو تافهًا، بكلّ حبّها واندفاعها، وحرصها على الإتقان. وكانت تلقى متعتها الكبرى في العناية بكنيسة الدير، حتّى وهي تعاني أقسى الأوجاع، إذ كانت موقنةً بأنّها تخدم ملك الملوك، وأنّ الملائكة أنفسهم يحسدونها على هذا الامتياز. وكان حزنها لكلّ ما يُلحَق بالحضور الإلهيّ الفعليّ في القربان، من إنكارٍ وانتهاكٍ، بحجم حبّها وعبادتها الجمّين له.

وبقدر ما كان تكريمها لسرّ الإفخارستيّا راسخًا وملتهبًا، كان وجعها بسبب ما يطال هذا السرّ من استخفاف ممارسيه به، وإهانات أعدائه، أبلغ إيلامًا. ولطالما

حرمها هذا الهاجس النوم، فكانت تقصد الكنيسة، ليلاً، وتركع أمام بابها المغلق، حتّى لتكاد تتجمّد بردًا، إلى أن يأتي من يفتح الباب، ويتيح لها الدخول، والسجود أمام الهيكل.

وكان يُمضّها الخوف من أن يكون ما تعدّه تقصيرًا في القيام بواجباتها، وانتهاكًا لنظام الدير، طعناتٍ آثمةً لقلب المخلّص. وكلّما أقدمت على التناول، كانت تصطرع في داخلها مشاعر متضاربةٌ: توقٌ لاهبٌ إلى التغذّي بنبع الحياة، وخوفٌ من انتهاك سموّ ذلك السرّ الرهيب، من جرّاء ما تعدّه، فيها، نقائص، وعدم استحقاقٍ. ولطالما دفعها هذا الصراع إلى كرسيّ الاعتراف، التماسًا لغفرانٍ، وإذنٍ بالتقدّم من المائدة المقدّسة. وإذ كان معرّفها قد نصحها بالتناول بوتيرةٍ متسارعةٍ، اتّهمتها بعض أخواتها، افتئاتًا، بإظهار تقوى مفرطةٍ، والتباهي بامتيازاتها، فأحجمت، فترةً، عن التناول. غير أنّ هذا الإحجام أوقعها في ورطةٍ نفسيّةٍ قاسيةٍ، لم ينقذها منها سوى عودتها إلى اتّباع نصيحة معرّفها، واستعادة وتيرة التناول الحثيثة. ولكنّها، تفاديًا لإثارة غيرة رفيقاتها، اتّفقت مع كاهنٍ على منحها المناولة باكرًا جدًّا، قبل استيقاظ سائر الراهبات. بيد أنّ نار التوق إلى الإفخارستيّا، كانت من شدّة الاستعار بحيث تحجب عنها الوقت، ولا تطيق صبرًا، فتقرع باب حجرة الكاهن بُعَيْد منتصف الليل. وكان الكاهن، رغم ضيقه وانـــزعاجه، يتبيّن ما يعتمل في نفس تلك الراهبة فيهرع لتزويدها بخبز الحياة.

وهي كانت تتابع صلوات القدّاس بورعٍ فائقٍ، وتطير بالروح إلى بستان الزيتون حيث تنعم بتأمّل الربّ، وتسأله إغداق نعمه على الجميع لكي ينعموا بفوائد القدّاس، ولكي يحتفل به الكاهن بأكثر ما يُثلج قلب الربّ يسوع، ويلقي على كلّ مؤمنٍ حاضرٍ مثلما ألقى على بطرس من نظرات عطفٍ. وكانت كلّ مرحلةٍ من مراحل الذبيحة الإلهيّة توحي لها صلاةً مناسبةً تشمل الجميع. وكلّما سمعت ألحان الأُرغن كانت تتمنّى، تمنّيًا حارًّا، أن تأتلف قلوب البشر أجمعين مثل ائتلاف أنغام الموسيقا.

واتّفق لها أن رأت يسوع طفلاً حيًّا فوق كأس القربان، وكادت هذه الرؤيا تذهب بوعيها، وتُذهلها عن قرع الجرس، في الوقت المحدّد، فتُعاقَب بأقسى تأنيبٍ. وقلّما استعانت، بعد المناولة، بكتاب صلواتٍ، إذ كانت سرعان ما تستغرق في تأمّلٍ سحيقٍ. ولطالما أقرّت أنّها، إثر المناولة، تتذوّق حضور الربّ العذب، ثمّ تشعر بذوبان نفسها فيه، مثل ذوبان قطعة سكّرٍ في كأس ماءٍ. وبقدر ما يكون حبّ المتناول أعظم، وأشدّ التهابًا، يتغلغل الربّ في نفسه، أعمق فأعمق.

وكانت تلتمس نِعَم الله وغوثه للغير أكثر من التماسها لنفسها. وقد أُلِفَت، منذ صباها، أن تصلّي لراحة النفوس المطهريّة، ولارتداد الخطأة وتوبتهم. وفي الدير كانت تدعو لأخواتها أكثر من دعائها لذاتها. وفيما خلا الصلوات الجماعيّة، كانت تُقلّ من نصوص الأدعية الشائعة، مؤثرةً الأدعية التلقائيّة، المرتجلة، المتفجّرة من القلب، والتي تخاطب الله مخاطبة ولدٍ لأبيه، فتتّسم صلواتها بالإلحاح والمثابرة.

كانت في حوارٍ مستمرٍّ مع الله، ليل نهار، حتّى على مائدة الوجبات الجماعيّة، وتفشل أشدّ الانتقادات قسوةً في صرفها عن الله. ولطالما عاتبت العليّ، بسبب تركه الخطأة يتمادون في خطاياهم، وتسأله، بلجاجةٍ، أن يردّهم إلى طُرُقه، سريعًا، لكيلا يُدان أحدٌ إدانةً أبديّةً. وكانت تولي أُمّها السماويّة، أمّ الله، ثقةً مطلقةً، وتخاطبها مخاطبة ابنةٍ لأُمّها. وقد أوحى لها المخلّص الإقلاع عن الاعتماد على عون أيّ إنسانٍ، فحسبها نعمته، ومواكبة أُمّه.

إغلاق الدير وظهور سمات الصلب

بتاريخ ١٨١١/١٢/٣، أُغلق الدير الذي كانت "أنّا كاتارينا" تقيم فيه. وكان الموت أهون عليها من مغادرة ذلك المكان المقدّس، حيث ارتبطت بنذورٍ أبديّةٍ مع خطيبٍ إلهيٍّ. وتردّت إلى حالٍ خشي معها المحيطون بها أن تفقد الحياة. ولكنّ أُمّ الله ظهرت لها مشدِّدةً، وقالت لها: "لم يحِن، بعدُ، أوان موتك. سيجري الكثير من اللغط من حولك، ولكن لا تخشي شيئًا، فمهما حدث ستنعمين بالعون".

وتوالت مغادرة الراهبات، واحدةً واحدةً. أمّا "أنّا كاتارينا" فكانت من الاعتلال والوهن ما أفقدها القدرة على الحركة فقدانًا كاملاً، فلبثت في الدير حتّى ربيع السنة التالية. وطوال هذه الفترة، لم يؤنس وحدتها، في حجرتها المعتمة، الرطبة، الباردة، سوى عصافير كانت تجثم على إطار نافذتها، وأسراب فئرانٍ كانت تعبث على مقربةٍ منها، فيما كانت أخواتها الراهبات منهمكاتٍ بشؤونهنّ الخاصّة، ولم تبدر من أيّةٍ منهنّ لفتةٌ إلى تلك المسكينة، التي كادت تنفق إهمالاً، لولا رأفة خادمةٍ مسنّةٍ، والكاهن الفرنسيّ المنفيّ، الأب "لمبير" الذي كان يعاني، هو أيضًا، الوحدة وآلام الشيخوخة وشدائدها، ولا يلقى، على الأرض، من يعطف عليه. غير أنّه كان، مذ تعرّفه للأُخت "أنّا كاتارينا"، قد اكتشف فيها الكنـــز الروحي الثرّ الكامن فيها، واحتفظ بسرّه، وأيقن أنّ رسالته تتمثّل في المحافظة عليه، وحمايته.

وأخيرًا حان الوقت الذي أُكرهت فيه الأُخت "إيمّيريك" على البحث عن مأوى آخر، وفّرته لها أرملةٌ من مدينة "دولمن"، في الطبقة الأرضيّة من بناءٍ، وفي حجرةٍ صغيرةٍ على مستوى الشارع. وكم شقّ عليها وداع حجرة الدير الفقيرة والهادئة التي كانت تعدّها زاويةً من السماء! واعترفت، لاحقًا، أنّها، فيما كانت الخادمة العجوز تجرّها، عبر شوارع "دولمن" نحو مسكنها الجديد، كانت ترتعد قلقًا ووجلاً، ويعتريها شعورٌ بأنّ كلّ بلاطةٍ في الشارع متحفّزةٌ لابتلاعها.

مثل زهرةٍ نابتةٍ في قمّة جبلٍ، ناعمةٍ بالشمس والنسيم، اقتُطفت وأُلقيت على حافّة شارعٍ مطروق، وباتت لا تعهد سوى الغبار الذي يكسوها ساعةً فساعةً، كذلك كانت حال الأُخت "أنّا كاتارينا"، في الحجرة البائسة التي أُلجئت إليها، حيث قرع خطى المارّة التي لا تهدأ، لم يكن يدع لها هدنة هدوءٍ، فضلاً عن نظرات الفضول التي كانت تتيحها نافذة حجرتها الواطئة التي لا تعلو سوى القليل عن الرصيف. صحيحٌ أنّ الحجرة التي كانت تحتلّها في الدير كانت تفتقر افتقارًا تامّا إلى جميع مرافق الراحة، غير أنّ طيف الراهبات القديمات الورعات المخلصات لنذورهنّ كان ما برح يطوف في أجواء الدير، مفعمًا نفسها عذوبةً واندفاعًا، فضلاً عن وجود

القربان المقدّس على بعد خطواتٍ منها، وأصداء الصلوات والطقوس الكنسيّة التي كانت، مجتمعةً، توفّر لها جوًّا مريحًا، هنيئًا، وغذاءً روحيًّا جوهريًّا، لا غنى عنه. وها قد بات عليها مواصلة رسالتها في خدمة الكنيسة في ذلك الجُحر البائس.

غير أنّ أحكام الله تتباين تباينًا تامًّا عن أحكام البشر وتدابيره تستغلق على مداركنا. فهو، الله المتأنّس، ارتضى افتداءنا، متّخذًا هيئة أدنى إنسانٍ وأكثر بني البشر إملاقًا وازدراءً، واختار الصليب الأبلغ تعبيرًا عن المهانة والعار أداةً لخلاصنا، واقتاد كنيسته، عبر لجج الأجيال، وسط المخاطر، مستخدمًا ما هو جنونٌ في نظر العالم، كي يخزي حكماء البشر، واختار الضعفاء كي يقهر بهم الأقوياء، واختار الصغارَ المحتقَرين الذين لا يقيم لهم العالم وزنًا كي يفحم مدّعي العظمة. هذا الربّ عينه اختار فتاةً عذراء مكرّسةً، أنهكتها العلل والإماتات، عزلاء، مزدراةً، مضطهدةً، وانتشلها من عزلتها السحيقة، حيث كانت، بعنايته وعونه، قد اكتسبت قدرةً روحيّةً تفوق كلّ حكمةٍ وقدرةٍ، وكلّ عظمةٍ بشريّةٍ، وجعل منها ضحيّةً فدائيّةً طوعيّةً، لإنقاذ الكنيسة.

ففي تلك الحقبة كان العديد من الرهبان والكهنة والراهبات قد أُكرهوا على هجر أديرتهم التي أُغلقت، وعادوا إلى العالم الذي لم يكن معظمهم قد انسلخوا عنه إلا انسلاخًا ظاهريًّا، ووظّفوا طاقاتهم ومعارفهم في خدمة السلطات الدائبة على تدمير الكنيسة، وفي بثّ سموم كُرهِها وثورتها على المقدّسات، وفي محاربة الرسالة التي سبق لهم أن تطوّعوا لنشر ألويتها والذود عن حياضها. وقد أوهت هذه الخيانة الصادمة عزيمة حتّى الذين استمرّت جذوة وفاءٍ واندفاعٍ متّقدةً، ولو بقدرٍ ضئيلٍ، في نفوسهم. وكان على "أنّا كاتارينا" أن تأخذ على عاتقها كلّ هذه العاصفة الهوجاء، التي انقضّت على الكنيسة، بكلّ عنفها، وهي مطّرحةٌ على قارعة الطريق، عزلاء، معرّضةٌ، مثل الكنيسة عينها، لتنكيل كلّ من يضمر لها شرًّا وإهانةً وأذًى. وانبرت لتصدّ، بآلامها البطوليّة المضنية، وبحياتها الحافلة بالسرّ السماويّ، سهامَ الحماقة، والحقد، وعمى البصيرة، والخبث الشيطانيّ، المصوّبة إلى نحر الكنيسة.

ولكن سرعان ما ساءت حالتها الصحّيّة، حتّى خُيّل لمرافقيها أنّها تحتضر، فاستدعوا كاهنًا لمنحها سرّ الغفران والزاد الأخير. ولّما حضر طرأ تحسّنٌ مفاجئٌ على حالتها. وأقرّ ذلك الكاهن أنّه سبق له أن صدفها في كنيسة الدير، وأُعجب بالنظافة التي كانت تبقيها عليها، إذ كانت هي المسؤولة عن العناية بها، ولكنّه كان يلحظ هزال الأُخت واعتلالها المتفاقم، فكان يدهش لبقائها على قيد الحياة، كلّما التقاها ثانيةً. وعندما وافى، في هذه المناسبة، من أجل تزويدها بالأسرار الأخيرة، تبيّن أنّها ترتدي مسحًا تحت ثوبها، فأوعز إليها بالتخلّي عنه؛ وبما أنّ معرّفها في الدير كان قد انتقل إلى ربّه، فقد تولّى مهمّة تعريفها.

طوال فترة صوم ١٨١٢ تعذّر عليها النهوض من فراشها. وكانت، في معظم الأحيان فاقدة الوعي، وخُيّل إلى مرافقيها أنّها في حالة إعياء. بيد أنّها في غروب ذلك العام تمكّنت، بمشقّةٍ، من الشخوص إلى كنيسة الرعيّة والتناول فيها. وكانت تلك الزيارة، التي تمّت يوم ١٨١٢/١١/٢، هي زيارتها الأخيرة، إذ إنّها، منذ ذلك التاريخ، لم تقوَ على مغادرة فراشها. وكانت، قبَيْل ذلك، قد قصدت مزارًا، فانتابها انخطافٌ، وتجمّدت مثل تمثالٍ. وارتعبت مرافقتها، فاستغاثت بامرأةٍ قرويّةٍ، ظنّتها ضحيّة إغماء، وحاولت إيقاظها وفقًا لذلك، فاكتشفت، هي ورفيقة الأُخت، صليبًا نازفًا مطبوعًا على صدرها، لم يسبق لأنّا كاتارينا أن لحظته من قبل، مع أنّها كانت تعاني آلامه. وكانت في حالةٍ من الإعياء اضطرّت المرأتين إلى حملها حتّى مسكنها.

ثلاثة أيّامٍ قبل بدء عام ١٨١٣، زارتها ابنة صاحبة مسكنها، فوجدتها في حالة انخطافٍ، تصلّي باسطةً ذراعيها، ورأت دمًا ينـــزف من راحتيها. ولكنّها ظنّت أنّه ناجمٌ عن جرحٍ طارئٍ. ولّما استعادت الأُخت وعيها، لفتت نظرها إلى ذلك، فرَجَتها كتم الأمر عن الجميع. ولكن، بعد مرور ثلاثة أيّامٍ، جاءها معرّفها بالقربان المقدّس، ولحظ، للمرّة الأولى، جراح يديها، وأطلع عليها الأب "لمبير" الذي كان يقيم في البناء عينه، والذي تسنّى له، أيضًا، رؤية الدم النازف من راحتَيها. فرجت

الكاهنين ألاّ يخبرا أحدًا، تفاديًا للّغط، ولمشاكل محتملةٍ. وجهدت، هي، في إخفاء سماتها، والآلام الحادّة التي كانت تسبّبها لها.

ومنذئذٍ، تواترت انخطافاتها، وفُتحت جراح قدميها، وغدت جراح الراحتين والقدمين تنــــزف كلّ يوم جمعةٍ، وينــــزف جرح صدرها كلّ يوم أربعاء، نــــزفًا ترافقه آلامٌ مريعةٌ.

وظلّ أمر جراحها النازفة مكتومًا، إلى أن اكتشفته رفيقتها "كلارا"، ابنة عازف الأُرغن، في نهاية شهر شباط ١٨١٣.

بدء التحقيق الكنسيّ

لم تقوَ كلارا، ابنة عازف الأُرغن، على كتم حدث سمات الصلب التي شهدتها لدى رفيقتها "أنّا كاتارينا"، وسرعان ما شاع أمرها، وباتت موضع أحاديث النوادي. واتّفق أن استمع إلى بعض تلك الأحاديث، وشارك بها الدكتور "غيّوم ڤــــيزنر" (Guillaume Wesener)، من "دولمن"، الذي أبى، للوهلة الأولى، أن يرى فيها، إلاّ ترويجًا لخزعبلاتٍ. غير أنّه حرص على زيارة الأُخت، والحكم وفقًا لما سيرى، آملاً اكتشاف الحقيقة، وفقًا لما تتحلّى به الأُخت من استقامةٍ وبراءةٍ. ومنذ زيارته الأولى استبعد كلّ نيّة خداعٍ أو دجلٍ، بعد أن تبيّن حدثًا لا سبيل إلى إنكاره، ولكنّه يفوق كلّ ما تعلّمه واختبره. وعقب زياراتٍ أُخرى، راقب، خلالها، الأُخت عن كثبٍ، تطوّع ليكون طبيبها الخاصّ، فرحّبت بعرضه. ومنذئذٍ عقد مع كاهنين وطبيبٍ آخر اتّفاقًا على تدوين محضرٍ بكلّ الوقائع التي يشهدونها، وشرع، هو، يسجّل ملاحظاته اليوميّة، والنصائح الروحيّة التي كانت الأُخت تسديها له، سعيًا إلى إحياء جذوة الإيمان في نفسه.

وقد جاء في المحضر الذي نُظّم يوم ١٨١٣/٣/٢٢: "لاحظنا على ظهر اليدين جلطات دمٍ متخثّرةً، فوق جراحٍ، وفي راحة اليدين جلطات دمٍ شبيهةً بتلك، ولكنّها أصغر حجمًا. ولحظنا مثل هذه على ظهر القدمين، وعلى باطنهما. هذه

الجلطات كانت توجع عندما تُلمَس، وكانت جراح القدم اليمنى قد نـــزفت قبل فترةٍ وجيزةٍ. وعلى جنب الأُخت، شاهدنا، فوق الضلع الرابعة، علاماتٍ مستديرةً، تمثّل صليبًا متشعّبًا، وتحتها شاهدنا خطوطًا بعرض نصف بوصةٍ، تشبه رضوضًا. وعلى الجزء الأعلى من الجبين رأينا عددًا كبيرًا ممّا يحاكي وخزات إبرةٍ تمتدّ حتّى منبت الشعر. وعلى العصبة التي كانت تشدّ بها الأُخت جبينها شاهدنا لوثات دمٍ عديدةً".

ولّما انتهى هذا التحقيق التمهيديّ، تنبّأت "أنّا كاتارينا"، لكاهن رعيّة "دولمن"، أنّها ترى شخصيّاتٍ قادمةً من "منستر" من أجل التحقيق، أيضًا، تضمّ نائب الأُسقف، ورجلاً مسنًّا آخر. ولم تلبث نبوءتها أن تحقّقت بمجيء النائب الأسقفيّ في "منستر"، ومدير الإكليريكيّة الأسقفيّة، ومستشارٍ طبّيٍّ.

وكان كاهن رعيّة "دولمن" قد وضع تقريرًا وجّهه إلى أُسقفه، وبيّن فيه أنّ الأُخت، أثناء إقامتها في الدير كانت موضع ازدراءٍ بسبب اعتلالها المتواتر، وموضع حسدٍ، بسبب توغّلها في الورع والتقوى، والسماح لها بالتناول بوتيرةٍ أسرع من الوتيرة المعتادة، ومن ثمّ لم تكن تلقى قدرًا وافيًا من المحبّة والعناية. وأوضح التقرير أنّ اعتلالها استمرّ، وأنّ أوجاعها تفاقمت، بعد إغلاق الدير، واضطرارها إلى مغادرته، ومنذئذٍ ظلّت طريحة الفراش، وأنّها، طوال أكثر من شهرين، لم تتناول لا دواءً، ولا طعامًا، مكتفيةً بجرعات ماءٍ شحيحةٍ. وإذا أُكرهت على تناول شيءٍ من الطعام أو الشراب، تفاديًا لتساؤل الآخرين عن قدرتها على البقاء على قيد الحياة، فلم تكن تلبث أن تتقيّأ ما تناولته، مثبتةً قول الكتاب أن ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان. وفضلاً عن ذلك، كانت ترشح دائمًا، عرقًا غزيرًا، يبلّل ثيابها وفراشها.

وكلّ مساءٍ كان ينتابها انخطافٌ يدوم نحو ساعتين، فيتيبّس جسدها مثل صفيحةٍ خشبيّةٍ، في حين يحتفظ وجهها بلونه القرمزيّ الطفوليّ. وإثر هذه الانخطافات كانت تبلّغ معرّفها أسرارًا أوحتها إليها السماء، ويتعذّر على عموم البشر معرفتها.

وقد أكّد الربّ إيثاره لها، إذ صوّر فيها آلامه، فكرّمها بإكليل جراحٍ نازفةٍ في جبينها، وبسِمات الصلب في جنبها ويديها وقدميها، وبطبع صلبانٍ على صدرها. وغالبًا ما كانت هذه الجراح تنـــزف، بعضها أيّام الجمعة، والبعض أيّام الأربعاء، نـــزفًا من الغزارة بحيث كانت قطراتٌ كبيرةٌ من دمها تنثال على الأرض. وقد استُدعي طبيبان للتحقّق من هذه الظاهرة، فاستمطر ما شاهدا دموعهما.

استلم النائب الأسقفيّ هذا التقرير، في ١٨١٣/٣/٢٧، وكان ردّ فعله الأوّل اعتباره ضربًا من الأوهام الشائعة، التي تشتعل فجأة، ولا تلبث أن تهمد. ولكن لم يكن له مناصٌ من تبيّن أنّ هذه القضيّة كانت قد أضحت محطّ اهتمام المدينة كلّها. ومع ذلك، خُيِّل إليه أنّه سيكون من اليسير كشف خفاياها، ولا سيّما أنّها محسوسةٌ ومرئيّةٌ، وحسبُ الزهيد من التبصّر من أجل إماطة الحجاب عن كلّ ما يحيط بها. فقصد "دولمن"، بلا إنذارٍ، مستصحبًا رئيس إكليريكيّة "منستر"، الأب "أوڤـــيربيرغ"، ومستشارًا طبّيًّا كان يرى فيه مراقبًا متبصّرًا، ثاقب الرؤية، لا ينـــزلق بسهولةٍ إلى تصديق الشائعات. وفاجأت زيارته الجميع ما عدا الأُخت "أنّا كاتارينا" التي توقّعتها، وتنبّأت بها، ووصفتها بأنّها استكمالٌ للتحقيق الطبّيّ الذي أُخضعت له قبل أيّامٍ معدوداتٍ.

أجرى، إذن، النائب الأسقفيّ ومرافقوه، مع الأُخت، أحاديث عديدةً، على مدى ثلاثة أيّامٍ، واستمعوا إلى رفيقتها في الدير، "كلارا"، وإلى المحيطين بها، فاتّضح لهم أنّ القضيّة أكثر جدّيّةً ممّا ظنّوا. وكانت الأُخت، مع تهيُّبها من الفحوص التي يجريها عليها غرباء، والحرج الذي توقعها فيه، قد تقبّلت، خاضعةً، هذا التحقيق الجديد، معلنةً امتثالها لمشيئة الله، واستعدادها لإظهار مواقع السمات في جسدها، مع أنّ مجرّد لمسها كان يشيع فيها أوجاعًا مضنيةً.

مساء اليوم الثاني، انتابها انخطافٌ بحضور النائب الأسقفيّ ومرافقيه، فتيبّست أعضاؤها، وتجمّدت، وفقدت كلّ قدرةٍ على الحركة، حتّى بدا وكأنّها فقدت الحياة،

فلم تُجبْ على الاستفسارات التي كان الأطبّاء يوجّهونها لها. ولكن، عندما خاطبها النائب الأسقفيّ قائلاً "إني آمرك، باسم الطاعة المقدّسة"، أدارت، في الحال، رأسها صوب محدّثيها، وأجابت على كلّ استفسارات الأطبّاء، بلهجةٍ طافحةٍ مودّةً وعذوبةً.

ولّما استُوضحت، لاحقًا، كيف استطاعت سماع النائب الأسقفيّ، وهي فاقدة الوعي والإحساس، أجابت: "أنا لم أسمعه، ولكن عندما يُطلب منّي شيءٌ، باسم الطاعة، وأنا في حالة انخطافٍ، يصبح هذا الطلب صوتًا جهوريًّا يدعوني ويوقظني". وفي ما يتعلّق بالسمات صرّحت أنّها توسّلت الله إخفاء تلك العلامات الخارجيّة الظاهرة، فأجابها: "تكفيكِ نعمتي". حينئذٍ أوعز إليها النائب الأسقفيّ أن تواصل الصلاة.

وعاد المحقّقون صباح اليوم التالي، وأعلن النائب الأسقفيّ أنّ جرّاحًا سيغسل بالماء الفاتر جراح يديها وقدميها، ويُزيل عنها القشور المتيبّسة، ثمّ يضمّدها بضماداتٍ جافّةٍ تضميدًا محكمًا، يُفقد الأصابع القدرة على الحركة، ويضمن بقاء الضمادات ثابتةً في مكانها، مدّة ثمانية أيّامٍ، بلا انقطاعٍ. واستسلمت الأُخت راضيةً، لهذا التدبير، معلنةً استعدادها للخضوع لكلّ التجارب التي يرغب المختصّون في إجرائها عليها، على أن يتمّ ذلك بتكتّمٍ، وبعيدًا عن الإعلان. هذا التسليم، مع ما كان من شأنه أن يسبّب لها من آلامٍ إضافيّةٍ، أثار إعجاب المحقّقين، وخلّف في نفوسهم أثرًا إيجابيًّا طيّبًا. وقد أشاروا، في تقريرهم، إلى ما تجلّى على محيّا الأُخت من سكونٍ، وما كانت تشعّها عيناها من براءةٍ ولطفٍ.

وهمس النائب الأسقفيّ، وهو يودّعها، أنّه يرغب في مشاركة المخلّص آلام جراحه، ولكن بمنأًى عن علاماتها الخارجيّة، فأجابته: "إنّ هذه العلامات الظاهرة هي، في الحقيقة، صليبي".

كان النائب الأسقفيّ "دروست ڤـــيشيرينغ" (Droste Vishering)، يقرن صلابة الإرادة بشدّة المراس، والإحساس المرهف الذي يجعله لا يتوانى عن شراء عصافير سجينةٍ في الأقفاص، كي يهبها الحرّيّة، والالتزام بالحقّ والعدالة الذي لا

يعهد تسويةً ولا يرضى بتنازلٍ. تحقيقه الأوّل أكّد له أنّ الجراح واقعٌ لا شكّ فيه. غير أنّ هذه الرؤية لم تكن كافيةً لترسّخ لديه يقينًا، إذ كانت ما زالت تساوره شكوكٌ حول مصدر تلك الجراح. فثّمة احتمالٌ، وإن ضئيلٌ، بأن تكون الأُخت قد أحدثتها بنفسها، أو أن يكون آخرون قد أحدثوها، لغايةٍ خفيّةٍ. ولذلك حرص على إزالة كلّ مكامن الشكّ، قبل إصدار حكمٍ، وقرّر المضيّ قُدُمًا في التحقيق، جاهدًا في أن يسبّب للأُخت القدر الأدنى من المضايقة. ولكنّ إرادة الله لم تتوافق مع تمنّيه. فالهجمات التي تُشنّ على الكنيسة من الشراسة، والمِحَن الحالّة بها من الخطورة، وعناد أعداء الكنيسة من الإصرار، بحيث كان لا بدّ، من أجل قهر كلّ قوى الشرّ تلك من آلامٍ توازيها، تتحمّلها أداة السماء المختارة، طوعًا وافتداءً. وبالتالي كان لا بدّ لنوايا النائب الأسقفيّ الطيّبة من مواجهة روح العصر الرافض والمُنكِر لكلّ ما لا يفسّره العقل، ومراعاة وضع الكنيسة الحرج، والظروف السياسيّة شديدة التعقيد، وتدخّلات السلطات المدنيّة المتقلّبة، وباهظة الوطأة، في شؤون الكنيسة. وكان من المحقّق أنّ إعلان وتأييد ظاهرةٍ فائقة الطبيعة، في تلك الأجواء الملبّدة، كان كفيلاً بإشعال حرائق تهدّد بالتهام الكنيسة وتدميرها. وربّما تمنّى النائب الأسقفيّ، في سريرة نفسه، إثبات زيف الظاهرة، ووأدها في مهدها، ولكنّ تحقيقه الأوّل كان قد بدّد، إلى حدٍّ بعيدٍ، تهمة الخداع والبطلان، وفرض عليه الصمود، وإثبات الحقيقة.

ومن المحقّق أنّ النائب الأسقفيّ كان قد أجاد اختيار مرافقيه في تحقيقه البدائيّ. فاسم الأب "أوڤـــيربيرغ" (Overberg)، كان يفرض احترامه في كلّ أبرشيّة "منستر"، والاعتراف بخبرته الراسخة المتبصّرة في رعاية النفوس. وقد كلّفه النائب الأسقفيّ، الذي كان يقدّره حقّ قدره، بتحرّي مسيرة الأُخت "أنّا كاتارينا" الروحيّة والزمنيّة، منذ صغرها، تحرّيًا دقيقًا، بل موغلاً في الدقّة. وفي الآن عينه، أمر الأُخت، باسم الطاعة، أن تبوح للكاهن بكلّ ما جال بخاطرها ووجدانها، وبكلّ ما فعلته، مذ أفاقت على الوجود. ولم يجدْ أيٌّ من الكاهن والراهبة صعوبةً

أو حرجًا في تحقيق رغبة الرئيس الكنسيّ. فمنذ الوهلة الأولى أوحى الكاهن إلى الأُخت ثقةً بلا تحفّظٍ، ولا سيّما أنّها كانت قد رأته بالروح، قبل أن تراه عيناها، فرحّبت به وكأنّها تعرفه منذ زمنٍ طويلٍ. وقد أتاحت براءة الأُخت للكاهن الشيخ سبر أعماقها، والإحاطة بروائع نفسها، بلا تلكّؤٍ. وبقدر ما كانت تتوثّق اتّصالاته بها، كانت تتوفّر لديه الأدلّة الدامغة على دعوتها الاستثنائيّة، وعلى المواهب النادرة التي تفرّدت بها. ومن ثمّ ارتأى أنّ من واجبه، رغم إرهاقه في العمل، وتهافت القوم، من كلّ الطبقات، على التماس نصحه وعونه، أن يكرّس وقتًا وافيًا لتدوين أقوالها، وملاحظاته عنها.

ومن جهته، كان البروفّسور "دروفيل" (Drüffel)، المستشار الطبّيّ، والعالم المكلّف بالتحقيق الطبّيّ، مشهودًا له بعلمه، ونـــزاهته، واستقلاليّة حكمه. وقد اضطلع بمهمّته بروح عالمٍ راسخ الثقافة. هو أيضًا كان، عندما تنامت إليه قضيّة الأُخت "إيمّيريك" للمرّة الأولى، قد ظنّ أنّ في الأمر مجرّد خزعبلاتٍ، غير أنّ زيارته الأولى للأخت بدّدت هذا الظنّ. فوضعُ الجراح، وطريقة نـــزفها، أقصيا عن ذهنه احتمال أيّ أمرٍ مصطنعٍ بيدٍ بشريّةٍ. كما أنّ شخصيّة "أنّا كاتارينا" وسلوكها، أسهما في نفي كلّ ارتيابٍ بكذبٍ أو خداعٍ. ولا بدّ من التنويه بأنّه، أُسوةً بالأطبّاء الآخرين الذين شاركوا في التحقيق، قدّر مدى المعاناة المضنية التي كانت تكابدها تلك الضحيّة البريئة، ولم يرَ مبرّرًا للإسراف في التدقيق والتحرّي الذي اقتضاه المسؤول الكنسيّ. وقد سرد ملاحظاته ومشاهداته، في مقالٍ نشرته مجلّةٌ طبّيّةٌ، معربًا عن قصده الإعراض عن أيّ تفسيرٍ للحدث، ولكنّه، بجرأةٍ، حذّر واصفي الحدث بخدعةٍ، وأكّد أنّ السلطات الكنسيّة قد استفاضت في التحقيق والتدقيق، وإن كان هناك خدعةٌ فهي من نمطٍ غير معهودٍ، وليس من اليسير اكتشافها.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأُخت "إيمّيريك" قد أُعطيت، منذ لقائها الأوّل بالبروفسّور "دروفيل"، قدرة استكشاف خفايا وجدانه، فتبيّنت خطر فقدان الإيمان الذي كان

يهدّده، وباحت بهذا الهاجس للأب "أوڤـــيربيرغ"، كي يعمل بما يراه مناسبًا. وتكتّم الكاهن على الأمر ردحًا، حتّى آنت سانحةٌ، ففاتح البروفّسور، الذي أيّد صواب رؤية الأُخت، وأقرّ بما آتته ملاحظاتها من فوائد روحيّةٍ.

ومنذ ٣١ آذار ١٨١٣، اتّخذ النائب الأسقفيّ جملةً من التدابير الكفيلة باجتلاء الحقيقة كاملةً وناصعةً، مثبتًا بذلك حزمه الراسخ، وحنكته، ورؤيته الثاقبة، التي شاء الله استخدامها من أجل تمجيد خادمته المتواضعة. وتمثّل التدبير الأوّل في تعيين الأب "رينسينغ" (Rensing) مرشدًا روحيًّا للأُخت "أنّا كاتارينا" على امتداد مرحلة التحقيق. وقد كلّفه بمراقبة سلوك الأُخت مراقبةً متنبّهةً ويقظةً، وتدوين نتائج مراقبته، واستبيان هل الظواهر غير الطبيعيّة التي تنتاب الأُخت هي نتيجة مرضٍ، وهل هي حدثت وتستمرّ بطريقةٍ غير طبيعيّةٍ، أم إنّها مصطنعةٌ بطريقةٍ ما. وأوعز إليه تدوين كلّ تحوّلٍ يطرأ على حالة الأُخت الروحيّة والجسديّة، يومًا فيومًا، وتزويد النائب الأسقفيّ، كلّ ثمانية أيّامٍ، بتقريرٍ يفصّل كلّ ما يحدث. وتضمّنت التعليمات إخطار الأُخت بأنّها خاضعةٌ لتحقيقٍ كنسيٍّ، وملزمةٌ بالخضوع للعلاج الذي يفرضه الطبيب بقصد شفائها جسديًّا. ونصح النائب الأسقفيّ بالتغاضي عن قضيّة السمات، وتناسيها، ومحاولة استخفاف شأنها، أو التظاهر بذلك، على الأقلّ.

وكلّف الطبيب الجرّاح "كروتهوزن" (Krauthausen)، بتسجيل كلّ الظواهر القائمة، والتي قد تطرأ، وأوعز إليه بتضميد جراح الأُخت تضميدًا محكمًا تنفيذًا لما سبق أن قرّر وأعلن. وفي الآن عينه طلب النائب الأسقفيّ من الأب الفرنسيّ "لمبير" (Lambert)، بقدر استطاعته، التحاشي عن ذكر آلام الأُخت، وعن استيضاحها، عقب الانخطافات، عمّا رأت وسمعت، إذ إنّه أوكل هذا الأمر، حصرًا، إلى الأب "رينسينغ".

ولكي لا تأتيه المعلومات من جانبٍ واحدٍ، كلّف النائب الأسقفيّ، رفيقة

الأُخت "إيمّيريك" "كلارا"، ابنة عازف الأُرغن، التي كان واثقًا من صدقها، ورجاحة حكمها، بتزويده، سرًّا، بكلّ ملاحظاتها، مشدّدًا على رغبته في معرفة واقع ما يحدث، بمنأًى عن كلّ تخيّلٍ، وتحليلٍ، وتصوّرٍ.

وسمح النائب الأسقفيّ لشقيقة "أنّا كاتارينا" البقاء إلى جانبها، على أن تلتزم، التزامًا تامًّا، بأوامره وتعليماته، وأفهمها أنّ كلّ مخالفةٍ لهذه التدابير، ستؤدّي إلى إيذاء الأُخت العليلة.

وإضافةً إلى كلّ ذلك، كلّف النائب الأسقفيّ الأب "رينسينغ" باستنطاق جميع الذين عرفوا الأُخت عن كثبٍ، في مسقط رأسها، وفي كلّ الأماكن التي غشتها وعملت فيها، وبجمع كلّ أقوالهم وشهاداتهم عنها، وكلّ ما له صلةٌ بسلوكها، طوال حياتها، حتّئذٍ.

تضميد الجراح

سجّل الجرّاح "كرَوْثهوْزن"، بتاريخ الأوّل من نيسان ١٨١٣:

« تنفيذًا للمهمّة الموكلة إليّ قمتُ، في الساعة الثامنة من يوم الخميس، بغسلٍ كاملٍ، بالماء الساخن للأماكن التي تكوّنت عليها قشورٌ ناجمةٌ عن دمٍ متيبّسٍ، على قدَمَي الراهبة الأُوغسطينيّة، سابقًا، "أنّا كاتارينا إيمّيريك"، وعلى يديها ورأسها. ولففتُها، في الحال، بضماداتٍ تمنع حركة الإبهام والأصابع، وبطريقةٍ تحول دون تحريك الضماد أو إزاحته، تحريكًا أو إزاحةً يتعذّر عليّ ملاحظتهما. ومع أنّ الغسل والتضميد تمّا بتأنٍّ ورفقٍ، إلاّ أنّهما سبّبا للأُخت المريضة آلامًا حادّةً، واضطراباتٍ استمرّت نحو أربعٍ وعشرين ساعةً. وكنت، بعد فراغي من الغسل، قد شهدتُ على ظهر اليدين والقدمين جرحًا بيضاويًّا، بطول نصف بوصةٍ تقريبًا، أمّا جراح الراحتين وباطن القدمين، فكانت أصغر حجمًا. وكانت جميع الجراح سليمةً، خاليةً من التقيّح ».

بعد عمليّة التضميد هذه، زار الأب "رينسينغ" الأُخت، فوجدها تبكي وجعًا

بسبب الحرارة الحارقة المنبعثة من الجراح المضمّدة. وحاول مواساتها فقالت: "إنّي أريد احتمال كلّ شيءٍ، بطيبة خاطرٍ، سائلةً، فقط، أن يمنحني الربّ قوّةً تساعدني على عدم الوقوع في فقدان الصبر". ولكن، عندما حان أوان صلاة الغروب، وشرعت الأُخت تتّحد بآلام المخلّص، اشتدّت عليها أوجاعٌ، خشيت أن تجعلها حدّتها عاجزةً عن احتمالها، فتنـــزلق إلى عصيان أوامر السلطة الكنسيّة. ولم يجد الكاهن وسيلةً لتهدئة روعها سوى وعده بتقديم قدّاس اليوم التالي، بالاشتراك مع كاهنٍ آخر، كي يهبها الله القوّة اللازمة، فأجابت: "لست أرغب إلاّ في هذه النعمة، ولن يضنّ الله بها عليّ، إذا التمسها لي كهنةٌ". وقضت ليلةً مضنيةً انتابها فيها الإغماء ثلاث مرّاتٍ، ولم تخفّ أوجاعها، قليلاً، إلاّ بعد القدّاس، الذي قدّمه كاهنان عن نيّة تسكين آلامها. بيد أنّ لهيب الألم ما انفكّ يحرقها طوال ذلك اليوم. ومساءً، قالت للأب "رينسينغ"، بصوتٍ خافتٍ: "ها إنّي ألمح قومًا آخرين قادمين، راغبين في معاينة جراحي. فهل لك أن تحول دون ذلك؟".

وصدق حدْسها. فيوم ١٨١٣/٤/٤، وافى مفوّض الشرطة الفرنسيّة، وبعد أن استوضح الأطبّاء، والمحيطين بأنّا كاتارينا، طرح عليها أسئلةً تولّى الأب "لمبير" ترجمتها، وتوخّى، بوجهٍ خاصٍّ، التأكّد من كون الأُخت تدلي بأقوالٍ أو توقّعاتٍ سياسيّةٍ. ثمّ أصرّ على رؤية جراحها، فأزاح الجرّاح الضمادات، واحدًا واحدًا. وقد خلّف موقف الأُخت وسلوكها، في نفس المفوّض، أثرًا بليغًا، ظلّ يشيد به سنواتٍ طويلةً.

وأفاد الطبيب الجرّاح أنّه وجد الضماد ملوّثًا بالدم، وملتصقًا بالجراح، فاضطرّ إلى ترطيبه بالماء الساخن، والتأنّي في إزاحته، مسبّبًا للأُخت آلامًا حادّةً. واستخدم كماداتٍ قبل تضميد الجراح ثانيةً، منعًا لالتصاق الضمادات بها. غير أنّ الكمادات ضاعفت آلام الأُخت، ولم تمنع النـــزف. فاضطرّ الطبيب إلى استبدالها بضمادات جافّةٍ، بعد أن تيقّن من غياب كلّ أثرٍ لتقيُّحٍ. ولكنّه، صباح اليوم التالي، وجد الضمادات الجديدة مخضّبةً بالدم، وكانت آلام الأُخت قد اشتدّت حدّةً، فتوسّلت نـــزعها، لأنّها لم تعُدْ تطيق احتمالاً للأوجاع. وفيما كان الطبيب يتأهّب للاستئذان

بتلبية ملتمسها، عاد النائب الأسقفيّ إلى "دولمن". وفي هذه الأثناء أُلهمت الأُخت أن توضح للمحقّقين أنّها لا ترغب لا في شهرةٍ، ولا في مالٍ، بل إنّ أقصى مرتجاها هو العيش في خفيةٍ وهدوءٍ. وأكّدت أنّها مع استعدادها لإطاعة أوامر رؤسائها الكنسيّين، غير أنّ الأوجاع المفرطة والنافلة المفروضة عليها، ما هي، في الظروف الراهنة، إلاّ تجربةٌ لله. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة احتمالها البطوليّ لأدهى الآلام التي يقتضيها منها الله، افتداءً لخطايا البشر، ومساهمةً في إنقاذ الكنيسة.

مساء يوم الأربعاء، السابع من نيسان، وقّع النائب الأسقفيّ ومعاونوه والأطبّاء، محضرًا أوضحوا فيه أنّهم لم يلحظوا على سحنتها أيّ تغييرٍ، وأنّ الطبيب اضطرّ إلى تبليل الضمادات بالماء الساخن قبل انتزاعها، لأنّها كانت مخضّبةً بالدماء. أمّا الجراح، فكانت سليمةً من كلّ التهابٍ أو تقيُّحٍ.

إثر نـــزع الضّمادات تضاءلت الآلام التي كانت تلازم الأُخت، وتجلّت على محيّاها مخايل الارتياح. بيد أنّ الأب "أوڤـــيربيرغ" لفت نظر النائب الأسقفيّ إلى ضيق الأُخت، التي عُهد عنها خفَرها السحيق، من الأنظار المحدّقة إليها، والدائبة على تحرّيها، فضلاً عمّا كانت التحقيقات تسبّب لها من انصرافٍ عن الصلاة التي كانت مصدر عزائها ومواساتها الوحيد. وبلّغ الكاهن النائب الأسقفيّ توسّل الأُخت وقايتها من زيارات الفضوليّين.

ولّما غادرها النائب الأسقفيّ وصحبه، ظهر الثامن من نيسان، كانت قد انتهت إلى حالة إعياءٍ مريعةٍ، من جرّاء الاستجوابات المتواصلة التي أُخضعت لها مدى يومين، وحينئذٍ اندمجت في مشاركة المخلّص آلامه، ومقاسمة العذراء أوجاعها، وفي أثناء صلاة الغروب نـــزفت جراح جبينها، المذكّرة بإكليل الشوك، نـــزفًا غزيرًا، خضّب ضمادها. فاستدعت مرشدها الروحيّ، والتمست منه الحؤول دون حضور مفوّض الشرطة الذي سيسبّب لها مزيدًا من حرجٍ. واستوضحها الكاهن هل تخشى أن يطرح المفوّض عليها أسئلةً محرجةً، فأكّدت أنّها لم تُحرج، قطّ، بأيّ سؤالٍ، متّكئةً على وعد الربّ لتلاميذه بإلهامهم الأجوبة الملائمة، كلّما مثلوا أمام حكّامٍ.

وقد لحظ الكاهن، في تلك المناسبة، أنّ ملامح وجهها كانت تنقبض انقباضًا ينمّ عن وجعٍ شديدٍ، كلّما لامس رأسُها الوسادة، فكانت تجهد لإلقاء كتفها، عوضًا عن رأسها، على المخدّة. ودوّن الطبيب، في تقريره، أنّه، إثر شكواها من آلامٍ حادّةٍ، ومن حرارةٍ حارقةٍ في رأسها، وجد الغطاء المحيق برأسها وعنقها مخضّبًا بالدماء، وكان الدم المنثال من جبينها قد غمر وجهها، أيضًا. فغسل الدماء بعنايةٍ، وتبيّن على الجبين جراحًا صغيرةً عديدةً، نازفةً. وفي ليلة ٨–٩ نيسان نـــزفت جراح يديها وقدميها نـــزفًا غزيرًا. ولّما جسّ الطبيب نبضها، مساء التاسع من نيسان وجده من الضعف، ووجدها في حالةٍ من الوهن والخَور، ما أقلقه على حياتها.

شهادة طبيب بروتستانتيٍّ

لم يتمكّن مرشد الأُخت الروحيّ من تنفيذ أمر النائب الأسقفيّ القاضي بمنع الزيارات النافلة، وتوافد من لا شأن لهم، إذ دأب العديد من الأطبّاء الغرباء، ومن النافذين، على ادّعاء حقّ الاطّلاع على سمات الصلب، التي ذاعت أخبارها على نطاقٍ واسعٍ. وكانت هذه الزيارات تسبّب للأُخت أشدّ ضيقٍ، وتنتزع منها أوجع شكوى. فقد كان تحرّي جراحها أشدّ مضايقةً لها من أوجاع الجراح عينها، حتّى إنّها باحت: "إنّي أزداد، يومًا فيومًا، اشمئزازًا من نفسي، بسبب الضجّة التي تثيرها قضيّتي في كلّ مكانٍ. غير أنّ ما يسرّب إلى نفسي العزاء هو يقيني بأنّني لست أنا سبب ذلك".

وكان الطبيب البروتستانتيّ "روهفس" (Ruhfus)، قد وافى في هذه الأثناء وأظهر من الإصرار على التأكّد بنفسه ممّا يذاع بحيث تعذّر منعه. واستشار الكاهنُ الأُخت بشأن هذه الزيارة، فرفضتها للوهلة الأولى، ولكنّ الكاهن أسهب في إبداء الحجج التي يراها تبرّر هذه الزيارة، فسلّمت بما يراه مناسبًا. واتّسم سلوك الطبيب بالكثير من اللياقة والدراية، فعاين الجراح، وطرح من الأسئلة ما رآه ضروريًّا لتكوين حكمٍ سليمٍ، وخلص إلى شكر الأُخت لتعاونها، وحكم على الظاهرة بما

أملته عليه استقامته، وصرّح إثر خروجه: "إنّ ما شهدتُه لمدهشٌ حقًّا. لا بدّ من استبعاد احتمال الخداع؛ هذا ما تعلنه وتنطق به مشاعر الأُخت، وقَسَماتها، حيث تتجلّى بساطةٌ ورعةٌ، وخشيةٌ لله نابعةٌ من أعماق النفس، واستسلامٌ ساكنٌ ومطمئنٌّ لمشيئة الله. وهذا ما يؤكّده وضع الجراح عينها لرجل علمٍ. فتفسير منشأ هذه الجراح بالتخيّل، والتشبيه، أو بأيّة وسيلةٍ أُخرى هو أمرٌ مستحيلٌ استحالةً مطلقةً. أنا أرى أنّ الأمر فائق الطبيعة". ولا بدّ من التنويه بأنّ ذلك الطبيب عينه، كان، لّما استمع إلى خبر هذه الظاهرة، في مقهى، قد أمعن استهزاءً بها، ولكنّه عندما عاينها بعينيه، حكم بما فرضه عليه وجدانه وعلمه.

أُسبوع آلامٍ، وعيد الفصح

منذ ظهور سمات الصلب عليها، كانت الأُخت قد أضحت عاجزةً عن تناول أيّ طعامٍ. وكلّما حاولت شقيقتها المقيمة إلى جانبها، أو أيٌّ من المحيطين بها تلقيمها شيئًا من الحساء، شفقةً بها، أو تنفيذًا لتوصية طبيبٍ، كانت تتقيّأه في الحال، وسط نوبات غثيانٍ شديدٍ. وقد لقيت جميع محاولات تغذيتها التي كان يوصي بها طبيبها المصير عينها.

ومع دنوّ موعد عيد الفصح، وتأهّبًا للمناولة الفصحيّة، انتابها جوعٌ شديدٌ إلى خبز الحياة، فهتفت، وهي في حالة انخطافٍ: "إنّي جائعةٌ!". وأخذت شقيقتها هتافها بحرفيّته، فأسالت في فمها ملعقتي حساءٍ، لم تلبث أن تقيّأتهما. ولكن، إثر تلقّيها المناولة المقدّسة تجلّت عليها ملامح انتعاشٍ أدهشت المحيقين بها. وفي ذلك اليوم، نــزف الصليب المرسوم على صدرها، ولكنّها احتملت أوجاعه بفرحٍ. وكانت آلامها قد اشتدّت يوم الخميس العظيم، حتّى خُيِّل إليها أنّ ذلك اليوم كان آخر أيّام حياتها الأرضيّة. وليلة الخميس/ الجمعة تفجّرت ينابيع الدم من كلّ جراحها، وكان أغزرها نــزفًا جرح الجنب. وقد أذهلت كمّيّة الدم النازف الكاهنَ الذي عادها صباح يوم الجمعة، وسألها كيف أمضت تلك الليلة، فأجابت: "لم تبدُ لي

هذه الليلة طويلةً، فقد أمضيتُها أتأمّل، ساعةً فساعةً، ما عاناه يسوع في تلك الليلة، وقد آتاني هذا التأمّل مواساةً جمّةً. وفي لحظة انخطافٍ وسألتُ أن تزول عنّي السمات، على أن أظلّ أُعاني أوجاعها".

وطوال تلك الأيّام الخلاصيّة، شاركت الأُخت المخلّص آلامه، وقاست من الأوجاع ما يتعذّر وصفه، أوجاعٍ متواصلةٍ لم تكن تفسح لها لحظة هدنةٍ واحدةً. وقد باحت بأنّ كلّ وترٍ في جسدها كان يشيع فيها أوجاعًا تسري حتّى أطراف أصابعها. وألهبتها حمًّى ضاعفت أوجاعها التي لم يهمد سعيرها حتّى فجر أحد الفصح، الذي حلّ، تلك السنة، يوم ١٨ نيسان، وكان نـــزف الجراح قد توقّف يوم السبت. ولّما عادها الكاهن وجدها منهكةً، واستوضحها عمّن صلّت من أجلهم، فأوضحت: "صلّيت لمن يطلبون صلاتي، وخاصّةً من أجل الخطأة الذين ما زالوا يجهلون بؤس حالهم. أمّا لنفسي فأدعو: "لتكن مشيئتُك، يا ربّ. افعل بي ما يحلو لك. ولكن هبني نعمة تحمّل كلّ شيءٍ، بمنأًى عن إغاظتك في شيءٍ".

وقد لحظ لديها الطبيب، وجميع الذين شاهدوها، يوم اثنين الفصح، مزاجًا مرحًا، غير مألوفٍ، بيد أنّها استمرّت تقصر تغذيتها على نصف تفّاحةٍ مطبوخةٍ، وجرعتي ماءٍ. وردًّا على استفسار مرشدها الروحيّ حول سبب ابتهاجها، أوضحت أنّه ناجمٌ عمّا أسال تأمّل القيامة في نفسها من عزاءٍ حرّرها من كلّ جوعٍ وعطشٍ. ولكنّها كانت توجس خشيةً من مجيء قومٍ جُدُدٍ بغية تحرّي سماتها، وكان قلبها ينقبض كلّما جال هذا الاحتمال في خاطرها.

في هذه الأثناء كان النائب الأسقفيّ قد أوعز إلى الأب "رينسينغ" كاهن رعيّة "دولمن" أن يبحث عن امرأةٍ حسنة السمعة، ترضى الإقامة، سحابة أُسبوعين، باستمرارٍ، وليلَ نهارَ، على مقربةٍ من "أنّا كاتارينا"، مراقبةً كلّ ما يحدث لها، ومدوّنةً بدقّةٍ وأمانةٍ، كلّ ما ترى وتسمع، وتضع بين يديه تقريرًا بكلّ ذلك. وكان قد أوصى الكاهن بالحصول، مسبَّقًا، على موافقة الأُخت، والتأكيد لها أنّ النائب

الأسقفيّ لم يقرّر هذا التدبير الذي يدرك مدى إزعاجه لها إلاّ لأنّه تبيّن ضرورته القصوى لكي يبعد عنها أسباب منغّصاتٍ كبرى، وأنّه يفعل ذلك مكرَهًا.

ويوم العشرين من نيسان زار النائب الأسقفيّ الأُخت، برفقة الأب "أوڤـــيربرغ". وعقب زيارته الثالثة هذه إلى "دولمن" وإلى الأُخت "إيمّيريك"، وضع تقريرًا مسهبًا، ومن أهمّ ما جاء فيه:

– رافق النائب الأسقفيّ ثلاثة أطبّاء، طالما رغبوا في الاطّلاع على ظاهرة السمات.

– فُحصت الجراح بزجاجٍ مكبّرٍ، ولم تكن نازفةً أثناء فحصها، ولكنّ شكل الجراح وآثار النـــزف كانت واضحةً.

– اقترح أحد الأطبّاء محاولة إبراء أحد الجراح، ووافقت الأُخت، فدُهن الجرح بمراهم شافيةٍ، وضُمِّد. وبعد ساعاتٍ معدوداتٍ، تفاقمت أوجاع ذلك الجرح، واستمرّت الأوجاع طوال الليل، حارمةً الأُخت النومَ والراحة. وصباح اليوم التالي، تفقّد النائب الأسقفيّ والطبيب، وضع الجرح، ورجوا الأُخت تحمّل الأوجاع حتّى المساء، وأعادا دهن الجرح بالمرهم، ووضع الطبيب فوقه لصقةً. وفي المساء وُجدت اللصقة مشرّبةً بالدم، دالّةً على حدوث نـــزفٍ. ومن ثمّ لم يرَ النائب الأسقفيّ مبرّرًا للمضيّ قُدُمًا في تعذيب ضحيّةٍ بريئةٍ، فأُزيلت اللصقة نهائيًّا.

وفي المساء شكت الأُخت وجعًا حادًّا في رأسها، وجعًا كان يُنذر، عادةً، بحدوث نـــزفٍ وشيكٍ. وفي الواقع، لمّا عادها النائب الأسقفيّ، مع الطبيب، صباح اليوم التالي، وجدا غطاء رأسها مبلّلاً بالدم. وكان الدم قد سال على وجهها، وخلّف، على مقربةٍ من الصدغ، آثار دمٍ متيبّسٍ، ولطّخ قبّعتها وشعرها، وأنفها وجبينها. وبهذه المناسبة وافقت الأُخت على أن يُقَصّ شعرها بحيث تتاح مشاهدة مصادر النـــزف. ولكنّها، تفاديًا لتلطيخ فراشها وأغطية سريرها، التمست ترك قدرٍ كافٍ من الشعر على أطراف رأسها يمنع تسرّب الدم. وبهذه المناسبة وعدها النائب الأسقفيّ بمنع الزيارات التي لا يراها ضروريّةً، وبحصر التحقيق في الجراح الظاهرة على اليدين.

عقب هذه الزيارة وجّه النائب الأسقفيّ لمفوّض الشرطة الكلمة التالية:

« لا ترغب الآنسة "إيمّيريك" إلاّ في أن ينساها العالم، ويُغفلها، ويدعها تُعنى بالأمور الوحيدة التي تهمّها. إنّها لا تطلب شيئًا، ولا تقبل شيئًا، وأمنيّتها أن يكفّ الناس عن التحدّث عنها. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ الناس سيعزفون عن ذكرها، قريبًا. ومع أنّي لستُ ألحظ أيّ أثرٍ لخداعٍ، سأظلّ أراقب قضيّتها عن كثبٍ، وبتيقّظٍ ».

محاولاتٌ لطيّ التحقيق، وعناد النائب الأسقفيّ

كانت تحقيقات النائب الأسقفيّ، والتحرّيات التي أجراها بنفسه، قد أثبتت النتيجة التي انتهى إليها الأطبّاء والكهنة، وجميع المراقبين، والتي تنفي، نفيًا قاطعًا، كون سمات الأُخت "إيمّيريك" مصطنعةً بأيّة وسيلةٍ، ومستهدفةً الخداع ولفت الأنظار. وتمنّى الأب "رينسينغ"، خادم رعيّة "دولمن"، أن يعلن النائب الأسقفيّ إقفال التحقيق، وإراحة الأُخت، وجميع المكلّفين بمتابعة القضيّة.

وكذلك تمنّى الطبيب الجرّاح "كروهوزن". فقد سبق له أن كان طبيب الدير الذي انضوت الأُخت "إيمّيريك" إليه، وعرفها، هناك عن كثبٍ، ولم يراوده، يومًا، شكٌّ في استقامتها وصدقها. وكان قد اضطلع بمتابعة حالها، نـــزولاً عند طلب النائب الأسقفيّ، ولبّى طلبه، فزوّده بتقارير يوميّةٍ، ضمّنها ملاحظاته، وأكّد يقينه الراسخ بأنّ ظاهرة السمات واقعٌ ماثلٌ، لا سبيل إلى إنكاره، مع أنّ علمه وخبرته الطبّيّة لم تمكّناه من تفسيرها تفسيرًا علميًّا، فهي تتباين، تباينًا كلّيًّا، عن كلّ ما خبرَه حتّئذٍ، خلال ممارسته مهنته. وكان قد راقب، يومًا فيومًا، معاناة الأُخت التي تتخطّى احتمال البشر، وتحمّلها، بصبرٍ منقطع النظير، منغّصات التحقيق، إطاعةً لأوامر رؤسائها الكنسيّين. وربّما، في دخيلة نفسه، كان يأخذ على الأُخت إخفاقها في إخفاء تلك الظاهرة، إخفاءً كفيلاً بإنقاذ نفسها وإنقاذه. ولّما بعث إلى

النائب الأسقفيّ تقريره الأخير، يوم ٢٦ نيسان، تمنّى أن يتحرّر به من المهمّة التي أُسندت إليه، وأثقلت كاهله. ولكن خاب ظنّه وظنّ كاهن الرعيّة، لأنّ النائب الأسقفيّ لم يكن مستعجلاً في طيّ القضيّة، ولا هو كان مستعدًّا لإصدار حكمٍ نهائيٍّ، رغم معايناته الشخصيّة، وتأكيد ثلاثة أطبّاء محنّكين، قبل أن يُنفَّذ طلبه بإخضاع الأُخت "إيمّيريك" لمراقبةٍ مستمرّةٍ، طوال أُسبوعين، تقوم بها امرأةٌ مشهودٌ لها بالاستقامة والنـــزاهة وسداد الرأي، تبقى إلى جانبها، ليلَ نهارَ، وتدوّن كلّ حركاتها على ألاّ يدع لأعداء الظاهرة، وأعداء الدين، ولأيّ مرتابٍ، ممسكًا من أيّ نوعٍ، كما كان شديد الحرص على إراحة ضميره، والتثبّت من عدم إهماله أيّة وسيلة تيقُّنٍ يفرضها الحذر والحيطة.

بيد أنّ الأب "رينسينغ" لم يتمكّن من العثور على امرأةٍ تتحلّى بالصفات المطلوبة، والكفيلة بارتضاء المهمّة المقتضاة من النائب الأسقفيّ. واقترح استبدالها بطبيبين أو ثلاثة أطبّاء يتناوبون على مراقبة الأُخت "إيمّيريك"، ليلاً نهارًا. ولكنّ هذا الاقتراح لم يلقَ رضى النائب الأسقفيّ الذي أقام على مطلبه، وابتغى، أكثر من إبعاد الريَب والشبهات عن الظاهرة، اكتشاف كيف انتهت الأُخت "إيمّيريك" إلى هذا الواقع المدهش، وما هي العوامل النفسيّة والعاطفيّة التي أسّست له، وأفضت إليه، ولبث مصرًّا على أن تضطلع امرأةٌ بجمع هذه المعلومات وتوثيقها، وتبيّن ترابطها، وألا تُسنَد هذه المهمّة إلى رجالٍ تفاديًا لأيّ ظنٍّ أو اتّهامٍ.

وهكذا لم يُقَيَّض للأب "رينسينغ" إلاّ الاستمرار في معاناة مشهد استشهاد الأُخت "أنّا كاتارينا" اليوميّ، وعجزه عن مواساتها، والتخبّط في الإحراج الذي كان يواجهه من قِبَل أفراد رعيّته الكُثُر الذين ما انفكّوا يلتمسون منه فرصة مشاهدة سمات الأُخت. ومع أنّه كان يستشفّ في الاستجابة لهذا الملتمس فوائد روحيّةً للملتمسيها، إلاّ أنّه لم يكن يطيق أن يجعل من الأُخت المسكينة موضع فرجةٍ، ومادّةً لإرضاء فضولٍ تقويٍّ. واستمرّ في إطلاع الأُخت المسكينة على كلّ ما

يحدث من حولها، ويطلع النائب الأسقفيّ على كلّ الوقائع التي تثبت نـــزاهة الظاهرة، وخلوّها من كلّ شائبةٍ أو شبهةٍ، ويبدي استغرابه لمواصلة التحقيق وعواقبه الموجعة.

رأي الأب "رينسينغ" في الأُخت "أنّا كاتارينا"

كان الأب "رينسينغ"، منذ زمنٍ بعيدٍ، قد اطّلع على رغبة الأُخت "إيمّيريك" في سوق حياةٍ خفيّةٍ عن العالم، ولم يخامره، يومًا، شكٌّ في صحّة ظاهرتها الاستثنائيّة. ومع ذلك كان كلّ قولٍ يشير إلى هفوةٍ اقترفتها يثير تساؤلاته، وتحفّظه بشأنها، فيمضي في تحرّي الأمر حتّى أقصى غاياته. وقد استثارت الأقاويل التي واكبت ظهور سمات صلب الأُخت "إيمّيريك" كلّ استعدادات حذره وتحرّيه، ما جعله يسهم، مكرَهًا، في تكبيد الأُخت "إيمّيريك"، بدءًا بما أدلت به إحدى رفيقاتها في الدير التي ادّعت أنّها تلصّصت عليها من خلال ثقب قفل حجرتها، فرأتها فوق سريرها تفتح خزانةً، وتتناول منها طعامًا كانت قد أخفته فيها، والتهمته، وادّعت، أيضًا، أنّها رأتها، مرّةً أُخرى، على الأرض وأمامها خبزٌ مطليٌّ بزبدةٍ. وكان بطلان الادّعاء الأوّل جليًّا، فالأطبّاء أجمعوا على الاعتراف بعجزها عن الوقوف بلا مساعدةٍ، وأنّ معدتها لا تحتفظ بأيّ طعامٍ، بل إنّها تسارع إلى تقيُّئه. وقد حاول الأب استبيان ما يمكن مشاهدته من خلال ثقب قفل الباب، فتبيّن له تعذّر رؤية سريرها، والخزانة التي تعلوه. أمّا الادّعاء الثاني فقد فسّرته الأُخت نفسها موضحةً أنّها حاولت النـــزول عن سريرها، ليلاً، فهوت أرضًا، وسحبت معها غطاء سريرها الذي كانت قد وضعت فوقه خبزًا مطليًّا بالزبدة طلبت إعداده من أجل امرأةٍ فقيرةٍ تعتزم زيارتها في الصباح الباكر. ولم يهدأ للأب "رينسينغ" بالٌ، حتّى أطلع العميد الأب "أوڤـــيربيرغ" عن تحرّياته، وتولّى هذا الأخير الدفاع عن الأُخت، بلا تحفّظٍ.

وبقي على الأب "رينسينغ" تبديد الشائعات المتعلّقة بسمات الصلب التي تجلّت على الأُخت. وكان مغرضون قد ادّعوا أنّ الأب الفرنسيّ "لمبير" هو الذي أحدثها،

تحدوه رغبةٌ في جعلها تشارك الفادي آلامه الجسديّة والروحيّة. ومع يقين الأب "رينسينغ" الوطيد بنـــزاهة كلٍّ من الأب "لمبير" والأُخت "إيمّيريك"، واستبعاده لجوءهما إلى هذه الخدعة السخيفة، ولو بدافعٍ تقويٍّ، ومع استبعاد العديدين من أعداء الظاهرة أنفسهم لهذا الاحتمال، ظلّ الارتياب، بهذا الشأن، يساوره، ولم ينقذه منه سوى الأُخت عينها التي استأذنته بإماطة القناع عمّا يتلاطم في أعماقه من أفكارٍ متضاربةٍ، وكان ما استجلته من كوامن نفسه مطابقًا للواقع، تطابقًا مذهلاً. غير أنّه، مع ذلك لم يتورّع من اقتراح أن تعلن الأُخت أنّ سماتها هي ثمرة اندفاعٍ تقويٍّ، فمن شأن هذا الإعلان تحريره، شخصيًّا، من ضغوطٍ باهظةٍ، وتحريرها من تحقيقاتٍ مضنيةٍ. ولكنّها ردّت بهدوءٍ: "وكيف لي أن أفعل ذلك؟ هذا كذبٌ، والكذب خطيئةٌ، حتّى إذا عُدَّت خطيئةً طفيفةً. والكذب، سواءٌ اعتبر جسيمًا أو طفيفًا، مستقبَحٌ في نظر الله استقباحًا يجعلني أُوثر معاناة المزيد من أقسى الآلام، على ارتكاب هذه الخطيئة". هذا الجواب أطاح بتحفّظ الأب "رينسينغ"، فاسترسل في تبيان مخاطر الغيرة الدينيّة المفرطة، غير المستنيرة، واستحلف الأُخت باسم الله، وبخلاص النفوس، أن تعترف بكون سماتها ثمرة اندفاعٍ تقويٍّ. ولكنّها اعترضت مقسمةً، بكلّ ما هو مقدّسٌ، ومؤكدةً أنّها لا تستطيع الإدلاء بأيّ قولٍ مناقضٍ لما سبق لها قوله، ولكنّها ستسعد إن ارتضى الله تمكين أطبّاءٍ من إزالة سمات الصلب عنها، وسترضى، حينئذٍ، بأن تعاقبها السلطات بتهمة الخداع، وبأن تتعرّض لازدراء العالم أجمع وإهاناته.

وكان النائب الأسقفيّ قد كلّف الأب "رينسينغ" بالتحقيق مع رئيسة الدير الذي كانت الأُخت "إيمّيريك" منضويةً إليه، ومع زميلاتها السابقات، بشأن حياتها بالدير. ولم يكن خافيًا على الأُخت احتمال إدلاء أولئك الراهبات السابقات بأقوالٍ كفيلةٍ بإيقاع المحقّق في بحران الحيرة والارتباك، فتداركت الأمر بنفسها، واستحلفت الأب المضيّ في تحقيقه، بدقّةٍ صارمةٍ، وبلا خشيةٍ من الريَب التي قد يسرّبها إلى نفسه ما قد يسمعه. وقد أعدّته لهذه المهمّة بتأكيدها: "قد تضطرّ إلى امتحان ضميري بعباراتٍ مفرطة القسوة، وقد يسبّب لك ذلك حرجًا. ولكنّي

أتوسّل إليك ألاّ تتوجّس وجَلاً من هذه المصاعب، وأن تخضعني وتخضع رفيقاتي السابقات لأقسى امتحانٍ، وأكثره دقّةً. وإنّي أسأل الله أن يهبك النعمة والجرأة للقيام بهذه المهمّة".

بهذه الأقوال زوّدت الأب المحقّق بالحزم الذي يقتضيه تنفيذ مهمّته، وسهّلته له. وكان المحقّق، كلّما مضى قُدُمًا في تحقيقاته، يزداد اقتناعًا بحقيقة المواهب الاستثنائيّة التي حظيت بها "أنّا كاتارينا"، وبسموّ فضائلها، ورفعة كمالها، مكتشفًا، يومًا فيومًا، دلائل دامغةً على ذلك كلّه.

ولطالما لمس الأب "رينسينغ" رهافة ضميرها. فقد كان، أحيانًا، يأتيها على حين غرّةٍ، ويرى تهاطل دموعها مدرارًا، من شدّة الألم، ويستوضحها عمّا بها، فتكتفي بالإجابة: "هل أنا ارتكبتُ خطيئةً بانتحابي على هذا النحو؟" ولا تلبث أن تقول: "سأحتمل آلامًا أشدّ، إذا وهبني الله قدرًا كافيًا من القوّة، فأحتمل كلّ شيءٍ، ولا أخالف أوامر الطاعة".

مصدر ضيقها الأكبر كان تهافت الفضوليّين لرؤيتها. وهي كانت تعدّ أثمن خدمةٍ تسدى لها هي درء وفودهم عنها. ولم يلحظ الأب "رينسينغ"، يومًا، على الأُخت "إيمّيريك" علامة امتعاضٍ أو نفاد صبرٍ، بل كان يشهد بإعجابٍ أمارات السلام السحيق، والسجوّ الوطيد اللذين يسكنان نفسها، ويتجلّيان على محيّاها، شاهدَيْن على منعة استسلامها للمشيئة الإلهيّة، ووثوق اتّحادها الدائم به، وجهدها المستمرّ في إخفاء الآلام التي تجتاحها.

وتبيّن لذلك الكاهن، من خلال استكشاف كوامن نفسها، أنّها كانت تتألّم طوعًا، من أجل ارتداد الخطأة، ومن أجل راحة النفوس القابعة في المطهر. وقد أُعطيت أن ترى هذه النفوس، وتتبيّن معاناتها من توق إلى رؤية المخلّص وأُمّه. وكانت تؤنس عزاءً جمًّا، كلّما رأت ثمار تضحياتها متمثّلةً في ارتداد خطأةٍ إلى الله، وفي إطلاق سراح نفوسٍ مطهريّةٍ.

وعن عمى البصيرة الذي يقع فيه الخطأة، روت هذه الرؤيا الرمزيّة: "كان عليّ اجتياز جسرٍ ضيّقٍ، وارتعدت هلعًا وأنا أشهد الماء العميق المتدفّق تحته، ولكنّ ملاكي الحارس ساعدني على اجتيازه بسلامة. على الضفّة كان فخٌّ منصوبًا لفئرانٍ، ورأيت فأرةً تحوم حوله فترةً طويلةً، وأخيرًا تغلّبت عليها شهوة الطُّعم، فدخلت الفخّ لالتهامه، وهتفتُ: "يا لك من حيوانٍ صغيرٍ مجنونٍ! لقد ضحّيت بحرّيّتك وحياتك من أجل مأكلٍ طيّب المذاق". فقال لي ملاكي الحارس: "وهل البشر أكثر حكمةً من الفأرة، عندما يخاطرون بنفسهم وبخلاصهم من أجل متعة لحظةٍ؟".

واستمرّ التحقيق

إثر زيارة النائب الأسقفيّ الثالثة، كان الأب "رينسينغ" قد طلب من الأُخت "أنّا كاتارينا"، أن تصلّي عن نيّةٍ لم يُفصح عنها. وفي الواقع كانت تلك النيّة الخفيّة إغلاق التحقيق الكنسيّ الذي يسبّب للأُخت وللمحيطين بها ضيقًا جمًّا، ولكاهنيْن فرنسيَّين مسنَّين وورعَين همًا باطلةً، باصطناعهما سمات الأُخت، في حين أنّهما، مع تقديرهما لهذه الحُظوة الفريدة التي نعمت بها الأُخت، كانا يتمنّيان زوال هذه السمات، كي تزول معها المِحَن الموجعة التي تكابدها الأُخت من جرّائها.

ويوم التاسع من أيّار كُلِّف النائب الأسقفيّ الأب "أوڤـيربيرغ" بالشخوص إلى "دولمن" واستجلاء كلّ الجوانب التي ما زال يشوبها شيءٌ من الغموض حول ماضي الأُخت، واستعداداتها النفسيّة الراهنة. ومع أنّ جراح الأُخت كانت قد نـزفت بغزارةٍ في الليلة التي سبقت زيارته لها، إلاّ أنّ الكاهن وجدها ساجيةً، ساكنةً متعاونةً. غير أنّه وجدها، صباح اليوم التالي، مهدودةً. وقد أوضحت شقيقتها أنّها لم تنعم بلحظة نومٍ هادئةٍ، إذ ما تكاد تحظى بلحظات إغفاءٍ، حتّى تهبّ مضطربةً، خشية استعادة تحقيقاتٍ تحرمها الخشوع، والإخلاد للصلاة، والاتّحاد الوثيق بالله. ومع تمسّكها بكلّ أقوالها السابقة، وتصميمها على ألاّ تحيد عنها، توسّلت بإلحاحٍ أن تخضع لمراقبةٍ صارمةٍ ومستمرّةٍ، مدى ثمانية أيّامٍ، من قبل أطبّاء نـزيهين، تمهيدًا لوضع حدٍّ

نهائيٍّ للمضايقات التي تحاصرها. وكان أقصى ما تتمنّى أن تنعم، أخيرًا، بهدنة هدوءٍ تتفرّغ فيها للصلاة والتأمّل. وقد صرّحت، في هذا السياق: "إنّي مستعدّةٌ لفعل أيّ شيءٍ، في سبيل خدمة الآخرين، ولتقطيع جسدي، إرْبًا إرْبًا، من أجل خلاص نفسٍ واحدةٍ. ولكن يستحيل عليّ قبول أن أضحي فرجةً لفضوليّين. ولكنّي سأسفر عن حقيقة نفسي لخبراء يواظبون مدى ثمانية أيّامٍ على مراقبتي، لا من أجل ذاتي، بل من أجل أصدقائي الذين أودّ درء ما يُلصَق بهم من أحكامٍ جائرةٍ، ومهاناتٍ بسببي".

وعاد الأب "أوفـــيربيرغ" إلى "منستر" واعدًا بإقناع النائب الأسقفيّ بتكليف أطبّاء يراقبون الأُخت مراقبةً مستمرّةً مدى ثمانية أيّامٍ، تمهيدًا لإنهاء التحقيق. ولكن تبيّن تعذّر تنفيذ ذلك في الحال لأنّ الأطبّاء المنوي تكليفهم بهذه المهمّة لن تتسنّى لهم فرصةٌ لذلك قبل أسابيع. ومن ثمّ أوصى النائب الأسقفيّ بنقل الأُخت إلى مكانٍ أوفر راحةً، ودعوتها إلى الصبر. ولكم شقّ عليها أن ترى حلمَها في العزلة والسكون والصمت مازال بعيد المنال!

وإلى جانب خيبة رجائها في الظفر بالسكون، كان عليها أن تعاني تفاقم أوجاعها الجسديّة، بحيث اعترفت: "لطالما التمست من الله الوجع والألم. أمّا الآن فأكاد أستسلم لتجربة سؤاله: "كفى، لا مزيد!. آلام رأسي من الحدّة بحيث أكاد أفقد البصر... وفضلاً عن ذلك تؤلمني أكثر من الأوجاع الجسديّة الآلام النفسيّة، والجفاف الروحيّ، والمرارة، والقلق الداخليّ". سلواها الكبرى كانت المناولة. وحينئذٍ كانت تسأل الله أن يهبها نِعَم المحبّة، والتواضع، والصبر.

يوم ٢٦ أيّار، عشيّة عيد الصعود، باحت لمرشدها الروحيّ: "كم أودّ أن أصعد إلى السماء مع مخلّصي! ولكنّ ساعتي لم تحِنْ بعدُ. آلامي وأوجاعي تتفاقم، وما زال عليّ أن أعاني المزيد لكي يكتمل تطهّري. فلتكن مشيئة الله! إنّما أرجو أن يهبني نعمة الثبات في الصبر والاستسلام لمشيئته". ويوم عيد الصعود، عقب المناولة، سمعت الربّ يسألها: "هل تفضّلين الموت، أو المزيد من الألم؟" فأجابته: "أُفضّل المزيد من الألم إن كانت تلك مشيئتك!"

ولمّا كان يضاعف أوجاعها تصرّفاتُ شقيقتها الحمقاء، التي دأبت على غسل ظهرها بالكحول ما كان يفقدها الوعي، وفضلاً عن ذلك كانت تطعمها، قسرًا، ما لا تقوى معدتها على هضمه. وكان توافد الفضوليّين لمشاهدتها مصدر محنةٍ مريرةٍ أُخرى لها، ولا سيّما أنّها كانت قد أُعطيت موهبة استكشاف مكامن النفوس وخباياها، وكان يوجعها ما تشهده من تصارع الأهواء والرغبات، والأفكار المتفاعلة في نفوس بعض الزائرين الفضوليّين. وكان تراخي السلطات الكنسيّة في حمايتها من محاصرتهم يجعلها كالجالسة على قارعة الطريق، فرجةً لكلّ عابر سبيلٍ. وكان يحزّ في نفسها الشعور بأنّ هذه المهانة لن تتوقّف حتّى يتوقّف قلبها عن الخفقان.

زيارة النائب الأسقفيّ الرابعة

كان الأب "رينسينغ" قد بلّغ الأُخت أسماء أطبّاء من مدينة "مُنستر" سيكلَّفون بمراقبتها، ومنهم طلبة طبٍّ، سيلازمونها، ليلاً نهارًا. وكانت هي قد أبدت شيئًا من الضيق، لافتةً النظر إلى وجود أطبّاء في "دولمن" أكبر سنًّا، وأوفر خبرةً وحكمةً. وبلّغ الكاهنُ النائب الأسقفيّ موقفها هذا، فاستنكره، بحجّة أنّ على النفوس المختارة أن تتقبّل رغبة الرؤساء، بلا اعتراضٍ، واعتزم الشخوص إلى "دولمن" مرّةً رابعةً، للتثبُّت بذاته من وضع الأُخت النفسيّ.

ومنذ الوهلة الأولى تبيّن النائب الأسقفيّ أنّ اعتراضها الوحيد كان يتعلّق بصغر سنّ بعض الأطبّاء، وافتقارهم إلى الحنكة التي تمكّنهم من استيعاب ما قد تنطق به، أثناء انخطافاتها.

ومن مآخذه الأُخرى عليها رغبتها في ألاّ يعكّر وجود أولئك الأطبّاء تأهّبها لعيد العنصرة، بتأمّلها وضع الرسل في العلّيّة منتظرين حلول الروح القدس. فذكّرها بقول القدّيسة تيريزا: "التألّم أو الموت" الذي يصلح شعارًا لكلّ قدّيسٍ، وبقول القدّيس فرنسيس الساليزيّ: "المحبّة أو الموت" الذي يليق بكلّ إنسانٍ أن يتبنّاه شعارًا. وقد تلقّت الأُخت "إيمّيريك" هذه الملاحظات بفرحٍ، فاطمأنّ قلب النائب الأسقفيّ.

وبالإجمال كانت زيارة النائب الأسقفيّ هذه مرضيةً له وللأُخت، على السواء. تحفّظه الوحيد كان اعتباره أنّ الأُخت لم تبلغ، بعدُ، منـــزلة الكمال. فلا بدّ من مساعدتها. وقد أمر استعجال تدبير مراقبتها مدى ثمانية أيّامٍ، غير أنّه، نـــزولاً عند رغبتها المحقّة، أمر أن يُبعَد عن هذه المهمّة شبّانٌ مفتقرون إلى الخبرة والحنكة، وأن يُستبدلوا بأطبّاء ناضجين سنًّا وخبرةً وحنكةً، يحرصون على تجنّب تبادل الرأي بشأنها على مسمعٍ منها، لكيلا يجرحوها. وأوعز إلى الأب "رينسينغ" أن يظلّ متيقّظًا، وأن يعودها بتواترٍ، ويوفّر لها أسباب الطمأنينة.

وما لبث أن انتقى الأب "رينسينغ" عشرين طبيبًا يتحلّون بالمؤهّلات المطلوبة، ويرتضون القيام بالمهمّة، وجميعهم من "دولمن"، على أن يعملوا تحت إشراف طبيبٍ من خارج "دولمن". وبدأت المراقبة في العاشر من حزيران.

تقرير كاهنين وطبيبٍ عن السمات

كان النائب الأسقفيّ، عقب زياراته المتعاقبة إلى الأُخت "إيمّيريك"، قد استبعد احتمال أن تكون سمات الصلب الظاهرة عليها نتيجة عملٍ بشريٍّ، بدافع التقوى والرغبة في التمثّل بآلام المخلّص، أو بدافع الخداع، على حدّ ما ادّعى أعداء الظاهرة. ومع ذلك كان شديد الحرص على تبديد كلّ شبهةٍ في هذا الشأن، وكلّف الأب "أوفــــيربيرغ" بإجراء تحقيقٍ دقيقٍ وصارمٍ معها، وبطرح أكثر الاستفسارات إحراجًا عليها. وبدأ الأب المذكور بتحرير الأُخت من أيّ قَسمٍ قد تكون التزمت به حيال أيٍّ كان بكتمان أيّ سرٍّ. وذكّرها بواجب الإجابة الصادقة على أسئلته، باسم الطاعة المقدّسة التي نذرتها، وبالعواقب الروحيّة الباهظة التي ستترتّب عليها من جرّاء كتمانها أيّ أمرٍ بهذا الشأن، أو أيّ كذبٍ. وعندئذٍ استوضحها هل أحدثت هي نفسها الجراح الظاهرة عليها، أو هل أحدثها أيّ شخصٍ آخر، بمادّةٍ حادّةٍ، أو بمادّة حارقةٍ، أو بأيّة وسيلةٍ أُخرى. فنفت، نفيًا باتًّا، كلّ هذه الاحتمالات. وبسكونٍ وهدوءٍ صرّحت أنّها، في البدء، لم تعلم بظهور هذه الجراح لو لم يلحظها كاهنٌ

غريبٌ، ويلفت نظرها إليها، محذّرًا: "لا تظنّي أنّك أصبحت، الآن، صنوةً للقدّيسة كاترينا السيينّاويّة، فأنت ما زلتِ بعيدةً جدًّا عنها!".

ولّما سألها الكاهن كيف لم تسبّب لها الجراح ألًما، أوضحت أنّها كانت تشعر بآلامٍ في أماكن تلك الجراح منذ نحو أربع سنواتٍ، ولم تلحظ أنّ شيئًا تبدّل لدى ظهورها. كان الألم داخليًّا، ولّما ظهرت علاماته إلى الخارج لم تلحظْها في الحال. وأوضحت أنّ أوجاع رأسها كانت قد لازمتها سنين طويلةً، من قبلُ، وحتّى باتت تشعر أنّ كلّ شعرةٍ في رأسها هي شوكةٌ مغروسةٌ فيه، فأمست تتهيّب إلقاء رأسها على وسادةٍ. أمّا أوجاع اليدين والقدمين فكانت أشدّ تأثيرًا داخليًّا، وكأنّها طعناتٌ في قلبها، وكان وجعها الخارجيّ أخفّ وطأةً، عندما يُضغط مكانها. أمّا مكان الصليب الدامي على صدرها، وفوق معدتها، فكان يشيع فيها شعورًا بحرقٍ ناريٍّ.

وعن تواريخ ظهور السمات أفادت أنّها حدثت في أوقاتٍ متباينةٍ ومتعاقبةٍ، تفصل بينها بضعة أسابيع أحيانًا. غير أنّ ظهورها توافق دائمًا، مع مناسباتٍ دينيّةٍ كنسيّةٍ مثل عيد القدّيس أُوغسطينُس، والقدّيسة كاترينا، وعيد الميلاد. وسئلت هل رافقت ظهورَ السمات رؤى أو إلهاماتٌ، فأجابت أنّه لم يرافقها سوى آلامٍ غير مألوفةٍ.

وأكّدت أنّها التمست، دائمًا، في صلواتها، مشاركة المخلّص آلامه، ولكن لم تُساورها قطّ، رغبةٌ في ظهور سمات هذه الآلام عليها. بل إنّها طالما التمست زوالها عنها.

وكانت قد أوضحت، سابقًا: "ليست جراحي صنع أيدٍ بشريّةٍ، بل أظنّ وأرجو أن تكون من صنع الله". فاستُفسرت عن سبب استخدامها عبارتيّ "أظنّ" و"أرجو"، عوضًا عن تأكيدٍ: "أنا موقنةٌ..." فأوضحت أنّ الشكوك التي لمحتها لدى رؤساء كهنوتيّين قد سرّبت إلى نفسها الشكّ بكون الجراح عملاً شيطانيًّا، مدلّلةً بذلك على عمق احترامها وتقديرها للسلطة الكنسيّة، وعلى تواضعها السحيق. ولكنّ شكّها تلاشى مع ظهور سمات صليبٍ على صدرها، ليقينها بأنّ الشرير هو عدوّ الصليب. وأكّدت تمنّيها زوال السمات الخارجيّة، على ألاّ تُعفى من آلامها

الفدائيّة. وعن الصليب المرسوم على صدرها، أوضحت أنّها منذ صباها كانت تسأل الله طبع صليبه في قلبها لكي لا تغيب آلامه أبدًا عن ذهنها، ولكنّها لم تطلب، قطّ، علامةً خارجيّةً ظاهرةً.

وسُئلت هل الأقوال التي تدلي بها عن رؤاها هي إلهاماتٌ سماويّةٌ، حقًّا، أو مجرّد ذكرياتٍ لأقوال وأحداثٍ سبق لها سماعها أو اختبارها، فأوضحت استحالة كونها ذكرياتٍ عندما يتعلّق الأمر بأحداثٍ وأقوالٍ لا علم لها بها، ولم ترَها قطّ، ولا تفهم معناها، أحيانًا.

وعند الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس، الواقع في ١٨١٣/٥/١٣، شاهد الأب "أوفــيربيرغ" فيض الدم من رأسها. لم يكن يتهاطل من جبينها، قطرةً قطرةً، بل كان يتفجّر ويتدفّق. وبدا عليها الشحوب والخَوَر. ثمّ شرعت جراح يديها تنـــزف، وقبل ذلك، كانت قد عانت ما يشبه وخز إبرٍ في جبينها وصدغيها، وحتّى في عينيها. وبعد مرور يومين زارها الكاهن فعاين ظاهر يديها يحمرّ ويتورّم، منذرًا بنـــزفٍ وشيكٍ. ورغب الأب في فحص راحتيها، فلم يلحظ فيهما أيّ تبدّل، وأوضحت له الأُخت أنّ مكان الجرح في الراحتين يغور، عادةً، قبل النـــزف، خلافًا لظاهر اليدين.

وكانت الأُخت قد أَلِفت إخفاء نـــزف جراحها عن أبصار زائريها، وإخباء يديها تحت غطاء سريرها. أمّا إذا تعذّر عليها بسبب كثافة النـــزيف، فكانت تلفّهما بغطاءٍ صفيقٍ. وإذا اعتراها الخطافٌ، في هذه الأثناء، كانت تتنبّه حالما يحاول أحدٌ رفع هذا الغطاء أو كشفه. ومع أنّ كلّ أعضائها تكون متيبّسةً كالخشب، أثناء الخطافها، وتكون فاقدة القدرة على الحركة، كانت تسارع، تلقائيًّا، إلى سحب يديها، كلّما جرّب أحدٌ لمسهما أو تقبيلهما. أمّا إذا باركها كاهنٌ، فكانت، تلقائيًّا، ترسم إشارة صليب.

ويذكر كاتب سيرتها "برينتانو"، الملقّب بالحاجّ، أنّه كان ذات يومٍ يصلّي، قرب سريرها، وهي في حالة الخطافٍ، وألقى نظرةً إعجابٍ وتكريم على سمات يديها، وإذ بها تخفيهما، في الحال، وبسرعةٍ مذهلةٍ، فدهش واستوضحها عمّا دهاها، فأجابت وهي غائبةٌ عن الوعي: "ضيقٌ شديدٌ!".

ويقول الأب "رينسينغ" أنّه شاهدها، ذات يومٍ، تعاني أوجاعًا حادّةً، منذرةً بنـــزف جراحها، وكانت محجمةً عن إظهار يديها له. فحاول إقناعها بعدم التحرّج من ذلك، فأجابت: "أنا لا أطيق رؤية سماتي مكشوفةً، فهي توحي بحصولي على نعمٍ خاصّةٍ، أكسبتني شهرةً لا أستحقّها". وبكت لأنّ كثيرين من الراغبين في رؤية سماتها، والذين يجلّونها، هم أسمى منها قدرًا، واستحقاقًا في نظر الله. وشكرت الله لأنّه لا يخفي عنها عيوبها وأخطاءها، ويثبّتها في تواضعها.

وقد عبّرت عن ضيقها بسبب تقاطر أطبّاء غرباء لمشاهدة ظاهرةٍ غريبةٍ، وهم خالون من كلّ شعورٍ دينيٍّ، ولا ينشدون مجد الله، ولا همّ لهم سوى التحدّث، في المحافل، عن أمرٍ غير مألوفٍ، ومع ذلك، تُرغَم على إظهار مكامن أسرار الله فيها.

وشهد الأب "رينسينغ" بما يلي: "عندما دخلتُ إلى غرفتها دهشتُ لرؤية الدم المنثال، باستمرارٍ من رأسها ويديها، واضطربتُ، وأفلتت منّي عبارة إكبارٍ للنعَم الفائقة التي يمنّ بها الله عليها. فقالت: "أجل، إنّ الله يغدق عليّ من النعم أكثر ممّا أستأهل. وإنّني لممتنّةٌ له. ولكم تمنّيتُ أن يخفي هذه النعم عن عيون البشر، لكيلا يظنّوا، بسببها، أنّني أفضل ممّا أنا، حقًّا!". وقد كشف لي الحديث الذي تبادلناه، حينئذٍ، عمق نفسها، المليئة طهرًا وتواضعًا، وأطلعني على تفاصيل مسيرتها التي أكّدت، تأكيدًا دامغًا، أنّ يد الله قادتها، منذ صباها، ووقتها من مخاطر داهمةٍ. وما أثّر فيّ، وأدهشني، أن يمتلك شخصٌ لم يظفر إلاّ بالزهيد من التعليم، أفكارًا على هذا القدر من الوضوح، والصواب، والسموّ في ما يتعلّق بالله، وبالشؤون الإلهيّة. وقد روت لي الأُخت أنّ الله سألها، في الليلة الفائتة: "ما تفضّلين؟ أن تكوني، في وقتٍ قريبٍ، إلى جانبي، أو أن تمضي قُدُمًا في التألّم من أجلي؟" فأجابته: "إذا كانت هذه إرادتك، فسأعاني المزيد من الآلام، على أن تهبني نعمة التألّم، وفقًا لإرادتك". وقد وعدني الله بمنحي هذه النعمة، وأفعم قلبي فرحًا. وذكّرني الله بارتكابي، أثناء إقامتي في الدير، أخطاءً كثيرةً، تخالف الكمال الذي ألزمتني به

نذوري، فجدّدت ندمي على هذه الأخطاء. وتلقّيت من الربّ تأكيدًا بأنّ هذه الأخطاء لم تفقدني نعمته، لأنّي تواضعت أمامه، وأمام البشر..."

وسألها الأب "رينسينغ"، هل ثمّة جرحٌ على كتفها تمثّلاً بالجرح الذي أحدثه حمل يسوع للصليب على كتفه حتّى الجلجلة. فأجابت: "من المؤكّد أنّ كتف المخلّص الإلهيّ كانت تحمل جرحًا أحدثه حمل الصليب. أمّا أنا فلست أحمل هذا الجرح، مع أنّني، منذ سنين طويلةٍ، أشعر بألمه. وإنّي، منذ صغري، أكرّم هذا الجرح الذي قلّما يخطر ببال الناس، والذي كان قد سبّب له آلامًا مبرّحةً. إنّ من يتعاطف معه يروق للربّ مثلما راق له ذلك الرجل الشهم الذي حمل صليبه عنه حتّى الجلجلة... وقد اتّفق لي، وأنا في السادسة أو السابعة من عمري، عندما كنتُ أتأمّل، وحيدةً، آلام الربّ أن حملت على كتفي خشبًا ثقيلاً، وأحمالاً باهظةً كنت أجد مشقّةً حتّى في جرّها...".

طوال شهر أيّار من عام ١٨١٣، تواصل نـــزف جراحها، وبلغت أوجاع ظهرها وجراحها أوج حدّتها، ومع ذلك صرّحت: "سأحتمل، طوعًا، كلّ أصناف الأوجاع الجسديّة، على ألاّ يحرمني الله مواساته الداخليّة. ولكن، الآن، عوضًا عن هذه المواساة الروحيّة، ينتابني شعورٌ بمرارةٍ داخليّةٍ قصوى. إنّه لشعورٌ مضنٍ. ولكن فلتكن مشيئة الله!".

وقد اضطرّت خلال ذلك الشهر إلى البقاء راقدةً، مدّةً طويلةً، على ظهرها الذي تقرّح، فالتصق قميصها وغطاء فراشها بجلدها. وقال لها الكاهن الذي عادها وشاهد معاناتها: "لا ريب أنّكِ أمضيت ليلةً شاقّةً"، فاعترضت: "كلاّ، فقد أتاني وجعي عينه الكثير من الفرح، فعندما يرسل لي الله آلامًا، أفرح وأشكره، لأنّه يحرّرني من الفراغ، وأنا طريحة الفراش". فقد كانت معاناتها في سبيل الله، مصدر أعمق فرحٍ لها. وقد أقرّت، في هذا السياق: "إذا علمتُ أنّني، بآلامي، أُسهم، ولو مساهمةً ضئيلةً، بتمجيد الله، وارتداد الخطأة، لارتضيت، بكلّ قلبي، أن تتضاعف آلامي، وتتمادى، راجيةً الله أن يهبني نعمة الصبر".

وفي تلك المرحلة، كانت، فضلاً عن نـــزف جراحها، وما يواكبها من أوجاعٍ، تُفرز عرَقًا غزيرًا يبلّل فراشها بلَلاً شديدًا، فيتعذّر عليها إلقاء ظهرها المقرَّح عليه، ولا تستطيع الرقاد على جانبها الأيمن، بسبب الآلام المبرّحة بسبب الجرح النازف في ذلك الجانب، ولا تستطيع الرقاد على جانبها الأيسر لأنّ وركها اليُسرى كانت شبه مجرَّدةٍ إلاّ من العظام. فكان عليها أن تبقى جالسةً جلوسًا مرهقًا، ولا تقوى على إلقاء رأسها المقرَّح على وسادةٍ أو أيّ مسندٍ آخر. وقد شهد النائب الأسقفيّ، لاحقًا: "غالبًا ما شاهدتُ رأسها ينـــزف مسبّبًا لها آلامًا حادّةً. ولكنّها لم تُظهر لي، قطّ، رأسها مكشوفًا، فلم أشهد تفجّر قطرات الدم، مباشرةً، من جبينها. بل كنتُ أشهد الدم ينساب من تحت غطاء رأسها، ويسيل على وجهها بغزارةٍ". كانت تشعر أنّ إكليل شوكٍ كبيرًا وباهظًا يحيق برأسها، ويحول دون قدرتها على إلقائه على وسادةٍ، ويضطرّها إلى البقاء جالسةً، ويتأرجح، مدى ساعاتٍ حول عنقها، تأرجح عبء آلامٍ مضنيةٍ، ورأسها محنيٌّ تحت ضغط آلامٍ لا تحتمل... لم أكن أحتمل رؤية تلك الآلام المريعة التي يواكبها تعرّق احتضارٍ تنساب قطراته على محيّاها الشاحب. ولطالما قضت الليالي على هذه الحال وحيدةً، مُهملةً، محرومةً من السند والتعاطف".

وإلى جانب ذلك، تعذّر على الأُخت "إيمّيريك"، مذ ظهرت عليها سمات الصلب، تناول أيّ طعامٍ. وقد أكّد الأب "أوڤـــيربيرغ"، بهذا الشأن، بتاريخ ١٨١٣/٥/١٢: "منذ نحو خمسة أشهرٍ، لم تتناول "أنّا كاتارينا" أيّ طعامٍ صلبٍ، ولو حتّى ما يعادل حبّة بازلاّء؛ ولم تستطع معدتها الاحتفاظ بأيّ شيءٍ، لا شوكولا، ولا قهوة، ولا نبيذ، ولا حساء. أكثر ما استطاعت تناوله ملعقة مَرَق. وقد جهدتْ في إخفاء هذا الأمر، بوضعها أمامها تفّاحةً مطبوخةً، وخوخًا مغليًّا كانت تمتصّ عصيره... الماء هو الشيء الوحيد الذي لم تكن تتقيّأه".

هذا الانقطاع التامّ عن الطعام كان موضع ارتياب كثيرين، فأشاع بعضهم، كذبًا، أنّها تتناول الطعام، خلسةً، بعيدًا عن الأنظار. غير أنّ المرأة التي أجّرتها حجرةً

في بيتها قد حرصت على البقاء إلى جانبها، ليلاً نهارًا، طوال الشهر الذي سبق وفاتها، كي تساعدها على تحمّل أوجاعها، وتواكب ساعاتها الأخيرة. ولم تكن تلك السيّدة تصدّق أنّ الأُخت تعيش بلا طعامٍ على الإطلاق، ولكنّ مراقبتها المستمرّة لها، أثبتت لها حقيقة هذا الأمر. ومع أنّ كثيرين، حتّى من المقرّبين منها، كانت تراودهم رغبة اقتناص مأخذٍ عليها، وتكذيب ما كان يُشاع عنها من عزوفها التامّ عن كلّ طعامٍ، غير أنّ مراقبتهم الدقيقة والمستمرّة لها انتهت بتبديد شكوكهم.

وكان معرّفها، الأب "ليمبرغ"، الذي عُهد عنه إغراقه في الريبة، قد لمح، ذات يومٍ، لوثةً داكنة اللون على غطاء سريرها، فارتاب في كونها أثر طعامٍ التهمته خفيةً، وتحرّى الأمر إلى أن أكّدت له صديقتها "كلارا" والطبيب "ڤـــيزنر" أنّ تلك اللوثة ناتجةٌ عن مرهم وضعاه على جرح وركها. ولّما تنامى هذا الأمر إلى علم الأُخت، ابتسمت وقالت للأب "ليمبرغ": "إن كان بوسعي تناول طعامٍ، فما الذي يدفعني إلى إخفاء ذلك؟". ورجته أن يبوح لها بكلّ ارتيابٍ بشأنها، قد يخالجه، ولا يدعه يعتلج طويلاً في نفسه. وجديرٌ بالتنويه أنّ ذلك الكاهن عينه كان قد آذاها أذًى جسيمًا من جرّاء محاولاته إكراهها على تناول أطعمةٍ كانت، في جميع الأحيان، لا تلبث أن تتقيّأها.

الطعام الوحيد الذي كان يستقرّ فيها ويغذّيها، والذي كانت تشعر بجوعٍ دائمٍ إليه هو القربان المقدّس. وكانت كلّما همّت بتلقّيه، تستغرق في صلواتٍ حارّةٍ، ملتمسةً أن يهبها الربّ قلبه، وسائلةً القدّيسين تزيينها بأجمل فضائلهم، لكي تستقبله الاستقبال الأكثر لياقةً به.

<u>مراقبةٌ شديدةٌ مدى عشرة أيّامٍ، وإغلاق التحقيق الكنسيّ</u>

يوم التاسع من حزيران أخطرها الأب "رينسينغ" أنّ المراقبة التي أمر بها النائب الأسقفيّ، ستبدأ في اليوم التالي، فابتهجت الأخت أنّا، وأعلنت استعدادها

للخضوع لكلّ ما تقرّره السلطة الكنسيّة، بلا اعتراضٍ. وكان الصليب المطبوع على صدرها، آنذاك، ينـــزف نـــزفًا غزيرًا، ملطِّخًا ثيابها.

وفي الساعة الثامنة من مساء العاشر من حزيران باشر المراقبون مهمّتهم. وكانت الأُخت قد مهّدت لهذه المهمّة بطلبها أن يبتعد الكاهن الفرنسيّ العجوز "لمبير" سحابة مدّة التحقيق، تفاديًا لكلّ تدخّلٍ أو شبهةٍ. وبذلك حقّقت الأُخت رغبةً دفينةً لدى النائب الأسقفيّ، الذي استصعب تبليغ هذه الرغبة للأب الفرنسيّ نظرًا لوضعه الصحّيّ الحرج. ولا بدّ من التذكير بأنّ ذلك الكاهن كان يسكن في حجرةٍ من البناء عينه الذي كانت الأُخت تسكن حجرةً أُخرى منه.

وكانت تعليمات النائب الأسقفيّ تقضي بأن يراقبها شخصان بلا انقطاعٍ، وألاّ يغيبا عنها أو يهملا مراقبتها في أيّة لحظةٍ، على أن يكون أحدهما رجلاً مسنًّا، ولا بأس أن تلبث شقيقة الأُخت إلى جانبها لكي تسدي لها الخدمات الطارئة الضروريّة. وكانت المراقبة مقتصرةً على مشاهدة ما يحدث، فحسب، باستثناء أيّة مهمّةٍ أُخرى. وقد جرت الأمور، عمومًا، على نحو أرضى المراقبين والأُخت على السواء. غير أنّ طبيبًا واحدًا كان قد ورد اسمه في لائحة المراقبين المقترحين، اعتذر، في اللحظة الأخيرة، عن اضطلاعه بهذه المهمّة، تفاديًا لانتقاد الصحافة الملحدة. ولكنّ النائب الأسقفيّ اتّخذ كلّ التدابير الكفيلة بجعل التحقيق كاملاً ومحكمًا، ولا مأخذ عليه. وقبل نهايته طلب تزويده أيضًا بمعلوماتٍ دقيقةٍ عن كلّ ما جرى أثناء التحقيق، لكي تتوفّر له عناصر إصدار حكمٍ سليمٍ معلّلٍ، تمهيدًا لإغلاق التحقيق.

وقد جاء نصّ التقرير النهائيّ الذي وقّعه المراقبون العشرون، على النحو التالي:

« نحن الموقّعين أدناه، بدعوةٍ من الأب العميد "رينسينغ" لمراقبة الراهبة المعتلّة، الأُخت "إيمّيريك"، بعد اطّلاعنا شفويًّا وكتابةً، على دواعي هذه المراقبة، وعلى الجوانب التي يتوجّب مراقبتها، شخصنا، اثنين اثنين، إلى مسكنها، منذ الساعة الثامنة من مساء العاشر من حزيران ١٨١٣، وشرعنا

بالاضطلاع بمهمّتنا، حسبما قُرِّر، واستمررنا بها، ليلاً نهارًا، بلا انقطاعٍ حتّى ظهر يوم السبت التاسع عشر من حزيران. وخلال هذه الفترة لم يزُر المريضةَ أحدٌ، باستثناء شقيقتها التي كانت تخدمها، وزميلاتها السابقات في الدير، وأشخاصٍ جاء بهم الأب العميد، والذين كانوا يحملون إذنًا خطّيًّا من النائب الأسقفيّ. ولم يستطِع أيٌّ من هؤلاء أن يقول للأُخت المريضة شيئًا، ولا أن يقرّر معها أمرًا ما، بغفلةٍ منّا. فقد كنّا نشهد ونسمع كلّ شيءٍ.

"وكان الأب "لمبير" القاطن في البناء عينه، قد ابتعد عنه، بمبادرةٍ ذاتيّةٍ، قبل بدء المراقبة، تفاديًا لكلّ اعتراضٍ، ولم يعدْ إلى المدينة إلاّ بعد انتهاء التحقيق.

"طوال هذه الأيّام العشرة، لم تتناول الأُخت المريضة سوى الماء القراح. ولكنّها لم تطلبه قطّ، بل كانت ترتشفه عندما نقدّمه لها، أو تقدّمه لها شقيقتها، أو السادة الأطبّاء. غير أنّها، مرّةً واحدةً، وضعت في فمها كرزةً، ومصّتها قليلاً، ثمّ قذفت لبّها. وذات يومٍ تجرّعت بضع قطراتٍ من اللودانُم، أعطاها إيّاها الدكتور "ڤيزنر"، لأنّها كانت تعاني آلامًا اتّسمت بقدرٍ مفرطٍ من الحدّة والعناد.

"ولم تلمس المريضة، ولم يلمس أحدٌ من زائريها، جراحها على الإطلاق.

"شرع الصليب المزدوج المرسوم على صدرها بالنزف ليلة ١٥/١٦، إثر آلامٍ جمّةٍ، ونخزاتٍ انتزعت منها الكثير من التأوّهات. وربّما استمرّت هذه المحنة حتّى الساعة السابعة صباحًا. الجراح الأُخرى بدأت تنزف في الصباح الباكر من يوم الجمعة الواقع في الثامن عشر من حزيران، وظلّت تنزف بوتيرةٍ تراوحت شدّةً وتباطؤًا، طوال النهار.

"قبل النزف وأثناءه شكت المريضة بشدّةٍ من آلامٍ ونخزاتٍ في الجراح. وقد لاحظنا أنّها، في ساعات الصباح، وحتّى الساعة العاشرة، كانت شكواها تخفت، لا بل كانت تتجلّى عليها أمارت البهجة، ما خلا في الفترات التي تسبق وتلي نزف الدم. أمّا خلال سائر أوقات النهار فكانت شكواها تتفاوت حدّةً، وفق

معاناتها الوَهَن، والحرارة، ووخز الجراح، وأوجاع صدرها ورأسها وعينيها. ونادرًا ما نعمت بنومٍ هادئٍ. وقد أكّدت لنا أنّ ما كان يبدو نومًا لم يكن يؤتيها راحةً ولا نقاهةً، وغالبًا ما كانت، عقبه، أشدّ وهنًا من قبل. ومع حلول الليل، عمومًا بين العاشرة ومنتصف الليل، كان ينتابها انخطافٌ، فتأخذ في الهذيان، والتكلّم بصوتٍ مرتفعٍ، والارتعاش، وكأنّها مرتعبةٌ. وغالبًا ما كانت تهدأ فترةً طويلةً، كما لو كانت نائمةً.

"نحن مستعدّون لتأكيد أقوالنا هذه، في كلّ مناسبةٍ، وأمام كلّ سلطةٍ كنسيّة أو مدنيّةٍ، وأن ندعمها بقسمٍ إن اقتضى الأمر".

دولمن في ٢٣ حزيران ١٨١٣ »

وعبّر النائب الأسقفيّ للأب العميد عن رضاه بالرسالة التالية:

« لا أستطيع الإحجام، أيّها الأب العميد، عن التعبير لك عن أشدّ امتناني لقيادتك هذا التحقيق على أكمل وجه، وفق رغبتي وتعليماتي. وليس لديّ من نصحٍ أُوجّهه للأُخت "إيمّيريك" خيرٌ من دعوتها إلى الثبات في اللامبالاة، مستعينةً بالنعمة التي لا يضنّ بها الله على من يريدون ويصلّون، داعيًا إلى استخدام كلّ الوسائل المتوفّرة لكلّ مواطنٍ، والكفيلة بتوفير لها الهدوء حيث هي، وبمنجاةٍ عن الزيارات النافلة والمزعجة. إنّي أُشفق عليها بكلّ قلبي. ولكن لم يعد بوسعي مساعدتها ».

هذه العبارة الأخيرة تلمّح إلى حدَثٍ جرى بضعة أيّامٍ قبل إنهاء التحقيق، واستُغِلّ، بعد أربع سنواتٍ، لشنّ حملاتٍ صحافيّةٍ على "أنّا كاتارينا". وإليكم تفاصيله:

كان الأب العميد "رينسينغ" قد تلقّى، في السادس من حزيران رسالةً من النائب الأسقفيّ يدعوه فيها إلى السماح لمفوّض الشرطة وشقيقته، ولبروفسور من "منستر" أن يزوروا الأُخت "إيمّيريك" ويتحقّقوا من جراحها، وتبليغ الأُخت أمره بأن تريهم كلّ ما يرغبون في رؤيته، ولا سيّما أنّ البروفسّور كان رافضًا للظاهرة. وامتثل الأب

"رينسينغ" لطلب رئيسه، وأطاعت الأُخت أمره، رغم خشيتها من مشاقّ التحقيق، لأنّ البروفسّور كان راسخ اليقين بأنّ الظاهرة، بمجملها، محض خداعٍ، مدّعيًا أنّ قشور الدم المتيبّس قد أُلصقت بالنشا، وأنّ الصليب المرسوم على صدر الأُخت هو رسمٌ باهتٌ يمكن محوه بالإصبع، وأنّ الجراح ذاتها اختُلقت بسكّينٍ ودبابيس، وأنّ الدم المنساب منها إن هو إلاّ صباغٌ. واتّفق أنّ دمًا تفجّر من جبينها، بحضوره، وانساب من تحت غطاء رأسها على أنفها، ومع ذلك ادّعى أنّ تلك هي حيلةٌ سخيفةٌ لخداعه وخداع علمه. وارتأى أنّ "أنّا كاتارينا" نفسها هي سليمة الصحّة، متينة البنية، ولا تتأثّر بالامتناع المزعوم عن الطعام. وبالإجمال لخّص البروفسّور الظاهرة كلّها بأدواتٍ حادّةٍ، وبياض بيضٍ، ونشا، وأصبغةٍ، وصمغٍ.

وشاركته زوجته مزاعمه، مؤكّدةً سهولة اصطناع هذه الظواهر، مضيفةً عاملاً آخر، هو المغنطيس الذي كانت وطيدة الإيمان بقدراته، ومن ثمّ استبحرت في طرح أسئلةٍ، على الأُخت، عن الحرب والسلم والمستقبل، واستكشاف الخفايا. واكتفت الأُخت بالردّ عليها: "أنا لا همّ لي سوى سلامي الداخليّ".

واستاء كلٌّ من الأب العميد، والجرّاح "كروهوزن" من استنتاجات البروفسّور وصحبه، فقرّرا رفض السماح لهم بزيارةٍ ثانيةٍ. ولكن كان للنائب الأسقفيّ موقفٌ مختلفٌ، إذ ارتأى أنّ رفض زيارةٍ ثانيةٍ، رأفةً بالأُخت، قد يكون مبرَّرًا في ظروف أُخرى، ولكنّه، حيالَ أناسٍ لا يرون في الأمر سوى خدعةٍ سخيفةٍ، وعملٍ شيطانيٍّ، قد يكون ذريعةً لتأكيد ظنونهم. وصحّ توقّع النائب الأسقفيّ. فقد نشر البروفسّور المذكور، بعد بضع سنواتٍ أنّ سبب رفض زيارةٍ ثانيةٍ له، هو عدم تسنّي فرصةٍ للكاهن ومعاونيه إعادة رسم صليب الصدر، وكان البروفسّور، منذ عودته إلى "منستر" قد أعلن أنّ "أنّا كاتارينا" ليست سوى ممثّلةٍ دجّالةٍ. ومع يقين النائب الأسقفيّ بسطحيّة استنتاج البرفسّور وبخطله، خُيّل إليه أنّ إطلاق يده في التحقيق كفيلٌ بإيصاله إلى الحقيقة، وبحمله على التراجع عن حملاته التشهيريّة.

وكان البروفسّور المذكور قد أعلن، أيضًا، في نوبة كبرياءٍ وعجرفةٍ أنّه قادرٌ على شفاء الجراح إذا أُتيح له العمل على ذلك بحرّيّةٍ. وبما أنّ النائب الأسقفيّ كان مؤمنًا بتعذّر هذا الشفاء، وفي الآن عينه، كان يخشى تكبيد الأُخت آلامًا مضنيةً نافلةً، وافق على محاولة شفاء جرح إحدى اليدين، على أن تنسحب نتيجة المحاولة على سائر الجراح، مثبتةً حقيقتها أو زيفها.

وطلب البروفسّور، أيضًا، أن يؤتى بالأُخت إلى مدينة "منستر" وإخضاعها لمراقبة ستّة أطبّاء. ولكنّ النائب الأسقفيّ رأى أنّ موافقته على هذا الطلب قد تعني دعمًا لادّعاءات البروفسّور الخاطئة، بحقّ الأُخت "إيمّيريك"، والمحيطين بها، وسيكون منافيًا لواجب العدل والمحبّة.

وحينئذٍ برز مشروعٌ بديلٌ يتمثّل في تكليف امرأتين يوافق عليهما كلٌّ من البروفسّور والنائب الأسقفيّ، بمراقبة الأُخت "إيمّيريك"، على أن تُنقَل الأُخت إلى مسكنٍ آخر، وتمنع عنها كلّ الزيارات، ما خلا زيارة الأب "رينسينغ". ولكنّ مفوّض الشرطة رفض هذا المشروع رفضًا قاطعًا، وأمر عمدة "دولمن" بمقاومته، بحجّة أنّ الحكومة هي المسؤولة عن صون حرّيّة المواطنين، وأنّ الأُخت قد خضعت لقدرٍ كافٍ من المراقبة، وكان حكم الكنيسة فيها إيجابيًّا. فلا مبرّر لإلزامها بالمزيد.

ولاحقًا، برّر النائب الأسقفيّ مسايرته للبروفسّور، بأنّه كان راغبًا في شفاء البروفسّور نفسه من قروح الإنكار والإلحاد، والتعامي عن الواقع الساطع. ولا بدّ، في هذا السياق، من الإقرار بأنّ سمات صلب الأُخت كانت مصدر حرَج للنائب الأسقفيّ، الذي كان، في سريرة نفسه، يتمنّى إزالتها، أو على الأقلّ، حجبها عن عيون الناس، وإقصاءها عن التداول، لأنّ المجتمع، آنذاك، كان عاجزًا عن فهمها، من جرّاء بعده عن الدين، وكانت تلك السمات ذريعةً لرشق الكنيسة بشتّى الاتّهامات والتخرّصات. وكان النائب الأسقفيّ نهبًا بين عقلانيّته الباردة البعيدة عن الصوفيّة، من جانبٍ، والأدلّة الدامغة على سموّ نفس الأُخت إيمّيريك،

وصدقها، ومنشأ ظاهرتها السماويّ، من جانبٍ آخر، ومن ثمّ كان دائبًا على البحث والتحقّق. وانطلاقًا من هذا الموقف بعث، يوم ١٨١٣/٧/١٦، برسالةٍ إلى الأب "رينسينغ" تقول: "أرجوك تبليغ الأُخت إيمّيريك تحيّاتي، وأن تدعوها للصلاة عن نيّةٍ خاصّةٍ، وأن توعز إليها، في حال قدوم الكونت "ستولبيرغ" وزوجته إلى دولمن أن تريهما كلّ شيءٍ".

ويوم الثاني والعشرين من شهر أيلول، وصل الزائران المرموقان، برفقة الأب "أوڤـــيربيرغ"، وأقاما يومين في دولمن. ودوّن الكونت تفاصيل زيارته تلك، كالتالي: "كان الأب "أوڤـــيربيرغ" قد أخطر "أنّا كاتارينا" بزيارتنا. وعند الساعة التاسعة صباحًا، اقتادنا إليها. لحجرتها الصغيرة مدخلٌ واحدٌ، وهي مطلّةٌ على الشارع العامّ. وإنّه ليشقّ كثيرًا على الأُخت أن تكون محطّ أنظار الغرباء. الحجرة نظيفةٌ جدًّا، وخاليةٌ من كلّ رائحةٍ كريهةٍ. وقد استقبلتنا استقبالاً حافلاً بالمودّة. رجاها الأب "أوڤـــيربيرغ"، باسمنا، إزاحة الغطاء الذي اعتادت إخفاء يديها تحته. حدث ذلك يوم جمعةٍ، وكانت جراح إكليل الشوك قد نـــزفت بغزارةٍ. وأزاحت، أيضًا، غطاء رأسها فرأينا جبينها ورأسها يحملان ثقوب أشواكٍ غليظةٍ. وظهرت، بوضوحٍ، جراحها التي ما برحت ملأى بدمٍ حديثٍ، وبدا محيط رأسها مخضّبًا بالدم. ما من رسّامٍ استطاع، يومًا، إظهار الجراح التي أحدثها إكليل الشوك في رأس المخلّص وجبينه بمثل هذه الصورة الطبيعيّة. جراح ظهر اليدين والقدمين أكبر كثيرًا من تلك المحفورة داخل الراحتين، وجراح القدمين أكبر من جراح اليدين. وكانت جميعها تنـــزف في آنٍ واحدٍ.

"لقد سبق الأطبّاءُ رجالَ الدين في الإشارة إلى ما في هذه الظاهرة من عجيبٍ معجزٍ، وكانوا أكثر وضوحًا وانفتاحًا، لأنّهم كانوا يمسكون بمعطياتٍ أكيدةٍ تسمح لهم بإصدار حكمٍ وفقًا لقواعد العلم، على ظاهرةٍ ماثلةٍ أمام عيونهم، بعد أن ثبت لهم تعذّر إبقاء مثل هذه الجراح بمنجى من الالتهاب والتقيّح، لو كانت مصطنعةً،

وبعد أن تيقّنوا، أيضًا، من استحالة أيّ تفسيرٍ طبيعيٍّ لتمكّن تلك الراهبة المريضة، رغم جراحها التي لا تدرك طبيعتها، والآلام الحادّة التي لا تدع لها لحظة هدنةٍ، من مقاومة انهيارٍ تامٍّ، ومن بقاء وجهها بمنجاةٍ من الشحوب والامتقاع، ونظرها تفيض حياةً، وذكاءً، وحبًّا.

"إنّها، منذ مدّةٍ طويلةٍ تملك حقّ قبول أو رفض الزيارات التي ترهقها، والتي غالبًا ما تأباها، ولا تستثني سوى تلك التي ينصحها بها رجال دينٍ أو أطبّاءٌ.

"وهي لا تكفّ تلتمس نعمة الله كي يمكّنها من التمرّس بالصبر في غمرة آلامها المتواصلة، غير راغبةٍ في تجربة الله، وامتحان صبرها في سبيل استقبال أشخاصٍ لا دافع لهم، غالبًا، سوى الفضول، موضحةً: "من لا يؤمنون بيسوع المسيح، لن تحوّلهم سمايَ إلى مؤمنين". ولا عجب في هذا الموقف الصادر عن راهبةٍ خجولٍ، مرهفة الإحساس، يتعيّن عليها، غالبًا، احتمال محاصرة فضوليّين يفتقرون إلى اللياقة.

"إنّ "أنّا كاتارينا" التي رعت القطعان في طفولتها، وأدّت أعمالاً من كلّ صنفٍ ولونٍ، تتكلّم بصوتٍ فائق العذوبة، وتتحدّث عن أمور الدين بلهجةٍ ساميةٍ، لم نتلقّنها في الدير. ولا يتّسم حديثها باللباقة والتبصّر فحسب، بل، أيضًا، بروحٍ مستنيرٍ تغمره أنوارٌ ساميةٌ. نظرها يفيض ذكاءً، وأقوالها كلّها تقطر مودّةً، وحكمةً مضيئةً، ومحبّةً، وهي تتلفّظ بها بصوتٍ خافتٍ، واضحٍ، نقيٍّ. لا تصنّع ولا مغالاة في سلوكها، وما أبعدها عن التباهي بشواهد الحظوة الإلهيّة التي تعدّ ذاتها غير جديرةٍ بها! إنّها تحمل كنـــزًا سماويًّا في إناءٍ خزفيٍّ هشٍّ، بعنايةٍ متواضعةٍ".

وقد ظلّ الكونت، من خلال الأب "أوڤـــيربيرغ" على علاقةٍ روحيّةٍ وثيقةٍ مع الأُخت المختارة. فقد التقت هاتان النفسان النقيّتان في قلب المخلّص. وخليقٌ بالتنويه أنّ شهادة الكونت التي أوردناها أعلاه، قد وقعت بين يدي الشاعر "كليمنس برينتانو"، وكانت أحد الحوافز التي دفعته إلى وقف وقته ومواهبه الأدبيّة على إبراز غنى النعمة الإلهيّة التي تجلّت في تلك الراهبة المتواضعة، الغائصة في الله.

زيارة النائب الأسقفيّ الأخيرة إلى "دولمن"

كان يروق للنائب الأسقفيّ أن يلتمس منه أناسٌ رفيعو المقام، وأصحاب مناصب وكفاءاتٍ علميّةٍ، السماح برؤية سمات الأُخت "إيمّيريك"، وكان يمهّد لهذه الزيارات، ويطلب من الأُخت أن تريهم أفعال الله فيها، آملاً في تنمية عدد الموالين للظاهرة، وإخماد أصوات الشتّامين، ومروّجي التخرّصات.

وبدافع هذا المقصد عينه وافى إلى "دولمن" يوم **٢٦ آب ١٨١٣**، تواكبه جماعةٌ من النبلاء، كي يريهم ما سبق له أن رآه بنفسه، وما أثار إجلاله لعمل الله في خادمته الوفيّة المتواضعة. وتمادى الزائرون في مراقبة رسوم الصلبان على صدر الأُخت، وفي غسل الجراح للكشف عنها. وأُشبعت المسكينة تحديقًا ونظرات فضولٍ مخجلةً. ولما عادها مساءَ ذلك اليوم الدكتور "ڤـــيزنر" والبروفسّور "دروفيل"، وجداها منهكةً، مهدودةً، ونبضها يكاد لا يُسمع، حتّى خُيِّل إليهما أنّها على شفا الموت. ولم يتمالك الدكتور "ڤـــيزنر" من تدبيج رسالةٍ قاسية اللهجة إلى النائب الأسقفيّ، جاء فيها: "إنّكم تبتغون تحرّي الأمر بدقّةٍ، وهذا واجبكم، ولكنّ التحرّي لا يتمّ على هذا النحو. فقد كبّدتم المريضة المسكينة استشهادًا لامس الموت، وجئتم بموكبٍ من ثمانية أو عشرة أشخاصٍ، ومكثتم حولها منذ الساعة الثامنة صباحًا حتّى السادسة مساءً. ومن دواعي أسفي أنّني كنت قد استدعيتُ لعيادة مرضى خارج البلدة، وإلاّ لكنتُ حذّرتكم من مغبّة عملكم، ولكنتُ منعت إلحاق هذا العذاب بالمريضة، ولما كنت حزنتُ برؤيتها على هذه الحال من الوهن المميت، حتّى خُيّل إليها أنّها انتهت إلى ساعتها الأخيرة، وشكرت الله لذلك. لست أستطيع فهم كيف استطعتم تكبيد المسكينة هذا العذاب... وأؤكّد لكم، بشرفي، أنّ ما حدث كان كفيلاً بإفقاد المريضة حياتها، لو لم يتداركها الله بأعجوبةٍ. إذا كان عليكم الاستمرار في التحقيق، فمن المحقّق أنّ الأُخت ستتيح لكم فعل كلّ ما تريدونه. ولكنّي أستحلفكم بالله ألاّ تفعلوا بمثل هذا الصخب، وألاّ تعرّضوا للخطر صحّتها التي تعرفون هشاشتها".

بمشقّةٍ وبطء، استعادت الأُخت شيئًا من قواها. وحالما تمكّنت من التلفّظ ببضع كلماتٍ، همست في آذان المحيطين بها: "إنّ ضميري مقتنعٌ الآن بأنّ عليّ رفض هذه الزيارات، والامتناع عن إظهار سماتي الخارجيّة". وباحت بأنّ السيّدة العذراء هي التي ظهرت لها، وأوحت لها بهذا القرار.

ولكن، لا بدّ من إيضاح أنّ ما فعله النائب الأسقفيّ كان يحدوه قصدٌ حميدٌ. فهو منذ إنهاء التحقيق، كان قد رغب في حجب "أنّا كاتارينا" عن العيون الفضوليّة، وتمكينها، ماديًّا، من تحقيق رسالتها الفدائيّة في عزلةٍ لا يعكّرها معكّرٌ. وبعد إعمال الفكر طويلاً، اعتزم تأمين مسكنٍ لها في إحدى ممتلكات أُسرته النبيلة، حيث تتوفّر كلّ احتياجاتها. ولكن قبل الإقدام على تحقيق هذا المشروع، رغب بعض أفراد أُسرة النائب الأسقفيّ وأصدقائهم التثبُّت من مصداقيّة الأُخت "إيمّيريك"، ومن ظاهرتها العجيبة. وهذا ما حدا بالمسؤول الكنسيّ إلى اصطحاب ذلك الموكب الحافل، وإلى القيام بذلك التحقيق الذي كان يظنّه نهائيًّا، والذي كان يعتزم تعويضها عن إزعاجه، بعرضه السخيّ. وكان قد حرص على كتمان هذا الأمر عن أهالي "دولمن"، باستثناء الأب "رينسينغ" الذي كان ينوي تكليفه بمتابعة العناية الروحيّة بالأُخت في مقرّها الجديد، حيث سيوفّر للأب "رينسينغ"، أيضًا، مقرًّا مريحًا. وعندما بلّغ النائب الأسقفيّ الأُخت مشروعه هذا، منعها من إطلاع معرّفها، الأب "ليمبرغ" عليه، والتزم هو والأب "رينسينغ" بالإحجام عن كلّ تلميحٍ أو إشارةٍ قد يؤثّران على قرارها، أو يوحيان برغبةٍ كنسيّةٍ في هذا الشأن. وبالتالي حُرمت الأُخت من أيّة مشورةٍ كفيلةٍ بتوجيه قرارها؛ ووقعت في حيرةٍ قاتلةٍ كادت تقضي على البقيّة الضئيلة من قواها. فعرض النائب الأسقفيّ كان يضمن لها العنصرين الأرضيَّين اللذين كانت تفتقر إليهما وتتمنّاهما وهما العزلة والهدوء. وكان قبولها ذلك العرض يعني، في نظرها، واجب احترامٍ وعرفان جميلٍ للسلطة الكنسيّة التي كانت خاضعةً لها. فضلاً عن أنّ النائب الأسقفيّ منّاها بأن تقيها هذه العزلة من احتمال أيّ تحقيقٍ آخر.

ولكن، من ملحظٍ آخر، كيف للأُخت أن تطمئنّ بألاّ يكون قبولها ذلك العرض السخيّ، عصيانًا لمشيئة الله، وألاّ تغدو استطابتها لحياةٍ هادئةٍ هانئةٍ متناقضةً ومنافيةً لرسالتها الفدائيّة؟ أليست، بذلك تخالف نذورها، وتنأى عن المكان الذي يفسح لها فرصة مدّ يد العون إلى جموع المعوزين، وعن مواقع المضايق والحرمان التي بها تكفّر عن ذنوب الخطأة، وتخفّف آلام المتألّمين؟ وكيف لقلبها الملتهب محبّةً أن يجد، في ذلك الملجأ المريح، سوانح أعمال رحمةٍ ومواساةٍ كتلك التي اعتادت عليها، حيث هي، وحيث بابها مشرعٌ دائمًا في وجه كلّ سائلٍ؟ ولكن، من جانب آخر، ألا يجلب عليها رفضها للعرض غضب رئيسها الكنسيّ الذي سيعدّه ضربًا من نكران الجميل والنزوة؟ تلاطم هذه المتناقضات في ذهنها كان يوجعها، ويضاعف إيجاعها الحظر المفروض عليها باستشارة معرّفها ورؤسائها الروحيّين، وإعراض الأب "رينسينغ" الصارم عن التلفّظ بكلمةٍ، أو الإيماء بإشارةٍ، تساعدها على اتّخاذ القرار الصائب. فاستمهلت كي تصلّي وتستلهم مشيئة الله. وبعد أيّامٍ كلّفت الأب "رينسينغ" بتدبيج رسالةٍ إلى النائب الأسقفيّ، وفق النصّ التالي: "يتعذّر على الأُخت إيمّيريك، السفر إلى "دارفيلد". فهي من الوَهَن بحيث تعرّض هذه الرحلة حياتها للخطر. وبما أنّها ليست مجبَرةً على القيام بهذه الرحلة بأمرٍ من رؤسائها الكنسيّين، فهي تخشى أن تجعل من هذه الرحلة تجربةً لله، وخطيئة تهوّرٍ طائشٍ، فضلاً عن يقينها بأنّ إقامتها في "دارفيلد" بين ظهراني أفراد أُسرة "دورست" المشهورة بورعها لن يؤدّي إلى إخراس النمائم، وحجب التهم الباطلة الموجّهة لها، بل هي كفيلةٌ بإثارة المزيد منها. ومن ثمّ سيُحزنها تعريض هذه الأُسرة الكريمة إلى منغّصاتٍ وهمومٍ نافلةٍ، فالبروفسّور... (الذي أعلن أنّ الظاهرة لا تتعدّى كونها خدعةً هزليّةً) والحاذون حذوه والذين يشاطرونه رأيه، لن يتغاضوا عن هذه التدابير، بل سيُمعنون إصرارًا في جرّ الأُخت إلى "منستر" وإخضاعها هناك لتحقيقٍ جديدٍ".

وفي الواقع كان وَهَن المريضة قد تفاقم جدًّا. وخشي المحيطون بها، في الفترة الممتدّة بين الأوّل والعاشر من شهر أيلول، أن تلفظ نفسها الأخير، حتّى إنّ الأب "لمبير" قد ظنّها ميتة، يوم الثاني من أيلول، وتلا صلاة الأموات بقربها. ولكن ما إن رشّها بالماء المقدّس حتّى طاف على محيّاها الشاحب شعاع حياةٍ عذبٌ، واستعادت وعيها رويدًا رويدًا.

لم يصعب على النائب الأسقفيّ تبيُّن صواب الأسباب التي حملت الأُخت "إيمّيريك" على رفض عرضه. لا ريب أنّه شقّ عليه فشل مخطّطٍ كان قد خُيِّل إليه أنّه يستطيع به إخراس أصوات المشكّكين، بالتحقيق المستفيض الذي أجراه، ودحض افتراءات الملحدين وأعداء الكنيسة. غير أنّه قرأ في موقف الأُخت الرافض لعرضه دليلاً إضافيًّا على صفاء طويّتها، ورفعة فضائلها، وسموّ كمالها. وبالتالي لم يُفضِ هذا الموقف إلى إضعاف تقديره لها، فبقي على علاقةٍ ودّيّةٍ معها، من خلال الأب "رينسينغ"، وأبدى رغبةً في مواصلة الاطّلاع على الظواهر العجيبة التي يجريها الربّ من خلالها.

ولحظ الأب "رينسينغ" أنّ الأُخت كانت تحرز تقدّمًا مطّردًا في مضمار الكمال، متوغّلةً في التجرّد من كلّ ما هو أرضيٌّ، والتوافق مع مشيئة الله. وكانت رؤاها تكتسب، يومًا فيومًا، سموًّا وروعةً، وتقابلها، هي، بالاستغراق في البساطة والتواضع، ونشدان مجد الله، وخلاص البشر، بمعزلٍ عن أيّة غايةٍ أُخرى.

وبما أنّ حالات وهنها المفرط كانت تتواتر، يوما فيومًا، وكان المحيطون بها يخشون نهايتها في كلّ لحظةٍ، فقد أصدر النائب الأسقفيّ، بتاريخ ١٨١٤/٥/٢٦، تعليماتٍ دقيقةً ومفصّلةً، حدّد فيها التدابير التي يتوجّب الالتزام بها، حال وفاتها، مشدّدًا على واجب إبلاغه بها لحظة وقوعها.

بعد التحقيق

تمثّلت سيرة "أنّا كاتارينا" كلّها في تضحياتٍ مستمرّةٍ، من أجل الكنيسة، ومن أجل مسيحيّي زمانها الذين كانوا يجتازون أزمنةً عصيبةً، ويواجهون مضايقاتٍ جسيمةً. وهي، في هذا السبيل، لم تخطّط مراحل دربها، ولا اختارت أدوات عملها، بل استسلمت استسلامًا كلّيًّا، وبلا تحفّظٍ، لمشيئة الله وتوجيهاته، فحوّل الله أصغر دقائق حياتها سلالم تمكّنها من ارتقاء معارج الكمال والقداسة.

لقد أعدّها الله، في الدير، لهذه المهمّة، في الخفية، وامتحنها بآلامٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ مستمرّةٍ ومن الشدّة والحدّة، بحيث يتعذّر على البشر تحمّلها إلاّ بعونه الفائق. وأثناء أيّامها الأخيرة في الدير، شرع إكليل الشوك، الذي حُفرت آثاره في جبينها ينـــزف، ولكنّها استطاعت إخفاءه عن عيون رفيقاتها. وكانت قد تأهّبت لسمات الصلب التي سترتسم عليها، لاحقًا، فشرعت، منذئذٍ، تعاني آلامًا حادّةً في يديها، استطاعت، أيضًا، كتمانها. ولم تتوقّع، حينذاك، أن تبلغ أوجاعها ومضايقها أوجها، إثر اقتلاعها من ديرها، وهبوطها في عالمٍ غريبٍ، ولا سيّما أنّ ذلك الحدث ترافق مع ظهور سمات الصلب الخارجيّة، التي أمست رؤيتها متاحةً لكثيرين، ومحطّ فضولٍ وشكوكٍ، واتّهاماتٍ، وبعد أن طالما لازمتها رغبةٌ في المعاناة الصامتة الخفيّة. ولكم آلمها أن تُكرَه على التخلّي عن السكن في بيت الله، حيث كان قربها من مخبأ القربان هو عزاءَها الوحيد في هذه الدنيا! ولم تكن تلك المحنة سوى بدء حياةٍ تقرن الخشونة بالسموّ، قرنًا لم تعهد له مثيلاً من قبل.

أغلى مناها، عقب خروجها من الدير كان تمكّنها من الاستمرار بتقديم خدماتٍ وفيّةٍ وسخيّةٍ للكاهن الشيخ الجليل العاجز، الأب الفرنسيّ "لمبير"، الذي طالما كان لها السند البشريّ الوحيد، والذي مكث بقربها في الدير، إلى أن انتقلا، معًا، إلى بناءٍ زريٍّ احتلّ كلٌّ منهما حجرةً صغيرةً فيه. كانت، هي، تجلّ فيه الحارس الكهنوتيّ، والمعرّف الورع، والذي أوصله إيمانه ووفاؤه للكنيسة إلى المنفى، وإلى هوّة الفقر. وكان، هو، لها الملجأ ومصدر العزاء عندما انصبّت عليها أقسى

الاتّهامات والمضايقات والجراح، في الدير الذي أحبّته، ووفت له، رغم كلّ شيءٍ. وكان بيتَ سرّها الذي تبوح له بآلامها، صباح كلّ يومٍ، أثناء استعداده للذبيحة الإلهيّة، وفي الآن عينه، تطلعه على رؤاها المتعلّقة بالمضايقات التي سيواجهها هو، أثناء النهار، وتسأل أدعيته، وتتلقّى بشكرٍ عبارات تشجيعه ومواساته. وكان ذاك هو العزاء الوحيد الذي تحظى به من قلبٍ بشريٍّ متعاطفٍ مع مشاعرها. فهي كانت تملك قلبًا منيعًا في مواجهة الاستشهاد اليوميّ، ولكنّه كان قلب طفلٍ، مرهف الحسّ، وطافحًا بالتعاطف، مع معاناة الآخرين. وكان الكاهن يعلم أنّ الأُخت تسلّم رئيسة الدير كلّ سنتيمٍ تحصل عليه من عملها اليدويّ الذي يشغل، غالبًا، كلّ لياليها، ولا تحتفظ بما يسدّ احتياجاتها الشخصيّة الزهيدة. ولذلك، حين كانت ما زالت تستطيع ازدراد بعض طعامٍ، كان يأتيها، كلّما استطاع، بخبزٍ تتقبّله معدتها أفضل من تقبّلها، خبز الدير. وكانت هي سعيدةً بتلقّي من يد ذلك الكاهن العطوف والورع قوتًا زمنيًّا، فضلاً عن القوت الروحيّ الذي كان يزوّدها به.

ولطالما فاجأها ذلك الكاهن، جاثيةً في حجرتها، مأخوذةً في الانخطاف، متجمّدةً كتمثالٍ، وكأنّها خارج الدنيا، فاقدة الشعور، فلا يجرؤ على انتزاعها، بأمرٍ كهنوتيٍّ، من انخطافاتها، التي لا تني تتواتر وتطول أمدًا. وكما أنّها كانت راغبةً في كتمان أمر هذه الانخطافات، حرص الأب على تجنّب التحدّث عنها، وإذا ما هي استوضحت رأيه فيها، كان يجيب: "لا تبالي بها، يا أُختاه، فهي مجرّد أحلامٍ". وكان يأمل أن تزول، سريعًا، سمات صلبها، أو أن تُحجب عن أنظار العالم، ولكنّ رجاءه، في هذا الشأن، خاب، وتعيّن عليه وعلى الأُخت أن يعانيا، من جرّاء هذه الظاهرة العجيبة، جمًّا من المضايق والشدائد والافتراءات. وكم آلم الأُخت "إيمّيريك" أن تضطرّ إلى شدّ أزر صديقها الكاهن الشيخ، الذي لم يكن يتوق إلاّ إلى قضاء أيّامه الأخيرة في سكونٍ وهدوء، في حين كانت، هي نفسها، تجاهد لكي لا تنهار.

لا مراء أنّ ما من حدَثٍ في حياة "أنّا كاتارينا"، قد أظهر، إظهارًا عجيبًا وموجعًا، مثلما أظهر تجلّي إشاراتٍ عجيبةٍ عليها، ابتغاء الله أن يبيّن لجيلٍ ملحدٍ،

ماديٍّ، متعجرفٍ، روعة استسلام أصفيائه لمشيئته، وتطوّعهم لمشاركته افتداء روح العالم، بأقسى الأوجاع الجسديّة والروحيّة.

فقد كانت جراح سمات الأُخت تُفتَح من الأسفل إلى الأعلى. مسبّبةً لها آلامًا مضاعفةً إذ إنّ كلّ نسمة هواءٍ تمرّ بها تُحدث ما تُحدثه شعلةٌ حارقةٌ، أو أداةٌ جارحةٌ حادّةٌ، فلا يجد المحيطون بها وسيلةً لتلطيف أوجاعها سوى تضميد جراحها تضميدًا خفيفًا يقيها لسعات الهواء.

وممّا أدهش الأطبّاء المشرفين على علاجها أنّ أدنى خدشٍ في أيّ جزءٍ من جسدها كان سرعان ما يلتهب ويتقيّح، في حين لم يلاحظ أيّ تقيُّحٍ على سمات صلبها، التي ظلّت مشرعةً على امتداد سنواتٍ. وثمّة عامل دهشةٍ آخر حيّر الأطبّاء، وهو أنّ سماتها لم تكن تنـــزف أيّام الجمعة فحسب، بل أيضًا في مناسبات الأعياد الكنسيّة المتعاقبة، مع أنّ هذه المناسبات، في أحيانٍ كثيرةٍ، متبدّلةُ المواعيد. ولطالما كان تفاقم أوجاعها المنذر بانفتاح جراحها الوشيك. هو الذي يذكّرها باقتراب عيدٍ كنسيٍّ. وقد حيّر العلماء والأطبّاء، أيضًا، أنّ اتجاه الدم النازف من جراحها لم يكن خاضعًا لقوانين الجاذبيّة والتوازن المعهودة، بل كان يُحاكي مسار دماء المصلوب، وفقًا للوضع الذي كان فيه على الصليب.

ولطالما هتف الأب "لمبير"، باكيًا، عندما كانت تتفجّر الدماء، بغتةً، من جراح الأُخت بحضور أطبّاء: "ألا ترون شاهدًا على افتراء من يتّهمونني باصطناع هذه الجراح؟". والجدير بالتنويه، في هذا السياق، أنّ جراح الأُخت قد نـــزفت بغزارةٍ، في أثناء دفن الأب "لمبير" صباح يوم الجمعة، في ١٨٢١/٢/٩.

وقد لاحظ كاتب سيرتها أنّها، مع كلّ أوجاعها، ودمائها النازفة، وعجزها عن الحركة، قد أُعطيتْ، دائمًا، القدرة على الاحتفاظ بجسدها وثيابها في حال نظافةٍ مثاليّةٍ، تعكس، في كلّ لحظةٍ، صورةً متألّقةً للبراءة، والحشمة، وطهر القلب، مع أنّها كانت، غالبًا، ضحيّة إهمال شقيقتها والمحيطين بها. فقد زارها، في يومٍ صيفيٍّ، الدكتور "ڤـــيزنر"، فوجدها في حالة انخطافٍ، وحيدةً، وقد هاجمها سربٌ من

الذباب، عكف على امتصاص جراحها حتّى إدمائها. ولفتت نظر الدكتور "ڤـــيزنر" أيضًا، ملاحظته على جسدها، في التواريخ المذكّرة بجَلد يسوع، جراحًا تحاكي تلك التي تحدثها سياط جلدٍ، تواكبها رعشات حمّى عنيفةٌ.

كيف واجهت "أنّا كاتارينا" سمات الصلب؟

عن حدوث السمات روت الأُخت:

« في نحو الساعة الثالثة من اليوم الثالث السابق للسنة الجديدة (١٨١٣)، كنتُ أتأمّل آلام يسوع، والتمستُ منه أن يتيح لي مشاركته هذه الآلام، وتلوت خمس مرّاتٍ دعاء "أبانا"، تكريمًا لجراحه الخمسة. كنت راقدةً على سريري، باسطةً ذراعيّ، وانتابتني مشاعر عذوبةٍ قصوى، يواكبها عطشٌ لا محدودٌ إلى آلام الربّ. وحينئذٍ رأيت نورًا يهبط عليّ من العلاء، بزاويةٍ مائلةٍ، وإذ به جسدُ مصلوبٍ حيٌّ وشفّافٌ، ولكن بلا صليبٍ. كانت جراحه أشدّ تألّقًا من جسده. كانت خمسة أمجادٍ منبثقةً من المجد السماويّ، حيث كانت كامنةً. تأثّر كياني كلّه بالرؤيا، واعتراني ألمٌ شديدٌ، مقرونٌ بعذوبةٍ، ورغبةٍ في مقاسمة مخلّصي آلامه، رغبةٍ كانت تتنامى وأنا أشهد جراحه، وتتوثّب من صدري، مخترقةً يديّ وقدميّ وجنبي، وتنطلق من يدي المصلوب، ثمّ من جنبه، ومن قدميه، على يديّ وجنبي وقدميّ. ولبثتُ، طويلاً، على هذه الحال، لا أُدرك شيئًا ممّا يحلّ بي، إلى أن مرّ ابن صاحبة البيت بالحجرة، وأخفض يديّ، وأخبر الموجودين في البيت أنّني صدمت يديّ بشيءٍ أدماها. ولكنّي رجوت القوم أن يكتموا الأمر.

"زمنًا طويلاً قبل ذلك، كان الصليب مطبوعًا على صدري، وكنتُ قد تلقّيتُه بمناسبة عيد القدّيس أوغسطينُس، إذ كنتُ راكعةً، فدمغني به خطيبي الإلهيّ. وإثر تلقّيَ الجراح طرأ تغييرٌ على جسدي، إذ شعرت بأنّ دمي اتّخذ مجرًى مختلفًا، وغدا يتدفّق صوب أماكن الجراح، بضغطٍ موجعٍ.

"وحدّثني القدّيس فرنسيس، ليلاً، وواساني، وأطلعني على حدّة آلامه الداخليّة".»

وكان الربّ يقتضي منها، مقابل هذه العلامات الاستثنائيّة، أن تؤدّي كلّ أعمالها، وتتكبّد كلّ آلامها على نحو ما يروق لله، فلا يشوب صفاء نواياها أيّة شائبةٍ، ولا تتزعزع فضائل صبرها وعطفها، ومحبّتها، وثقتها المنيعة بالله، حتّى إذا انتصبت في وجهها عقباتٌ يبدو تخطّيها مستحيلاً، وحتّى إذا قاومها من سينعمون بالعون والبركة بفضل جهادها وآلامها. وإن اتّفق أن حملتها الهشاشة البشريّة على التقهقر، وابتلتها بالتواني أو القنوط،، وإن شابت نقاء فضيلتها لوثةٌ لا تلمحها سوى عين الله وحده، فعليها التكفير عن هذه الأخطاء بأعمال توبةٍ.

منذ صباها كان ملاكها ينيرها ويرشدها إلى سبُل تحقيق مهمّاتها تحقيقًا كاملاً. غير أنّ ميدان مهمّاتها اتّسع مع الأيّام، وغدا تنفيذها يستنفد حتّى نفَسها الأخير. فغدت الدروب التي يتعيّن عليها انتهاجها تتجلّى من خلال رؤاها التي ما انفكّت تتنامى غنًى ووضوحًا. وبما أنّ الوقت المتاح لأداء رسالتها الخطيرة أضحى قصيرًا، كان لا بدّ لها من استغلال كلّ ثانيةٍ من حياتها بحرصٍ على إتيان الثمار المرجوّة. وقد رأت، مسبّقًا، ما هو مُعدٌّ لها، والواجبات المناطة بها، والأشخاص المكلّفين بمواكبتها، فصلّت من أجلهم قبل أن تتعرّفهم، وفي طليعتهم النائب الأسقفيّ "كليمان دي بروست"، والأب "العميد"، "أوڤـــيربيرغ" وكاتب سيرتها ومدوّن رؤاها "الحاجّ" "كليمنس برينتانو"، حين كان ما برح تائهًا بعيدًا عن دروب الربّ.

وقد أثبتت سيرة الأُخت "إيمّيريك" أنّ المحظيّين بأسمى الكرامات والمواهب الاستثنائيّة، وأيّةً كانت ساميةً المهامّ التي انتُدبوا لها، لا يدينون إلاّ بشريعة الإيمان، ولا يخضعون إلاّ لسلطة الكنيسة. فجذور الصوفيّة الحقّة ضاربةٌ في تربة الأسرار والعقيدة، وخاضعةٌ لتقاليد الكنيسة وطقوسها، التي يُطلَب من جميع المؤمنين التقيّد بها، بلا استثناءٍ، ولا يسوغ مخالفتها بأيّة ذريعةٍ، حتّى ذريعة خبرةٍ روحيّةٍ فائقةٍ.

وفي هذا السياق يروي الأب "ليمبيرغ" أنّه عندما تولّى مهمّة إرشاد الأُخت الروحيّ، التزم بمبدأ اعتبار كراماتها ورؤاها مجرّد أحلامٍ، بغية إبقائها راسخة التواضع. وكرّت السنوات، وتوالت عليه المشاهد الأشدّ إدهاشًا وعجبًا وتأثيرًا، قبل أن يتحرّر من شكوكه، ويقدّر المواهب الاستثنائيّة التي حظيت بها الأُخت. ولكنّه، عقب سبع سنواتٍ أثبتت، خلالها، "أنّا كاتارينا"، بطاعتها، وتواضعها، وصدقها، وبراءتها، سموّ فضائلها، ظلّ أسيرَ بعض شكوكٍ، وخطر له، ذات يومٍ، امتحانها. وهاكم روايته:

« تلوتُ فرضي فيما كانت الأُخت منغمسةً في الصلاة، مغمضة العينين. بعد انقضاء ساعةٍ، وكنت قد فرغت من تلاوة السواعيّة، ساورتني الشكوك التي أثاراها البروفسّور "ب."، ووومضت في ذهني خاطرةٌ، وتذكّرتُ أنّ الأب "لمبير" كان قد كرّس، أثناء قدّاسه، قربانتين، واحتفظ بإحداهما لكي يناول الأُخت المريضة في اليوم التالي. وتساءلتُ هل يسوغ لي امتحان الأُخت، ثانيةً، بمنأًى عن دوافع الفضول، وسوء القصد. فأخذت القربانة المكرّسة، ووضعتها داخل غطاء الهيكل، ولففتها ببطرشيل، وجئتُ بها إلى الأُخت المريضة، التي كانت، لدى دخولي الحجرة، ما برحت مستغرقةً في الصلاة، مثلما كانت لمّا غادرتها. ولكن ما كدت أطأ العتبة حتّى هبّت، وبجهدٍ كبيرٍ نهضت، ومدّت يديها، وهوت راكعةً، عابدةً. فسألتها عمّا بها، فهتفت: "آه! ها إنّ ربّي يسوع يأتي إليّ ببيت قربانه!". وأتحتُ لها لحظات عبادةٍ، ثمّ عدتُ بما جئتُ به. ».

وأقرّ الأب "ليمرغ"، أيضًا، أنّه لّما رآها في حالة انخطافٍ للمرّة الأولى، استوضحها عن الأمر، فأوقعها في لجّة الخجل. وتوسّلت إليه ألاّ يفشي الأمر أمام أيٍّ كان. ولا بدّ من التنويه بأنّ ذلك الكاهن كان قليل الخبرة بشؤون الانخطافات، والرؤى، والصوفيّة. ومن ثمّ، لم يتمالك، مرّاتٍ عديدةً، عندما كان يراها فاقدة الوعي، تئنّ وتتأوّه، فيظنّ أنّها تهذي، ويوسعها هزًّا وخضًّا عنيفًا، حتّى يعيدها إلى وعيها. وحينئذٍ كانت تروي له أنّها كانت تتألّم، من أجل امرأةٍ مريضةٍ، أو تعاني من أجل محتضرٍ كي

يتوب وينعم بالخلاص... وكانت، ذات مرّةٍ، تتألّم تخفيفًا لأوجاع شقيقة الأب "ليمبير"، المصابة بالسلّ، وتكفيرًا عن خطاياها، وقد أكّدت تلك الشقيقة لأخيها الكاهن صحّة الأمر، وجدوى تضحيات "أنّا كاتارينا" جسديًّا وروحيًّا.

ومع أنّ الأب "ليمبير" استمرّ طويلاً، ورغم كلّ الدلائل المؤكّدة صدق الأُخت وسموّ فضائلها، يعتبر رؤاها أضغاث أحلامٍ، كانت هي تقدّر صرامته، وحديثه المقتضب، واعتباره لها راهبةً ما زالت ملتزمةً بنذورها، ومدعوّةً إلى أسمى كمالٍ. ولا عجب أن حزنت حزنًا شديدًا، يوم أبلغها أنّه يسعى إلى مركزٍ آخر، بعيدًا عنها.

وروى الأب "ڤـــيزنر"، في هذا السياق، أنّه وجدها، ذات يومٍ، محتضرةً، وقد خبا نبضها، وانتهت إلى حالٍ من الخوَر والإحباط، فقدت معه القدرة على التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ، ولو همسًا، فناولها شرابًا منعشًا، لم يؤتِ أيّة نتيجةٍ. ولكنّه لّما عادها، صباحًا، لقيها على حالٍ مختلفةٍ كلّ الاختلاف، وقد استعادت قواها وبشاشتها، فاستوضح معرّفها الأب "ليمبرغ" عن أسباب هذا التغيير، فأوضح له: "هذا الصباح وجدتُ حالها وقد تفاقمت سوءًا عن مساء أمس، فسارعتُ إلى منحها المناولة المقدّسة، وفي الحال زها لون محيّاها، الذي كان ممتقعًا بشحوب الموت، واشتدّ نبضها. وحينئذٍ أدركتُ، بوضوحٍ، علّة وهنها المفرط، إذ كنت قد منعتُ عنها المناولة طوال يومين، عقابًا عن ممانعتها السماح لشقيقتها بغسل قروح ظهرها بالكحول الحارّ". والواقع أنّ الأُخت إيمّيريك كانت قد رفضت تولّي شقيقتها هذه المهمّة، ليس فقط بسبب تأثير هذا السائل الحارق، ورائحته الكريهة، التي كانت تثير فيها الغثيان، بل أيضًا وخاصّةً لأنّ أُختها لم تكن تراعي تدابير الحشمة التي كانت الأُخت شديدة الحرص عليها، ولذلك كانت تؤثر أن تتولّى هذه المهمّة بنفسها، وبالقدر الأكبر من الخفَر والكتمان.

وبما أنّها حرصت دائمًا على الاعتراف، قبل تلقّيها الأسرار المقدّسة، كان تعذُّر حصولها على المناولة بسبب غياب معرّفها، أو لأيّ سببٍ آخر، يوصلها إلى شفا الانهيار، بل إلى ما يحاكي الاحتضار.

وكان لأمر الطاعة عليها تأثيرٌ لا يُقاوَم، تنفّذه حتّى وهي فاقدة الشعور. فقد ابتُليت، في نهاية عام ١٨١٥، بصَمَمٍ شبه كامل. ولكن عندما كان معرّفها يأمرها بسماع كلامٍ معيَّنٍ، كانت تسمعه، رغم صممها. وقد ألّمت بها، في تلك الحقبة أيضًا، نوبة سعالٍ فشلت كلّ أصناف العلاج في إسكاتها. وكان معرّفها، ذات ليلةٍ ساهراً عليها مع شقيقتها، وضاق ذرعًا بسعالها المستمرّ، فأمرها بالكفّ عن السعال. وفي الحال انكمشت على ذاتها فاقدة الوعي، وتوقّف سعالها توقّفًا تامًّا.

وكان تواضعها السحيق، وإنكارها لذاتها، من الرسوخ بحيث، مع ما حظيت به من كراماتٍ فريدةٍ، وما مُنيت به من آلامٍ مضنيةٍ، لم تعدّ ذاتها تستأهل اهتمام الآخرين بها، أو ذات مقامٍ لا تليق به الأعمال الوضيعة، ولم تتخلَّ، يومًا، عن بساطتها وكَلَفها بالخدمة، ونشاطها الدائب. وعندما حالت عِلَلُها المتفاقمة، وعجزها المطّرد دون قدرتها على العناية بالأب "لمبير"، استعانت بشقيقتها "جيرترود"، التي كانت تفتقر إلى الخبرة، فلقّنتها، وهي طريحة الفراش، المهامّ التي يتعيّن عليها الاضطلاع بها، وساعدتها على إعداد أطعمةٍ يستطيع الكاهن الشيخ العليل تناولها، متحدّيةً الغثيان الذي كانت تثيرها فيها روائح الطبخ. ومع ذلك، لم تكن تطلب شيئًا لنفسها، فقد كانت خدمة الآخرين تغنيها عن كلّ شيءٍ.

غير أنّ ما كان يضاعف معاناتها هو ارتياب بعض المقرّبين منها. فشقيقتها، على سبيل الشاهد، لم تكن تكفّ عن إعلان أنّ ملازمة أختها "أنّا كاتارينا" الفراش، وامتناعها عن الطعام، إن هما إلاّ نــزوةٌ، مؤكّدةً يقينها بأنّ أُختها، لو شاءت حقًّا، لاستطاعت النهوض والعمل وتناول الطعام مثل الجميع.

ولا ريب أنّ احتمال أعتى الأوجاع والاضطرابات، بصبرٍ وتسليمٍ، والتزام سكون النفس في غمرة الأوجاع الجسديّة المتواصلة، كان أهون على "أنّا كاتارينا" من قسوة قلب مقرّبين لا عهد لهم بمراعاةٍ أو كياسةٍ. غير أنّها كانت تتحمّلها بصمتٍ ووداعةٍ، وعطفٍ، ورقّةٍ لا تهتزّ، في حين كانت مبادراتٌ طفيفةٌ لا تكلّف

شيئًا، وبضع عباراتٍ رقيقةٍ، كافيةً لبلسمة جراحها. وكانت تلك الراهبة المسكينة، لا تني تتوغّل، لحظةً فلحظةً، في التجرّد من كلّ عزاءٍ أرضيٍّ، وفي إنكار الذات.

وقد شهد الكهنة المقرّبون من الأُخت "أنّا كاتارينا" أنّ شقيقتها كانت لها عدوّةً وحاسدةً أكثر منها معاونةً. فلم تكن تبدي لها احترامًا، ولا تقدّم لها عونًا، بل كانت لها مبعث همٍّ وإزعاجٍ، وكانت تحرمها، أيّامًا كاملةً، من قطرة ماءٍ، ومن كلّ ما تحتاج إليه. ومن المحقّق أنّها لو كانت لمست لدى شقيقتها أيّ دليل خداعٍ لكانت سارعت إلى فضحها. ومع ذلك لم تضنّ "أنّا كاتارينا" بأيّ جهدٍ في سبيل مساعدتها وإصلاحها، وإرضائها. ومع نفورها من الطعام، كانت تقدّم لها الحلوى، معرّضةً ذاتها لتهمة تناول الطيّبات سرًّا، والتظاهر، بعد ذلك، بعدم تقبّلها الطعام. وبالمقابل، مع علم تلك الشقيقة بتأثير روائح الطعام على أُختها، ونفورها منها، لم تكن تأبه بترك باب المطبخ مشرعًا، وبتسريب تلك الروائح إلى حجرتها. وكانت تطفئ الشمعة بنفخةٍ، ولا تكترث بإبقاء الفتيل يبعث طوال الليل دخانًا يسبّب لأنّا كاتارينا سعالاً متواصلاً.

وقد أوجز "الحاجّ" برينتانو الوضع بقوله إنّ تلك الشقيقة كانت لأُختها صليبها الأكبر. أمّا هي فكانت تتحمّلها بوجعٍ يتعذّر وصفه، ولكن بعطفٍ مدهشٍ. وقد وصف الكاتب تلك الشقيقة بهذه العبارات: "كانت تفتقر إلى الفهم والتمييز والرقّة. وكانت عنيدةً، وغضوبًا، لا تتقبّل نصحًا، ولا ملاحظةً، أو رأيًا. وكانت الأُخت المريضة، فاقدة الوعي والشعور بلا انقطاعٍ، تعاني، ليل نهار، قسوة تلك الشقيقة الحمقاء، وعديمة الرأفة. وإلى ذلك كانت موهبة "أنّا كاتارينا" التي تمكّنها من قراءة النفوس تطلعها على سرائر نفس أُختها، وتوجعها بعمقٍ. وقد تألّمت وصلّت كثيرًا من أجلها، حتّى أصبحتْ شخصًا مختلفًا، إثر وفاة "أنّا كاتارينا". وكان عليها أن تعاني امتحانًا خاصًّا على يد تلك الشقيقة، إذ كان الأب "ليمبرغ" قد عبّر لها عن رغبته في ألاّ ترفض أيّة خدمةٍ تقدّمها لها شقيقتها، التي استغلّت هذه الثغرة، وغدت، كلّما لحظت أُختها في حالة فقدان الحسّ والوعي، تكرهها على

تناول أطعمةٍ تلفظها معدتها. وكان ذلك يحدث، غالبًا، عندما يتعيّن على "أنّا كاتارينا" التكفير عن خطايا نَهَمٍ، اقترفها محتضرون سبق لهم أن أفرطوا في الطعام. وحينئذٍ، كانت تحاصرها روائح أطعمةٍ تثير فيها قرفًا يفقدها كلّ قواها. وفي أحيانٍ أُخرى كانت تجتاحها رغبةٌ عارمةٌ في الطعام لا تقوى على مقاومتها، أو تعاني مثل ما يعانيه من لا يقوى على إشباع شهوةٍ ضاغطةٍ إلى حلوى، من صدمةٍ وتوتُّرٍ. وأحيانًا كان ينشب بها عطشٌ قاتلٌ، وإن هي حاولت إرواءه كانت تصاب باختناقٍ، وبنوبات تقيّؤٍ، تكاد تفضي بها إلى الموت.

وكانت شقيقتها تلك تُكرهها، أحيانًا، على تناول أطعمةٍ تسبّب لها آلامًا مضنيةً تستمرّ، يومًا كاملاً، إلى أن تتقيّأها ليلاً، وغالبًا ما كانت، إثر التقيّؤ، تنهار، وتنهدّ وتضحي على شفا النهاية. ومع ذلك، كانت شقيقتها تعيد الكرّة مرّةً إثر مرّةٍ. ومع ذلك، لم تُسمَع "أنّا كاتارينا"، يومًا، تشكو أفعال شقيقتها، بل كانت تعزو، دائمًا، كلّ ما يحدث إلى إلهامها الذاتيّ؛ ولكنّها كانت تحزن حزنًا عميقًا لإعراض أُختها عن كلّ نصحٍ، ولإحجامها عن كلّ جهدٍ في سبيل تحقيق واجباتها تحقيقًا مناسبًا، ولإبائها الاعتراف بأيّ خطأٍ ترتكبه، وإصلاح أيّ عيبٍ، ومع ذلك كانت تدّعي دائمًا الورع والتقوى.

وقد لقيها الدكتور "ڤـــيزنر"، ذات يومٍ غارقةً في حزنٍ هاصرٍ، واستفسرها عن سببه، فأوضحت: "أنا مستعدّةٌ لتحمّل كلّ شدّةٍ بصبرٍ، فأنا موجودةٌ في العالم كي أتألّم، وأنا مدركةٌ غاية آلامي. ولكنّني أرتعد وأنا أتبيّن أنّ وجود شقيقتي المسكينة إلى جانبي، يجعلها أسوأ حالاً، عوضًا عن إصلاحها..."

وقد حاول بعض المحيطين بأنّا كاتارينا، وشهود معاناتها، إبعاد أُختها عنها، رأفةً بها. ولكنّ "أنّا كاتارينا" كانت تحول دون ذلك، بانتظار إيعاز ملاكها بهذا الشأن. ولم يأتِها هذا الإيعاز إلاّ سنةً قبل وفاتها. وبالتالي كان عليها أن تحتمل مضايقات أُختها مدى ستّ سنواتٍ. وكانت تلك السنوات مدرسة تجرّدٍ وتضحيةٍ وتمرّسٍ بالفضائل الضروريّة لتمكينها من التغلّب على مواطن ضعفها.

شهادة الدكتور "غيّوم ڤيزنر"

كان ذلك الطبيب هو المسؤول الصحّيّ عن منطقة "دولمن"، وكان بعيدًا عن الإيمان عندما تنامت إلى مسامعه الأحداث العجيبة المتعلّقة بالأُخت "إيمّيريك". ومنذ مقابلته الأولى لها، انقلب انقلابًا جذريًّا، حمله على ملازمتها، ومرافقتها، والعناية بها طبّيًّا، وشدّ أزرها، وتدوين عجائب العليّ فيها، وتعريف العالم بالكرامات الإلهيّة النادرة التي حظيت بها، وبفضائلها السامية الفريدة، اعترافًا بجميل مصالحته مع الله، من خلالها. وقد أقرّ، في نهاية المطاف، أنّ الصدفة التي جمعته بها كانت التدبير الإلهيّ الأوفر خصبًا في حياته الروحيّة، والدليل الأشدّ فصاحةً عن رحمة الله حياله، مثلما حصل للشاعر "كليمنس برينتانو"، مع التباين بينهما طباعًا ومؤهّلاتٍ.

في العام ١٨٠٦، كان قد اتّصل به الدكتور "كروتهوزن" طبيب الدير الذي كانت "أنّا كاتارينا" إحدى نـــزيلاته، وأطلعه على معاناتها أمراضًا غير نمطيّةٍ، يجهد في معالجتها بالأساليب المألوفة التي لا تؤتي نتيجةً، وتكاد تودي بها إلى شفا الهلاك. ولكنّ هذه العلل تبرأ بغتةً، ولا تلبث أن تحلّ محلّها أمراضٌ أُخرى غير متوقّعةٍ، ومجهولة الأسباب. وإليكم شهادة الدكتور "ڤـــيزنر":

« اتّصالي الأوّل بها يعود إلى ١٨١٣/٣/٢١. كنت قد سمعتُ، في نطاق مجتمعٍ ضيّقٍ عن سماتها، وانتهزت تلك السانحة، بصفتي طبيبًا، كي أزور الراهبة العليلة... وجدتها طريحة الفراش، فاقدة الوعي. وما أن استعادت وعيها حتّى رمقتني بنظرةٍ حافلةٍ بالمودّة. وعندما ذكر الأب "لمبير" اسمي أمامها، ابتسمتْ معلنةً أنّها تعرفني. واستغربت الأمرَ كلّه، ظانًّا قولها مزاحًا سخيفًا، وعزمتُ على أن أضع له حدًّا، فاتّخذتُ موقفًا جادًّا ووقورًا. ولكن سرعان ما خاب ظنّي، إذ كنتُ، كلّما توغّلتُ في الحديث مع المريضة، أكتشف فيها إنسانًا مفعمًا سكونًا، وبراءةً، وبساطةً. وهكذا كان يراها الجميع. وشيئًا فشيئًا كنتُ أُمعن في اكتشاف نفسٍ بسيطةٍ، مسيحيّةٍ حقًّا، تحيا بسلامٍ مع ذاتها ومع العالم أجمع، لأنّها كانت تتبيّن مشيئة الله في كلّ مكانٍ. وكانت تعدّ ذاتها أسوأ

الخلائق قاطبةً، وتؤثر الآخرين على نفسها. ولن أنسى أبدًا، بعد أن توطّد تعارفنا المتبادل، بأيّة بساطةٍ، وبأيّة مودّةٍ، بدّدت الهواجس التي كانت تتنازعني حول نُذُر أخطار الحرب. ولطالما أكّدت لي هزيمة نابوليون الوشيكة، ووقاية منطقة "دولمن"، على يد الجيوش الفرنسيّة، وهذا ما تحقّق على نحوٍ مدهشٍ...

"ومن خلال اتّصالاتنا، اتّضح لي أنّ تلك العليلة كانت، دائمًا، بسيطةً وطبيعيّةً. كانت تحزن وتخجل من الاهتمام المفرط الذي تُحاط به. وكانت باشّة الأسارير، محبّةً، حيال الجميع، تساعد المعتازين خفيةً، وتساعد المرضى والبائسين على احتمال أعبائهم. ولم أطّلع، إلاّ بعد لأيٍ، على امتلاكها طاقة أخذ آلام الغير على عاتقها... كانت تمتلك طاقةً فائقةً على بثّ العزاء في النفوس، ولطالما خبرتُ محبّتها المفعمة عطفًا. لقد أعادت لي ثقتي بالله، وممارسة الصلاة، اللتين كنت قد فقدتُهما، وخفّفتْ عنّي، إلى حدٍّ كبيرٍ، ثقل أعبائي الباهظة، التي كان يزيدها بهظًا ميلي الطبيعيّ إلى الكآبة.

"كانت نفسها تحيا بكلّيّتها في الله، مع أنّ أمورًا أرضيّةً كانت تستدعيها، بلا هوادةٍ، من جرّاء كثرة قاصديها بغية التخفّف من أثقال أحزانهم، والتماس مواساتها ونصحها. فكانت تغدق عليهم النصح والمواساة، وتزرع السكون والعزاء في قلوب المحزونين. وليس من العسير استبيان مصدر عطائها هذا على من يتبيّن كم كان قلبها محرّرًا وطليقًا، حيال الخلائق جمعاء.

"... لقد حرّضتني، بشدّةٍ، على إغاثة الفقراء، لأنّ ذلك يروق كثيرًا لله. وأردفت متنهّدةً: "لم تتضاءل محبّة القريب، قطّ، مثل تضاؤلها اليوم، مع أنّها فضيلةٌ فائقة الجمال، ومع أنّ اللامبالاة وازدراء القريب يمثّلان رذيلةً كبرى"... وكانت لا تني تردّد: "فلنثِقْ بالله، ولنتشبّثْ بإيماننا المقدّس، فلا شيء على الأرض يهب العزاء مثله، ولا يحلّ محلّه لا دينٌ آخر، ولا فلسفةٌ من أيّ نوعٍ...»

وقد سألها الطبيب، يومًا، كيف تستطيع الاستغراق في الصلاة ساعاتٍ، وكأنّها في عالم آخر، فأجابته بمَثَلٍ، قائلةً: "إن كان باستطاعة إنسانٍ الاستغراق في مطالعة

كتابٍ ممتعٍ، حتّى الذهول عن كلّ ما يدور من حوله، أفلا يذوب من يخاطب الله، مصدرَ كلِّ جمالٍ، بكامله، في هذه المخاطبة. ابدأ بعبادة الله عبادةً متواضعةً، والباقي يلي تلقائيًّا". وقالت، أيضًا: "هناك صلاةٌ تروق لله على نحوٍ خاصٍّ، هي تلك التي تُرفع من أجل الآخرين، وخاصّةً من أجل النفوس المتألّمة، (وكانت تشير، بذلك، إلى النفوس المطهريّة التي تعاني، حسب قولها، آلامًا يتعذّر وصفها) فصلِّ من أجلها، إذا كنت حريصًا على أن تؤتيك صلاتك نسبةً عاليةً من الفائدة".

وعن التجارب التي تحاصر المؤمن، أوضحت أنّ الأشدّ استغراقًا في الورع، أثناء الصلاة، هم عرضةٌ لأعنف التجارب". وأضافت: "في ما يتعلّق بي، شخصيًّا، أقدّم ذاتي لله، سيّدي المطلق، قائلةً: "يا ربّ، افعل بي ما تشاء!"، وأطمئنّ، لأنّ أفضل الآباء، وأكثرهم حبًّا لن يؤتيني إلاّ خيرًا".

ولم تقتصر الأُخت على حثّ الدكتور "ڤــيزنر" على إغاثة الفقراء والمرضى، بل استعانت به كي يوصل ما كانت تصنعه من ألبسةٍ، وما كانت تدّخره من مال، إلى المحتاجين. ولهذه الغاية، كانت تستجدي من معارفها الميسورين أقمشةً وأصوافًا تحوّلها، بمهارتها، إلى ثيابٍ وقبّعاتٍ للأولاد الفقراء. وإذا جفّت الموارد، كانت تلتفت إلى سابقاتها من الصوفيّات القدّيسات، وتلتمس عونهنّ من أجل توفير ما تحتاج إليه من موادّ أوليّةٍ.

ولطالما شهد الدكتور، بدهشةٍ، كيف كانت الأُخت ترى بالروح حال معوزين مجهولين، وتكتشف أماكنهم، فترسل لهم إعاناتها. وكان يسعد لرؤية نتائج أدويته، وثمار صلواتها، على صحّة المرضى الذين كانت تأخذ عِلَلهم وأوجاعهم على كاهلها.

وتلبيةً لرغبة الأُخت، أولى الدكتور عنايةً خاصّةً بالكاهن الشيخ المقعد "لمبير". ومن جانبٍ آخر استطاع دعم معرّف الأُخت، الأب "ليمبرغ"، الذي كان يفتقر إلى الجرأة، وثبات الرأي، والذي، رغم كلّ ما شاهده بأمّ عينيه، كان يتأثّر، ويرتاع، ويرتاب في صدق الأُخت، متأثّرًا بحملات الافتراء التي كان يشنّها

مغرضون بحقّها، ويتّهمونها، افتئاتًا، بالخداع والكذب. وكان يخطر لذلك الكاهن المترجرج، أحيانًا، أن ينأى بنفسه عن الأُخت، وعمّا قد يلحق به، بسببها، من أقاويل واتّهاماتٍ، ولم يكن يردعه عن ذلك، سوى وقوف الدكتور "ڤـــيزنر" إلى جانبه، فذلك الطبيب كان يشهد له الجميع بالعلم الواثق، والعقل الراجح، والجدّ، والمثابرة على تنفيذ واجباته المسيحيّة، وعدم اكتراثه بأحكام الغرباء، المناوئين للدين، وبشهادته الثابتة والصامدة للحقيقة التي تيقّن منها، ولا سيّما بعد أن أعاده مثال الأُخت إيمّيريك إلى جادّة الإيمان.

واعترافًا بجميل الدكتور "ڤـــيزنر" حيال الكاهنين "لمبير" و"ليمبرغ"، قرّرت الأُخت، إمعانًا في التكفير، تنفيذ كلّ ما يفرضه ذلك النطاسيّ، بلا تذمّرٍ ولا تردّدٍ، من علاجاتٍ وأدويةٍ، مع ما تسبّبه من أوجاعٍ مبرّحةٍ، ومع يقينها بأنّ معظمها لن يفيدها في شيءٍ. وقد انتهى الدكتور "ڤـــيزنر" إلى مشاركتها هذا اليقين، فغدا، كلّما تفاقمت حالها سوءًا، يستعيض عن الأدوية التي كانت تسارع إلى تقيّئها، بتلاوة صلواتٍ على مسامعها وبتبادل أحاديث روحيّةٍ معها، تؤتيها، في الحال، راحةً وتحسُّنًا. وقد عبّر الطبيب، يومًا، عن دهشته حيال هذه الظاهرة، فأوضحت له: "مهما بلغ بي الوهن والخَوَر، أشعر دائمًا بتحسّنٍ وبالقوّة، عندما أسمع حديثًا عن الله وعن ديننا المقدّس. ولكن عندما يدور الحديث حول شؤون العالم، فحالي تتفاقم سوءًا".

وفي هذا السياق، نوّهت برؤيا استرجعت، من خلالها، كلّ الأضرار وصنوف الأذى التي أُلحقت بها خارج الدير وداخله، وممّا صرّحت به:

« رأيتُ طبيب الدير والأضرار التي ألحقتها بي أدويته، ورأيت الطبيب الآخر، وكيف دمّرت أدويته صدري، وأفضت بي إلى أسوأ حالٍ. فقد رأيت صدري خاويًا خواءً تامًّا، وأجوف، بحيث لن أستطيع المضيّ بعيدًا، ما لم أحتط بتدابير وقائيّةٍ شديدةٍ... ولكنتُ شفيتُ من كلّ عِلَلي لو حُجِبت عنّي العلاجات الطبّيّة، وأُسعفتُ، فقط، بأدوية الكنيسة.

"ورأيت، أيضًا، مدى الضرر الذي أُلحق بي من جرّاء وضعي تحت الأضواء، والاقتصار على التحديق إلى جراحي، والإعراض عن الظروف الأُخرى، وكيف أُكرهتُ على عرض ذاتي لجميع الأنظار، ما شتّتني ولم يؤتِ أحدًا فائدةً. ولكنتُ أوفر جدوى لو تُركتُ وشأني. ورأيت صلواتي وتوسُّلاتي التي التمستُ بها أن أُترك وشأني، صلواتٍ وتوسّلاتٍ لم تكن من ابتداعي ولا مبادراتٍ منّي، بل كانت ناتجةً عن إنذارٍ داخليٍّ. ورأيت كيف كان كلّ ذلك عديم الجدوى، وكيف أضحيتُ، خلافًا لقناعاتي الداخليّة، محطّ فرجةٍ للعالم. وكان عليّ أن أُكابد أدهى المهانات، وأمسى ما كنتُ أفعله، بقلبٍ حزينٍ وبمحض أوامر الطاعة، مثار تأنيبٍ، وعُدَّ مطرح وقاحةٍ، ولم ينبرِ للذود عنّي أحدٌ ممّن أكرهوني على جعل سماتي فريسةً للعموم ».

ومع تواتر رؤًى من هذا النمط، لم يطرأ على وضعها أيّ تغييرٍ، فالمعاملة اللامنطقيّة واللاإنسانيّة التي كان عليها تحمّلُها من قِبل الأصدقاء والأعداء على السواء، استمرّت على حالها. ومضى الأطبّاء قُدُمًا في إرغامها على تناول أدويةٍ لم تكن تؤتيها سوى المزيد من الألم، والاعتلال المتفاقم.

غير أنّ رؤاها كانت تساعدها على أن ترى في الأشخاص والأشياء أدواتٍ ووسائل يعدّها الله لمساعدتها على بلوغ هدفها، إن هي ثابرت على الانقياد الوفيّ لمشيئته. وكانت تجد فيها الزخم والقدرة على التكفير عن الأخطاء التي ترتكبها هشاشتها البشريّة. وفي هذا السبيل كانت تضاعف أفعال المحبّة والصبر. ولم يأمرها، قطّ، ملاكها الذي كان يزوّدها بالكثير من النصح، أن ترفض الأدوية المفروضة عليها، إذ كان ذلك يندرج في سياق تدابير الله، تكفيرًا عن التعاليم والمبادئ، والمؤامرات، والمخطّطات الوبيلة التي كانت تُلحَق بالكنيسة، مثل ما تلحقه بها أدوية الأطبّاء من أوجاع، وبما أنّ هذه القناعة كانت قد ترسّخت في وجدانها، فاستسلمت ببساطةٍ وخضوعٍ للوصفات الطبّيّة الضارّة، بلا مقاومةٍ ولا ممانعةٍ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأطبّاء وبعض الكهنة المشرفين على حالها، لم يتورّعوا أحيانًا، عندما كانت تتردّى إلى أدنى دركات الانهيار وفقدان الوعي، عن إجراء تجارب علاجٍ مغنطيسيٍّ، لم يكن له أيّ أثرٍ عليها. ولكن كان مجرّد تلفّظ معرّفها بكلمة "الطاعة" حتّى تهبّ مستيقظةً، وإذا استوضحت عمّا أيقظها، كانت تجيب: "سمعتُ من يناديني".

محاولاتٌ جديدةٌ لاستقدام الأُخت إلى "منستر"، ولإخضاعها لمزيدٍ من الاختبار

وافى الأب "أوقـــربيرغ" إلى دولمن، حيث قضى بضعة أيّامٍ من شهر حزيران ١٨١٥، وجاء في تقريره عن هذه الزيارة:

« زرتُ الأُخت "إيمّيريك" يوم الثامن من حزيران، بعد غيابٍ عنها امتدّ أربعة أشهر. وقد عبّرت قسمات محيّاها عن عظيم فرحها برؤيتي، وحدّثتني نحو ساعةٍ ونصفٍ، عن شؤونها. وكنتُ، أنا، عازمًا على المكوث قريبًا منها أطول وقتٍ ممكنٍ.

"عند السابعة والنصف من صباح اليوم التالي جئتها بالمناولة المقدّسة. وبعد أن فرغت من صلاة الشكر لبثت معها حتّى الظهر. ولما عدتُها في الساعة الرابعة بعد الظهر، وجدتُها تعاني وهنًا أقصى، وترتجف بعنفٍ، واستوضحتُها عن السبب فأجابت: "هذا بسبب أوجاع جراحي، ولكنّه يسعدني". وأكّدت أنّها لا تستبطئ مرور الوقت حتّى عندما تقضي ليالي كاملةً ساهرةً. وأعلمتني أنّها، منذ زيارتي الأخيرة لها، كانت قدّ زُوِّدت مرّتين بالأسرار الأخيرة، إذ كانت تتجلّى عليها أعراضٌ توحي باحتضارها. فقد كان نبضها وتنفّسها يخفتان حتّى التلاشي، وتشحب شفتاها، وينكمش وجهها ويمتقع، وتتغلّبُ فيها أمارات الموت على علامات الحياة. ولكنّ ظواهر الحياة والقوّة، كانت تعود إليها بمجرّد تلقّيها المناولة المقدّسة. وقد أقرّت لي أن ما أفضى بها إلى ذلك المآل، في تينك الحالتين، كان توقها المضطرم إلى الإفخارستيّا. فهي عندما تحجم عن التناول

خضوعًا لأمر الطاعة، تقوى على احتمال الأمر، مع شوقها الملتهب إلى الأسرار، ولكن عندما يمنعها عن التناول خطأٌ ارتكبته، تخور قواها، تضحي كالأموات... »

وقد انتهز الأب "أوڤـــربيرغ" هذه المناسبة كي يُقنع الأُخت بالبعد، مؤقّتًا، عن محيطها، والقدوم إلى "منستر"، حيث يمكن لأشخاصٍ موثوقين إخضاعها لفحصٍ جديدٍ، مكرّرًا تأكيده أنّ الغاية من ذلك ليست إثبات حقيقة الكرامات التي حظيت بها، للسلطة الكنسيّة، بل من أجل إقناع المشكّكين وغير المؤمنين.

ومن الأسباب التي دفعت بالأب "أوڤـــربيرغ" إلى هذه المحاولة، رغبة فئةٍ من أبناء رعيّته ومن الكهنة الذين ادّعوا أنّ من شأن "أنّا كاتارينا" وحدها إخراس المفترين والمتخرّصين الزاعمين أنّ الكنيسة فشلت في إجراء تحقيقٍ يتّصف بالقدر الكافي من الدقّة لاكتشاف الخداع في ظاهرة سمات الأُخت إيمّيريك، ومن ثمّ فإنّ خضوعها لفحوصٍ جديدةٍ في "منستر"، من قبل أطبّاء يتمتّعون بالكفاءة والسمعة الحسنة سيؤكّد الحقيقة، وسلامة التحقيق الذي سبق للكنيسة إجراؤه. وسيكون إثبات واقع سمات مختارة الله هذه، دعمًا منيعًا للمؤمنين الأوفياء.

وكان الأب "أوڤـــربيرغ" موقنًا أنّ كلّ مراقبٍ نـــزيهٍ، غير منحازٍ، سيؤمن بمجرّد أن يرى. فهو نفسه كان قد هتف، لّما شهد نـــزف الجراح يوم الجمعة، الواقع في التاسع من حزيران: "كلاّ! لا يمكن لأيّ إنسانٍ افتعال مثل هذا الأمر، وكم بالأحرى يتعذّر على الأُخت افتعاله!".

وكان الأب "أوڤـــربيرغ" موقنًا أنّ تحقيقًا جديدًا يُجرى في "منستر" سيأتي بحلٍّ حاسمٍ، وأنّ الأُخت "أنّا كاتارينا" لن تتوانى عن الاستجابة لطلبه، خدمةً لقضيّةٍ مقدّسةٍ. ولكنّها أوضحت أنّها ستخضع، بلا مقاومةٍ، ولا نقاشٍ، لكلّ أمرٍ صادرٍ عن السلطة الكنسيّة، ولكنّها لن تعمد، من تلقاء نفسها إلى أيّة رحلةٍ تخاطر بها بحياتها. ولم يجسر الأب "أوڤـــربيرغ" على أمرها بالقيام بهذه الرحلة، كما أنّه لم يوعز إلى معرّفها بإكراهها عليها، تنفيذًا لأمر الطاعة. ومن ثمّ حاول إقناع الدكتور

"ڤـــيزنر" بالأمر، واستشار هذا الأخير الأب "لمبير"، الذي، مع رغبته الشديدة في استجلاء الحقيقة وإثباتها، عبّر عن خشيته من التضحية بحياة الأُخت، ومن تكبيدها مزيدًا من الاستشهاد، بلا طائلٍ.

أمّا الأُخت "إيمّيريك" فلم تكن مستعدّةً لمغادرة "دولمن" طوعًا، ما لم تؤمر، كنسيًّا، بذلك. ومع تقديرها لنيّة الأب "أوڤـــربيرغ" تبديد شكوك بعض المؤمنين حول ظاهرة سماتها، وتمتين إيمانهم، إلاّ أنّها كانت على يقينٍ وطيدٍ بأنّ ما عجز عشرة شهودٍ لا يرقى إلى نـــزاهتهم وعلمهم أيّ ريبٍ، عن إقناع خمسة آلاف مرتابٍ أو رافضٍ للإيمان، لن يُفلح مئة شاهدٍ بأن يقنعوا بصحّته عشرين مليون منكرٍ ورافضٍ. وهي كانت متأهّبةً للتضحية بحياتها إذا توفّر لها اليقين بأنّ هذه التضحية ستؤدّي إلى خلاص ولو نفسٍ. ولكنّها لن تقدم على أيّ سفرٍ لا يوعز إليها به صوتها الداخليّ الذي اقتادها، منذ طفولتها، على دروب الربّ. وبالإجمال لن تقوم بأيّ عملٍ لا يروق لله، ولا يأمر هو به، من خلال رؤسائها. كانت مشيئة الله هي نبراسها، ولم يكن شعورها الداخليّ مرتاحًا للسفر المقترح، ولا للخضوع لسلسلةٍ جديدةٍ من التحقيقات الموجعة والمهينة.

وكان بين الحجج التي أوردها الأب "أوڤـــربيرغ" لتبرير خضوعها، في "منستر" لمزيدٍ من الفحص والتحقيق، ردُّ الضيم عن البروفسّور "دروفيل"، الذي كان قد نشر تقريرًا، أعلن فيه سموّ الظاهرة وصحّتها، فقوبل بأقسى الاتّهامات وحملات الانتقاد والهجاء، والتشكيك بعلمه ونـــزاهته. وكان جواب الأُخت أنّها ترضى الموت ذودًا عن سمعة البروفسور "دروفيل" أو أيّ إنسانٍ آخر يلحق به ظلمٌ بسبب موقفه منها، إذا كانت تلك هي مشيئة الله. ولكنّها أوضحت أنّها كانت قد رجت البروفسّور المذكور ألاّ ينشر أيّ شيءٍ بشأنها. وتساءلت ما قيمة السمعة البشريّة إزاء إرادة الله، مؤكّدةً أنّ الإصرار على رفض الاعتراف بما هو واقعٌ جليٌّ، لن تثنيه عن عناده أيّة شهادةٍ بشريّةٍ. فللإنكار أسبابٌ شخصيّةٌ عديدةٌ. وإن كان ثمّة

من تحدوه رغبةٌ صادقةٌ في التيقّن، وهو يتحلّى بحكمٍ سليمٍ نـــزيهٍ، وبالمصداقيّة والاحترام. فليأتِ إليها ويشهد بنفسه؛ فليس واجبًا عليها أن تمضي هي إلى الفضوليّين القابعين في بيوتهم، معلنين رفضهم للظاهرة؛ ولن تضحّي بضميرها، حرصًا على كسلهم، وبخلهم، وكبريائهم، فضلاً أنّ مضيّها إليهم يعني، من قبلها، اعتدادًا وازدهاءً بذاتها، وما هو أسوأ، ويعرّض حياتها لأخطارٍ نافلةٍ لا ترضي الله. وأوجزت قولها بأنّها لا تطلب شيئًا، ولا تعدّ ذاتها إلاّ عدَمًا، فهي خاطئةٌ، ولا رغبة لديها إلاّ أن ينساها العالم أجمع، كي تنصرف بهدوءٍ إلى التألّم، والتأمّل، والصلاة، تكفيرًا عن خطاياها، وإن أمكن، من أجل خير البشر أجمعين. وقد اختزلت موقفها بالقول: "إنّ الربّ كفيلٌ بإظهار أعماله، فإن كان ما يحدث لي هو من الله، فسيبقى، وإن كان عملاً بشريًّا فمصيره الزوال".

وتساءلت هل يحقّ لي التضحية بحياتي من أجل إنقاذ سمعة إنسانٍ، وتلميعها في عيون مفترين؟ وأين التواضع والصبر والمحبّة المسيحيّة؟ هذا فضلاً عن استحالة إقناع الجماهير. فالكسل، والبخل، وانعدام الثقة، وحبّ الذات، والإلحاد، وخوف الكثيرين من تغيير مسيرتهم وقناعاتهم لاعتناق قناعاتٍ فُضلى، تجعل معظم الناس عميانًا حيال حقائق واضحةٍ وضوح الشمس.

طُويت، إذن، إلى حينٍ، قضيّة سفر الأُخت إلى "منستر"، وإخضاعها لتحقيقٍ جديدٍ. ولكن بعد مضيّ نحو سنةٍ ونصف سنةٍ، استعاد البروفسّور المعادي للظاهرة، حملات افتراءٍ وتشهيرٍ بأنّا كاتارينا مكرّرًا اتّهامها بالخداع والتضليل، وبالسلطات الكنسيّة التي أعلن فشلها في إجراء تحقيقٍ علميٍّ سليمٍ. وانبرى الأب "رينسينغ" للدفاع، رغم محاولات الأُخت لردعه عن ذلك. وجاءت مبادرته الدفاعيّة بالنتيجة التي توجّسَتها الأُخت، إذ ما كان من البروفسّور المدّعي إلاّ الاستفاضة في الشتيمة والافتئات. وتعالت أصواتٌ تدعو الأُخت إلى الخضوع لتحقيقٍ جديدٍ كفيلٍ بدحض كلّ التخرّصات والاتّهامات الباطلة بشأن الظاهرة. ولكن لم يجرؤ أحدٌ من المسؤولين الكنسيّين على أمرها بذلك، خشيةً على صحّتها الهشّة، إلى أن تطوّع

الأب "ميشيل سيلر"، الكاهن الذي كان يُعتمد حكَمًا في الخلافات الخطيرة، والذي رُقّي، لاحقًا، إلى رتبة الأسقفيّة، فقدم إلى "دولمن" وتولّى التحقيق بنفسه. هذا القرار أشاع الارتياح لدى السلطات الكنسيّة، وأثلج قلب الأُخت "إيمّيريك". وكان لتحقيقه أطيب الوقع في النفوس، فقد أزاح كلّ ريبةٍ حتّى في نفوس الكهنة المتأرجحين، والذين كانوا ما برحوا نهبًا للشكوك التي يبثّ بعض الأطبّاء بذورها. ومنذئذٍ تذوّقت الأُخت شيئًا من السكون.

في غروب عام ١٨١٦ شهدت حالها شيئًا من التحسّن. وروى معرّفها ما يلي:

"عشيّة عيد الأطفال الأبرياء (ضحايا هيرودس) انتابها انخطافٌ دام ساعتين، واستعادت وعيها تلقائيًّا. وحينئذٍ سألتْني بلهفةٍ هل تستطيع الجلوس. ولمّا سمحتُ لها بذلك، هبّت جالسةً برشاقةٍ أخافتني. واستطاعت الجلوس، بلا عونٍ خارجيٍّ، إلى أن أمرتها بالرقاد ثانيةً. وحينئذٍ أخبرتني: "اقتادني دليلي إلى حيث استطعت رؤية مقتل الأبرياء القدّيسين، وبهاء الحفاوة التي كافأ بها الله أولئك الشهداء الصغار، مع أنّهم لم يستطيعوا الإسهام إسهامًا نشيطًا في الاعتراف باسم يسوع المقدّس. أذهلتني عظمة مكافأتهم، وتساءلت عمّا عساني أرجو أنا التي منذ زمنٍ طويلٍ، عانيتُ المهانات والمضايق، ومارستُ الصبر، حبًّا باسم مخلّصي. فلاحظ دليلي: "في ما يخصّك، لقد تبدّد الكثير من أتعابك، وكنتِ أنتِ سبب فقدك الكثير. ولكن استمرّي، وثابري، وظلّي متيقّظةً، فستكون مكافأتك، أيضًا، كبيرةً..."

تحسُّن حالها استمرّ أسبوعًا، تمكّنت، خلاله، من الجلوس بمفردها، وارتداء ثيابها بنفسها، وبلا معونةٍ خارجيّةٍ. وفي مطلع عام ١٨١٧ استطاعت تناول بضع جرعات ماءٍ ممزوجٍ بالحليب ولم تتقيّأها. ولاحظ الأب "ڤـيزنر" أنّه كان من شأنها أن تنعم بتحسُّنٍ أكبر لو لم تكن منهمكةً، ودائبةً على العناية بأُمّها العجوز المحتضرة، ومع ذلك، كانت تضجّ فرحًا لأنّ الله أتاح لها من الصحّة ما مكّنها من أداء واجبها البنويّ حيال والدتها الثمانينيّة، التي لم تزرها سوى مرّةٍ واحدةٍ عقب خروجها القسريّ من

الدير، ولكنّها، لّما شعرت بدنوّ أجلها رغبت في الوفاة بين يدي ابنتها التي أعدّت لها سريرًا في حجرها قرب سريرها. ولطالما كانت "أنّا كاتارينا" قد التمست من الله أن يمكّنها من أن تقدّم لأُمّها، في أيّامها الأخيرة، الخدمات التي كانت تدفعها إليها محبّتها البنويّة، وعرفانها بجميلها. وكانت تخالجها خشيةٌ من أن تمنعها أمراضها من أداء هذا الواجب، ولكنّ الله استجاب لملتمسها، فهادنتها الأمراض طوال مدّة إقامة والدها عندها، فاستطاعت أن تقدّم لها الخدمات اللائقة بها.

يوم الجمعة الواقع في ١٨١٧/١/١٧، لم تنــزف جراحها، خلافًا للمألوف، فراودها رجاءٌ بزوال سماتها. ولكنّ هذا الرجاء لم يتحقّق. وتفاقمت آلامها، عقب وفاة والدها، ولا سيّما أنّه خُيِّل إليها أنّها قصّرت في القيام بواجباتها حيالها.

"كليمنس برينتانو"

كان الكهنة المحيقون بالأُخت "إيمّيريك"، والذين غالبًا ما شاهدوها على حافّة الموت، وزوّدوها بالأسرار الأخيرة، يعجبون من بقائها على قيد الحياة، مع ما يتراكم عليها من أوجاعٍ وعللٍ، ومع عزوفها عن مقوّمات الحياة الجسديّة من طعامٍ وشراب. وكانوا، أحيانًا، من أجل تعزيتها، يبرّرون ذلك بمشيئة الله إفساح فرصٍ لتقدّمها على جادّة الكمال والقداسة. ولكنّ تفسيرها الشخصيّ للأمر كان مختلفًا، فقد كان يداخلها شعورٌ وطيدٌ بأنّ عليها تبليغ العالم أجمع ما أُعطيت أن تراه بالروح، أثناء رحلاتها الروحيّة، وإيداع الكنوز الثمينة التي جمعتها خلال رؤاها بين يدي الكنيسة، وفي نفوس المؤمنين. وغالبًا ما تراءى لها طيف شخصٍ سيدعوه الله لمساعدتها على الاضطلاع بهذه المهمّة. ومع جهلها له كانت تصلّي له كي يرتدّ إلى دروب الربّ التي تاه عنها.

وكان ذلك الشخص هو الأديب والشاعر الألماني "كليمنس برينتانو". وقد تشابكت مجموعةٌ من الصدف على الجمع بين الشاعر والأُخت الصوفيّة. فقد كان "برينتانو"، حينذاك، على اتّصالٍ باللاهوتيّ الأب "سيلر"، الذي أتينا على ذكره

آنفًا. وكان هذا الأخير قد أطلعه على عزمه قضاء عطلةٍ في منطقة "مُنستر"، ودعاه إلى الانضمام إليه، هناك. واتّفق أن رافق الأب "سيلر" إلى "منستر"، شقيق الشاعر "كريستيان برينتانو"، الذي كان قد تعرّف على "أنّا كاتارينا"، لسنةٍ خلت، ورغب في تعريف أخيه الشاعر بها، وجاءت زيارتهما إلى "منستر" مناسبةً مؤاتيةً للحجّ إلى "دولمن". وإليكم ما دوّنه الشاعر بتاريخ ١٨١٨/٩/٢٤، عن لقائه الأوّل بها:

« كان الأب "ڤـــيزنر" قد أنبأ الأُخت إيمّيريك بزيارتي... استقبلتني استقبالاً وديًّا، حيَّتني، وقالت بلهجةٍ طافحةٍ بالرقّة إنّها تعرفني من خلال شبهي بشقيقي. وقد أشاع فيّ محيّاها الناطق بالطهر والبراءة، فرحًا داخليًّا ضاعفته حيويّة حديثها، وظُرفها المحبّب. لم أشهد في سحنتها، ولا في شخصها، ما يشير إلى جهدٍ أو تصنّعٍ للعظمة. فعندما هي تتكلّم، لا تسعى إلى إلقاء درسٍ في الأخلاق، أو عظةٍ ثقيلةٍ في التجرّد. وليس في حديثها أيّة تفاهةٍ باهتةٍ أو منفّرةٍ. بل كلّ أقوالها تتّصف بالإيجاز والبساطة، ولكنّها مليئةٌ عمقًا ومحبّةً وحياةً. ومنذ الوهلة الأولى، غمرني شعورٌ بالراحة. فهمتُ كلّ شيءٍ، وشعرتُ بكلّ شيءٍ".

ومن جانبها، سرعان ما توسّمت "أنّا كاتارينا" في هذا الزائر، الأداة التي أعدّها الله لنشر ما أوحاه لها، وما أراها. ولكن كان ما زال الشاعر يحتاج إلى صقلٍ وإعدادٍ. وكان على الأُخت أن تستبقي، إلى جانبها، هذا الغريب، الذي كانت ميوله وأهواؤه الفطريّة تدفعه نحو عالمٍ مختلفٍ، وأن تحتلّ ذهنه الضاجّ بالاضطراب، والذي اعتاد ألاّ يخضع إلاّ لنـــزواته ورغباته، والذي لم يرعوِ عن تيهه المتمادي، إلاّ منذ شهورٍ معدوداتٍ، وشرع يبحث عن طريق الخلاص. وقد باحت له الأُخت بعد انقضاء أسابيع قليلةٍ على لقائهما الأوّل: "غالبًا ما أُدهش كيف صرت أتحدّث إليك بكثيرٍ من الثقة، وأُطلعك على أُمورٍ لم أعتدْ إطلاع آخرين عليها. منذ الوهلة الأولى، لم تكن لي غريبًا، فقد كنت أعرفك قبل قدومك إليّ. ففي الرؤى التي تريني أحداث حياتي المستقبليّة، غالبًا ما رأيتُ رجلاً شديد السمرة، يكتب إلى جانبي. ولذلك، عندما دخلتَ إلى حجرتي، للمرّة الأولى، لم أتمالك عن قول: "هذا هو".

ولكن، حتّئذٍ لم يكون يجول في خاطر "برينتانو" سوى أن يجعل من ظاهرة الأُخت روايةً أدبيّةً، لا وثيقةً تاريخيّةً. وتشير الرسائل التي كان يبعث بها إلى أصدقائه، في أوّل عهد إقامته في "دولمن"، إلى تضاربٍ في مواقفه، فهو، تارةً، ينظر إلى الأُخت نظرة شاعرٍ، فيقول عنها: "إنّها تتكلّم مثل زهرةٍ برّيّةٍ، مثل عصفور غاباتٍ، تغريده مدهش العمق، وغالبًا نبويٌّ". وتارة أُخرى ينظر إليها على أنّها "الصديقة الرائعة، الطوباويّة، الرقيقة، ريفيّة الطباع، الساذجة، المرحة، المريضة، المحتضرة، التي تعيش بلا طعامٍ، وتحيا حياةً فائقة الطبيعة" أو يرى فيها: "النفس الزاخرة حكمةً، الرقيقة، النديّة، الطاهرة، الممتَحَنة، وافرة الصحّة النفسيّة، ومع ذلك ريفيّةً أصيلةً".

وقد احتملت "أنّا كاتارينا"، بصبرٍ، هذا الرجل المختلف عنها بكلّ كيانه وسلوكه، وعاملته بمثل الطيبة الجذّابة التي كانت تقابل بها الفقراء والمتواضعين الآتين إليها. ولكنّها أظهرت له، أيضًا، ثقةً مطلقةً أثّرت في أعماقه، ما سهّل له الإقامة في قرية "دولمن" الخالية من كلّ جاذبٍ، بانتظار قدوم الأب "سيلر" مع كريستيان برينتانو، قدومٍ تأجّل مرّةً إثر مرّةْ، وتمادى طولاً.

غير أنّ ما كانت تبديه الأُخت للشاعر، تلبيةً لتوصية معرّفها، من ترحيبٍ ومودّةٍ، كان يجتذبه باطّرادٍ، ويحمله على الإفضاء لها بأخبار ماضيه، وبهواياته، وبذلك كان يسلو عن وحدته في قريةٍ بدائيّةٍ، ليس فيها من يقيم للشعر والأدب وزنًا. وقد استوقفه، على نحوٍ خاصٍّ، اهتمام الأُخت بنفسه، فقد كانت تموّه أوجاعها الداخليّة، وتضحياتها، بفيضٍ من تعابير المودّة ومبادرات العطف. وكانت تغلّف كلّ أقوالها برقّةٍ وحصافةٍ كفيلتَيْن بمسّ شغاف قلبه، وإسالة الإيمان إلى أعماقه، واقتياده إلى التصالح مع الله، وترسيخ الإيمان الصافي في نفسه. وكانت تختار الزمن الملائم، والعبارة المؤثّرة، كي تغرس البذور الإلهيّة في قلبه، فتثمر ما هو أثمن من الإبداع الشعريّ، وأعذب من كلّ المتع المعهودة.

بتلك السياسة كانت الأُخت تُعدّ الشاعر لرسالةٍ أساسيّةٍ في سيرتها، وتدخله، شيئًا فشيئًا، في دهاليز روحانيّتها وصوفيّتها الفريدة، كي يحسن نشر رؤاها، وما يقتضيه الله من خلالها، ويكرّس مستقبل أيّامه، وطاقاته الفكريّة، ومواهبه الأدبيّة، لهذه المهمّة التي لم يكن شيءٌ، ظاهريًّا، يُعدّه لها.

كان برينتانو، آنذاك، يناهز الأربعين من عمره، وكان يخطو أولى خطواته على دروب المصالحة مع الله، مصارعًا الحيرة والتردّد، وباحثًا، بصدقٍ ومشقّةٍ، عن الحقيقة. وها هو، في حضور "أنّا كاتارينا" وبتأثيرها، ينعتق من حالة المخاض والتخبّط.

قبل أيّامٍ قليلةٍ، كان قد تنهّد: "أنا بحاجةٍ إلى من يجتذبني، ويجعلني أتنسّم جوّ البراءة والتقوى الإلهيّ، ويقتادني كما يُقتاد أعمى، لأنّني لا أستطيع الاتّكال على ذاتي". وها قد طواه هذا الجوّ الذي تاق إليه، بكلّ سطوة سحره، وهو يشهد شظفًا مخيفًا، مقرونًا ببساطة طفلٍ يحيا في الله، ويستشفّ في هذا الطفل عظمة الكنيسة، وقوّة حقيقة الإيمان يتجلّيان، كلّ يومٍ، بمزيدٍ من الوضوح لعيني نفسه. ولم تكن الرؤى المدهشة، ولا روايات الإيحاءات الداخليّة، ولا جاذب الماورائيّ، هي التي أحدثت التأثير الحاسم على الشاعر الذي بات يُدعى "الحاجّ"، بل إنّ ما أحدث هذا التأثير هو مشهد حياةٍ تضبطها، بإحكامٍ، مبادئ الإيمان، التي كان يرى هو فيها مرآةً وفيّةً للكنيسة. ولطالما عبّر "برينتانو" عن هذه المشاعر بمثل قوله: "إنّ عالمًا جديدًا يُشرع أمامي. كم هذه الصابرة مسيحيّةٌ بكلّ أوتار كيانها، وعلى وجه الكمال! الآن صرتُ ألمس هويّة الكنيسة".

وكان، في اليوم الثامن من مجيئه إلى "دولمن"، قد هجر الفندق الذي حلّ فيه، واستأجر حجرتين في بناءٍ ملاصقٍ لمسكن "أنّا كاتارينا"، كي تتسنّى له مراقبتها أطول مدّةٍ ممكنةٍ. وكان يعتزم المكوث في ذلك المكان خمسة عشر يومًا، على الأقلّ. وقد لاحظ: "مع شخصٍ منفصلٍ انفصالاً تامًّا عن العالم، مثلها، لا يشقّ على المرء أن يتبيّن، بوضوحٍ، كلّ ما يجري في داخلها".

وقد لحظ، أيضًا: "هذه المريضة المسكينة تعاني شدّةً قصوى. فهي محرومةٌ من العناية المُحِبّة، التي ينبغي أن تتلقّاها من شخصٍ أنثويٍّ. هذا ما ألحظه وأحزن له في كلّ لحظةٍ. إنّ سلوك شقيقتها مهينٌ، فضلاً عن افتقارها إلى الخبرة، بحث تضطرّ المريضة إلى معاونتها في تدبير شؤون البيت، ولكنّها لا تشكو أبدًا، وتحتمل كلّ شيء، صابرةً... إذا هي تكلّمت، في غمرة انخطافاتها، أو قامت بأيّة حركةٍ، فشقيقتها الحمقاء لا تتوانى عن معاملتها كما تعامل خادمةٌ ولدًا مريضًا أو إنسانًا محمومًا يهذي، وتأمرها بالتزام الهدوء.

"حياتها كلّها التي تحوّلها آلامها الجسديّة والنفسيّة المريعة إلى استشهاد دائمٍ، ويمزّقها ويزعجها، فضلاً عن ذلك، زائرون فضوليّون ،وأفظاظ. ومع ذلك هي لا تتخلّى عن دماثتها، وتظلّ، في كلّ شيءٍ، تكرّم مخطّطات الله، الذي يمتحنها كي يغرقها في التواضع".

وإلى ذلك رأى "الحاجّ" أنّ من أكثر ما كان يشقّ عليها هو عجزها، وهي مسمّرةٌ على فراش المرض الرثّ، أن تسترق نظرةً إلى نور السماء، أو إلى قمم الأشجار الشاخصة أمام نافذتها، وهي التي نشأت في فسحة الحقول، وعقدت علاقة حميمةً مع الطبيعة، لا عهد لكثيرين بمثلها.

وقد شرع "الحاجّ"، منذئذٍ، يجهد في التعويض عن تقصير الآخرين، ويؤدّي لها خدماتٍ صغيرةً أهملوها، وهي كانت تُكبرها وتمتنّ لها امتنانًا عميقًا، فتلك الخدمات، على وضاعتها، كانت تؤتيها، غالبًا، الكثير من الراحة والعزاء. فعلى سبيل الشاهد، كانت، إلى جانب سريرها، ثغرةٌ تتدفّق منها هبّات هواءٍ باردةٌ توجعها، ولم يفطن لها أيٌّ من المقيمين معها، وبادر "برينتانو" إلى سدّها بقطعة قماشٍ سميكةٍ، وأراحها، وردّ عنها الإزعاج.

ويوم الجمعة، التاسع من شهر تشرين الأوّل، تيسّرت له رؤية تفجّر الدماء من سماتها، فراقبها برهبةٍ ورعدةٍ، وعلّق بقوله: "تأثّرت حتّى النخاع، بمشهد هذا الجسد

المدموغ بهذا الطابع الرائع، هذا الجسد الذي لا يقوى على تحريك سوى قدميه ويديه، ولا يستطيع الاستقامة ولا الجلوس، ومع ذلك يعلوه رأسٌ مكلّلٌ بآلام إكليل الشوك، ووجهٌ يطفح حبًّا وعطفًا، تتدفّق من شفتيه عبارات العزاء والعون، وفيضٌ من الصلوات المتواضعة الحارّة. بقرب فراش تلك النفس المقدّسة، التي تثقّفت، منذ صغرها، لا على يد البشر، بل على يد الربّ وملاكه وقدّيسيه، جعلتني ألف علامةٍ أُدرك للمرّة الأولى، ما هي الكنيسة، ومعنى شركة القدّيسين في الكنيسة.

"كم هي خارقةٌ ومؤثّرةٌ الاختبارات التي يجريها عليها معرّفها، كلّ يومٍ! وأشدّها تأثيرًا هو الطابع الكهنوتيّ. فعندما تكون في حالة انخطافٍ، ويدنو منها معرّفها، ويقدّم لها أصابعه التي تلقّت المسحة المقدّسة، ترفع رأسها، وتتابع كلّ حركات أصابعه، وما إن يسحبها حتّى ترتمي على فراشها، وتنكمش على ذاتها. وهذا ما يحدث مع كلّ كاهنٍ، أيًّا كان. ولا بدّ لكلّ من يتسنّى له، نظيري، أن يشهد هذه الظاهرة، من الاعتراف بأنّ الكنيسة وحدها لها كهنةٌ، ويترسّخ لديه الشعور بأنّ السيامة الكهنوتيّة تتخطّى كونها مجرّد احتفالٍ كنسيٍّ".

ومن الظواهر التي أثارت دهشة "الحاجّ" استجابة الأُخت الفوريّة والكلّيّة لأيّ أمرٍ يوجّهه لها معرّفها، حتّى عندما يهمس به همسًا، وحتّى إذا تلقّته وهي منخطفةٌ في عالمٍ سماويٍّ بعيدٍ. وفي هذا السياق يقول "الحاجّ": "هذا الاستيقاظ المباغت، استجابةً لأمر الكاهن هو لي، دائمًا، حدَثٌ مؤثّرٌ، يستفزّ عطفي على تلك المسكينة التي تُنتَزَع، عنوةً، وفي الحال، وبلا رأفةٍ، من رؤاها ومن عالمٍ آخر زاخرٍ بالنور، تحيا فيه حقًّا، وتُرمى في هذه الدنيا، في هذا العالم المظلم الحزين، حيث كلّ شيءٍ ينفّر ويجرح... غير أنّ الألم، هو مهمّتها، ومع أنّها قد تتخبّط لحظاتٍ عقب استعادتها إحساسها بالعالم الخارجيّ، إلاّ أنّها تتقبّل الألم ممتنّةً، باشّةً، ودودًا. هذه الطاعة ليست لها إكراهًا، ومع أنّها تتضمّن ضغطًا لا يقاوَم، غير أنّ نفسها هي، دائمًا، خاضعةٌ، خضوعَ ولدٍ أَلِفَ الاستجابة للنداء. وقد سمعتها، لحظة استيقاظها

تقول بلهجةٍ مؤثّرةٍ: "يجب أن أمضي، أجل، أنا قادمةٌ"، أو "لا أستطيع، فرجلاي مسمّرتان! فكّوا رجليّ!". هذه الشكوى تطلقها عندما يكون عقبا رجلَيْها متشابكين، على غرار عقبي المصلوب، ويصعب عليها نـــزع أحدهما عن الآخر. وعندما توقظ بواسطة رشّ الماء المبارك، تفرك عينيها، وترسم إشارة صليبٍ، وتسعى إلى استعادة مسبحتها التي كانت قد أُفلتت من يدها أثناء الانخطاف.

"وقد باحت لي بأنّ ألمًا يتعذّر وصفه ينتابها عندما توقظ بغتةً، وتُنتزَع من حالٍ لا يمتّ بصلةٍ إلى الحياة العامّة المعتادة، وتُعاد إلى هذه الحياة بالغة القسوة والاضطراب؛ وغالبًا ما يُخيَّل إليها أنّها وقعت على حين غرّةٍ، بين ظهراني قومٍ غرباء غربةً كاملةً، لن يستطيعوا فهمها، ويكونون هم لها لغزًا. وغالبًا ما يسعى بعضهم إلى غوثها، فيكون غوثهم أشدّ إيجاعًا من لامبالاتهم".

وذات يومٍ، طلب "الحاجّ" من معرّفها أن يأمرها بالاستيقاظ، كتابةً، فدوّن المعرّف عبارة: "كوني مطيعةً، واستيقظي!". وكانت، حينذاك، مأخوذةً في انخطافٍ، ورأسها مغطّى بقبّعتيْن، وملفوفًا بنسيجٍ سميكٍ مطويٍّ. وما كادت الورقة التي كُتِب عليها الأمر تلامس رأسها، حتّى أطلقت زفرةً، وهبّت. فسألها معرّفها: "ماذا تريدين؟" فأجابت: "النهوض، لأنّي سمعتُ نداءً". ولكنّه أمرها: "تابعي رقادك"، فأزاحت الورقة عن رأسها، وهوت، ثانيةً في غيبوبتها.

ظواهر الطاعة هذه لم تقتصر على حالات الانخطاف، بل كانت رائعةً ومدهشةً، أيضًا، عندما كانت تخضع لأمر معرّفها بتناول أدويةٍ، وهي موقنةٌ بأنّها لن تؤتيها سوى الإزعاج والأوجاع. وقد باحت للحاجّ، يومًا: "توجّعتُ كثيرًا، أثناء الليل. ولكنّي عندما أتوجّع بسلامٍ، أستعذب الوجع، وأستعذب التفكير بالله، لأنّ الفكر الموجّه صوب الله خيرٌ لي من العالم بأجمعه. أمّا الأدوية فلا أُطيقها، وهي لا تؤتيني أيّة فائدةٍ... ومع ذلك عليّ أن أتحمّلها وأبتلعها".

وكانت الأُخت "إيمّيريك" تولي شأنًا كبيرًا للبركة الكهنوتيّة. وفي هذا السياق

يروي "الحاجّ" أنّه كان، ذات يومٍ، في حجرتها، وهي في حالة انخطافٍ، فأخذت تتأوّه ألمًا، فقدّم لها كأس ماءٍ، ولكنّها قالت له: "يلزمني ماءٌ باردٌ باركته يد كاهنٍ. وها إنّ بقربي كاهنيْن، يملكان هذه القدرة الإلهيّة، ولكنّهما ساهيان عنّي، ويدعاني منهارةً... وهرع "الحاجّ" إلى حجرة الأب "لمبير" القريبة من حجرتها، فوجد عنده أيضًا معرّف الأُخت فبارك الماء، وعاد "الحاجّ" به إليها، فتجرّعته فرحةً، هاتفةً: "الآن ارتحت!".

وقد سمعها "الحاجّ"، في مناسبةٍ أُخرى، تشكو: "من المحزن أنّ الكهنة، في زماننا، ما عادوا يبالون بقدرة المباركة، ولكأنّهم ما عادوا يعرفون ما هي البركة الكهنوتيّة، وكثيرون منهم فقدوا الإيمان بها، ويخجلون بها خجلهم بتقليدٍ خرافيٍّ مندثرٍ... ولكن عندما يحجمون هم عن تزويدي بها، يهبني إيّاها الله، أحيانًا. ولكن بما أنّ الله قد أسّس الكهنوت، وأولاه قدرة المباركة، فأنا كثيرًا ما أتلظّى وأتلوّى رغبةً في الحصول عليها..."

وكان "الحاجّ" يشهد معاناتها كلّما رغبت في ارتشاف ماءٍ مباركٍ، وافتقرت إليه. وقد وجدها، مرّةً، تلتهب بالحمّى، وقد جفّ حلقها وفمها، فجاءها بكأس ماءٍ باردٍ، باركه بنفسه خلسةً، بدافع الرأفة والمحبّة. ولمّا تناولته الأُخت من يده ابتسمت وقالت له: "ليتك كنت كاهنًا"، وباحت له بأنّها رأته يبارك الماء، خلف الباب المغلق، مثبتةً له، بذلك، قدرتها على قراءة كلّ الخواطر التي تجول بفكره حتّى أكثرها خفاءً وعبورًا. وقد علّق على ذلك بقوله: "من اليسير التفاهم مع شخصٍ لا يكتفي بمطالعة خوالج نفسه، ولكنّه، أيضًا، يستبق أفكارك قبل أن تتّضح معالمها".

وبالإجمال أفضى وجود "الحاجّ" إلى جانب الأُخت "إيمّيريك" إلى قلب كيانه قلبًا جذريًّا، ودفعه تأمّله المستفيض في سيرة قدّيسةٍ، على دروب القداسة، والقرب من الله، وحدا به إلى إعادة تقييمٍ لكلّ ماضيه، ومصيره بأكمله. وهذا ما يُستشفّ من قوله: "شهدتها تصلّي، ويداها الجريحتان متّكئتان على صدرها، منكمشتان انكماشًا

خفيفًا إلى الداخل. كانت تبتسم، ومحيّاها يوحي بوجه شخصٍ يرى ويتكلّم، مع أنّ الشفتين والعينين كانتا تشعّان على ذلك الوجه الذي يفيض براءة الأطفال وطهرهم، وقد أيقظتا فيّ، بحدّةٍ قصوى، وعيي لانحطاطي ولآثام حياتي. في رهبة تلك اللحظة الهادئة، وقفت أمامها وقفة مستعطٍ. كنت أتأوّه داخليًّا، وأقول بلهفة الألم المتوسّل: "أيّتها النفس الطاهرة، صلّي لأجلي، أنا البائس، القابع أرضًا، مليئًا ظلمةً وخطايا، وعاجزًا عن غوث نفسي".

"ينتابني شعورٌ بأنّني قد عثرتُ هنا على مسكني. وفي داخلي صوتٌ يؤكّد لي أنّني لن أستطيع مبارحة هذه المخلوقة الرائعة قبل وفاتها. أشعر أنّ المهمّة تستحقّ أن أكرّس لها حياتي... لقد استجاب الله لالتماسي أن يكلّفني بما يفوق قواي، وبما يسهم في تمجيده. سأسعى، بقدر استطاعتي إلى تلقّي كنـــز النعمة، الماثل أمام عينيّ، والحفاظ عليه بحرصٍ".

ودوّن، لاحقًا، ما يلي: "الأحداث الرائعة التي أحيا في غمرتها، والبراءة الطفوليّة، والسلام، والصبر، والحكمة الفائقة، في الميدان الروحيّ، التي تتجلّى على تلك القرويّة الأُمّيّة المسكينة، والتي تسفر لي عن عالمٍ جديدٍ، تجعلني أشعر بحدّةٍ الوضع البائس الذي تتخبّط فيه حياتي الحافلة بالاضطراب والخطايا، وكذلك سلوك معظم الناس اللامعقول، وتبيّن لي بجلاءٍ، ثمن كلّ ما هدرته آنفًا: البساطة، والإيمان، والبراءة، بحيث كلّما أجلتُ الفكر في هذه الكنوز المهدورة، أُذرّف، من أعماق قلبي، دموع ندمٍ...

"العطف والثقة المقرونان بالسذاجة، اللذان تبديهما لي تلك المخلوقة المحظيّة، هما لي عامل نهضةٍ، ومنبع خيرٍ جمٍّ. فهي تحيا مسيحيّتها حقًّا، وحتّى الكمال. لم يلمّ أحدٌ، قطّ، مثلما هي ألّمت ببؤس حياتي، وبفداحة أخطائي. أنا نفسي لا أعرفهما بقدر ما هي تعرفهما، فهي تقيس وتزن الأُمور بدقّةٍ ووضوح رؤيةٍ لا أملكهما. وهي، مع ذلك، تغدق عليّ العزاء والعون.

"الآن بتّ أعرف الكنيسة التي تتخطّى بما لا يُقاس جماعة أشخاصٍ تحدوهم مشاعر متماثلةٌ. أجل، فالكنيسة هي جسد يسوع المسيح، ورأسها المتّحد بها اتّحادًا جوهريًّا، عاقدًا معها علاقاتٍ حميمةً لا تعرف انقطاعًا. الآن أُدرك الكنـــز الثرّ من النعم ومن خيراتٍ متعدّدة الأشكال والألوان الذي تلقّته الكنيسة من الربّ والذي لا يناله البشر إلاّ بها وفيها".

هذه الأقوال جاءت إثر اعتراضها على اعتبار "برينتانو" كلّ مسيحيٍّ، لأيّة طائفةٍ انتمى، وأيّةً كانت البدعة التي يتبنّاها، ابنًا للكنيسة، فلاحظت: "إذا كان يسوع المسيح قال إنّ على أبناء الله أن يحبّوه بصفته أبًا لهم، فعليهم، أيضًا، أن يدعوا أُمّ الله الحبيبة أُمّهم، وأن يترسّخ فيهم الشعور بأنّها أُمّهم، حقًّا. أمّا من يرى غير ذلك، ويسلك على نقيض ذلك، فصلاة "أبانا" هي له صيغةٌ نافلةٌ، وهو بعيدٌ عن كونه ابن الله". وأردفت: "إنّ إدراك عظمة هذه الكنيسة، حيث ما زالت الأسرار محتفظةً بكلّ قدراتها، وقداستها المصانة صونًا منيعًا، هو، وا أسفاه، أمرٌ نادرٌ في أيّامنا هذه، حتّى لدى الكهنة... لكي لا تقوى أيّة قدرةٍ بشريّةٍ على تدمير الكنيسة، جعل الله من التكريس الكهنوتيّ، علامةً لا تمحى. وطالما ظلّ، على الأرض، كاهنٌ واحدٌ مكرَّسٌ تكريسًا صحيحًا، يبقى يسوع حيًّا في كنيسته، إلهًا وإنسانًا، بواسطة سرّ الهيكل، فائق التقديس..."

وفي سبيل تقريب "الحاجّ" من الله ومن الكنيسة، كانت الأُخت، فضلاً عمّا تتبادله معه من أحاديث دينيّةٍ، تحرّضه على الصلاة، وأفعال التوبة، والمحبّة المسيحيّة، ومقاومة الذات، والتجرّد. وكانت تفعل ذلك ببساطةٍ وطبيعيّةٍ، تجعلان تحريضها يبدو أشبه بعزاءٍ له، وبنتيجةٍ طبيعيّةٍ لأقوالها. وكانت، أحيانًا، تلتمس صلواته، ولكأنّها تسأله صدقةً روحيّةً، من أجلها، ومن أجل نوايا كُلِّفت هي بالصلاة من أجلها.

كان شقيق "الحاجّ"، كريستيان، قد وصل إلى دولمن مع الأب "سيلر" يوم الثاني والعشرين من تشرين الأوّل ١٨١٨. وكان "الحاجّ" قد اعتزم العودة معهما إلى

برلين. ولكنّ الأُخت دعته إلى المكوث في دولمن ريثما يكتمل ارتداده الروحيّ. وقد اعترف، هو نفسه: "إنّ الله يغدق عليّ نعمًا جُلّى، وما تفعله لي الأُخت "إيمّيريك" رائعٌ. لقد أضحيتُ ابنًا روحيًّا لها". كان راغبًا، حقًّا في مواكبتها مواكبة ابنٍ، ولكنّ تحقيق ذلك لم يكن أمرًا يسيرًا. فهو كان شديد الغيرة، ويبتغي الاستئثار بمواهبها، ويقتضي أن تكرّس له كلّ ذرّةٍ من وقتها من أجل إطلاعه على رؤاها وإلهاماتها، وتحدوه أصدق النوايا وأسخاها في وقف كلّ طاقات فكره، وحتّى حياته، من أجل تعريف العالم بعظمة آلاء الله التي يغدقها من خلال تلك الأداة المختارة.

ولكنّه كان يستاء لكلّ دقيقةٍ تنفقها في مساعدة الفقراء، أو في العمل اليدويّ من أجلهم، أو في تدريب شقيقتها على العمل المنــــزليّ، أو في استقبال رفيقاتها السابقات في الدير، حتّى ضاق به ذرعًا جميع المحيطين بالأُخت، إذ لم يعُد لطبيبها متّسعٌ من وقتٍ كي يحدّثها عن مرضها، ولا لمعرّفها كي يبوح لها بهمومه وهواجسه، ولا للأب "لمبير" أن يشكو لها منغّصات شيخوخته. وكان قد فرض على شقيقتها أن تلزم حجرتها وتغلق بابها، كلّما وافاها زائرون من قريتها.

وحدها قوّة "أنّا كاتارينا" الروحيّة كانت قادرةً على إشاعة جوٍّ من التفاهم بين جميع هؤلاء، وذلك الصديق، سريع الغضب، الذي لم تكن تنفكّ تدعوه إلى الصبر والسيطرة على ذاته، ولجم ردود فعله. وأخيرًا رأت أن خير سبيلٍ إلى ذلك هو إقناعه بالبعد المؤقّت عن دولمن مع وعدٍ له بأطيب استقبالٍ لدى عودته. فغادر تلك المدينة الصغيرة في مطلع عام ١٨١٩، ولم يعد إليها إلاّ في شهر أيّار. ومع ذلك احتاج إلى مزيدٍ من الوقت كي يتمرّس بالقدر الكافي من الهدوء، ويتلقّى إيحاءات الأُخت وأسرارها وينشرها على الملأ.

وكان قد تمّ اتّفاقٌ على أن تخصّص له الأُخت ساعتين، كلّ يومٍ، من أجل إملائها رؤاها عليه. وكان هو شديد الاقتضاء في هذا الميدان، ما جعلها تقول: "سيعترف "الحاجّ" يومًا، أنّ لاحقّ له بالتباهي بصبره، مقارنًا بصبري. فقد أبديت له من الصبر،

بقدر ما أبديت مع شقيقتي". ومن المعروف أنّ شقيقتها كانت لها سبب استشهادٍ دائمٍ، بسبب حماقتها وخبثها. أمّا "برينتانو" فغالبًا ما سها عن أنّها ليست مجرّد مرآةٍ للآمرئيّ، بل هي، أيضًا، كائنٌ من لحمٍ ودمٍ، زادها سخاؤها المفرط هشاشةً، وعرّضتها رسالتها الفريدة لإساءة فهمها حتّى من قبل المقرّبين منها.

ومع ذلك أوجز موقفه منها بقوله:

"أقوالها موجزةٌ، ولكنّها بسيطةٌ، مليئةٌ عمقًا، وحرارةً، وحياةً، وكنت أفهمها كلّها.

"كانت زهرة الحقول، وعصفورة الغابات، تارةً محبّةً، سعيدةً، وقورًا، مذهلةً، وتارةً بدائيّةً، ساذجةً، مرحةً، ودائمًا معتلّةً، محتضرةً، ولكنّها رقيقةٌ، نضرةٌ، عفيفةٌ، معانيةٌ، سليمةٌ. وفوق كلّ ذلك قرويّةٌ.

"وكان الجلوس إلى جانبها أجمل مجلس في العالم".

يوميّاتٌ فدائيّةٌ

نورد في الصفحات التالية الملاحظات التي دُوِّنت، يومًا فيومًا، عمّا كانت تعانيه الأُخت وتقدّمه تكفيرًا عن آثام البشر وعقوقهم، ومن خلاله تصعّد في معارج القداسة:

يوم ١٨١٨/١٢/٦، صرّحت: "قال لي دليلي: "إذا كنتِ راغبةً في التخلّص من سمات الصلب، فستتفاقم آلامك. أطلعي معرِّفك، واعملي بإرشاده". وردّت على ذلك بقولها: "إنّي أُفضّل الأوجاع على الجراح، فأنا شديدة الحياء. والجراح تسبّب لي الكثير من الخجل".

ودوّن الدكتور "غيّوم ڤـــيزنير" (Wesener) الملاحظات التالية:

١٨١٨/١٢/٢٥: اليوم، الجمعة، عيد الميلاد، نـــزف رأسها، والصليب المرسوم على صدرها وجبينها بغزارةٍ أشدّ من السابق. ولكن، في الآن عينه، بقي الجلد حوالي جراح اليدين والقدمين، ناصعًا وجافًّا. وبدت قشور الجراح المحيطة بالسمات بنّيّة اللون.

١٨١٨/١٢/٢٨: سقطت قشور جراح اليدين والقدمين، ولكنّ الآلام لم تزُل، لا بل اشتدّت حدّةً.

الجمعة ١٨١٩/١/١: جراح الرأس والجنب تنـــزف كالمعتاد. أمّا جراح اليدين والقدمين، فظلّت جافّةً.

١٨١٩/٤/٩، الجمعة العظيمة: طوال هذا الأسبوع عانت الرائية حزنًا يتعذّر وصفه. وانتابتها نوبة سعالٍ حادٍّ، وآلام حلقٍ وصدرٍ. وتفجّرت، ثانيةً، جراح القدمين واليدين، ولكنّها ظلّت جافّةً في أيّام الجمعة التالية.

وكان نـــزف الجراح المتجدّد قد وفّر للسلطات التي عدّت أمر السمات خدعةً، فرصةً لتحقيقٍ جديدٍ مزعجٍ.

وشُنَّت على الأُخت حملات نميمةٍ واتّهاماتٍ باطلةٍ، ردّت هي عليها بقولها إنّ مهاجميها إنّما يسعون إلى الدفاع عن آرائهم الخاصّة، وعن سمعتهم، ولا يحاربون الكذب، بل يحاربون كلّ من يخالفهم الرأي، وينشدون ذواهم، لا مجد الله.

وقد حاول بعض الكهنة إبعاد "الحاجّ" برينتانو عنها. ولكنّ مشيئة الله آثرت بقاءه إلى جانبها، مدوّنًا رؤاها. غير أنّها دعته إلى المزيد من اللطف والرفق حيال الكهنة والراهبات المحيطين بها، وإلى كبح جموح عنفه في التعامل معهم. وكانت لا تني تذكّره بأنّ لا صفة كهنوتيّةً له، ومن ثمّ عليه وعليها الامتثال الدائم لإرشاد معرّفها ومرشدها الروحيّ. أمّا هو، فكان يظنّ، في سرّه، أنّ ما من كاهنٍ فهمها مثل فهمه لها. ولكنّها كانت تذكّره، بلا هوادةٍ، أنّ من يبتغي بلوغ الاقتناع بالحقيقة، بجهوده الخاصّة، وليس بنعمة الله، قد يتمسّك برأيه، ولكنّه لا ينفذ إلى صلب الحقيقة. وكانت تحثّه على التحلّي بمزيدٍ من التواضع والصبر.

وقال لها دليلها، يومًا: "سيكون عليك احتمال إهاناتٍ، فتأهّبي لها. وستنعمين بزمنٍ هادئٍ برفقة "الحاجّ". فلا تهدري الوقت، ولا النعم التي ستتوفّر لك، لأنّ أجلك سيأزف بعد وقتٍ قصيرٍ. إنّ ما سيتلقّاه "الحاجّ" سيمضي به بعيدًا. هنا لا يوجد من يرحّب به، ولكنّه حيث هو سيمضي، سيكون له تأثيرٌ، ومن هناك سيرتدّ أثره إلى هنا".

ولا ريب أنّ المناخ الروحيّ السامي الذي كانت تحيا الأُخت في أجوائه قد حرّر الشاعر من الكثير من عنفوانه، واعتداده بنفسه، ومن أثقال التفكير الأرضيّ، وأعدّه لفهم التأمّلات العلويّة، والرؤى النبويّة. فقد أنارت نفسه وشفتها، وهيّأته للمهمّة التي أُوكلت إليه، وكانت له الدليل الروحيّ، وأداة الحكمة والرحمة الإلهيّتين، وحرّرته من ضلالات العصر.

وهو، رغم تبصّره لأخطاء الآخرين وانتقاده لها، أحيانًا، بحدّةٍ، لم يكتشف لدى الرائية أيّ أثرٍ لازدواجيّةٍ أو لرياءٍ. وقال عنها: "إنّها مفعمةٌ طيبةً ودماثةً ووداعةً. إنّها أروع ناقلٍ للنعمة الإلهيّة".

مرحلة آلامٍ تكفيريّةٍ كبرى: ١٨١٨-١٨١٩

كانت "أنّا كاتارينا" تشهد المؤامرات المحاكة ضدّ الكنيسة، والاضطهادات التي ستُشَنّ عليها، وتتألّم وتتوجّع لها، وتواجهها بتضحياتها وآلامها وصلواتها. وكانت ترى ما ستتعرّض له، هي نفسها، من اضطهاداتٍ ومكائد، فتسأل خطيبها الإلهيّ أن يتولّى أمر إنقاذها. وقد رأت، بين مضطهديها، طبيبًا وكاهنًا أظهرا لها مودّةً زائفةً، تقنّع نوايا تفيض خبثًا ومكرًا، فيما هي عزلاء، مهملةٌ من الجميع.

وقد تعرّضت لتحقيقاتٍ ماكرةٍ قام بها قضاةٌ تحدوهم غاياتٌ سياسيّةٌ، بمعاونة أطبّاء وكهنةٍ متواطئين. وقد جهد أعداؤها في إبعاد "برينتانو" عنها، وفي تغيير مكان إقامتها. ولكنّها أقامت على إصرارها بألاّ تخطو أيّة خطوةٍ إلاّ بأمر معرّفها أو ممثّليه، ولتقبّلها، في هذه الحال، بلا خوفٍ، كلّ ما يُرضي الله. واقتضت ألاّ يشترك في التحقيق أيّ كاهنٍ غير مكلّفٍ من قبل السلطات الكنسيّة، وأن يدوّن المحاضر كهنةٌ مستقلّون، يسجّلون أقوالها بأمانةٍ، ويتلونها عليها، عقب تسجيلها.

وقالت للمحقّقين، وكان بعضهم يمثّلون ماسونيّين: "إن كنتم تبحثون عن الحقيقة بصدقٍ، فلمَ لا تسعون إلى العثور عليها هنا حيث أنا، وتصرّون على نقلي إلى مكانٍ آخر؟" وأوضحت أنّ وضعها الصحّيّ يستوجب حضور طبيبها ومعرّفها،

وإحدى الراهبتين المكلّفتين بالعناية بها، وكاهنَيْن وشاهدَيْن علمانيَّيْن، وأكّدت رفضها لنفلها، عنوةً، من مسكنها. ومع ذلك جرت محاولةٌ ليليّةٌ لنقلها، خلسةً، إلى مسكنٍ آخر، ولكنّ معارضةً شعبيّةً حازمةً فشّلت هذه المحاولة. غير أنّ أعداءها لم يستسلموا، واستعانوا بالشرطة على خطفها إلى مكانٍ آخر، ناشرين الحزن لدى جميع أهل القرية. وكانت الأُخت، ساعة خطفها، فاقدة الوعي لما كان يدور حولها. ومع الحزن والخيبة اللذين سبّبهما الخطف، غمرها شعورٌ منعشٌ بالسكون والفرح، وصفته بالعبارات التالية:

"لقد أمضيتُ كلّ زمن اختطافي في حالةٍ من الاندفاع النفسيّ، أذهلتني أنا نفسي. كثيرًا ما كان يغشاني الفرح، وتساورني رأفةٌ كبرى حيال أُولئك الباحثين العميان، فأُصلّي من أجلهم. وقد وطّنتُ العزم على احتمال كلّ شيءٍ من أجل النفوس المسكينة المعذّبة، كي تصلّي من أجل مضطهديها. ولطالما هبطتُ إلى المطهر، وتبيَّنتُ أنّ عذابات ساكنيه تحاكي عذاباتي، وكلّما اشتدّ عنف المضطهدين، كنتُ أكتسب سيطرةً على ذاتي، وأزداد سرورًا... ومع حرماني من البركة الكهنوتيّة، ومن كلّ غرَضٍ مقدّسٍ، كنتُ أتلقّى من الله، قوّةً وفيرةً، لم أعهد لها مثيلاً من قبل.

"وكلّما أنحى عليّ مضطهديَّ بأسئلتهم وشتائمهم، كان يتراءى لي، من جانبٍ آخر، طيفٌ نيّرٌ يُغدق عليّ المنعة والنعمة، ويُلقّنني كلّ كلمةٍ عليّ التلفّظ بها. وكانت إيحاءاته، دائمًا، موجزةً، واضحةً، عذبةً، متباينةً تباينًا كلّيًّا مع صوت المحقّقين المتّسم بالإسفاف والقسوة والجلافة والفظاظة".

اشترك بالتحقيق كهنةٌ بلا علمٍ ولا تكليفٍ من رؤسائهم. وكان هدف زعماء التحقيق إثبات خدعة السمات التي زعموها.

وقد جيء بالأُخت إلى مقرّ رئيس المحقّقين، ووُضعت على سريرٍ، وسط غرفةٍ، لا يتّصل بشيءٍ من أي جانبٍ، منعًا لإخفاء أو تسريب أيّ شيءٍ من معدّاتٍ أو موادّ طبّيّةٍ، كفيلةٍ بالمساعدة على إحداث جراحٍ، وإسالة دماءٍ. وكان مراقبان

يسهران على كلّ حركةٍ وكلّ نأمةٍ، ويُستَبْدَلان كلّ ستّ ساعاتٍ، لكي لا تخبو يقظة المراقبين. وكان السرير والأغطية قد فُحصت بدقّةٍ متناهيةٍ، وتمّ التثبّت من خلوّها من كلّ أداةٍ حادّةٍ، وكلّ مادّةٍ كيميائيّةٍ. وجيء بممرّضةٍ متمرّسةٍ، لم يكن لها معرفةٌ بالأُخت، ولكنّ المحقّقين حذّروها ممّا زعموا لديها من قدرةٍ على الخداع. وتمّ التأكّد من أنّ أظافر يديها ليست من الطول والحدّة اللذين يمكّنانها من تمزيق جلدها بها. واتّفق المحقّقون على مواصلة المراقبة، بلا هوادةٍ، حتّى إثبات الخديعة.

لم تتبيّن الأُخت إيمّيريك وضعها المستجدّ إلاّ في مساء ذلك اليوم، ولكنّها ما لبثت أن استغرقت في تأمّلٍ وانخطافٍ حتّى الصباح، وكانت قد استعادت من القوّة ما يمكّنها من تقييم الوضع بهدوءٍ، واستذكار ما اجتازت من مِحَنٍ، خلال الأيّام الفائتة. ولكي تبقى متأهّبةً لمواجهة ما كان يُعدّ لها، طلبت أن تُمنح المناولة بيد معرّفها. وقد زوّدتها الإفخارستيّا بالقدرة على مواجهة المِحَن القادمة بسجوٍّ نفسيٍّ كاملٍ. وباستسلامٍ تامٍّ للمشيئة الإلهيّة. وقدّمت نفسها وكلّ ما كان يُدبَّر لها من مكائد، ضحيّةً لله، وصلّت من أجل مضطهديها، فأثار سكونها دهشة الأطبّاء والممرّضة؛ أمّا هي فكانت مطمئنّةً إلى اقتراب تجلّي الحقيقة.

غير أنّ تلك الليلة كانت مضطربةً، إذ تعاقب المحقّقون، بلا توقّفٍ، على إيقاظها بتسليط الأضواء على وجهها، وحاصروها بطوفان أسئلةٍ ماكرةٍ. غير أنّ ملاكها كان ساهرًا عليها، يساعدها على الردّ بأجوبةٍ سديدةٍ.

وفي اليوم التالي، استُهلّ التحقيق الرسميّ. فأكبّ طبيبٌ كانت، سابقًا، قد رفضت تدخّله في شأنها، على تحرّي سمات جراحها، وتدوين كلّ الإجابات التي تدلي بها. وقد لحظ وهَنها وإعياءها، من خلال ما كانت تعانيه من صعوبة في الكلام، فاقترح إرجاء التحقيق إلى وقتٍ آخر. ولكنّها أصرّت على متابعته، مؤكّدةً رغبتها في إنجاز ما جيء بها من أجله، في أسرع مهلةٍ.

وبين حينٍ وآخر، كان يأتي محقّقان آخران فيجلسان عند طرف سريرها،

ويراقبانها متمعّنيْن. وكانت هي تجهد في الإجابة بدقّةٍ ووضوحٍ على أسئلتهما، يحدوها الأمل بدنوّ تجلّي الحقيقة، وإثبات براءتها من اتّهاماتهم، بلا تلكّؤٍ. واستمرّ التحقيق طوال النهار، حتّى انهارت إعياءً في المساء. وفي أثناء النهار كان كلٌّ من المحقّقين يُسهب في امتداح زميله، في غيابه، وفي تأكيد صفايا نواياه تجاهها. وكانا يجهدان، بكلّ الوسائل، في سبيل إقناعها بصداقتهما، وإخلاصهما وحرصهما على حمايتها. غير أنّ أحدهما، واسمه "بورغيس" (Borgés)، وهو مستشارٌ طبّيٌّ بروتستانتيٌّ، كان يستفزّها بأُسلوبه الساخر الفظّ، ولا يفوّت فرصةً لجرحها ببذاءته المهينة. وقد استشفّت هي، فيه، محرّك القضيّة بجملتها، وكلّ ما زخرت به من حقدٍ، وافتئاتٍ، ومنافاةٍ للعدل والحقيقة.

ومساءَ ذلك اليوم بلّغها المحقّقان منع الراهبة التي كانت تعْنى بها، ومرشدها الروحيّ من التواصل معها، والسماح لكاهنٍ واحدٍ بتزويدها بالإفخارستيّا مرّةً في الأسبوع. وتكرّرت، في تلك الليلة، أيضًا، أساليب الإزعاج التي مورست في الليلة السابقة، وما انفكّ المراقبون يجسّون، في كلّ لحظةٍ، جراح يديها، وهي صامتةٌ، لا تتفوّه بكلمةٍ.

مساء يوم الإثنين العاشر من آب، كان الطبيب "راڤ" (Rave) قد أعلن انتهاء مهمّته. ولكنّه صباح اليوم التالي، استأنف هذه المهمّة مع المحقّقين، واستبحر في طرح الأسئلة عينها التي سبق لهم طرحها، ولكن بصيغةٍ مختلفةٍ، أملاً في التقاط تناقضاتٍ في أجوبتها. وكان ذلك الطبيب عينه قد أعلن، لشهورٍ خلت، أنّ سبب المشقّة التي تعانيها الأُخت في السير هو نتوءاتٌ خشنةٌ في قدميها. فسألته، بعد أن جسّ قدميها، وفحصهما بدقّةٍ، في تلك الليلة، هل ما زال مقتنعًا بأنّ نتواءاتٍ خشنةً هي التي تمنعها من المشي مشيًا طبيعيًّا، فأجاب أمام المحقّقين: "من المؤكّد أنّ الأمر ليس كذلك. فأنت تتألّمين كثيرًا من قدميك".

وبعد أن استغرق التحقيق ساعتين، استدعى "بورجيس" اللجنة للاستماع إلى

المحضر الذي أعدّه. وقد امتدّت جلسة الاستماع أربع ساعاتٍ، بلا توقّفٍ، إذ خُيِّل إلى كلٍّ من أعضاء اللجنة أنّ واجبه التحقّق بنفسه ممّا جاء في المحضر. ومن مطابقته للواقع الراهن. فتعرّض جسد الراهبة، ثانيةً، لاختباراتٍ فظّةٍ، وكأنّه لوحٌ خشبيٌّ. وكلّما حاولت الأُخت ستر صدرها، كان المحقّقون يسارعون إلى انتزاع الستر بعنفٍ، ويردّون على توسّلاتها بسخريّةٍ بذيئةٍ. ولمّا كلّوا من توسّلاتها، هادنوها ساعةً واحدةً، ثم استأنفوا محاولاتهم الوقحة. ورئف الله بها، فأخذها انخطافٌ انتزعها من واقعها المرير. ولمّا أفاقت، واستعادت وعيها، زُفّت لها بشرى السماح لها بالعودة إلى مسكنها يوم السبت.

عن نهار التحقيق المؤلم، صرّحت الأُخت: "كان ذلك اليوم أسوأ أيّام حياتي. وقد هدّني الخجل والحزن، من جرّاء إكراهي على احتمال ما احتملت، والاستماع إلى أقوالٍ مهينةٍ. وفي أثناء ممارساتهم المنافية للحشمة التي أُجبرت على احتمالها، قلتُ في سرّي: "نفسي هي حبيسة جسدي، وجسدي، الآن، هو سجينٌ... أُصلبوه، أهينوه، فما هو سوى لوحٍ خشبيٍّ زريٍّ".

يوم الأربعاء، الحادي عشر من آب انتهجت اللجنة أُسلوبًا جديدًا. فقد أثبتت كلّ تحرّيات الأيّام السابقة حقيقة وجود سماتٍ لا سبيل إلى إنكارها، فلا بدّ، إذن، من الضغط على الراهبة كي تقرّ بأنّ كهنةً فرنسيّين مهاجرين هم الذين اصطنعوها. وأخذ الدكتور "راڤ" على عاتقه انتزاع هذا الإقرار من الضحيّة. فجاء إليها، منذ الساعة التاسعة صباحًا، متصنّعًا اللطف، وجلس بقرب سريرها، وعبّر عن رغبته في التحدّث إليها بصراحةٍ. وأخرج الحرّاس، واستفاض في امتداح فضائلها، وذكائها، وسيرتها، بعباراتٍ زاخرةٍ بالتبجيل. ثمّ وضع يده على صدره، وقال: "أجل، حقًّا، إنّي شديد التعاطف معك. وكذلك الرئيس الأعلى الذي كتب لنا، أمس، مؤكّدًا رغبته في العناية بك وبذويك. ولا يُطلَب منك سوى أن تثقي بنا، وتفتحي لنا نفسك بكلّ صدقٍ".

حينئذٍ، قاطعته الأُخت قائلةً: "لا رغبة لديّ إلاّ أن تقرأوا، أنت وهم، ما في قلبي، وتيقّنوا أنّي لا أُخفي فيه لا سوءًا ولا لَبسًا".

– "أجل يمكنك الثقة بي وبمعرّفك. فحتّى المفوّض الحكوميّ لن يحاط علمًا. بما ستُسرّين به إليّ. سأدبّر كلّ شيءٍ لصالحك، وسترين، قريبًا، نهاية أزمتك كلّها.

– "لستُ أفهم ما تقول وما يثير دهشتي. فهل تريد أن تخفي عن اللجنة شيئًا ممّا يتعلّق بي؟ لا، بل عليك أن تطلع اللجنة على كلّ ما أقوله".

إذّاك، أخذ الطبيب يستعرض كلّ سيرة "أنّا كاتارينا"، داسًّا، بين فينةٍ وأُخرى، أسئلةً ماكرةً، أملاً في الإيقاع بها، مثل قوله: "ألم تكوني تجلدين ذاتك، عندما كنت في الدير؟" وقد أجابته:

– "جلد ذاتي الرئيس كان اجتهادي في التغلّب على عيوبي، وميولي الفاسدة، والجهد في اجتثاثها.

– "ولكنّك أظهرت تكريمًا عظيمًا لجراح الربّ. ولا ريب أنّ ثمّة أشخاصًا ورعين قد أحدثوا هذه الجراح على أجسادهم، على نحوٍ ظاهرٍ، بدافع حبٍّ مضطرمٍ.

– "أنا لا علم لي بما تقول، وقد سبق لي أن أدليت بما يسعني قوله عن منشأ هذه السمات.

– "صدّقيني، أنا لا يساورني أيّ شكٍّ بأنّك افتعلتِ هذه الجراح الخمسة، عن سوء قصدٍ، أو بدافع الرياء. فأنا أعرفك عن كثبٍ، وأعلم أنّ الجميع يرون فيك شخصًا فاضلاً منذ صباك. ولكن لا ضير في أن يبتغي إنسانٌ التشبّه بالفادي. وقد يفعل ذلك بدافع التقوى.

– "كلاّ. هذا ليس مسموحًا. إنّه خطيئةٌ!

– "لا شكّ. أنا أشاطرك الرأي، وأعلم أنّ تقواك واستقامتك لا تسمحان لك بفعل ذلك. ولكنّي آسفٌ لرؤيتك، الآن، مُبعدةً عن ذويك. ألا ترغبين في أن أستدعي إليك زميلتك الراهبة، والأب "لمبير" (Lambert)؟

– "كلاّ. إنّي أوثر أن يظلاّ بعيدَيْن عني، لكيلا يكونا موضع شبهةٍ.

– "ولكن زارك كهنةٌ فرنسيّون آخرون. ولم يكن بوسعك معرفة ما فعلوه بكِ، عندما كنتِ في حالة لاشعورٍ تامٍّ.

– "في الأيّام الأولى التي تلت إقفال الدير، كانت تنتابني فترات إغماءٍ طويلةٌ. ولكنّني متأكّدةٌ أنّه لم يحاول أحدٌ إجراء تجربةٍ عليّ، أثناء تلك الفترات. ولم يكن إلى جانبي سوى حارسةٍ واحدةٍ، وهي الأولى التي شاهدت انبثاق الدم من الجراح.

– "يستحيل أن يحدث ذلك تلقائيًّا. إنّ الكهنة الفرنسيّين شديدو الورع. وهم كَلِفون جدًّا بهذه الأمور. وقد فعلوها بنيّةٍ سليمةٍ. وأنت احتملت الأمر، بدافع التقوى.

– "حاشى! فليس في ذلك لا نيّةٌ سليمةٌ، ولا تقوى ولا ورعٌ. بل إنّه إثمٌ فظيعٌ، وإنّي أوثر الموت على ارتكاب مثل هذه الفظاعة.

– "فكّري بالأمر مليًّا. ألا تخشين أن تطلب منك السلطة الكنسيّة القسَم؟

– "ما أقوله، أستطيع تأكيده بقسَمٍ، وبقدر ما يُطلَب منّي. وليأتِ رؤسائي الكنسيّون!

– "إذن، هل جميعنا، أيًّا كنّا، في الظلام، وأنت وحدك في النور؟

– "ماذا تقصد بذلك؟

– "إنّك في وضعٍ محزنٍ، حافلٍ بالآلام من كلّ جانبٍ. وهل يمكن أن يكون هذا الوضع دعوةَ أيّ إنسانٍ؟

– "إنّكم تقلقون وتعانون أكثر منّي، في سبيل أهدافٍ أرضيّةٍ خسيسةٍ. تحيون في اضطرابٍ دائمٍ، وتصدّعون رؤوسكم بشأن قضايا لا يمكنكم التعمّق فيها. أمّا عذابي فليس شاقًّا، لأنّني أعرف ما أتعذّب من أجله.

– "كلاّ، أنا واثقٌ من أنّ جراحك لم تحدث كما تدّعين. هذا مستحيلٌ. وإن لم تكوني، أنتِ، قد أحدثتِها، فآخرون أحدثوها.

– "إنّي أُدرك، الآن، هدف مساعيكم، واللعبة المزدوجة التي لعبتموها في الشتاء الماضي.

– "على الأقلّ، سنظلّ أصدقاء.

– "بالتأكيد كلاّ! فهذه ليست صداقةً، ولن تفلحوا في حملي على الكذب".

انسحب، إذن، الدكتور "راڤ"، خائبًا، وجاء رئيس اللجنة، وعلّق على تصريح الأُخت عن استعدادها لدعم أقوالها بقسَمٍ، بقوله: "لا قيمة لمثل هذا القسم، ولا فائدة منه، ولن نرضى به".

يوم الخميس، ١٢ آب، خفّت وطأة إزعاج اللجنة. ولكنّ الأُخت عانت، طوال فترة الصباح نوبات تقيّؤٍ حادّةً. وبين فترةٍ وأُخرى، كان يحضر أحد أعضاء اللجنة، ولا يلبث أن ينصرف، غير مبالٍ بحالها. غير أنّ أحدهم، يدعى "بوش" (Bush)، وهو شابٌّ حديث التخرّج. وما زال مزهوًّا بشهادة تخرّجه التي ملأته غرورًا وصلَفًا، كان مصرًّا على إهانتها، وما انفكّ يسأل هل ستتفتّح جراحها في الغد، مضيفًا: "ألا تعرفين؟ أخبريني عندما سيسيل دمك..." وقد أحجمت الرائية، طويلاً، عن الردّ عليه، معتصمةً بالصمت والهدوء. غير أنّها انتهت بإنذاره: "حذارِ، أيّها الشابّ، من الاستسلام لأعمالٍ ظالمةٍ، ولأحكامٍ جائرةٍ متهوّرةٍ. فالبتّ في أمورٍ كهذه، ليس بالسهولة التي تتخيّلها، وقد تهيّب من الحكم فيها رجالٌ أكبر منك سنًّا، وأوفر خبرةً. إنّك مبتدئٌ، والجدير بطبيبٍ مبتدئٍ أن يكون متحفّظًا، ومراقبًا هادئًا حذِرًا". وقد أصابت سهام قولها هذه أعماق الشابّ المغرور، فصرّح أمام الحارسة: "بقدرة هذه المريضة، هزّ ضمير رجلٍ. وإن ثبتت براءتها لبكيت دمًا". ومع ذلك مضى قدُمًا في فظاظته وقحته. أمّا الحارسة فازدادت تقديرًا للمضطَهَدة البريئة، وتعاطفًا معها.

ليلة الخميس/ الجمعة اعتراها انخطافٌ حتّى الصباح، واستفاقت نشيطةً، وطلبت من حارستها أن تأتيها بماءٍ للاغتسال، فجاءتها به، وعبّرت عن أملها بأن

تنـــزف جراحها، فيؤمن أعضاء اللجنة... ولكنّ الأُخت أكّدت لها أنّ لا شيء قادرٌ على جعلهم يؤمنون، لأنّهم يرفضون الإيمان. وأمعنت الأُخت في غسل جبينها، ولفّته الحارسة بعصابةٍ بيضاء، وبعد نحو ربع ساعةٍ وافى الطبيب الشابّ المتعجرف، وفكّ العصابة فوجد عليها آثار دمٍ، وحضر سائر أعضاء اللجنة، وعكفوا على غسل جبينها مستخدمين على التوالي، لعابًا، ثمّ خلاًّ مكثّفًا، وحامض الكبريت، وفركوا به جبينها فصاحت: "إنّه يحرقني كالنار!". ومع ذلك استمرّ أعضاء اللجنة في فرك جبينها حتّى نالها الإعياء، وفقدت الوعي. وحار المحقّقون، فأخضعوا الحارسة لاستجوابٍ صارمٍ، جاهدين في حملها على الاعتراف بأنّ المريضة هي التي أحدثت نـــزف الدم وتلويث العصابة، بيدها. ولكنّ الحارسة حرصت على رواية الحقيقة كما هي، وبحزنٍ قالت للأُخت: "أيّتها الأُخت إيمّيريك لقد خانوك وباعوك. وما أتعسني بكوني وسط هؤلاء القوم! ومع ذلك يسرّني أن عرفتُكِ، وحاولتُ مساعدتك". فعزّتها الرائية، وأكّدت لها أنّها كانت واثقةً من تصرّفهم على هذا النحو، ودعتها إلى الثقة بالله.

وفي اليوم التالي استأنفت اللجنة ضغوطها على الحارسة كي تشهد أنّها غابت عن مراقبتها بضع دقائق، ما مكّنها من إحداث جراحٍ في جبينها، ولكنّ الحارسة أقسمت أنّها لم تغب عنها ثانيةً واحدةً، بين وقت لفّ جبينها بالعصابة، وإزاحة الدكتور "بوش" لتلك العصابة، وتبيّن تلوّثها بالدم، مؤكّدةً أنّ الأُخت "إيمّيريك" ظلّت، في هذه الأثناء، ضامّةً يديها إلى صدرها، ولم ترفعهما إلى جبينها. وأقسمت على صدق قولها. ومع ذلك دوّنت اللجنة، في تقريرها، أنّ الحارسة غابت عنها دقيقتين من أجل إفراغ طشت الغسيل، فاستغلّت الأُخت هذه السانحة.

ولاحقًا أدلت الحارسة، السيّدة "ڤـــيلتنر" (Wiltner) لصحيفةٍ ألمانيّةٍ، بحقيقة ما حدث، فشنّ عليها رئيس لجنة التحقيق حملة تشهيرٍ تزخر بالأكاذيب والتهديد.

ومن جانبٍ آخر، كانت قد تجلّت آثار دمٍ لا مجال للشكّ بصحّتها على قميص

الأُخت إيمّيريك، وبلغت القحة باللجنة أن ادّعت أنّها آثار القهوة التي تقيّأتها الأُخت، مع أنّ لونها كان أحمر قانيًا، ومع أنّ الحارسة أقسمت أنّها تلقّت كلّ قيء الأُخت في منديلٍ أزرق اللون، ومطويٍّ أربع طيّاتٍ صفيقةٍ، يتعذّر اختراقها.

وحاول أعضاء اللجنة، بعد ظهر يوم الجمعة، استئناف استجواباتهم المهينة، ولكنّ الأُخت أبت الردّ عليها. ولما ادّعى مفوّض الحكومة أنّ انصياعها لرغبة اللجنة هو واجبٌ وطنيٌّ، ردّت بأنّها لا ترى لدى أعضاء اللجنة لا كفاءةً ولا جدارةً ولا استقامةً، فسألها المفوّض: "ما الذي تجدينه فينا، إذن؟"، فأجابت: "أجد خدّام الشيطان!". هذا القول على لسان عذراء عزلاء أوقع أشدّ أثرٍ على صيدلانيٍّ، عضوٍ في اللجنة، فهتف: "لا، لن أرضى بأن أكون خادمًا لإبليس!"، وغادر المكان. واستحوذ الذهول على معظم الآخرين، الذين لزموا الصمت برهةً، ثمّ طفقوا ينسحبون الواحد تلو الآخر، تاركين الراهبة وشأنها. ولكن، وحده الطبيب الشابّ المغرور "بوش" عاد مساءً، متصنّعًا تعاطفًا زائفًا، وأزاح غطاء رأس الأُخت، وسكب على جمجمتها قطراتٍ من سائلٍ أحدثت في رأسها آلامًا مريعةً، انتشر تأثيرها إلى كلّ أعضاء جسمها، فأُغمي عليها حتّى خُيِّل للحارسة أنّها فارقت الحياة.

صباح يوم السبت، الرابع عشر من آب، استأنف المحقّقون فرك رأس الأُخت بسوائل وتفحّصه. وكان قد انضمّ إلى اللجنة طبيبٌ آخر، تعامل مع الأُخت بدماثةٍ ولياقةٍ سرّبت الثقة إلى نفسها. ثمّ عاد بعد الظهر، وتحدّث إليها، فوطّد حديثه ثقتها فيه، مثبتًا صدقه واستقامته، بحيث كان سائر أعضاء اللجنة يجهدون في إخفاء نواياهم ومؤامراتهم عنه. وكان أكثر من جميعهم يقظةً ونشاطًا، وقال للأخت: "سأشهد بما أراه، سواءٌ كان براءةً أو خديعةً. فالتزمي الحقيقة، وبذلك لن يتغلّب أحدٌ عليك". لم يكن قد رأى الأُخت من قبل، وفي أثناء مشاركته في التحقيق لم يلحظ أيّ أثرٍ لخداعٍ، ومن مراقبته لطباع الأُخت وسلوكها، ترسّخ لديه اليقين بأنّها غير قادرةٍ على الخداع.

ولكن خلافًا للوعد الذي كان المفوّض قد قطعه بإخلاء سبيلها، يوم السبت، عاد فادّعى، في ذلك اليوم، أن القضيّة لم تنجلِ بعد، فلا بدّ من مواصلة التحقيق. وكان يطلّ عليها في فتراتٍ متباعدةٍ، ولا يفعل شيئًا، ولا يجد أعضاء اللجنة سبيلاً إلى الاتّفاق على موقفٍ. فاستنكر الطبيب الذي انضمّ إليهم حديثًا، تلك المهزلة المخزية.

يوم عيد انتقال السيّدة العذراء، وفي اليوم التالي، نعمت الأُخت إيمّيريك بشيءٍ من الهدنة. ولكنّها ضاقت بالانتظار ذرعًا، وطالبت بوضع حدٍّ لاحتجازها، ولكنّ المفوّض ادّعى أنّ، في كلّ يومٍ، تأتيهم تعليماتٌ جديدةٌ، وأسئلةٌ لا بدّ من طرحها عليها، وعلى زميلتها الراهبة، وعلى كاهنٍ فرنسيٍّ، وراهبٍ دومينيكيٍّ قريبَيْن منها. وحذّرها المفوّض من التشكّي لكيلا تنقلب الحال عليها. وفي هذه الأثناء دخل عميد اللجنة إلى غرفتها، فشكت له: "إنّهم يكرهونني على الكذب والاعتراف بغير الحقيقة". وأجابها: "إذا كان الأمر يتعلّق باعترافاتك فيمكنكِ تأكيدها بقَسَمٍ". ولكنّها اعترضت: "هذا مؤكّدٌ، ولكن قيل لي أن لا قيمةَ لقَسَمي!" فسأل المفوّض: "من قال ذلك؟"، فأجابته: "أنت أدرى!"

واستمرّ حجزها، وتواصلت مضايقاتها.

يوم السبت العشرين من آب، وافى المفوّض يصحبه العديد من أعضاء اللجنة يجترّون حيرتهم في ما يتوجّب عليهم فعله، للخروج من هذه القضيّة، وحيال خيبتهم، انفجرت الحارسة، التي كانوا هم عيّنوها، في وجههم، صائحةً: "كم من نفقاتٍ تُهدَر على هذه القضيّة، وكم هي المبالغ التي تدفع لهؤلاء السادة؟" فقاطعها أحدهم قائلاً: "كلّ شيءٍ يُدفَع من مال الملك"، فأنحت عليهم بمزيدٍ من اللوم، قائلةً: "في هذه الحال، كم يسيء خدّام الملك خدمته؛ ويخدعونه من أجل سلب ماله، ذلك المال المبلّل بعرق الفلاّحين الذين يُعصَرون حتّى قطرة دمهم الأخيرة! وما جدوى هذا التحقيق، وكلّ هذه التقارير التي يدبّجها من لا يدركون للقضيّة أمرًا، ولا يفقهون مغزاها، ولا يمسكون بمفتاحها؟ ألم يكن من الأجدر توزيع هذه

الأموال على الفقراء، ومحاسبة المخلّين بأمانة وظائفهم، والمختلسين المتمرّسين؟ هذا، على الأقلّ، سيكون مفيدًا، ويستمطر البركات".

هذا الخطاب الصارم لم يلقَ أيّ ردٍّ، لا بل زاد أعضاء اللجنة ضيقًا وحيرةً، ولا سيّما لدى المفوّض، رئيس اللجنة. فبورجيس – المستشار الطبّيّ البروتستانتيّ، كان قد انسحب إثر تبيُّنه استحالة انتزاع إقرارٍ كاذبٍ من المتّهمة، واعترافٍ بخداعها المزعوم. والدكتور "راڤ" تأكّد من فشل كلّ ألاعيبه. وكان طبيبان آخران من أعضاء اللجنة قد انحازا، صراحةً، إلى جانب الأُخت، ووقع سائر أعضاء اللجنة في حيرةٍ لم يجدوا منها مخرجًا؛ والمفوّض تبيّن أنّ كلّ ما بذله من أساليب المداهنة، والإهانة، والتهديد لم يُفضِ به إلى أيّ أساسٍ يُقعِد عليه تهمة الخداع التي كان قد أقرّها قبل بدء التحقيق، ولم يكفّ عن الجهاد في سبيل إثبات ما لا وجود له إلاّ في طوايا نواياه الشرّيرة. وبات لا همّ له سوى تبرير مغامرته الفاشلة، حيال السلطات التي قطع لها عهدًا بفضح ألاعيب الرائية. ولذلك دأب على فتّ عضد ضحيّته، وتسريب اليأس إلى عزيمتها، ودفعها إلى الاستسلام دفعًا وإكراهًا، فأكبّ، مدى ثلاثة أيّامٍ متتاليةٍ، على الإمعان في إهانتها بلا هوادةٍ، وإمطارها بأقوالٍ جارحةٍ، يكرّرها بلا كللٍ، مستميتًا في تجريحها، واستفزازها، وزرع الاضطراب في روعها، متّهمًا إيّاها بالكسل، والرياء، والتظاهر بالمرض كذبًا. ولطالما شاطره محاولاته الأثيمة هذه الطبيب الشابّ "بوش"، مسترسلاً في إهانة الأُخت بشتّى الأساليب. وقد حرصت الأُخت على مواجهة هذه الإهانات المغرضة بالصمت المطبق، والصبر، والدعاء الداخليّ من أجل مضطهدَيْها، والتماس الغفران لهما. وكان الربّ يرأف بها، ويهرع إلى مواساتها وشدّ أزرها. فكان الطفل الإلهيّ يتراءى لها لاهيًا بعصاه، مثلما كان يتراءى لها في طفولتها، عندما كانت ترعى الأبقار. بيد أنّها رأته، ذات يومٍ، حاملاً صليبه، واستوضحته عنه، فأوضح: "هذا هو صليبك الذي تأنفين من حمله". وكانت تلك الرؤى تزوّدها بالقوّة. وحينئذٍ كانت تطلب من رئيس اللجنة أن يطرح عليها ما لديه من أسئلةٍ، كان قد أرجأ طرحها بحجّة ما

نالها من وهنٍ، مؤكّدةً قدرتها واستعدادها للإجابة عليها. وقد صرّحت، بهذا الشأن: "قبل استجوابي كنتُ منهارةً، ولكن في أثناء استجوابي، كنت أكتسب قوّةً، مع أنّ تلك الأسئلة كانت غريبةً، وغالبًا مضحكةً، بحيث لم أكن أتمالك عن الإغراق في الضحك، أحيانًا...".

يوم الجمعة، ٢٧ آب، قال لها الطبيب الشابّ الوقح "بوش": يجب أن تنـــزف جراحك، فاجعليها تنـــزف كي نفرغ من هذه المهمّة، وإلاّ فلا فائدة من وجودنا". فأجابته: "أنا لا أملك هذه القدرة. كان عليكم أن تحضروا، من قبلُ، كي تشهدوا نـــزف الجراح. لو كان باستطاعتي تلبية كلّ رغباتكم بما لديّ من دمٍ لفعلتُ بطيبة خاطرٍ، ولكن ليس لديّ من الدم ما يكفي لإرضاء كلّ رغباتكم".

وكان المفوّض قد قرّر إغلاق هذه القضيّة في ذلك اليوم، فجاءها عند الساعة العاشرة صباحًا، واستفاض في تهديدها، آملاً إكراهها على الاعتراف بما يريد أن تعترف به، كذبًا. ثمّ عاد عصرًا، وأمر الحارسة بالخروج من الحجرة، وأغلق بابها، وأمعن في قرن التهديد بالتخرّصات، مدّعيًا أنّ الكهنة الفرنسيّين اعترفوا باصطناعهم الجراح، وبنشر الخديعة، فما عليها إلاّ الاعتراف، هي أيضًا. واكتفت الأُخت بالردّ: "لا أستطيع سوى تأكيد ما سبق لي قوله". فتصاعدت لهجة وعيده، ولكنّها لم تلقَ أثرًا على الضحيّة، فانقلب المفوّض إلى لهجة المصانعة والهدوء، وجرى بينهما الحوار التالي:

– "لن ينالك سوءٌ. إن شئتِ لأنهينا كلّ شيءٍ في الحال. ولا تخشي شيئًا، فسنُعنى بك وبجميع ذويك. نحن لا نبتغي لك ولهم إلاّ الخير.

– "يستحيل عليّ الاستجابة لطلبك، لأنّه كذبةٌ حقيرةٌ.

– "أقرّي! إن لم يكن الفرنسيّون هم الذين اختلقوا هذه الخدعة، فالألمان هم صانعوها. ولكن لا، فليس لدى الألمان من الخبث والحنكة ما يمكّنهم من مثل هذه الألاعيب. اعترفي، على الأقلّ، بأنّك أنت من أسال الدم من رأسك، حديثًا.

– "هذا أيضًا كذبٌ. إسأل الحارسة، وحتّى المحقّقين الذين شهدوا النـــزف.

– "لا شأن للحارسة في ذلك. وطبيبك الطيّب "زومبرونيك" هو، أيضًا، لا يكفّ عن تأييدك.

– "إنّك تُتعب نفسك بلا طائلٍ. أنا أرى ما ترمي إليه، ولكن بلا جدوى. فلن تحصل على شيءٍ ممّا تبتغيه.

– "يا لك من مرائيةٍ حقيرةٍ، ومن محتالةٍ لئيمةٍ! أنا أعرفك، وقد راقبتك عن كثبٍ، ولطالما جسستُ نبضك، وانتهيت إلى قناعةٍ بأنّك تمتلكين القوّة عندما تريدين وتبتغين.

لزمت الأُخت الصمت، ولم يقوَ المفوّض على احتمال البراءة الصامتة، الساكنة، وانفجر، ثانيةً، يصيح:

– "أترفضين الإجابة عليّ؟

– "ليس لديّ ما أقوله لك. فأنت لا تبحث عن الحقيقة. إنّي أخاف منك أكثر من خوفي من جهنّم. ولكنّ الله معي، فلن تستطيع إرغامي على شيءٍ، مع شتائمك وتهديداتك".

– "ومع ذلك فجراحك خدعةٌ، وستظلٌّ خدعةً، فاعترفي بذلك. هذا الأمر لا يمكن أن يأتي من الله، فالله لا يقوم بمثل هذه الأعمال، وأنا أرفض إلهًا يقوم بها. أنا أُقدّم لك خمرةً صافيةً. فأيّ ضميرٍ يقودك؟ أنا لديّ مآخذ على ذاتي. ولكنّي آبى أن تكوني، أنتِ، أداة تغيّري.

– "إنّك تقدّم لي حنظلاً، لا خمرةً. تريد دفعي إلى التهلكة. ولكنّ الله يحميني، وستنتصر الحقيقة. وبعد الآن، لم يبقَ لي ما أقوله لك".

حينئذٍ صمتت، وأشاحت عنه، فانسحب منذرًا: "سيسبّب لك ذلك أذًى فادحًا، ولكنّي أمهلك حتّى الغد كي تُعملي الفكر مليًّا. فتعقّلي!"

هذا اللقاء الشاقّ استغرق ساعتين. وما إن انصرف المفوّض حتّى هرعت الحارسة التي كانت قد تابعت الحوار من الغرفة الملاصقة، مذرّفةً دموعًا حرّى،

فاركةً يديها. كانت تسعى إلى مؤاساة الأُخت إيمّيريك، ولكنّ هذه الأخيرة هي التي شدّدتها، وبرهنت لها كم شدّد الله خادمته.

يوم ٢٨ آب، أرسل إليها المفوّض من يحاول ثنيها عن عنادها، ثمّ وافى بنفسه بجيش غيظًا، ولم يضنّ بأيّ وسيلة كذبٍ، وتجريحٍ، واتّهامٍ باطلٍ، واستمرّ يصيح مدى ساعتين. ولكنّ الأُخت واجهت غضبه وصياحه بصمتٍ مطبقٍ. وخلص إلى القول: "لقد نفد صبري هذا المساء ستُبعدين عن هذا المكان".

حينئذٍ فقط كسرت الأُخت صمتها وقالت: "ألديك، حقًّا، هذه السلطة المطلقة؟ فلطالما أكّدت في أنّك خادمُ الدولة، الخاضع، كلّيّةً لأوامرها". فقاطعها قائلاً: "سأشرع بتدوين تقريري، فقد اتّضحت لي القضيّة كاملةً، وتيقّنتُ أنّك لا تستطيعين الاعتراف، لأنّك مُقيّدةٌ بأيامينَ رهيبةٍ. ولكنّي سأوضح كلّ شيءٍ. والآن عليك مغادرة "دولمن".

– "افعل ما يحلو لك، بلا وجَلٍ ولا تردّدٍ. أنا لا أخشى شيئًا. إنّك تدّعي كونك مسيحيًّا وكاثوليكيًّا. ولكن أيّ دينٍ هو دينك؟ تراني أتلقّى القربان المقدّس ومع ذلك تتّهمني برسم علامات الفداء على ذاتي، كي أخدع الآخرين. وتدّعي أنّني مقيّدةٌ بأيامين، وأخفي في داخلي هذه الكذبة، بل هذه الجريمة الرهيبة! فما هو دينك؟".

انسحب المفوّض، ولكنّه عاد بعد ساعةٍ، وفي يده قرطاسٌ مكتوبٌ، واستأنف دور التمثيل، سائلاً: "هل عليّ أن أُرسل التقرير؟ ما زال لديك فسحةٌ لإعمال الفكر".

– "أجل، أرسل تقريرك.

– "إنّي أُنذرك. فكّري مليًّا.

– "باسم الله، فليمض تقريرك حيث يشاء.

– (بلهجةٍ جادّةٍ) "مرّةً أُخرى، أسألك هل يجب أن أُرسل التقرير: فكّري بالعواقب.

– "نعم، أرسله، باسم الله".

وانصرف المفوّض ممطرًا عليها الشتائم. غير أنّه عاد مرّتين مكرّرًا ألاعيبه، حتّى كلَّ، فغادرها مهدّدًا، فيما كانت هي تراقب، بنظرةٍ ثاقبةٍ وبسكونٍ تامٍّ، هذا الدور السخيف المعدّ بإتقانٍ، واستطاعت أن تهدّئ روع حارستها التي استحوذ عليها اضطرابٌ شديدٌ.

وللمرّة الأولى. منذ بدء هذه المحنة، نعمت الأُخت بنومٍ هادئٍ مريحٍ، مدى ساعتين. وفي صباح اليوم التالي، عاد المفوّض وسألها هل ترغب في المغادرة، فأجابت أنّها راغبةٌ في العودة إلى منـــزلها. فحاول إيهامها بتعذّر ذلك، لأنّ عليها مغادرة المدينة، فرفضت. وبعد لأيٍ وافق على عودتها إلى مسكنها بشرط وعدها بإعلامه، حالما تنـــزف دماء جراحها ثانيةً، فوعدت. ولكنّه اقتضى أن توقّع له ورقةً ضمانًا لوعدها. وكانت رغبتها العارمة في استعادة حرّيّتها ومسكنها من الحدّة بحيث وقّعت الورقة التي قدّمها لها، من غير تدقيقٍ لمحتواها. وقد تبيّن، لاحقًا، أنّ الورقة تضمّنت تعهّدًا بإطلاعه على كلّ تطوّرٍ يحدث في حالتها الصحّيّة، وتفويضًا له بتكذيب كلّ ما سيُعلن عنها، ولم يكن قد أُحيط به علمًا، تكذيبًا رسميًّا وعلنيًّا.

وما إن أمست الورقة الموقّعة بين يديه حتّى تطوّع لإعادتها بنفسه إلى مسكنها، ولم يتركها حتّى سلّمها إلى السيّدة المكلّفة بالعناية بها، في مسكنها.

وبعد مضيّ بضعة أسابيع، دخل إلى حجرتها، خلسةً بلا استئذانٍ، فكاد يغمى عليها، لو لم يتداركها الله بعونه. وتصنّع المفوّض المودّة، والصداقة، والنوايا الطيّبة. وشكا لها، باكيًا، وضع زوجته المصابة بسرطان الثدي، قبل أن يسفر عن دافع مجيئه، إذ قال: "يبدو أنّ جراحك لم تنـــزف منذ عودتك، وإلاّ لكنت أعلمتني". ورجاها أن توعز إلى أصدقائها ومواليها الإحجام عن نشر أيّ خبرٍ عنها، لئلاّ تنقلب كتاباتهم شرًّا عليها. فأكّدت له أنّ أصدقاءها لا ينشرون رأيهم فيها، وإن كان ثمّة غرباء ينشرون أنباءً عنها، فذلك يتمّ خارج معرفتها، وبالتالي لا تملك حيلةً لمنعه.

وأخيرًا، حاول المفوّض، مداهنتها، مدّعيًا تعاطفه مع آلامها، وسعيه إلى خيرها، ولكنّها صدمته بإعلانها عدم تصديقه، وبيقينها أنّه إنّما يبتغي لها شرًّا. ولكنّه جهد

في دفع الشبهة عن نفسه، وإقناعها بالابتعاد عن ذلك المكان حيث المحيطون بها يؤذونها، وحيث الكهنة الفرنسيّون يضلّلونها ويضلّلون الجميع، حسب اعتقاده، وواعدًا بتوفيره لها ولأخيها كلّ ما يلزمهما، إذا هي غادرت ذلك المكان. غير أنّها دحضت كلّ مزاعمه، مؤكّدةً أن لا رغبة لديها إلاّ في الهدوء، وأنّ أخاها راضٍ بفقره، وكلاهما زاهدان في ماله. ولكنّ المفوّض حذّرها من عواقب رفضها نصيحته. فردّت أنّ اعتمادها هو على الله وحده، وهو حسبُها.

ومع ذلك لم يتحرّج المفوّض من الإعلان، بعد بضعة أسابيع، أنّ الأُخت إيمّيريك شكت له من المضايقات التي تطاردها في مكان سكنها، وأنّها عازمةٌ على الانتقال إلى كوخٍ على مقربةٍ من مسقط رأسها، حيث ستقيم مع أخيها، وتنعم بالهدوء الذي سُلب منها. غير أنّه ما لبث أن أعلن، بعد فترةٍ وجيزةٍ، أنّ ما تدّعيه من حَدَثٍ سماويٍّ، هو منافٍ للطبيعة، وغير جديرٍ بالتصديق، ما لم يكن بجملته، خدعةً أسهمت هي فيها، أو أُخضعت لها بالإكراه. ومع ذلك كان يلازمه شعورٌ دفينٌ بأنّ الأُخت بريئةٌ ومظلومةٌ، ولا يقوى، كلّما رآها، إلاّ على إلقاء السلاح الذي كان يعتزم القضاء به عليها.

وفي هذه الأثناء كان معظم المسؤولين الكنسيّين يصفون ما يحدث لتلك الراهبة بالظاهرة الإلهيّة الخارقة والنادرة، ويؤكّد العديد من الأطبّاء والمستشارين الطبّيّين أنّ سمات الصلب المتجلّية عليها هي واقعٌ معجزٌ لا مجال للشك فيه.

ومع ذلك لم يكفّ أصحاب النوايا الملتوية، رافضو الإيمان بكلّ خارقٍ للطبيعة، عن اختلاق ألوانٍ من التخرّصات والتخيّلات، محاولين إظهار الحدث الإلهيّ بمظهر الغشّ والخداع، وجاهدين في إقعاد ادّعاءاتهم على حججٍ واهيةٍ، وعلى مزاعم جوفاء، وكلّما أعيتهم الحيلة والحجّة لجأوا إلى نعت الحدث بالعمل الشيطانيّ.

ولا ريب أنّ تلك الحملة الجائرة الرعناء قد جرحت الأُخت في الصميم. غير أنّ العناية الإلهيّة كانت دائمة السهر على تعزيتها وشدّ أزرها، وعلى دحض

الافتراءات التي تتناولها، والتي لم يبرأ من الإسهام في إشاعتها أعضاءٌ من الإكليرُس، وزميلةٌ لها سابقةٌ في الدير.

وقد شهد طبيبٌ مشهورٌ من "منستر": "لقد أكّد الجميع أن "أنّا كاتارينا إيمّيريك"، قد ساقت، منذ صباها (وهي اليوم في الرابعة والأربعين) سيرةً بريئةً، طاهرةً، هادئةً، خفيّةً، وأنّها لم تغنم أيّة فائدةٍ (مادّيّةٍ) من وضعها الاستثنائيّ".

وقد أعلن كثيرون من وجهاء المنطقة استنكارهم الغاضب لإخضاع حمامةٍ وديعةٍ، نــزيهةٍ، متشبّثةٍ بالزهد، والبعد عن الأضواء، والصمت، لحجز السلطات لها مدى ثلاثة أسابيع، ولتحقيقٍ صارمٍ قلّما يُخضَع لمثله مجرمون عتاةٌ؛ وعدّوا ذلك التصرّف امتهانًا لكرامتهم الشخصيّة، وأعلن رجال قانون أنّ هذا الفعل المنكر هو خرقٌ للقانون العامّ، إذ لا يجوز لسلطةٍ مدنيّةٍ إخضاع راهبةٍ تعيش منعزلةً عن العالم، لتحقيقٍ في ظاهرةٍ لا شأن لتلك السلطة بها.

وعقب الإفراج عنها زارها طبيبٌ من "دولمن"، ووصف ما شاهده بقوله:

"رؤيتها أفزعتني. لم تكن إلاّ هيكلاً عظميًّا. عيناها مطفأتان، وجهها شديد النحول يلوح عليه شحوب الموت. غير أنّ فكرها هادئٌ ونشيطٌ، وكلامها مليءٌ عزيمةً. وقد غمرنا دهشةً وأسًى وألمًا ما روته لنا عن معاناتها، وزارها الطبيب، بعد يومين فوجد نبضها خافتًا، وأطرافها باردةً برود الجثث. وعادها في اليوم التالي، فشاهد على محيّاها مخايل الاحتضار. وكانت تتقيّأ سائلاً كريه الرائحة. وقبل مغادرته لها سألها هل تضمر ضغينةً لمضطهديها، فأجابت بابتسامةٍ عذبةٍ. وخيّل إليه أنّها ستلفظ أنفاسها الأخيرة في غضون دقائق. وقد لبث كاهنٌ إلى جانبها كي يزوّدها بمسحة المحتضرين، إذا اقتضى الأمر. ولكنّها بعد خمسة أيّام، تناولت واستعادت شيئًا من قواها".

كانت محنة احتجازها قد انتهت، وبمعونةٍ إلهيّةٍ نجت من الموت، فاستأنفت كفاحها الروحيّ، وأوحى لها الربّ أنّ كلّ ما عانته من اضطهادٍ يمهّد لإقرار جميع

مضطهديها بخطئهم. وبات عليها إكمال جهادها بصبرٍ، والتكفير عن خطاياها وخطايا العالم، وإصلاح ما يراه الله عيبًا ونقيصةً، بأعمالٍ بطوليّةٍ، مطهِّرةً بنار الحبّ أكثر ممّا طهّرت، حتّئذٍ، بنار الألم، وبمشاركة قدّيسين سابقين يؤلّفون مع الأحياء سلسلةً متّصلةً. هذا الشعور بالاتّحاد والتضامن مع جميع الأبرار كان يخرجها من نوبات الإحباط التي تنتابها، ويعينها على تحمّل المزيد من المعاناة، التي كانت تراها تنمو كالأغصان التي تشتدّ وتقوى كلّما شُذِّبت.

وكانت تكتشف علاقةً وثيقةً بين ما تُسام من اضطهادٍ، وما يُوَجّه من مقاومةٍ وعداءٍ للكنيسة وللحياة المسيحيّة الحقّة، وكلّ ما يتوجّب عليها مواجهته بالألم والصلاة. وكانت تحزنها رؤية العداء للكنيسة يتفاقم ويشتدّ، فيما الكهنة غارقون في سباتٍ، وكلّ ما يفعلونه لا يتخطّى كونه خيوط عنكبوتٍ.

وفي إحدى رؤاها تولّى الله نجدتها، ومعه جميع تلاميذه الذين انتقى منهم اثني عشر فردًا، شيوخًا ممتلئين بساطةً، وشبّانًا مفتولي السواعد يضجّون همّةً، وأرسلهم بعيدًا، في كلّ الاتّجاهات، وواكبهم بنظره، أثناء رحلاتهم البعيدة بين الأمم، وفيما كانت الأُخت تقول في سرّها: "وا أسفاه، ما عسى هذا العدد الضئيل أن يعمل وسط لجّة جموعٍ لا يُحصى عديدها؟!"، ردّ الربّ على تساؤلها بقوله: "ستدوّي أصواتهم بعيدًا، وفي جميع الأنحاء. والآن أيضًا، يُرسَل رجالٌ ونساءٌ كُثُرٌ، وسيفعلون ما فعله الأوّلون. راقبي ما حقّقه الإثنا عشر من خلاصٍ! إنّ الذين أرسلهم اليوم، في حقبتك هذه، سيؤتون الحصاد عينه، مهما بدوا مجهولين ومحتقرين".

وكانت الأُخت تتوقّع هجماتٍ جديدةً أشدّ شراسةً من سابقاتها، فتتأهّب لها بالصلاة، وهي تجيل في خاطرها: "ما الذي يستطيع هؤلاء الناس عمله بي؟ إن كان بوسعهم تمزيق جسدي، فها أنذا أسلّمه إليك يا مخلّصي. أنا خادمتك، يا ربّ". وحينئذٍ كانت تخطر لها رؤى تبيّن لها ما تستطيع فعله من خيرٍ، مهما افتقرت إلى عونٍ بشريٍّ.

وفي تواضعها، كانت تتساءل ما الذي فعلته كي تستحقّ كلّ ما تُسام من آلامٍ وإهاناتٍ تزيدها تشبُّهًا بالمخلّص وآلامه، وتقدّم آلامها غفّارةً عن مضطهديها وعن خطايا الآخرين، وتسأل أن تتألّم تكفيرًا عن آثام الخطأة، فتغزوها آلامٌ مضنيةٌ من كلّ لونٍ، منها شعورٌ بالتخلّي الكلّيّ، أو حمّى حارقةٌ تشعر معها أنّها على شفا الموت، إذ كان لسانها يلتصق بحنكها، وتعجز يداها عن تناول كأس الماء الموضوع إلى جانبها. وكانت الأوجاع المنبعثة من قدميها وجنبها تستدرّ دموعها، وتفقدها الوعي. ويساورها شعورٌ بأنّ آلاف الإبَر والدبابيس تُغرَس في كلّ أنحاء جسدها، وأنّ النار تلتهب في داخلها، وفي خارجها، وأنّ حنجرتها تتمزّق. ومع ذلك، كانت كلّما أُحيطت علمًا بخطيئةٍ ارتُكبت، تسأل الله أن يسمح لها بالتكفير عنها، وكلّما تنامى إلى سمعها أنّ إنسانًا يتألّم، تسأل تخفيف آلامه بآلامها.

وعندما كانت الآلام تهدّها، ويحاول المجرّب الشرّير إسالة اليأس إلى نفسها بتضخيم وقع الآلام عليها، كانت تعقد العزم على احتمال آلامها مع الربّ يسوع، الذي كان، حينئذٍ، يتراءى لها حاملاً صليبه، مهدودًا، شاحبًا، يكاد يهوي أرضًا، فتندم على كلّ ما راودها من وجَلٍ وتردُّدٍ، وتلقي طرف صليب يسوع على كتفها، فتستعيد مناعتها، وتتقوّى بحبّ يسوع.

رؤى عن سيرتها الذاتيّة

يوم ١٨١٨/١٢/١٥، فيما كانت في حالة انخطافٍ، وضع "الحاجّ" على صدرها ذخيرةً كانت الأُخت قد أعلمته أنّها تعود للقدّيس الألمانيّ "لودجر" (Ludger)، وأنّها تحتوي قشور جراحه ضمن مغلّفٍ. وفي الحال شعرت بمفعولها، ومع أنّها لم تخرج من انخطافها، قالت:

"يا له من راعٍ عظيمٍ! جثمانه يثوي في كنيسة بلدتي العتيقة. ولكنّ هنا، أيضًا، شخصًا آخر، لم أرَه منذ زمنٍ طويلٍ. إنّه لأمرٌ غريبٌ وغامضٌ! إنّها راهبةٌ

تحمل سمات الصلب، وهي من الراهبات الأوغسطينيّات، ترتدي مثل ما كنت أنا أرتديه. ولا بدّ أنّها ما زالت حيّةً ومتواريةً في زاويةٍ ما. وكم ما زال عليها أن تتألّم! إنّها لي نموذجٌ يحسن الاقتداء به. فكلّ آلامي لا تساوي شيئًا مقارنةً بآلامها. والمستغرب أنّها، ظاهريًّا، فرحةٌ، ولا أحد يلمّ بمدى آلامها. ويبدو أنّها هي نفسها لا تدرك ذلك. إنّها محاطةٌ بالعديد من الناس والأطفال، ويُخيَّل لي أنّني أعرفهم... كم قلبها مجروحٌ! إنّه محاطٌ بإكليل شوكٍ أُحدثت فيه آلاف الثقوب... كثيرون يتجسّسون عليها خفيةً، ويفترون عليها. وهي مضطرّةٌ إلى احتمال كلّ شيءٍ، حتّى ما يجري بعيدًا عنها. ومع ذلك، كم هي ساكنةٌ وفرحةٌ! تتوثّب كالأيّل، وتشعرني كم أنا جديرةٌ بالرثاء".

وفي اليوم التالي، روت للحاجّ تفاصيل رؤياها، متسائلةً هل في ديرها راهبةٌ مجهولةٌ تنطبق عليها الأوصاف التي رأتها. فقال لها "الحاجّ": "ربّما هي صورةٌ لك تظهر كيف كنتِ ستتحمّلين آلامك لو كنت كاملةً، وفي الآن عينه، تظهر لك النعم التي أغدقها عليك الله، ولم تقدّريها حقّ قدرها، أو غفلتِ عنها".

ونـــزولاً عند رغبة "الحاجّ"، واصلت سردها لرؤياها، فوصفت وصفًا دقيقًا كلّ مراحل حياتها، ظانّةً أنّها تتحدّث عن راهبةٍ رأتها في أثناء انخطافها، ولا معرفة لها بها. وسردت أحداثًا جرت لها، لم يكن قد اطّلع عليها أحدٌ، من قبلُ.

وفضلاً عن ذلك، وصفت أهرامات مصر، وصْفًا بالغ الدقّة. وقالت عن يهود الحبشة إنّ كثيرين منهم بسطاء وورعون، وهم، إذا قورنوا بيهود ألمانيا، ذهبٌ في مقابل نحاسٍ أو رصاصٍ، ولكنّهم منقادون للخرافات وللعديد من الممارسات المريعة، وأعمال السحر، وقذرون قذارةً هائلةً.

صراعٌ في كنيسة القدّيس بطرس

١٨١٩/١٢/٢٧، روت:

« رأيت كنيسة القدّيس بطرس، وحشدًا هائلاً من المُكبّين على تدميرها، فيما آخرون دائبون على إصلاحها.صفوف الدائبين على الهدم كانت تمتدّ على مساحة البسيطة كلّها. وقد أدهشني إجماعهم على هذه المهمّة. كانوا ينتزعون قطعًا كبيرةً من البناء، ومعظمهم أصحاب بدعٍ ومرتدّون، وعملهم التدميريّ يندرج وفق أوامر وخططٍ معدّةٍ مسبّقًا. كانوا يرتدون وزراتٍ بيضاء، موشّاةً بشريطٍ أزرق، ولها جيوبٌ، وقد علّقوا فؤوسًا بأحزمتهم. ألبستُهم شديدةُ التباين أشكالاً وألوانًا. بينهم أشخاصٌ مرموقون، مديدو القامات، منتفخو الكروش، متّشحون بأزياء رسميّةٍ تزيّنها صلبانٌ. لم يكونوا يقومون بأعمال التدمير بأيديهم، بل يكتفون بتعيين المطارح التي ينبغي هدمها، بواسطة فؤوسهم. وقد راعني أن أرى بينهم كهنةً كاثوليكيّين. وكان الهدّامون، كلّما وقعوا في حيرةٍ، يسترشدون بأحد أولئك، كان يمسك كتابًا ضخمًا. ويبدو أنّه كان خبيرًا بأساليب البناء والتدمير. وحينئذٍ كانوا يرسمون بفؤوسهم الأماكن التي تسهّل التدمير. وكان الهدّامون يعملون، خلسةً، ولكن بهدوءٍ وثقةٍ، ويُحكمون المراقبة.

ورأيت البابا يصلّي، محاطًا بأصدقاء زائفين، كانوا، غالبًا ينفّذون نقيض ما يأمرهم به. ورأيت رجلاً قصير القامة، أسود لون البشرة، علمانيًّا، مكبًّا على التدمير باندفاعٍ ونشاطٍ. وفيما كان أحد جوانب الكنيسة يُدمّر، كان الجانب الآخر يُصلَح ويُعاد بناؤه، ولكن بلا اندفاعٍ. ورأيت عددًا من رجال الإكليرُس الذين أعرفهم. وسررتُ لرؤية النائب الأسقفيّ الذي مرّ بالهدّامين، بلا وجَلٍ، وأمرهم بصيانة الكنيسة، وإصلاح ما دُمِّر منها. ورأيت معرّفي يجرّ حجرًا ضخمًا جاء به من بعيدٍ، ورأيت آخرين آتين بحجارٍ صغيرةٍ أخفوها في ثنايا معاطفهم وقدّموها لآخرين وكأنّها آثارٌ نادرةٌ، فيما كانوا يطالعون سواعيّتهم شاردي الذهن. وبدوا، جميعهم، مفتقرين إلى الثقة والاندفاع، وصحّة الأسلوب، ولكأنّهم

يجهلون جهلاً تامًّا حقيقة ما يحدث، في حين كان الواقع مريعًا. فقد هُدّت واجهة الكنيسة، ولم يسلم سوى الهيكل وبيت القربان المقدّس.

ورأيت سيّدةً تفيض جلالاً تغشى فناء الكنيسة، مرتديةً معطفًا واسعًا، ارتقت في الجوّ على مهلٍ، وحطّت على القبّة، وغطّت الكنيسة كلّها بمعطفها الذي بدا متألّقًا كالذهب. استحال عليهم التقرّب من الحيّز المغطّى بالمعطف. ولكن، بالمقابل، أقبل العديد من الشبّان الأقوياء، الأشدّاء، ونساءٌ وأولادٌ، وكهنةٌ، وعلمانيّون، وما لبث البناء، أن رُمِّم. ورأيت حبرًا أعظم جديدًا، أكثر شبابًا، وأشدّ عزيمةً وصرامةً من سلفه، يوافي في موكبٍ حافلٍ، ويُستقبل في كثيرٍ من الأُبّهة. كان يعتزم تكريس الكنيسة، ولكنّني سمعت صوتًا يقول أن لا داعي لتكريسٍ جديدٍ، إذ لبث القربان المقدّس في مكانه. واحتفل البابا بمناسبتين: يوبيلٍ كنسيٍّ، وترميم الكنيسة. وكان الحبر الأعظم قبل البدء بالاحتفال قد أمر مرافقيه أن يُبعدوا عن جماعة المؤمنين، ثلّةً من الرؤساء الكنسيّين ومن الكهنة، وأحاط ذاته بمعاونين جُدُدٍ، إكليريكيّين وعلمانيّين. وحينئذٍ، استُهلّت الاحتفالات. غير أنّ مرتدي المآزر البيضاء واصلوا مهمّة التدمير، بلا ضجيجٍ، وبحذرٍ، كلّما اطمأنّوا إلى إفلاتهم من المراقبة، ولكنّ الخوف والترقّب لازماهم. »

وفي اليوم التالي، روت الأُخت:

« من جديدٍ رأيت كنيسة القدّيس بطرس بقبّتها العالية، والملاك ميخائيل على قمّتها متألّقًا، متّشحًا بثوبٍ أحمر ناريٍّ، ممسكًا راية كفاحٍ كبيرةً، وعلى الأرض كان يحتدم صراعٌ حادٌّ. إذ كان خضرٌ وزرقٌ يصارعون بيضًا، يعلو كتائبهم سيفٌ أحمر متوهّجٌ. غير أنّهم بدوا مهزومين. ولكن كان المقاتلون جميعهم يجهلون سبب القتال. وكانت الكنيسة مخضّبةً باللون الأحمر القاني، مثلما كان شكل الملاك. وقيل لي إنّها ستُغسَل بالدم. وكلّما اشتدّ القتال وتمادى، كان لون الدم يشحب، ويكتسب، شيئًا فشيئًا نقاءً ونصاعةً. ورأيت الملاك يهبط نحو مرتدي الثياب البيضاء، ويتقدّم صفوفهم، فتملّكتهم جرأةٌ مدهشةٌ لم يدركوا

منشأها. وكان الملاك هو الذي يوسع الأعداء ضربًا، فيفرّون من كلّ جانبٍ. وتوارى السيف الناريّ من فوق رؤوس البيض المنتصرين... وطاف العديد من القدّيسين في الجوّ، فوق ساحة المعركة، مشيرين بأيديهم إلى ما ينبغي فعله. كانوا فئاتٍ مختلفةً، ولكن يحدوهم الهمّ عينه، ويدفعهم روحٌ واحدٌ.

"لمّا انحدر الملاك من قمّة الكنيسة، رأيتُ فوقه صليبًا كبيرًا مضيئًا، كان المخلّص معلّقًا عليه. ومن جراحه، كانت تنبعث حزَم نورٍ متوهّجٍ تنتشر فوق العالم. جراحه كانت حمراء، تحاكي أبوابًا متألّقةً، ويعكس وسطُها لون الشمس. لم يكن رأسه مكلّلاً بالشوك، ولكن من كلّ جراح رأسه كانت تنطلق أشعّةٌ أفقيّةٌ صوب العالم. جراح يديه وقدميه وجبينه كانت تعكس ألوان قوس قزح، وكانت تنشطر، تارةً، إلى خطوطٍ رقيقةٍ جدًّا، وأحيانًا تتجمّع، وتطال قُرى، ومدنًا، وبيوتًا، على كلّ مساحة الكرة الأرضيّة. كنت أراها هنا وهناك، أحيانًا من بعيدٍ، وأحيانًا عن قربٍ، تهوي فوق محتضرين، وتجتذب نفوسًا كانت بمجرّد اندماجها بالأشعّة الملوّنة، تلج إلى داخل جراح الربّ. وكانت أشعّة جرح الجنب تنسكب على الكنيسة القائمة تحتها، انسكاب تيّارٍ غزيرٍ عريضٍ، يضيء الكنيسة. ورأيت معظم النفوس تلج إلى الربّ من خلال تيّار الأشعّة ذاك.

"ورأيت، أيضًا، قلبًا متألّقًا بلونٍ أحمر يطوف على سطح السماء، باعثًا درب أشعّةٍ بيضاء تقود إلى جرح الجنب، ودربًا آخر ينسكب على الكنيسة، وعلى بلدانٍ عديدةٍ. وكانت هذه الأشعّة، أيضًا، تجتذب عددًا وفيرًا من النفوس التي تلج إلى جنب يسوع من خلال القلب، والدرب المضيء. وقيل لي إنّ ذلك القلب هو مريم. وفضلاً عن تلك الأشعّة، رأيت سلالم تنحدر من كلّ الجراح نحو الأرض. ولكنّ بعضها لم يكن يصل إلى سطحها.

"وقد بدت تلك السلالم بأشكالٍ مختلفةٍ، منها الضيّق، ومنها العريض، ودرجاتها متفاوتة المسافات ما بينها، فهي أحيانًا متباعدةٌ، وأحيانًا متلاصقةٌ، وعدد السلالم يناهز الثلاثين. وهي على غرار ألوان المطهر، تبدو في البدء

داكنةً، ثم تضحي فاتحةً، مائلةً إلى اللون الرماديّ، تزداد نورًا وتألّقًا كلّما ارتقت. ورأيت نفوسًا عديدةً تثبت، بمشقّةٍ، على تلك السلالم. بعضها كانت ترتقي بسرعة، وكأنّها تتلقّى عونًا، وتصعّد باطّرادٍ، فيما أُخرى كانت تتدافع تدافعًا فوضويًّا، وتهوي إلى درجاتٍ سفلى، وبعضها تتردّى إلى ظلماتٍ مطبقةٍ. وكان الجهد الذي تبذله في سبيل الارتقاء مؤثّرًا، عندما يُقارَن بالانجذاب الفرح الذي ينعم به آخرون. وبدا أنّ الذين يصعّدون باطّرادٍ كانوا ينعمون بمؤازرةٍ خفيّةٍ، فهم كانوا على علاقةٍ بالكنيسة أوثق من الذين كانوا يُعاقون، ويُهملون، أو يهبطون...

"وفيما كان الصراع على الأرض يدنو من نهايته، استعادت الكنيسة لون البياض الناصع، وكذلك الملاك الذي ما لبث أن توارى. وغاب الصليب، أيضًا، وفي مكانه وقفت سيّدةٌ مديدة القامة. متألّقةً، ساطعةً، رافعةً معطفها الذهبيّ المتلألئ. وفي الكنيسة جرت مصالحةٌ اقترنت بشهادات تواضعٍ، إذ تقابل أساقفةٌ وقساوسةٌ، وتبادلوا الكتب. واعترفت البدَع بالكنيسة، إثر انتصارها الرائع، وبفضل أنوار الوحي التي شاهدوا بعيونهم إشعاعها عليها... ولدى مشاهدتي هذا اللقاء استحوذ عليّ شعورٌ عميقٌ بدنوّ ملكوت الله، واستشعرت روعةً وحياةً ساميةً تغمران الطبيعة جمعاء وتأثّرًا قدسيًّا يستولي على البشر أجمعين، كما حدث عندما اقترب زمن مولد المخلّص. وغمرني شعورٌ حادٌّ باقتراب ملكوت الله، بحيث شعرت بدافع إلى الجري للترحيب به، مطلقةً هتافات الفرح...

"أثناء طفولتي كان معلّم المدرسة يقول لنا: "من لا يرى في الكنيسة أمّه، لا يرى في الله أباه". وبعد سنواتٍ تساءلتُ: "الكنيسة مكوّنةٌ من أحجارٍ، فكيف لها أن تكون أُمّي؟ ومع ذلك، من المحقّق أنّها أُمّي". وبغتةً رأيت الكنيسة بشكل امرأةٍ جميلةٍ جليلةٍ، وسألت عن سبب سماحها لأبنائها أن يهملوها ويسيئوا معاملتها، وتوسّلتها أن تعطيني ابنها، فأودعت بين يديّ يسوع الطفل، الذي استرسلتُ في التحدّث إليه. وحينئذٍ سرّني أن تيقّنتُ أنّ مريم هي الكنيسة، وأنّ

الكنيسة هي أُمّنا، وأنّ الله هو أبونا، ويسوع أخونا. وغمرني الفرح لأنّني، في طفولتي، دخلت إلى الكنيسة الأمّ المصنوعة من حجرٍ، وقلت في ذاتي، بوحيٍ إلهيٍّ: "أجل، إنّي أدخل إلى أمّي المقدّسة".

ومن رؤيا الكنيسة، انتقلت "أنّا كاتارينا" إلى رؤيا "أورشليم السماويّة"، وروت:

"رأيت، في شوارع مدينة الله المتألّقة، العديد من القصور والحدائق الرائعة الضاجّة بجموع القدّيسين الذين يسبّحون الله، ويعملون، من فوق، لصالح الكنيسة. لا وجودَ لكنيسةٍ في أورشليم السماويّة، فالمسيح نفسه هو الكنيسة. ولمريم عرشٌ فوق مدينة الله، ومن فوقه عرش المسيح والثالوث الأقدس، ومن هذا العرش يهمي على مريم ندى من نورٍ، تنثره العذراء في كلّ أرجاء المدينة المقدّسة. وتحت مدينة الله، رأيت كنيسة القدّيس بطرس. وكان فرحي طافحًا، لمّا تبيّنت أنّ تلك الكنيسة، رغم لا مبالاة البشر، تتلقّى نور العلاء الحقيقيّ. ورأيت الدروب المؤدّية إلى أورشليم السماويّة، والرعاة القدّيسين يقودون إليها نفوس المختارين المنتقاة من قطعانهم. ولكن، على تلك الدروب لم تكن المواكب كثيفةً.

"ورأيت دربي نحو مدينة الله، ورأيت فيه جميع الذين ساعدتُهم بطريقةٍ ما... ثمّ رأيتُ مراحل حياتي التي كنت فيها مفيدةً، ولو لشخصٍ واحدٍ، بالنصح أو بالقدوة، أو بالمؤازرة، أو بالصلاة، أو بالألم، ورأيت الثمار التي جنوها...".

ولا بدّ من التنويه بأنّ أعمال المحبّة الأشدّ إسعادًا للأخت "إيمّيريك" هي الأشغال اليدويّة التي كانت تضطلع بها، مثل الخياطة والحياكة، وبها توفّر ألبسةً لأولادٍ فقراء، أو لنساءٍ فقيراتٍ، ولا سيّما بمناسبات عيد الميلاد والأعياد الكبرى الأُخرى. وفي هذا السياق، يقول مدوّن سيرتها "الحاج" إنّها كلّما كانت تفرغ من إعداد تلك الهدايا المتواضعة كانت تشعّ فرحًا وسعادةً، ويتألّق محيّاها طهرًا وطيبةً، وفرحةً دفينةً، مثل إنسانٍ يعدّ لصديقٍ مفاجأةً، ويكشف له عن صديقٍ كان مخفيًّا.

لم تكن، قطّ، قسمات وجهها تعبّر عن السعادة مثلما كانت تعبّر عنها عندما كانت تُعدّ ألبسةً وهدايا لأولادٍ فقراء. ولم تتحرّج من الاستعطاء من أجلهم. وكان القوم الذين عهدوا لديها هذا الميل إلى تزويد المحتاجين بالثياب يأتونها بالملابس المستعملة التي لم تعد تلزمهم، فتصلحها كي تلائم فقراء يسعدون بارتدائها، وفي أثناء إصلاحها لها كان يتولاّها انخطافٌ، فتبدو لها تلك الملابس الوضيعة أثمن من أفخر ديباج.

وقد هتفت، أثناء انخطافٍ، عشيّة عيد ميلاد عام ١٩١٩:

"آه! من يستطيع التحديق إلى جمال مريم، وطهرها، وبراءتها منقطعة النظير؟ إنّها تعرف كلّ شيءٍ، ولكنّها تبدو أنّها لا تعي شيئًا، وأنّها مفرطة السذاجة. إنّها تخفي عينيها، وعندما تحدّق ينفذ بصرها نفاذَ شعاعٍ، نفاذ الحقيقة، والنور النقيّ. إنّها كلّيّة البراءة، مليئةٌ بالله، ومجرّدةٌ من ذاتها. ولا أحد يقوى على مواجهة نظرها".

وعن القدّيس يوسف قالت: "ما من كلامٍ قادرٌ على وصف بساطته، وطيبته، وتواضعه، وفي رؤيا عشيّة الميلاد قالت العذراء: "صراعك مع أُختك سيكون شاقًّا، وطويلاً وموجعًا. ولكن اطمئنّي، فمع الكفاح والألم، ستتعاظم القوّة الفائقة. وبقدر ما تحتدّ آلامك، سيكتسب نظرك صفاءً، وعمقًا، وفهمًا..."، وطلبت منها الإفصاح عن كلّ ما يحدث لها، حتّى عمّا تعدّه قليل الشأن، وحتّى إذا بدت أقوالها عنه مفكّكةً، مشوّشةً، لا فائدة منها..."

وظهرت لها قدّيساتٌ أنبأنَها بأنّها ستعاني آلامًا مريعةً، وكذلك فعل ملاكها بصراحةٍ موجعةٍ، ولكنّه أكّد لها، أنّها لن تستسلم، ولن تتعثّر، ولا سيّما أنّها هي التي تستجلب على نفسها هذه الآلام، رغبةً في أخذ آلام الآخرين على عاتقها. وقد شدّدها يسوع، إذ أراها وداعه لأمّه، وانطلاقه إلى بستان الزيتون. وكانت آلام العذراء حينئذٍ مريعةً، فقال لها المخلّص: "هل تريدين أنتِ أن تكوني أفضل حالاً من مريم، أطهر الخلائق، وأكثرها جدارةً بالمحبّة؟ وما هي آلامك مقارنةً

بآلامها؟" وأراها العديد من مواطن البؤس وبؤر الخطايا، ومن المحتضرين غير المستعدّين، وهم ما زالوا في حالة الخطيئة، ودعاها إلى التألّم من أجلهم، حتّى الظهر، فأعلنت تقبّلها الألم بفرحٍ، وظهرت عليها تأثيرات آلامٍ مريعةٍ، ولكن مع اقتراب ساعة الظهر أخذ وجهها المكفهرّ يستعيد انشراحه وصفاءه، وسجوّه، مثلما يتبخّر الماء تحت سطوة أشعّة الشمس، حتّى بدت مثل طفلٍ نائمٍ.

ليلة الثاني من كانون الثاني ١٩٢٠، عاشت، وهي في حالة انخطافٍ، كلّ آلام المخلّص من جلدٍ، وهزءٍ، وحمل الصليب، وإكليل الشوك. ولدى استيقاظها صباحًا، روت، بمشقّةٍ، رؤاها واعترفت أنّها تعرّضت لثلاث هجماتٍ شرسةٍ. وكلّما باتت على شفا الانهيار، كانت تشهد ما احتمله المخلّص، فتستعيد عزيمتها. ورأت طغماتٍ من النفوس التي يُطلَق سراحها من المطهر. وكانت كثيراتٌ منها قد وقعت في هوّة النسيان والإهمال، فاعتراها شعورٌ عذبٌ بالعزاء.

واحتملت الهجمة الثانية من أجل من يأبون الدأب والصبر في سبيل خلاص نفوسهم، ولا يحتملون ما يحلّ بهم من آلامٍ ومحنٍ، وأيضًا من أجل المحتضرين الذين لا يستطيعون نيل القربان المقدّس.

وتألّمت في المرّة الثالثة من أجل الكنيسة. فقد رأت كنيسةً كبيرةً لها برجٌ عالٍ، مبنيّةً بفنٍّ مرهفٍ، في مدينة كبرى، على مقربةٍ من نهرٍ كبيرٍ. وإلى جانب تلك الكنيسة رأت رهطًا من الشخصيّات المرموقة، بينهم العديد من الغرباء، يرتدون وزراتٍ، ويحملون فؤوسًا، وكأنّهم مكلّفون بتدمير تلك الكنيسة، وقد انضمّ إليهم كُثرٌ من أبناء البلد، وحتّى من الكهنة والرهبان. وقد أحزنها ذلك حزنًا هاصرًا، فاستنجدت بالمخلّص، وتوسّلته ألاّ يسمح للعدوّ بالانتصار. وحينئذٍ، رأت خمسة أطياف رجالٍ يدخلون الكنيسة... وتناولوا الأسرار تأهّبًا لإيقاظ الحياة في النفوس. وبغتةً انطلقت شرارةٌ من البرج الذي انتشرت فيه النار منذرةً بإحراق كلّ شيءٍ. ولكنّها أصابت فئةً من الذين يتأهّبون للتدمير، وجرحتهم، وطردتهم

بعيدًا عن الكنيسة التي سلمت ولم تُصَبْ بأذًى. للوهلة الأولى بدا الحريق حاملاً خطرًا مستطيرًا، ولكنّه أدّى، في نهاية المطاف، إلى إضفاء بهاءٍ جديدٍ على الكنيسة، عقب سكون العاصفة. وكان سكّان ذلك البلد قد شرعوا يدمّرون الكنيسة من خلال المدارس التي سرّبوا إليها الإلحاد.

ورأت الأُخت كوارث جسيمةً ومريعةً تنذر الكنيسة... وكان خدّام الكنيسة جبناء، لا يستخدمون القوّة التي يوليهم إيّاها الكهنوت. فلم تتمالك من تذريف وابلٍ من الدموع.

وكانت ما برحت تبكي، وهي تروي هذه الرؤيا، ناعيةً قطعانًا محرومةً من رعاةٍ أوفياء، وحاثّةً الجميع على الصلاة، والتوبة والتواضع، درءًا لجزءٍ من المصائب المنذرة.

خدمة الكنيسة بالصلاة والألم

في شهر تشرين الثاني ١٨٢٠، صرّحت الأُخت إيمّيريك: "لعشرين سنةً خلت اقتادني خطيبي إلى بيت العرس، وأجلسني على سرير الخطيبة، حيث ما زلتُ جالسةً". وبذلك كشفت جزءًا من حجاب الأسرار التي غلّفت عملها الذي اندرج في التأمّل، ولكنّ جذوره، واستحقاقاته، وقيمته، وثماره كانت تنبع من الإيمان.

هذه المهمّة التي دعاها الله إليها، وباشرتها منذ دخولها الدير، ظلّت محفوفةً بالكتمان إلى أن شاء الله، على مشارف غاية مسيرتها، رفع الغطاء عن الدروب التي اقتادها من خلالها، لخير الكنيسة.

في صباها اشتقّت طريقها إلى الدير بالتأمّل والآلام. ومنذ ترهّبها تقبّل الله صلواتها وآلامها في سبيل درء الاضطرابات الناشبة بالكنيسة جمعاء، والتكفير عن كبوات مسؤوليها، ومن أجل تجديدها وتطهيرها المستمرّين، من خلال نفوسٍ سخيّةٍ تتطوّع لمحو أخطاء الآخرين، وتسديد ديونهم.

وكانت الأُخت "أنّا كاتارينا" من القلائل الذين يحقّقون مقتضيات الله من أجل تلقّي أنواره النبويّة. وقد جرى لها ما قاله الربّ لزميلتها الصوفيّة الألمانيّة، "هيلديغارد" (Hildegarde) (١٠٩٨-١١٧٤):

« أنا النور الحيّ الذي يضيء كلّ معتمٍ، دعوتُك بإرادتي، وانتقيتُك باختياري من أجل تحقيق أُمورٍ رائعةٍ، وعلى مستوى أعلى ممّا حقّقتُه بواسطة رجالٍ في الأزمنة السالفة الذين أريتُهم أمورًا خفيّةً. ولكنّني عفّرتُك بالرغام لكي لا تزدهي بكبرياء فكرك، فلا يجد فيك البشر أيّ فرحٍ أو رضًى. وعليك ألاّ تهتمّي بشؤونك، فقد وقيتُك من الادّعاء الأعمى، وملأتك خوفًا، وأرهقتك بالشدائد. إنّك تحملين من الأوجاع الجسديّة، ما لا يدع لك أمانًا، لا بل ستعدّين ذاتك مسؤولةً عن كلّ ما يصدر عنكِ. لقد وقيتُ قلبكِ من الضلال، وكبحته لكيلا يتعالى فكرك كبرياءً، وزهوًا باطلاً. وفي شتّى الأحداث سينتابك من الخوف والأسى أكثر ممّا سيغمرك من فرحٍ ونشوةٍ. اكتبي، إذن، ما ترينَه وما تسمعينه، أنت المخلوقة التي لم تتلقّ، في غمرة الاضطراب والوهم، بل في غمرة الطهر والبساطة، ما هو كفيلٌ بكشف الخفايا".

وقد أقرّت القدّيسة "هيلديغارد" أنّ النور النبويّ لا يُعطى إلاّ في مناخ آلامٍ رهيبةٍ ومستمرّةٍ. وقد قيل، أيضًا، للأخت "أنّا كاتارينا إيّميريك": "إنّ جسمك مقيّدٌ بالألم والمرض، كما يُقيَّد الحمل على الظهر، لكي تستطيع النفس الانصراف إلى العمل بنشاطٍ. فمن ينعم بالصحّة يُكرَه على حمل جسمه، كما يُحمَل عبءٌ ثقيلٌ".

وفي الواقع لم تهتمّ "أنّا كاتارينا"، يومًا، بجسدها إلاّ بصفته أداة تكفيرٍ عن آثام الآخرين وتقدمةٍ من أجل تخفيف وطأة معاناتهم، بدليل أنّها، عندما استوضحها النائب الأسقفيّ، في نطاق التحقيق الكنسيّ معها، كيف جهلت حدوث جرحٍ في جبينها، أجابته ببساطةٍ: "لقد شعرت بحرقٍ في صدري، ولكنّي لم أسعَ قطّ إلى استبيان الأمر. فمنذ طفولتي يتولاّني الخجل من تأمّل ذاتي، ولم أُحدّق إلى جسدي

يومًا، ولم أفكّر به، ولم أعرف عنه شيئًا". فهي لم تكن تفكّر فيه إلا لكي تحرمه من كلّ ما يستطيبه، وحتّى من الضروريّ كالراحة، والنوم، والطعام، ولكي تجلب إليه آلام الآخرين تخفيفًا عنهم. كانت تقدّم هذه التضحيات، وهي في هشاشة صباها، وفي خفيةٍ عن جميع المحيطين بها، وبمنأًى عن كلّ سندٍ بشريٍّ، وعن كلّ مطمعٍ أو قدوةٍ، رغم طبعها المندفع الجيّاش. فأيّة قوّةٍ أودعها الروح في قلبها كي تضطلع بتضحياتٍ لم يُعهد لها مثيلٌ إلا لدى نسّاك الصحارى! لقد أثبتت، بذلك، أنّ القدّيسين وُلدوا حاملين طباعًا وميولاً تحاكي طباعنا وميولنا، ولم يرتقوا إلى القمم التي تسنّموها إلا بفضل جهودٍ بطوليّةٍ وتضحياتٍ مضنيةٍ، وبفضل هذه الجهود والتضحيات نَعِم جسدها بكلّ القوى الكامنة في النفس، واستغنى عن الكثير من مقتضيات الجسد.

وقد عُهد عن الأُخت "إيمّيريك" دفاعها الجريء والصامد عن تقاليد الكنيسة وممارساتها الطقسيّة في وجه كلّ معارضٍ أو منتقدٍ. وقد اعترضت، ذات يومٍ، بحميّةٍ، على ادّعاء "الحاجّ"، كاتب سيرتها، أنّ قرار الكنيسة بإقامة عيد الجسد لا مبرّر له، إذ إنّ تكريم الإفخارستيّا يتمّ كلّ يومٍ في القدّاس.

وعندما كانت تصلّي من أجل متألّمين أو تضمّد جراح مرضى، كان الربّ يريها، أحيانًا، نتائج صلواتها، وأعمال محبّتها، في الواقع.

بتاريخ ١٨٢٠/٧/٧، كتب "الحاجّ" برينتانو: "إنّها تعاني، منذ أيّامٍ عديدةٍ، آلامًا يتعذّر وصفها. وفي هذه الليلة نــزف جنبها بغزارةٍ، وغمرها عرقٌ كثيفٌ... إنّها، اليوم، تشبه شهيدةً، وتعترف بأنّ ما عانته من ألمٍ كان من الحدّة، بحيث صرخت بصوتٍ عالٍ إلى الله، متوسّلةً أن يسكّن أوجاعها، وألاّ تعاني ما يفوق قدرتها على الاحتمال". وقد أقرّت: "يشقّ عليّ احتمال هذه الآلام، عندما أعجز عن مكابدتها بصمتٍ، ممسكةً عن النحيب والتأوّه، لأنّه ينتابني، آنذاك، شعورٌ بأنّني أفتقر إلى القدر الكافي من المحبّة، وأنّ الله لا يستجيب لأدعيتي". كانت

تذرّف وابلاً من الدموع، وهي تتلفّظ بهذه الأقوال، لا تعبيرًا عن أوجاعٍ، بل تذكّرًا لآلام المخلّص، وتقول: "ليس بقدرة عقلٍ بشريٍّ إدراك مدى الآلام التي تكبّدها يسوع منذ مولده حتّى مماته، ولا سيّما على من يراها مثلما رأيتُها أنا".

ويستأنف "الحاجّ" روايته قائلاً: "ما زالت، في هذا المساء، ترتجف من شدّة الألم ولكنّها تتذرّع بصبرٍ مدهشٍ، وهي تفيض حبًّا، وسكونًا، ورقّةً، ويتجلّى عليها، في غمرة أوجاعها، منظر نبلٍ فائقٍ".

وعن آلام المسيح في حياته أفادت: "رأيته وليدًا، ورأيت طغمةً من الأولاد يقدمون إلى المغارة، ويسيئون معاملته، حين لم تكن أمّه موجودةً للذود عنه. أولئك الأوغاد كانوا يأتون مزوّدين بعصيٍّ وسياطٍ من شتّى الأشكال، ويضربونه على وجهه حتّى يدموه. وعندما كان يحاول اتّقاء الضربات بيديه الصغيرتين، كان الأشرار يضربونهما بلؤمٍ. وكان بعض الأهالي هم الذين يعدّون العصيّ لأولادهم، ويجدلون لهم السياط... وفضلاً عن تلك الأدوات كان الأوغاد يأتونه بأشواكٍ، وبقرّاصٍ، وبخيزراناتٍ من كلّ نوعٍ، ولكلٍّ منها معنى خاصٌّ...

"ورأيت يسوع سائرًا مع تلاميذه، مسترجعًا ذكرى الآلام التي كابدها مذ كان جنينًا، وما أنـــزله به الأشرار في طفولته. وفي أثناء تبشيره ذكر ما ألحقه به يهودٌ وفرّيسيّون من خبثٍ ومكرٍ، وقسوة قلبٍ، وعمى بصيرةٍ، وحسدٍ، وتجسّسٍ. وكان يحدّث تلاميذه عن آلامه، ولكنّهم لم يفهموه. ورأيتُ الآلام الداخليّة التي كانت تجول في نفسه، مثل ظلالٍ قاتمةٍ تفيض مرارةً، ترتسم على وجهه الوقور المتجهّم، وتنفذ إلى صدره وإلى قلبه المقدّس، وتمزّقه من كلّ جانبٍ. آلامه تستعصي على الوصف. وقد رأيته شاحبًا، معانيًا بكلّ كيانه. فقد كانت تلك الآلام تنال من نفسه أكثر ممّا نالت، لاحقًا، آلام الصلب. ولكنّه كان يحتملها صامتًا متدفّقًا حبًّا وصبرًا بلا حدود.

"ثمّ رأيته في العلّيّة، وتبيّنتُ فداحة الألم الذي سبّبته له خيانة يهوذا، خيانة أحد رسله الاثني عشر التي كان يؤثر تحمّل أدهى الآلام على معاناتها، ولا سيّما أنّ أُمّه، أيضًا، كانت قد أحبّت يهوذا، ولطالما تحادثت معه، وزوّدته بتعاليمها وإرشاداتها. هذه الخيانة كانت له منبع أكبر ألمٍ. ورأيتُ كيف غسل الربّ قدمي ذلك الخائن، في غمرةٍ من الحبّ والألم، وهو يعلم أنّه سيسلمه، في غضون ساعاتٍ، بحقارةٍ منقطعة النظير، وكيف قال له: "أنجز ما أنت عازمٌ عليه"، بعد أن أطعمه ذاته، ورأيتُ كيف غزت نفسه آلامٌ داخليّةٌ على شكل سُحُبٍ، وأشعّةٍ ملوّنةٍ، وبروقٍ.

ثمّ رأيته يتوقّل، مع تلاميذه، في جبل الزيتون، مذرّفًا الدموع. ورأيت بطرس المغوار المدّعي، الذي توهّم القدرة بمفرده على قهر جميع الأعداء، وكان هذا، أيضًا، يحزنه فقد كان يعرف أنّ بطرس سينكره، أيضًا. ورأيت كيف أوعز لتلاميذه أن يناموا ويستريحوا في بستان الزيتون، محتفظًا بثلاثةٍ منهم تخيّلهم أوفر إقدامًا ووفاءً، ولكنّهم ما لبثوا أن استسلموا للكرى. ورأيته وقد هدّه الألم، ناضحًا عرقًا ودمًا، والملاك يواسيه".

وكانت الأُخت تُكلَّف، في أثناء انخطافاتها، بأعمالٍ يدويّةٍ مرهقةٍ، في كرومٍ وحقولٍ. وكانت تُطلَع على هويّات الأشخاص والمسؤولين الكنسيّين الذي سينعمون بثمار هذه الأتعاب. وقد علّقت على ذلك بقولها: "تبيّنتُ كم ينبغي تحمّل شدائد من كلّ نوعٍ، من أجل إصلاح، وشفاء، واستعادة كلّ شيءٍ، وترميم ما فسد، ودُمِّر، وفُقد، ومُزِّق، وتحويله إلى أداة خلاصٍ... ورأيت العقابات المُعدّة، وجدوى التكفير عن خطايا الآخرين بالألم".

ورأت كيف تولى الشؤون الدنيويّة والجسديّة قدرًا مفرطًا من الاهتمام والعناية، في حين لا تحظى أمور الله إلاّ بإهمالٍ مريعٍ.

وكانت بآلامها وأتعابها تدفع ثمن إنقاذ النفوس الضالّة، وتخفيف أوجاع

المتألّمين. وقد صرّحت: "رأيت أعداد الارتدادات التي تحقّقت بفضل الشهداء. رأيتها على شكل أقنيةٍ كانت توصل إلى آلاف القلوب دم الفداء الحيّ".

ورأت النعم التي تجود بها السماء، بمناسبة الأعياد الليتورجيّة، وقالت: "رأيت هذه النعم تُستقبل على الأرض بفتورٍ، واستخفافٍ... فتتحوّل كنوز الكنيسة هذه إلى مصدر أخطاءٍ جسيمةٍ... ورأيت أنّ كلّ تلك العثرات يجب أن يكفَّر عنها بالآلام... ولكنّني رأيت السيّدة العذراء عاكفةً على إصلاح كلّ ذلك".
وكان يُطلَب منها عصر الأشواك بيدها، واستخراج عسلٍ منها، كانت السيّدة العذراء تغليه وتحوّله إلى دواءٍ يهب المنعة للضعفاء.

كانت تمضي ليالي مريعةً بآلامها، وتنــــزف جراحها بغزارةٍ. ولكنّها، مع ذلك، تنفق ساعات يقظتها في حياكة قبّعاتٍ لأولادٍ فقراء، وضماداتٍ للجرحى. وكانت تضطرّ إلى قضاء ليالٍ جالسةً على سريرها، لشدّة آلام جنبها وقلبها. وكان يحزنها أن ترى الكنيسة، بعد أن تطهّرت بثمن تضحياتٍ وآلامٍ جسيمةٍ تقع ضحيّة كهنةٍ يوسعونها أذىً، ويتقاعسون عن إيصال المواساة والإرشاد، والتعليم الدينيّ، والبركات إلى المحتاجين إليها، مع أنّ يد يسوع تساندهم.

كانت تقدّم آلامها وأتعابها من أجل الكنيسة، ومن أجل المدعوّين إلى الحياة الإكليريكيّة وتسهيل تلبيتهم هذه الدعوة، ومن أجل درء المخاطر التي تهدّد الإيمان، مخاطر ناجمةٍ عن تأثيراتٍ خارجيّةٍ، وخياناتٍ، وإهمال مصالح الكنيسة، والجبن الذي يحوّل خدّام الله إلى خدّام العالم، ويحملهم على مداهنة روح العالم.

وعندما رأت إنــــزال يسوع عن الصليب، واستلام العذراء له بين ذراعيها، هتفت: "يا لمناعة العذراء!" وحينئذٍ سمعت صوتًا يجيبها: "اشعري، إذن، بما شعرتُ به حينذاك!" وفي الحال شعرت باختراق سيفٍ لجسدها من جانبٍ إلى جانبٍ، وفقدت الوعي.

وفي معاناتها كانت غالبًا تتلوّى وجعًا، وتتقلّب على كلّ جانبٍ، ولا تجد الراحة في أيّ جانبٍ. وذات يومٍ، إذ كانت تكابد الآلام وهي في حالة انخطافٍ، دخلت أختُها، وأخبرت أنّ في الخارج متسوّلاً، فأعطاها "الحاجّ" برينتانو نقودًا أدّتها للمتسوّل. وحينئذٍ هتفت الرائية، مع أنّها كانت ما زالت في حالة انخطافٍ: "ما أطيبها! من أين جئتم لي بهذه الحلوى؟". ثمّ ابتسمت وقالت لبرينتانو: "كم أدخلتَ إلى نفسي العزاء بهذه الحلوى! إنّها ثمرةٌ اقتُطفت من شجرةٍ سماويّةٍ، وأُهديت لي".

رحلات المحبّة

كان ملاكها يقتادها، كلّ يومٍ، إلى موقعٍ من الأرض يسعها فيه إغاثة مريضٍ أو فقيرٍ أو خاطئٍ. وكانت الأراضي المقدّسة هي وجهة معظم أسفارها، وكذلك روما حيث تجهد، بآلامها وتضحياتها، للتخفيف من أعباء الحبر الأعظم، ومن همومه. وكانت تزور مواطن القدّيسين في يوم عيدهم، وتطّلع على دقائق سِيَرهم وأسرارها، وكوامنها السامية.

وفي هذا السياق روت: "حيثما قصدتُ كنت أُقتاد إلى المعوزين المهملين، المرضى، المسحوقين، والأسرى. فأُصلّي من أجلهم وأُعزّيهم بمختلف الوسائل. وفي كلّ مكانٍ، كنت أرقب أحوال الكنيسة، وقدّيسي كلّ بلدٍ، وأساقفته القدامى، وشهدائه، وراهباته، ونسّاكه، وبالإجمال جميع الذين، في كلّ بلدٍ، استمطروا عليه نِعم الله... وفي جميع تلك الرؤى، رحبة الآفاق، لم يُسرِّب الفرحَ إلى قلبي سوى رؤيا الكنيسة مبنيّةً على صخرٍ، وأنّ من يحبّ ينتمي إلى الكنيسة، ويتمثّل بيسوع، ويتلقّى منه النعم وينشرها من حوله. وقيل لي إنّ الله، في العهد القديم، كان قد أرسل ملائكته إلى البشر، وعلّمهم بواسطة أحلامٍ، ولكنّ ذلك التعليم كان يفتقر إلى مثل وضوح التعليم الذي ناله المسيحيّون، وإلى مثل اكتماله".

وإلى جانب اللوحات القاتمة على الأرض، كانت ترى: "بذورًا مضيئةً تنبت

لوحاتٍ في بقعةٍ سميا. وفوق كلّ بلدٍ في العالم، كنتُ أرى عالمًا من نورٍ، يعكس ما فعله قدّيسو ذلك البلد له، وما استمطروه عليه، باستحقاقات يسوع المسيح، من كنوز نِعَمٍ. وفوق الكنائس المدمّرة كنتُ أرى كنائس تشعّ نورًا، وأساقفتها، وملافنتها، وجميع محظيّي النعمة... وكلّ سُبُلهم، وعلاقاهم، وما أحدثوه من تأثيرٍ، على مقربةٍ منهم، وبعيدًا عنهم، وحتّى إلى مسافاتٍ قصوى. كنتُ أرى كلّ ما فُعِل، وكيف أُتلِف، وكيف، مع ذلك، لا تبارح البركة الدروب التي سلكوها، وكيف صمد اتّحادهم بوطنهم، وبرعاياهم، من خلال أشخاصٍ أتقياء يصونون ذكراهم، وخاصّةً كيف يبقى رفاهم يفيض بمحبّتهم وبشفاعتهم، بفضل علاقةٍ وثيقةٍ تربطهم بهم. وإنّه ليتعذّر ألاّ يموت المرء ألًما، ما لم يتداركه الله يعونه، وهو يشهد هذا الفيض من المخازي والشرور إزاء تلك المحبّة، وتلك الرحمة.

"وكلّما صدفتُ، في طريقي، مكانًا يقيم فيه شرٌّ، ويرتضي الله إزالته استجابةً لصلاةٍ بشريّةٍ، أُقتاد إلى المعانين منه، وأتبيّن مكمن الشرّ، وأدنو من أسرّة المعانين إذا كانوا نيامًا، وأقترب منهم إذا كانوا مستيقظين، وأُقدّم إلى الله، من أجلهم، صلاةً حارّةً، راجيةً أن يتقبّل منّي ما لا يستطيعون أو لا يعرفون فعله بأنفسهم. وغالبًا ما يتعيّن عليّ أن آخذ على عاتقي ألًما محيقًا بهم، وغالبًا يكونون قد توسّلوا صلوات آخرين أو صلواتي. ثمّ أسعد برؤية أولئك القوم يلتفتون إلى الله الذي يسيل في قلوبهم العزاء.

وقد اتّضح لي أنّ العوز والشدّة الجسديّين أو الروحيَّيْن يصنعهما، غالبًا، الإنسان بيده، من جرّاء انغلاقه، وإلحاده، وانعدام ثقته بالله، عوضًا عن الشعور البنويّ الذي يدفع إلى التوسّل، والتلقّي من يد الله المتأهّب دائمًا للعطاء، والحاضر دائمًا للغوث". وغالبًا ما كان تدخّلها يدرأ كوارث داهمةً.

في سنواتها الأخيرة طافت، بالروح، في معظم أصقاع العالم، ورأت، في كلّ بلدٍ قدّيسيه، واطّلعت على سِيَرهم ورؤاهم، كما رأت شتّى ألوان الآثام والمخازي،

والقتام المنتشرة. وبقدر ما كانت رؤى القدّيسين تنعش نفسها، كانت رؤى الشرور تكاد تقضي عليها كمدًا وأسًى. وفي كلّ تلك المطارح، كانت تقدّم آلامها تكفيرًا عن الإهانات الملحقة بسرّ القربان، والاستهتار الذي يتمّ به تناوله. وإليكم وصفها لما حدث لها، بمناسبة عيد الجسد، عام ١٨١٩:

« طوال الليل ما انفككتُ أجول حول أناسٍ بائسين مفجوعين، أعرف بعضًا منهم، وأجهل آخرين. وسألت الله أن يسمح لي يحمل عبء جميع الذين لم يكن بقدرتهم التقدّم إلى المائدة الإفخارستيّة، بقلبٍ متحرّرٍ وفرحٍ. وحينئذٍ تبيّنت آلامهم، وتلقيّتُها، وألقيتها على كتفي اليمنى. ولكنّ الوقر كان من الثقل بحيث رزح تحته جنبي الأيمن، وهوى صوب الأرض. وقد أخذت من كلٍّ منهم جزءًا من آلامه أو كلّها، وفقًا لما كان بوسعي أن أتلقّى... »

يوم ١٨٢٠/٥/١٧، كانت آلامها قد تفاقمت، واشتدّ شعورها المريع بالتخلّي، وكانت راهبةٌ تعتزم أن تأتيها بزائراتٍ، فأكّدت لها عدم قدرتها على استقبالهنّ، وانتابها إحساسٌ بأن حتّى المحيطين بها لا يرأفون بها، ولا ينفكّون يرهقونها، فيما هي تكاد تلقى نحبها.

وقد زادت آلامها الجسديّة حدّةً، آلامٌ نفسيّةٌ ناجمةٌ، خاصّةً، عن توقها الحارق إلى تناول القربان المقدّس، توقٌ كان يستدرّ فيض دموعها، فالتمست من ابنة أُختها أن تصلّي سائلةً لها القوّة على احتمال الألم، ما لم يكن الله راغبًا في استدعائها إليه؛ وقد شاركت ابنةَ أختها الصلاة، فحلّ عليها شيءٌ من السلام.

وفي اليوم التالي اشتدّ عليها الجوع إلى الغذاء السماويّ، واعتراها انخطافٌ، سُمعت في أثنائه تناجي الربّ: "لِمَ تدعُني أذوي؟ لا يسعني الاستمرار في العيش بمعزلٍ عنك. أنت وحدك قادرٌ على غوثي، وإن كان عليّ أن أبقى على قيد الحياة، فهبني قوام الحياة!..."

وإثر خروجها من الانخطاف باحت: "لقد تغيّرت الأحوال. فعليّ، الآن، أن أُصبح طعام الربّ، وعلى كلّ جسدي أن يذوب في نار التوق إليه".

عند مغادرة "الحاجّ" برينتانو لها، مساء ذلك اليوم، بدت محتضرةً، ولكنّه، صباحَ اليوم التالي وجدها منتعشةً، وقد تجلّت عليها أمارات النشاط والهدوء، والشباب المتجدّد، والإشراق، وتفوح منها نسائم الفرح والقداسة. وقد فسّرت بنفسها هذا التحوّل، ببوحها:

« رأيت نفسي مع الرسل في العلّيّة، ونلتُ انتعاشًا بطريقةٍ لا أستطيع وصفها. فقد سال إلى فمي غذاءٌ يشبه نهرًا من نورٍ، واستسغتُه، ولكنّي لم أعلم مصدره، ولم أرَ اليد التي قدّمته لي. كان فائق العذوبة، وخشيت أن يكون قد أفسد صومي، وحرمني قدرة المناولة في الغد".

وإذ كان ذلك اليوم موافقًا لعيد العنصرة، قالت: "رأيتُ كيف حلّ الروح القدس على التلاميذ، وكيف ما زال، في ذكرى هذا اليوم، ينسكب على كلّ أرجاء المسكونة انسكاب الندى، حيثُما وُجد إناءٌ نقيٌّ راغبٌ في تلقّيه...»

يوم إثنين العنصرة روت رؤياها الليليّة كالتالي: "كنت وحيدةً في كنيسةٍ كبيرةٍ، راكعةً أمام القربان المقدّس الذي يحيق به مجدٌ يستعصي على الوصف. وشهدتُ تألّق وجه يسوع الطفل الذي ألفتُ، منذ صباي، أن أُفرغ قلبي أمامه، وأن أبوح له بكلّ شكاويّ... وقد تلقّيت من القربان المقدّس تعزياتٍ جمّةً، فضلاً عن ملامتين على أخطائي. وقد قضيت معظم الليل أمام القربان المقدّس، وملاكي إلى جانبي".

وما كادت تفرغ من سرد رؤياها حتّى اعتراها انخطافٌ. وفيما كان "الحاجّ" يتحدّث إلى معرّفها في غرفةٍ مجاورةٍ، هبّت، بغتةً، ناهضةً من سريرها، وقد أشرق محيّاها وأشعّ، وانتصبت ثابتةً على قدميها، وهذا ما لم تكن قد فعلته منذ أربع سنواتٍ، ورفعت ذراعيها إلى السماء، وتلت تسبيحة شكرٍ لله. ورغم شحوبها بدت تضجّ حماسًا. وكان صوتها عذبًا مختلف الجرس عن المألوف، وفسّرت هذا

التحوّل بقولها: "كان القدّيس أوغسطينُس إلى جانبي، متّشحًا بزيّه الأسقفيّ الكامل، مبديًا لي فيضًا من المودّة. وقد أتاني حضوره من التأثّر والفرح ما دفعني إلى استصفاحه عن تقصيري السابق في تكريمه، ولكنّه ردّ: "أنا أعرفك وأعدّك ابنتي". والتمستُ منه تخفيف أوجاعي، فقدّم لي باقةً تتضمّن زهرةً زرقاء، وفي الحال شعرتُ، داخليًّا، بعذوبةٍ مميّزةٍ، وبقوّةٍ وارتياحٍ يجتاحاني. ولكنّ القدّيس حذّرني: "لن تشفي، أبدًا، شفاءً تامًّا، فدربك هو درب ألمٍ. ولكن عندما تحتاجين إلى سندٍ وعونٍ، استدعيني، وسأهبك ما تحتاجين إليه. والآن هبّي واقفةً، واتلي نشيد شكرٍ للثالوث الأقدس".

وفي رؤياها بمناسبة عيد الثالوث الأقدس، وانخطافها نحو السماء، ومشاهدتها احتفال السماء بهذه المناسبة، رأت أنّ كلّ شيءٍ يأتي إلى نور الآب من خلال الصليب. ومن عليائها رأت الاحتفالات الجارية على الأرض بهذه المناسبة، فهالها التباين المريع بين الاحتفالين، وبدت لها احتفالات الأرض زريّةً، قاتمةً، فوضويّةً، حافلةً بالعيوب. وفي أثناء مراقبتها للاحتفال الذي كان يجري في مدينتها "دولمن"، لمحت ولدًا فقيرًا رثّ الثياب، يسير حزينًا، خجلاً وسط أطفال يزدهون بثيابهم الجديدة الجميلة. فذهلت عن روائع السماء، واستحوذت عليها رغبةٌ عارمةٌ في انتزاع ذلك الولد من محنته، وإلباسه أفخر الثياب وأجملها، واستدلّت على مسكنه، كي تقوم بهذه المهمّة.

وأخيرًا، قصدت، روحيًّا، كنيسة بلدتها حيث رأت "الحاجّ" برينتانو يزور المقبرة، ويصلّي من أجل الأموات، فامتلأت حبورًا. وبالفعل كان "الحاجّ" المذكور يزور صباحًا المقبرة، وهو في طريقه إلى الكنيسة، وقد استخلص من ذلك التطابق بين رؤياها والواقع دعمًا ومصداقًا لتطابق رؤاها الأُخرى مع الواقع.

وفي هذه الأثناء كانت آلامها المضنية لا تبارحها، وقد باحت في هذا السياق: "ينقضي ليلي في استشهادٍ يتعذّر وصفه، وأنا، في أثنائه، يقظةٌ يَقْظةً تامّةً، وفي وعيٍ

كاملٍ. ولا تهادنني الآلام إلاّ عندما يزورني أشخاصٌ في محنةٍ، أو في حاجةٍ إلى غوثٍ، فيدنون من سريري، ويوكلون بؤسهم لصلواتي، ويروون لي شكواهم، ومكامن ضعفهم.

في شهر حزيران ١٨٢٠، تفاقمت آلامها، التي لم تكن موضعيّةً بل شملت جميع عظامها وأعصابها، يرافقها تعرّقٌ غزيرٌ ينتج عنه، عندما يبرد، نوبات سعالٍ حادّةٌ وعنيدةٌ، وبصق دمٍ، وغالبًا ما كان لسانها يتقلّص ويسدّ حلقها.

وقد قال لها الربّ في إحدى رؤاها: "وضعتُك على السرير الزوجيّ، وهو سرير آلامٍ، وأغدقت عليك نِعَم الألم، وكنوز المصالحة، وجواهر العمل المجدي. عليك أن تتألّمي، وأنا لن أتخلّى عنكِ. أنت مرتبطةٌ بالكرمة ولن تهلكي".

وفي هذا السياق كتب "الحاجّ": "عندما تستعيد الأُخت ذكرى آلامها المضنية، وتستذكر حدّتها، والرحمة الإلهيّة التي نعمت بها لا تتمالك عن البكاء، ولا يتمالك المحيطون بها عن التعاطف معها، وهم يشهدون ما انتهت إليه من ضمورٍ وهزالٍ". وكان الله قد أوصاها بالراحة، ولكن لم يكن أحدٌ من معارفها ومرافقيها يفسح لها فرصة راحةٍ. غير أنّ ثلّةً من القدّيسين كانت تهرع لمساندتها ومؤاساتها.

وفضلاً عن أوجاعها، كانت تؤلمها رؤية كهنةٍ شاردي الذهن في أثناء احتفالهم بالقدّاس. ولكنّها تتعزّى برؤية كاهنٍ قدّيسٍ، ورعٍ، غير مرئيٍّ يحلّ محلّهم على الهيكل. وكان قد قيل لها: "إنّه لأمرٌ مريعٌ أن يُحتفل بالقدّاس بطريقةٍ غير لائقةٍ".

وقد تبيّنت، في رؤاها عظمة شأن تكريم القربان المقدّس، والعقاب الشديد الذي ينـــزل بمن يستخفّون به.

ورأت إبليس ينشر الظلام من حوله، ويُعطى سطوةً على كلّ إنسانٍ معمّدٍ، تلقّى من الربّ القدرة على مقاومة الشرّير وقهره، ولكنّه، مع ذلك، يقدم على الخطيئة طوعًا وبملء إرادته.

وعن الكنيسة قالت: "رأيت، روحيًّا، كيف أنّ الكنيسة، رغم شرور البشر، وانحطاط الشعور الدينيّ، لم تفتقر، في أيّة حقبةٍ، إلى أعضاءٍ أحياءٍ، عاملين، يقدّسهم الروح القدس، لكي يصلّوا، ويستغفروا عن تقصير الجماعة بأسرها، ويتألّموا عنها، بروح محبّةٍ. وفي الحقبة التي يظلّ فيها هؤلاء مغفلين، مجهولين، يكون تأثير عملهم أوفر جدوى..."

وبالإجمال، انقضت أيّام الأُخت "أنّا كاتارينا" القصيرة في اتّحادٍ وثيقٍ مع المصلوب المتألّم الذي طبع في جسدها علامات صلبه. وهي، مع انغماسها، حتّى الانصهار، في آلام الربّ، لم تتخلّ عن إخوتها الفقراء المتألّمين، بل كانت تنتهز كلّ هدنة يقظةٍ، لكي تعدّ لهم ثيابًا، ولا تنفكّ تصلّي من أجل تخفيف آلامهم، وتوبتهم عن خطاياهم، وغالبًا ما تطلب أن تأخذ على عاتقها أوجاعهم، وتعانيها بكلّ أوتار كيانها لكي تخفّف وطأتها عليهم. وكانت، دائمًا، متضامنةً معهم.

وفيما كانت مسمّرةً على سرير الأوجاع، رحلت عبر تاريخ الخلاص، وواكبت مسيرته، منذ العهد القديم حتّى مستقبل الكنيسة القصيّ، مستوعبةً رموزها ومراميها.

ومدى سبعة أيّامٍ في الأسبوع، كان الحاجّ دائبًا، مكبًّا على تسجيل رؤاها وما تتلقّاه من تعاليم وإيحاءات. ولطالما شبّهت الأُخت تدويناته بحديقةٍ ازدهرت فيها النباتات وتراصّت، ولم تدع فسحةً للعبور.

ومن تلك المجاهل الساحرة، اقتطفنا المقاطع الفوّاحة التالية:

رحلةٌ إلى المطهر

كانت الأنفس المطهريّة مصدر هواجس دائمًا لها، ومحرّك فيضٍ من التضحيات من كلّ نوعٍ تقدّمها من أجلها. وكانت راسخة اليقين بأنّ على جميع المؤمنين الأحياء أن يسعوا، بصلواتهم وتضحياتهم، إلى تسريع انعتاق تلك النفوس، وتحزنها لامبالاة العموم بها. وقد قالت، في هذا الشأن: "من المحزن رؤية عدم الاكتراث بغوث

النفوس الثاوية في المطهر، معانيةً شدائد جمّةً، وعاجزةً عن إغاثة ذاتها، في حين أنّ كلّ صلاةٍ أو معاناةٍ، أو إحسانٍ، تقدّم من أجلها يؤتيها خيرًا في الحال، فتفرح، وتتذوّق من السعادة مثل ما يتذوّقه من يتضوّر ظمأً، ويُقدَّم له شرابٌ منعشٌ. لقد كانت تتحسّس معاناة تلك النفوس من الإهمال، ونسيان أعضاء الكنيسة المجاهدة لها، مع أنّهم، وحدهم، يستطيعون إغاثتها. وهي لشدّة اهتمامها بتلك النفوس، كانت تجوب بين المقابر، مستطلعةً أحوال نـــزلائها، فتسعد لما ينعم به بعضٌ منهم من عونٍ ناجمٍ عن صلواتٍ وتضحياتٍ، وأعمال خيرٍ، وتحزن لمعاناة آخرين أهملهم وسها عنهم أقرب المقرّبين منهم، فتمعن في تقديم كلّ ما تستطيع إليه سبيلاً من أجل غوثهم، وكانت تهيب بجميع المؤمنين أن يحذوا حذوها، في هذا الميدان.

وعندما كانت، في صباها تصليّ بين القبور، كان إبليس يخفّ، أحيانًا، لمقاومتها، والحؤول دون غوث من تصلّي لهم، فيدفعها يمنةً ويسارًا، ويلقيها أرضًا. ولكنّ الله كان يهبها القدرة على مقاومته، والصمود في وجه محاولاته الشرّيرة، فتستأنف صلواتها، بحرارةٍ مضاعفةٍ.

طوال أيّامٍ عديدةٍ تسبق عيد جميع القدّيسين، العيد الذي تُتلى فيه صلواتٌ من أجل الأموات، كانت تكابد آلامًا ممضّةً تكرّسها لراحة النفوس المطهريّة. وكانت الأوجاع، حينذاك، تشمل كلّ أعضائها، وتكرهها على المكوث جالسةً فوق سريرها، سحابةَ ليالٍ كاملةٍ، نظير طفلٍ لا حول له على الحركة، ولا على إعانة نفسه. كانت تتضوّر عطشًا، ولكنّها لا تستطيع إلى الارتواء سبيلاً، ويكاد الألم يفقدها رشدها. كانت تلتهب توقًا إلى غوث تلك النفوس، ولكنّها تشعر بقيودٍ تكبّلها... ويكاد الألم يقضي عليها. ومع ذلك كانت تلتزم بصبرٍ جميلٍ، وتواجه المضايقات الخارجيّة بسجوٍّ نفسيٍّ مذهلٍ. ولطالما صرّحت: "كم من الخير يفعل من يتغلّب دائمًا على ذاته، حبًّا بالنفوس المطهريّة، وتلازمه الرغبة في مؤازرتها!". وكان

هاجس تلك النفوس يستحوذ على رؤاها الحافلة، عادةً، بالوجد الإلهيّ، وبإرادة التضحية في خدمة الآخرين. وغالبًا ما تطوّعت لتحمّل آلامٍ ضاريةٍ في هذا السبيل، وإليكم وصف "الحاجّ" لنموذجٍ منها:

« بغتةً كانت قوّةٌ غير مرئيّةٍ ترفع ذراعيها إلى الأعلى، فتبدو مصلوبةً، ومقيّدةً بحبالٍ، وتضمّ رجليها اللتين تنتفضان انتفاضاتٍ سريعةً، من شدّة الألم. وتصرّ أسنانها، وتطلق تأوّهاتٍ تجهد في كتمها. وتشتدّ بها الرعدة بحيث تكاد تُسمع قضقضة عظامها... وتتصلّب عضلاتها، وتتوتّر حتّى تغدو عاجزةً عن الحركة، وتبدو في صورة إنسانٍ مصلوبٍ.

"وبعد عشر دقائق من هذه المعاناة، تتراخى أعضاؤها، وترى أسرابًا من النفوس المنطلقة من المطهر، مقدّمةً لها الشكر. ولكن عقب هدنةٍ قصيرةٍ تُشَدُّ يداها بعنفٍ إلى الأعلى. وتتجدّد آلامها، ويعتريها شعورٌ بسياطٍ تمزّق جسدها، وتنضح عرقًا غزيرًا، فترجو "الحاجّ" أن يعيد يديها ورجليها التي انتُزعت من أماكنها، وحينئذٍ يضع ذخائر قدّيسين في يدها، فتعهد شيئًا من الانفراج. »

هذه الآلام عينها كانت تقاسيها كلّما رأت نفوسًا غادرت حياة الأرض، وهي غير متأهّبةٍ لهذه الرحلة الحاسمة. وغالبًا ما تخرج من هذه النوبات معقودة اللسان، فلا تستعيد القدرة على النطق إلاّ بفضل بركة معرّفها. وتبدو، آنذاك، في حالةٍ من الإعياء المفرط، ومع ذلك تظلّ ساجيةً، سجوّ من جاهد في سبيل هدفٍ سامٍ، وعندما حقّقه، انهدّ منهكًا، ولكن سعيدًا، راضيًا.

الأُخت "أنّا كاتارينا" والكنيسة

كان همّ الكنيسة يشغل بال الأُخت وقلبها، وكانت حريصةً على مجدها الدائم، حاضرًا ومستقبلاً، وعلى نصاعة سلوك مسؤوليها والتزامهم بما وقفوا عليه ذواتهم ووجودهم، ومتأهّبةً للذود عنها، ودرء هجمات مناوئيها الكُثُر، متعدّدي الأهداف والوسائل.

وكانت عونًا خفيًّا، ولكن فاعلاً، للبابا بيوس السابع، الذي واجه من العداوة والاضطهاد، والخيانات والمؤامرات ما يهدّ الجبال. وبصلواتها حمته من رجلٍ كانت تراه أسود، وربّما كان يهوديًّا، متواطئًا مع عددٍ من الكرادلة، وبواسطتهم كان يحصل على تنازلاتٍ كفيلةٍ بإلحاق أفدح أذًى بالكنيسة. وكانت اتّصالاتها الروحيّة بذلك الحبر الأعظم متواترةً، بناءً على إيعاز دليلها الملائكيّ.

وذات ليلةٍ، رأت الحبر الأعظم، رازحًا تحت عبء حزنٍ سحيقٍ، ومنهكًا، مهدودًا. ورأت إلى جانبه كاهنًا مسنًّا، مغرقًا في الورع والبساطة، وكان ورعه قد أسهم في إفشال محاولة المتآمرين إبعاده شخصيًّا عن الحبر الأعظم. غير أنّ ذلك الكاهن كان يحظى بكراماتٍ إلهيّةٍ غزيرةٍ. وكان يُطلع البابا على إلهاماته بأمانةٍ. وتقول الرائية إنّها فيما كان ذلك الكاهن يصلّي أحاطته علمًا بخَوَنَةٍ وفاسدي النوايا، يعملون في محيط الحبر الأعظم، ويرتبطون به ارتباطًا وثيقًا، لكي يحذّره منهم. وبفضل هذا التحذير، عطّلت مساعي أحد المعاونين الأشرار، ودرأت أذاه، ولا سيّما أنّ الحبر الأعظم، كان آنذاك، من الوهن بحيث لا يقوى على السير بمفرده.

ورأت الأُخت جمعًا من المؤمنين البسطاء الورعين محتشدين، ليلاً، أمام كنيسة العذراء الكبرى في روما، يتضرّعون من أجل حماية الحبر الأعظم والكنيسة الأمّ، ففُتح لهم باب الكنيسة، وحضرت أمّ الله، وحذّرت من كوارث كبرى، وقالت إنّ درء هذه الكوارث يستلزم أن يصلّي المؤمنون، وأذرعهم مبسوطةٌ على شكل صليبٍ، اقتداءً بصليب يسوع الفدائيّ. ومع أنّ المصلّين لم يروا العذراء، ولم يسمعوها، إلاّ أنّهم، في تلك اللحظة، بسطوا أذرعهم، تلقائيًّا، على شكل صليبٍ. وقد أكّدت العذراء، في تلك المناسبة أنّ الجيوش لن تؤتيَ الخلاص، بل ستنشر البؤس والدمار، لأنّها، في حروبها، لا تلجأ إلى الصلاة، ولا تستعين بالكهنة. وممّا قالته العذراء، أيضًا: "لو أنّ كاهنًا واحدًا أقام الذبيحة الإلهيّة وبوقارٍ، وبالمشاعر عينها التي كانت تحدو الرسل، لدرأ النكبات جميعها".

وكانت الأُخت إيمّيريك قد صرّحت، في مناسبةٍ أُخرى: "رأيت العقاب النازل بكهنةٍ كَلِفين بالرفاهية والراحة، والذين يكتفون بقول: "حسبي زاويةٌ صغيرةٌ من السماء، حيث أُصلّي، وأُقيم القدّاس، وأسمع اعترافاتٍ..."

وانتقامًا منها عن مؤازرتها للكنيسة، كان إبليس يشنّ عليها حملاتٍ ضاريةً، فتستعين على درئها بصليبها وذخائرها. وكانت، أحيانًا، تتقيّأ دمًا، وهي تصلّي، ليلاً، وتكابد آلامًا ممضّةً، كلّما رأت كنيسةً في محنةٍ، وتطوّعت لغوثها. وقد وجدها "الحاجّ"، ذات صباحٍ، منهكةً فباحت له: "كان عليّ أن أخوض معارك لم أخضْ مثلها، قطّ، من قبل، ولا أستطيع التعبير عن فداحة ما عانيت. رأيت شخصًا يصارع ثلّةً من الأبالسة انقضّت عليه. وها أنذا أتبيّن، الآن، أنّ هذا الشخص هو أنا، وأنّ عليّ أن أُصارع جوقةً من الشياطين... إنّي مدعوّةٌ إلى الجهاد، مع أنّي أفتقر إلى القوّة. وعليّ إحراز النصر، وكم يُتعبني الأمر! أرى إبليس يتذرّع بكلّ وسيلةٍ من شأنها إنهاء المعركة بخزيي، وهو لا يني يرسل لي زائرين من كلّ لونٍ، قادمين من بعيدٍ، لكي يكدّروني ويضعفوني".

وإثر إحدى رؤاها باحت: "قيّدني الربّ من وسطي، مثلما قُيّد هو على عمود الجلد، وقال لي: "هكذا ستُقيَّد الكنيسة، وستُوثق بعنفٍ، قبل أن تتمكّن من التحرّر".

وكان الربّ قد قال لها، في رؤيا أُخرى: "لو لم يبقَ سوى مسيحيٍّ واحدٍ، فستتمكّن الكنيسة من النهوض، لأنّها لن تكون مؤسّسةً على العقل، ونصائح البشر". وبيّن لي أنّ الكنيسة لم تفتقر، يومًا، إلى من يصلّون ويتألّمون من أجلها. وأوضح لي كلّ ما قاساه، هو، من أجلها، وأيّة منعةٍ أسبغ على استحقاقات الشهداء وفعالهم. وأكّد تأهّبه لتكبّد كلّ الآلام التي يمكن تخيّلها، لو كان ما زال بإمكانه أن يتألّم. وأراني، من خلال لوحاتٍ عديدةٍ، سلوك المسيحيّين والإكليريكيّين المخزي، في أماكن لا تنفكّ رقعتها تتّسع، متضمّنةً وطني، وحرّضني على مواصلة الصلاة، والمثابرة في الألم... وأراني أنّه يكاد لا يوجد، بعدُ، مسيحيّون مثل قدامى المسيحيّين.

وأراني، أيضًا، أنّ اليهود الذين ما زالوا موجودين ليسوا سوى فرّيسيّين أقحاح، ولكنّهم أشدّ تصلّبًا وقسوةً من أسلافهم..."

وبعد إحدى رؤاها روت: "رأيتُ، في روما، كنيسةً رائعةً، حديثة البناء، قد فُرغ توًّا من بنائها. ورأيت البابا، في موكبٍ حافلٍ، يتسلّمها من يد المهندس. ولكن ما إن أشاد البابا بفنّ البناء حتّى أخذ بالمهندس الزهو، فأعلن أنّه كان قادرًا على إضفاء المزيد من الجمال عليها. فأدانه الحاضرون، ورفضوا أن يؤدّوا له رصيد حسابه، لأنّه أخفق في إخراج الكنيسة في الجمال الذي كان بوسعه إخراجها عليه، ولأنّه لم يضفْ إليها المنحوتات الكفيلة بإسباغ الروعة عليها، وفقًا لاعترافه. وحينئذٍ وضع إصبعًا على فمه، وأقرّ بحزنٍ: "آه! ليتني خرستُ، وإذن لكانوا عدّوا عملي كاملاً. وها هم يحتجزون أجري حتّى يكتمل البناء على أجمل وجهٍ، ويطلبون أن أنحت على واجهة الكنيسة صورتي واضعًا إصبعي على فمي، ندمًا". غير أنّه، بعد إعمال فكرٍ، بعث برسالة إلى البابا، أكّد فيها استعداده لتنفيذ المطلوب منه عندما سيكمل البابا بناء الكنيسة الروحيّ، على أكمل وجهٍ، منوّهًا بسلوك كهنةٍ حافلٍ بالمخازي، وبالتقصير في ميدان المحبّة، وبشتّى العيوب التي تشوّه وجه الكنيسة، معلنًا: "ليس ضروريًّا أن يكون الخارج أجمل من الداخل". وردًّا على هذه الرسالة أمر البابا بدفع كلّ مستحقّات المهندس، وإبراء ذمّته.

وذات ليلةٍ، صاحت، وهي في حالة انخطافٍ: "يبتغون سلب الراعي المرعى الذي يخصّه، وفرض راعٍ آخر يسلّم الأعداء كلّ شيءٍ... لا، لن تنجحوا. فالراعي ثابتٌ على صخرةٍ. وأنتم، أيّها الكهنة، ما بالكم لا تتحرّكون؟ أتنامون والحظيرة تلتهمها النار من كلّ جانبٍ! ألا تفعلون شيئًا؟ كم ستبكون تخاذلكم، ذات يومٍ!... وكم من الخونة أرى!".

وفي رؤيا أُخرى، رأت نفسها مارّةً في مدينة فرنكفورت، قرب صرحٍ اجتمع فيه علمانيّون وإكليريكيّون للتآمر على اجتثاث الكاثوليكيّة من خمس أبرشيّاتٍ.

وكان أبالسةٌ قابعين تحت مقاعدهم. عادت إلى ذلك الصرح، مرّةً ثانيةً، فرأت إبليس مقعيًا عند باب المدخل، على شكل كلبٍ أسود، وقد ضرّجت الحمرة عينيه، واستسلم للنوم. فركلته بقدمها وقالت: "هيا انهض، يا إبليس! علام ترقد هنا؟" فأجاب: "يسعني أن أغفو ملء جفنيّ، فالمجتمعون في الداخل عاكفون على تنفيذ مهامّي".

وهي، في سبيل الذود عن الكنيسة وعن سلامة العقيدة الإيمانيّة، وانتظام المؤسّسة الكنسيّة، والتكفير عن تقصير مسؤوليها وأخطائهم، تحمّلت آلامًا باهظةً. وقد ارتكز قسطٌ كبيرٌ من رؤاها على صراعات الكنيسة، ودرء الهجمات الشرسة التي كانت تُشَنّ عليها. ولم يكفّ الشرّير عن مطاردتها، متموّهًا بشتّى الوجوه، جاهدًا في إيقاعها في زلّةٍ، أو مأزقٍ. ولكنّ الربّ كان يتداركها دائمًا، ويكشف ألاعيبه، ويأخذها في أسفارٍ بعيدةٍ عبر أصقاع العالم، كي تسهم في إنقاذ قومٍ لا تعرفهم، من مخاطر داهمةٍ، أو من ارتكاب خطايا مميتةٍ. وبالتالي أمست لياليها مزيجًا من هجماتٍ شيطانيّةٍ منهكةٍ، روحيًّا وجسديًّا، ومن حواراتٍ مع قدّيسين وقدّيساتٍ تُسيل إلى نفسها بعض عزاءٍ. وفي بعض الليالي كانت تُرسَل إلى أقاصي المسكونة وتعود بحصادٍ وفيرٍ وثمينٍ من المعلومات والخفايا.

وفي غمرة آلامها كان يستولي عليها جوعٌ حارقٌ إلى القربان المقدّس، وإلى خدمة المحتاجين. وهذا ما يتجلّى من خلال المثالين التاليين:

ذات يومٍ كانت مصابةً بداء النقرس، وعاجزةً عجزًا تامًّا عن الحركة، ورأت إنسانًا يواجه محنةً روحيّةً حادّةً، والتهبت رغبةً في التألّم من أجل إنقاذه. فقفزت من سريرها، الذي لم تكن تقوى على مغادرته، وجرت حافية القدمين، وبخطى ثابتةٍ، إلى معرّفها الموجود في غرفةٍ محاذيةٍ، والتمست موافقته على احتمال مزيدٍ من الآلام، إسهامًا في إعتاق ذلك الإنسان من محنته.

ويوم ١٨٢١/٤/١٦، وصف "الحاجّ" حالها بقوله: "إنّها تشبه جثّة إنسانٍ نفق جوعًا. وآلامها تتفاقم باطّرادٍ، وقد شرع الأُكال (الغنغرينا) يدبّ في جسدها، ويُخفّف إحساسها بالألم. ولكنّها، بغتةً، جلست على سريرها بهدوءٍ، وشاعت على محيّاها أمارات السكون والراحة، وبعد لحظاتٍ بدت عليها علامات ابتلاع شيءٍ ما؛ وفسّرت ذلك موضحةً: "لطالما تسوّلتُ أمام مائدةٍ حافلةٍ، وأخيرًا حصلتُ على فتاتٍ، واستعدتُ قوّتي... أوكلتُ كلّ شيءٍ لله، وأحسستُ بالراحة..."

"أنّا كاتارينا والذخائر"

وُهبت الأُخت ملَكَة تمييز الأشياء المقدّسة، فكانت، على سبيل المثال، تميّز تلقائيًّا بين الماء المقدّس والماء العاديّ، كما يميّز آخرون الماء من الخمرة. وكانت تتعرّف رفات القدّيسين بحواسّ الشمّ، واللمس، والرؤية. وكانت تستشعر البركة الحالّة عليها، حتّى إن هي كانت آتيةً من بعيدٍ. كانت تتلمّس الأشياء اللامحسوسة بحواسّها الحيّة، وترى اللامرئيّ بعينيها. كانت الصلوات التي يصعّدها آخرون، والتضحيات التي يمارسونها تعكس لها أشعّةً متألّقةً تسكب في نفسها البهجة، والراحة. وبالمقابل كانت تنفر تلقائيًّا، ولا إراديًّا، من كلّ ما حلّت عليه لعنةٌ أو لامس الخطيئة، ومن كلّ مكانٍ كان مسرح إثمٍ، ومازالت آثاره ماثلةً، ولم يمحُها غفرانٌ أو توبةٌ. وكانت ترى هذا المكان غارقًا في الظلمة.

وبالتالي كانت تتبيّن زيف الذخائر الكاذبة، وتسارع إلى دفنها. وكانت تلك الموهبة بمثابة تكريمٍ لرغبتها العارمة في إحياء تكريم ذخائر القدّيسين. وكانت تستشعر الأماكن التي تحتضن رفات قدّيسين، والتي طُمِست وأُغفلت، ومع ذلك ما زالت تلك الذخائر المهملة توفّر حمايةً وعونًا للأماكن القائمة فوقها، ولساكنيها، وإن هم جهلوا مصدرها. وكانت تعدّها كنوزًا ثمينةً.

وفي أثناء رؤاها كانت تطوف بمواقع وبدياميس تحضن رفات شهداء وقدّيسين،

وكان هؤلاء يظهرون لها، ويروون لها سيرَهم واستشهادهم. وقال لها بعضٌ منهم: "انظري! ها هنا عشنا في الظلّ وفي الفقر، ولكنّ نور الإيمان وقوّته رافقانا".

وكان كلّ من يعثر على ذخائر ويجهل لمن تعود يأتيها بها، فتبيّن زيفها أو أصالتها. وهكذا تجمّعت لديها كمّيّةٌ كبيرةٌ وقيّمةٌ منها، كانت لها كنـــزًا لا يُقدَّر بثمنٍ.

كانت تغمرها البهجة كلّما وقعت على ذخائر أصيلةٍ، وتنفر من رفات أشرار، وتأبى حتّى لمسها، مع أنّها لم تكن تتحرّج من لمس عظام حيواناتٍ أليفةٍ، لأنّها مخلوقاتٌ لم ترتكب خطايا. فالرفات المقدّس كان يبعث إلى نفسها إشعاع نورٍ وفرحٍ، فيما كان رفات الأشرار يبعث إليها إشعاع عتمةٍ، وبؤسٍ. هذه المشاعر كانت تنتابها حتّى وهي في حالة انخطافٍ ولاوعيٍ.

كانت تتعرّف لمن تعود كلّ ذرّة رفاتٍ تقدّم لها، وترى كيف قضى القدّيس حياته وكيف استُشهد الشهيد. وقد جيء إليها، ذات يومٍ، بذخائر تعود إلى العهد الرومانيّ، فتعرّفتها في الحال، وروت سِيَر أصحابها، وتقاليد ذلك الزمان، ما أدهش "الحاجّ" الذي علّق: "أعترف، بخجلٍ، أنّني لم أكن ملمًّا بهذه الأمور. فلنتخيّل هذه القرويّة الورعة تستعرض العالم الرومانيّ بكلّ عاداته وتقاليده ولا تفهم من كلّ ما تراه سوى وضع الشهداء النفسيّ والروحيّ وهم يكابدون العذابات، وهي، من جرّاء انعدام خبرتها، عاجزةٌ حتّى عن وصف الأشياء والأماكن والأدوات".

وقد روت الأُخت مشاهد استشهادٍ، فقالت:

« كنتُ في مدينةٍ جميلة المنظر، فوق سطح بناءٍ مطلٍّ على ساحةٍ مستديرةٍ، يضمّ أحد جوانبها سجونًا، فيما يضمّ الجانب الآخر حيواناتٍ مفترسةً. وفي صدر الساحة جلست زوجة الإمبراطور الشرّير على مقعدٍ حجريٍّ، يحيط بها رجلان تدلّ سحنتاهما على شراسةٍ مريعةٍ.

"فُتح بابٌ خرج منه حيوانٌ مرقّطٌ يشبه هرًّا كبيرًا، ومن بابٍ مقابلٍ جرّ جلّادان

فتاةً وجرّداها من ثوبها الأبيض. كانت مضيئةً مثل جميع الشهداء، واقفةً في وسط الساحة، محدّقةً إلى السماء، ضامّةً يديها على صدرها، ولا تبدو عليها أيّة أمارة خوفٍ، غير أنّ الحيوان المفترس لم يُصبْها بأذىً، بل انحنى أمامها، ثمّ انقضّ على الخدم الذين كانوا يحاولون استثارته بصياحهم، وبإلقاء الحجارة عليه. وحينئذٍ أُجلست الفتاة على حجرٍ يعلوه عمودٌ، ووُثِّقت يداها وراء ظهرها، وقُطع رأسها. كانت مضفّرة الشعر، فاتنةً، منزّهةً من الخوف.

"ثمّ اقتيد رجلٌ إلى وسط الحيوانات المفترسة، وجُرِّد من معطفه، وظلّ في قميصٍ داخليٍّ متدلٍّ حتّى ركبتيه. هو أيضًا، أبت الحيوانات إيذاءه، فقطعوا رأسه، أيضًا. وكان قد تعرّض لمثل ما تعرّضت له الفتاة من دفعٍ يمنةً ويسارًا، ومن نخسٍ بأعصيةٍ مسنّنةٍ. هؤلاء الشهداء يثيرون الحزن، ومع ذلك يوحون بالكثير من الفرح. منظر عذابهم مريعٌ جدًّا، ولكنّه يشيع فرحًا جمًّا.

"ورأيتُ كُثُرًا يتعرّضون للحرق، ولكنّ النار حادت عن أحدهم ونشبت بالجلاّدين، وقضت على العديد منهم. ورأيت كاهنًا كان قد واسى وشجّع كثيرين سرًّا، فقطع الجلاّدون أعضاءه، عضوًا عضوًا، ثمّ أروه إيّاها، ودعوه إلى إنكار إيمانه، ولكنّ جسده المشوّه، ظلّ يفيض فرحًا وتسبيحًا لله، إلى أن قطعوا رأسه.

"ورأيتُ لبوةً تنقضّ على شهيدٍ، وتجرّه من هنا وهناك، وتمزّقه إربًا إربًا.

"ورأيتُ امرأةً نبيلةً وبناتها الثلاث اللواتي تتدرّج أعمارهنّ من السادسة عشرة حتّى العشرين، وقد أُطلقَت عليهنّ ثلّةٌ من الحيوانات المفترسة، ولكنّها لم تؤذهنّ، لا بل إنّها داعبت صغراهنّ، فأحرق الجلاّدون بمشاعل سوداء، خدّي الكبرى، وثدييْها، وإبطيها. ومع ذلك لم تُلقِ الضحيّةُ نظرةً على جلاّديها، لأنّها كانت محدّقةً إلى شقيقتها الصغرى التي كانت، آنذاك، عرضةً للتنكيل. وبعد أن سيمت الأُمّ وبناتها العذاب نفسه، أُجلسنَ وقُطعت رؤوسهنّ؛ وقد حرص الجلاّدون على ألاّ يقطعوا رأس الأُمّ، إلاّ بعد القضاء على بناتها الثلاث، وتجريعها كأس العذاب حتّى الجمام، وتشهد فظاعة استشهادهنّ، بقلبٍ نازفٍ. »

عقب هذه المشاهدات، تمنّت أن تلقى مثل مصير الشهداء، فقال لها ممثّلٌ عنهم: "نحن نتعذّب مرّةً واحدةً. أمّا أنت، فعليك أن تعاني الاستشهاد في كلّ لحظةٍ. نحن لنا عدوٌّ واحدٌ، أمّا أعداؤك فكُثرٌ".

وكانت الأُخت كلِفةً بتأمّل ذخائر القدّيسين، ومن خلال تأمّلها كانت تتبيّن مسيرتهم والأعمال التي أوصلتهم إلى القداسة. وكانت تنتابها، أحيانًا، رغبةٌ طاغيةٌ في قضاء أيّامها كلّها متأمّلةً هذه الذخائر.

وكان أصغر جزءٍ من ذخيرة قدّيسٍ أو شهيدٍ يكفيها لمعرفة صاحبها. وقد برعت في لمّ شمل أجزاء الذخائر مهما تفتّتت وتبعثرت. وكانت، حتّى وهي في حالة انخطافٍ أو لاوعيٍ، حين تُقَرَّب منها ذخيرةٌ مقدّسةٌ، تنشرح أساريرها، وتعلن عن صاحبها، وتفرح لوجودها قريبةً منها. ومن ثمّ غدا عديدون من مالكي ذخائر يجهلون أو يرتابون في مصدرها يأتون بها إليها، فتتعرّفها تلقائيًّا، في الحال، وتطلب إبقاءها إلى جانبها ليلةً أو ليلتين، وتتلقّى كلّ المعلومات التي ترغب في معرفتها عنها.

وقد جاءها "الحاجّ"، ذات يومٍ، مخفيًا في جيبه صليبًا خشبيًّا يحتوي الكثير من الذخائر، وفيما كان داخلاً إلى حجرتها أعلنت أنّها تشعر بتطوافٍ قادمٍ. ولمّا دنا منها، مدّت يدها إلى جيبه، وانتشلت منه الصليب، وشرعت تروي أحداثًا تتعلّق بأصحاب تلك الذخائر، موضحةً أنّ ذلك الصليب قادمٌ من دير راهباتٍ تعرّضن لغزوة لصوصٍ، اختطفوهنّ كي يبيعوهنّ في سوق النخاسة. ولكنّ إحداهنّ كانت صبيّةً متينة البنية وشجاعةً، تمكّنت من الفرار مستصحبةً الصليب، ناذرةً العيش في عزلةٍ عن العالم، ناسكةً، متعبّدةً، إذا هي نجت، وتمّت لها النجاة، فعاشت وحيدةً في غابةٍ، عشرات السنين، إلى أن عثر عليها صيّادٌ، سألته أن يأتيها بكاهنٍ يزوّدها بالإفخارستيّا. وعاد إليها، بعد سنةٍ، بكاهنٍ ناولها. وحينئذٍ رجتهما أن يدَعاها وحيدةً بعض الوقت. ولمّا عادا ليتفقّداها وجداها ميتةً، فدفناها. وأخذ الصيّاد الصليب، بمثابة ذكرى، ثمّ أهداه لصديقٍ ميسورٍ، ثمّ تنقّل الصليب من يدٍ إلى يدٍ،

إلى أن اشتراه، بدافع الفضول، رجلٌ غريبٌ، من قومٍ كانوا قد وضعوه جانبًا، وهم يجهلون قيمته. ومن غرائب الصدف أنّ ذلك الغريب لم يكن سوى "الحاجّ" نفسه، كاتب سيرة الأُخت "أنّا كاتارينا". وقد أسهمت روايتها لقصّة الصليب في توطيد إيمانه بمصداقيّة رؤاها.

وقد جيء إلى الأُخت بذخائر راهباتٍ من زمنٍ قديمٍ. فقالت عن الكنيسة الصغيرة المتواضعة التي كنّ يصلّين فيها: "حينذاك، كانت الصلوات من ذهبٍ، والحلل الكنسيّة من قشٍّ، واليوم أصبحت الصلوات من قشٍّ، والحلَل من ذهبٍ. لم يكن لدى تلك الراهبات نارٌ يستدفئنَ بها، ولكنّ قلوبهنّ كانت تلتهب نارًا".

كانت تودع الذخائر التي تهداها في علبةٍ تدعوها "كنيستها"، وتقيم دائمًا إلى جانبها. وكانت سيَر القدّيسين التي تستوحيها من تأمّل تلك الذخائر، كافيةً لتأليف "سينكسارٍ" جديدٍ، وتدوين تاريخ المسيحيّة عبر العصور.

وفي سياق حديثها عن الذخائر، روت: "ذهبتُ أيضًا (بالروح) إلى مكانٍ يوجد فيه ثوبٌ داخليٌّ للسيّدة العذراء. أظنّ أنّ ذلك المكان هو في سوريّة، بجوار فلسطين، وأنّ ذلك الثوب هو أحد ثوبين أعطتهما العذراء، قُبيْل وفاتها، لامرأتين. أهالي ذلك المكان ليسوا كاثوليكيّين، وربّما هم رومٌ، وهم فخورون بتلك الذخيرة ويحيطونها بالتكريم. وأظنّ أن القدّيس فرنسيس الأسّيزي جاء إلى ذلك المكان، وصنع "أعجوبةً، إثباتًا لصحّة تلك الذخيرة".

حالة الأُخت منذ عام ١٨٢٠

ما انفكّت رؤاها تتوالى وتواكبها مواكب الآلام. وقد صرّحت، إثر إحدى رؤاها أنّها رأت الحربة التي طُعِن بها جنب المخلّص، والتي آلت إلى نيقودمس. وفي ذلك اليوم انتابتها آلامٌ من القسوة بحيث بدت، على فراشها، وكأنّها ميتةٌ عاجزةٌ عن الحركة، فاقدةٌ الشعور. ولم يكن لبركة الكاهن ولأوامره أيّ تأثيرٍ عليها. وقد

روت، لاحقًا: "بعد الظهر أحسستُ أنّ صليب يسوع يرين عليّ، وأنّ جسده المقدّس يرقد إلى يميني، وعلى ذراعي. وعلى مقربةٍ منه رأيتُ الحربة المقدّسة...

"وتساءلتُ عمّن هو كفيلٌ بمواساتي، وتناولت الجسد الإلهيّ، فنأت عنّي الحربة، وحينئذٍ استطعت التكلّم". وفي نوبةٍ أُخرى، قالت: "استمررتُ في رؤية الحربة المقدّسة، مغروسةً في جنبي الأيمن عابرةً يسارًا، بين ضلوعي. فوضعت يدي على جرحي كي أقودها بين ضلوعي". وفي هذه الأثناء كان جنبها قد نــزف نــزفًا غزيرًا. وكانت قد تقيّأت كمّيّةً كبيرةً من الدم.

في ربيع عام ١٨٢٠، رأت مواكب الآلام المتحفّزة للانقضاض عليها، وأُوحي إليها أنّ المهمّة التي ما زال عليها أداؤها هي رواية سيرة يسوع كما رأتها. وقد باحت لمعرّفها: "لقد بلغتُ نهاية شوطي، وأنا مازلت حيّةً إلاّ من أجل تحقيق أمرٍ لم يبقَ لي سوى القليل من الوقت من أجل إتمامه. كان مصيرها قد اكتمل، غير أنّها كانت ما زالت مجهولةً، مُغفلةً. وكان يرين على كاتب سيرتها ومدوّن رؤاها "الحاجّ برينتانو"، شعورٌ ملحٌّ بأنّ عليه – من أجل معاصريه، ومن أجل الأجيال القادمة – أن ينقذ الكنوز النفيسة التي أغدقها الله بغزارةٍ على نفسٍ لم تكن تحتاج إليها شخصيًّا، ولم تكن مؤهّلةً لتقدير ثمنها حقّ قدره". ولم يغرب عن بال الكاتب ما ستكلّفه هذه المهمّة من نَصَبٍ، ومن التضحية بكلّ وقته ومواهبه، وكلّ طاقاته، وغدا يقتضي من المحيطين به، وبالأُخت الرائية، إيلاء الأولويّة لهذه المهمّة، على كلّ مهمّةٍ أُخرى. واقتضى أيضًا من الأُخت إدراك جلال شأن ما هو مطلوبٌ منها، ولا سيّما أنّها، حتّئذٍ، كانت تظنّ أنّ الرؤى أُعطيت لها وحدَها، ولم يكن قد خطر ببالها واجب إعلانها، وإشراك الآخرين بها. ولّما أدركت هذا الواجب، غدت أكثر وهنًا، واعتلالاً، وإعياءً، وتأهّبًا للتضحية بما أراها الله. وتفاقمت حالات التقيّؤ لديها، وتضاعفت لديها النــزعة إلى التلهّي بأمورٍ سخيفةٍ تصرفها عن التركيز على رؤاها. وكانت هذه الظواهر موضع شكوى "الحاجّ" المريرة. وكان لا بدّ من

تكاتف جهود معرّف الأُخت ومرشديها الروحيّين، من أجل مساعدته على تحقيق مهمّته. فقد كانت الأُخت تضيق ذرعًا بوجود "الحاج" الدائم إلى جنبها، حريصًا على دقّةٍ مطلقةٍ في التقاط أقوالها وفي تدوينها بأمانةٍ؛ ولكنّه كان يفتقر إلى دماثة الكهنة والأطبّاء الذين اعتادوا مواكبتها، والذين اتّصفوا بالتواضع والبساطة، والإيمان، والنـــزاهة، والذين كانوا يستهدفون كمالها الروحيّ، أكثر من استهدافهم إبراز كراماتها الاستثنائيّة ورؤاها. وبالتالي كانوا شديدي التحفّظ في الإدلاء بأسرارها الروحيّة الشخصيّة، وحريصين على إبقاء بابها مشرعًا للفقراء والمرضى والمحزونين، في كلّ وقتٍ، لكي يوفّروا لها سوانح لممارسة المحبّة بتواضعٍ وصبرٍ، ولو أدّى ذلك إلى صرفها عن سرد رؤاها، وتمكين "الحاجّ" من تدوين ما تطوّع لتدوينه. ومن ثمّ كانت تنشب مشادّاتٌ بين الجانبين، وغالبًا ما عبّر "الحاجّ" عن ضيقه، وتمنّيه التخلّي عن المهمّة التي انتُدب لها.

وأخيرًا اتّفق المعرّف والكاتب على التضامن في سبيل مضيّ كلٍّ منهما في مهمّته إلى آخر شوطها. وقد أقرّ معرّفها: "وجدتُ الأُخت صادقةً دائمًا، ومنطقيّةً في أقوالها، سواءٌ كانت في حالة وعيٍ أو في انخطافٍ. ولطالما أنّبتني بسبب صرامتي حيال البعض، وإحجامي عن الإصغاء إليهم بصبرٍ. وقد فاتحتني، ذات يومٍ، بكلّ ما كان يجول بخاطري، ولكنّها، تلقائيًّا، سألت الله ألاّ يطلعها، بعدُ، على شيءٍ ممّا يطوف ببالي".

وعن علاقتها بمعرّفها، كتب "الحاجّ"، بتاريخ ١٨٢١/١٢/١٤: "كانت الأيّام والليالي الثلاثة الأخيرة حافلةً بالاختلاجات، وقيء الدم، والغثيان والإغماء. وفي غمرة هذه الأعراض كلّها استمرّت رؤاها، وقد أكّدت لي، بسكونٍ تامٍّ وثقةٍ: "عليّ أن أتألّم، هذا ما أخذته على عاتقي، وسأتحمّله"... إنّه لمدهشٌ ومؤثّرٌ كيف أنّها، وهي تكابد هذا المرض المميت، ترتقي إلى الانخطاف، وتستدعي معرّفها، ظانّةً أنّ عليها إبلاغه أُمورًا شديدة الخطورة، في حين أنّه، هو لا يبالي بهذه الأمور، ولا

يتدخّل أبدًا برؤاها، ولا يبدو عليها، وهي في حالة انخطافٍ أنّها على علمٍ بلامبالاته هذه، بل يستحوذ عليها شعورٌ بحاجتها إليه، وكأنّ واجبًا روحيًّا يجذبها إليه، وهو عن كلّ ذلك غافلٌ... إنّه يعاملها ببساطةٍ، بلا تمييزٍ لها، أو اكتراثٍ خاصٍّ بها. عندما تعاني آلامًا قصوى، ترغب في وجوده إلى جانبها، ولكنّ حضوره قلّما يشعرها بتحسّن حالها، ما لم يضع يده الكهنوتيّة عليها، عندما تتردّى إلى شدّةٍ كبرى".

ولطالما تساءل "الحاجّ" عن علّة عجزه الشخصيّ حيال حياة الأُخت الروحيّة، مع اهتمامه الشديد بمواهبها ورؤاها، ورغم الجهد المضني الذي كان يبذله في سبيل الإحاطة بها. ومع ذلك كان يُخفق، دائمًا، في التأثير عليها مثل تأثير معرّفها، رغم أُسلوب ذلك المعرّف البسيط، والذي يتّصف، غالبًا، بالجفاء والإيجاز، ورغم خلوّه، ظاهريًّا، من الجاذب. وكان "الحاجّ" يتبيّن، يومًا فيومًا، الفرق الشاسع بينهما، حيالها، فرقًا كانت، هي، تسعى عبثًا إلى ردمه. فقد كانت قدرة "الطاعة" القصوى لأوامر الكاهن، وإرشاداته هي دائمًا الغالبة.

وكانت الأُخت تطلب من معرّفها أن يعاملها مثل معاملته لأيّة مسيحيّةٍ عاديّةٍ، ولم يخالجها، قطّ، ظنٌّ بأنّ الرؤى والكرامات الاستثنائيّة تتفوّق على أعمال المحبّة، وعلى التحلّي بالفضائل. وسرعان ما اتّضح أنّها، في تواضعها السحيق، وفي نقاء نفسها، كانت أشدّ كلفًا بإسداء أعمال الخير، ومدّ يد العون، مادّيًا وروحيًّا، للمحتاجين إلى غوثٍ، من كَلَفها بالانخطافات والرؤى. ومن ثمّ وطّن "الحاجّ" عزمه على الاكتفاء بما يُتاح لها من وقتٍ للبوح برؤاها، على أن تظلّ خدمةُ الآخرين هي أولويّتها. وقد ترسّخ لديه اليقين بأنّ تلك كانت مشيئة الله. ومع ذلك لم يتحرّر من رغبته في أن تكرّس لسرد رؤاها وآلامها القسط الأكبر من وقتها، ولم ينجُ قطّ من الضيق الذي كان يساوره كلّما فتحت بابها لطالبي الغوث وللزائرين الذين كانوا ينسونها تفاصيل عديدةً من رؤاها. وكان يمزّق فؤاده أن يفقد العالم الكنوز الثمينة التي كان من شأن التفاصيل المنسيّة أن تغني بها عالم الروح. ومع ذلك لم تُبدِ

الأُخت كبير اهتمامٍ بتلبية رغبته هذه، وكان يشقّ عليها إطلاعه على كلّ تفاصيل رؤاها، ولا تتحرّج من الانكفاء عنه من أجل استقبال امرأةٍ عجوزٍ ثرثارةٍ. ومع أنّها كانت تضيق ذرعًا بهذه الزيارات، وتتمنّى إعفاءها منها، إلاّ أنّها لم تكن تقوى على ردّ حتّى الأشخاص المزعجين، بل ترحّب بهم بمودّةٍ مدهشةٍ.

وكان شقيق "الحاجّ" ينضمّ إليه، أحيانًا، تحدوه رغبةٌ دفينةٌ في إثبات نظريّة المغنطيسيّة، في حين كان "الحاجّ" نفسه يرغب في أن تكون له الأُخت مرآةً، لا يدنو منها أحدٌ سواه، ولا يعكّر نقاءها لا شدائد ولا آلامٌ، ولا يصرفه شيءٌ عن التوغّل في تأمّلها. وخيّل إليها أنّ الأخوين يبتغيان سلخها عن كلّ صلةٍ بالعالم، وألاّ يدنو منها أحدٌ سواهما، ولكأنّها وقفٌ لهما. ولا غروَ أنّ هذا الشعور المضني كان لها مدرسةً شاءها العناية الإلهيّة، لكي تكتسب، في غمرة آلامها الجمّة والمستمرّة، فضائل ساميةً، لم يكن لها أن تتمرّس بها، بمثل الصفاء الذي واكب ذلك الامتحان. وقد تكاتفت على دفنها في هذه اللجّة جهودُ مسؤولين روحيّين توهّموا مواساة جراحها بدفنها في عزلةٍ مطلقةٍ، وجهودُ العلم الذي حيّرته ظواهر متمرّدةٌ على قوانينه، فاتّهمها بالخداع، وأخيرًا جهودُ السلطة المدنيّة المتآمرة مع رجال العلم، فتعاطت معها تعاطيها مع متاعٍ تائهٍ لا صاحب له، مرميٍّ على الشاطئ. ومن جانبٍ آخر ادّعى مؤمنون أتقياء أنّه لا يحقّ لتلك المخلوقة المميّزة أن توجد وتحيا من أجل ذاتها، وأن تمتلك كنـــزًا خاصًّا بها، بل ينبغي أن تكون حياتها بكلّيّتها ملكًا للغير، وكأنّ عليها أن تتمثّل، حتّى الرمق الأخير، بقرينها السماويّ، وأن تصبح "آيةً للمقاومة".

يوم أحد الفصح لعام ١٨٢١، باحت: "لم أتلقَّ، هذه الليلة، أيّ أملٍ في الغوث، فإثر رؤياي للقيامة، ألقى يسوع، مجدّدًا، على كاهلي صليبًا أبيض كبيرًا، وقال: "ما زال عليك حمله والمضيّ به بعيدًا. وكان الصليب باهظًا فكدت أهوي تحته. وسألتُ بلهفةٍ: "ألا بدّ من أن أظلّ محرومةً من كلّ أزرٍ؟"، فأجابني باقتضابٍ:

"احمليه، فأَزري يكفيك!" فقلت، في سرّي: "حسنٌ، فهو صليبٌ واحدٌ، أستطيع حمله والسير به. ومع ذلك أنا شديدةُ الحزن".

في نهاية شهر تمّوز، عام ١٨٢٠، شرعت تروي رؤاها عن حياة يسوع، بمشقّةٍ أرهقتها. وفي نهاية آب التالي، كان "الحاجّ" قد جمع حصادًا وفيرًا. وقد أوضح في هذا الشأن: "كان المخلّص يظهر لعينيها ونفسها، ويريها ظروف حياته، والأشخاص الذين لعبوا فيها دورًا ما، وكلّ مسرح مسيرته الأرضيّة، وكلّ ما جرى من حوله، وأراها موطنه وشعبه، والطبيعة والتاريخ، وكلّ أفعاله في ساعة حدوثها، وبكلّ الحيويّة التي واكبتها، واقعيًّا، للمرّة الأولى، وعلى وقع تبدّل الأزمان والمشاهد، وتعاقب الأيّام والمواسم، وتحرّكات الجموع واحتفالاتهم بالأعياد الدينيّة. وعرض أمام ناظريها فخامة الاحتفالات في الهيكل القديم، وأسمعها مواعظه في أرياف الأرض المقدّسة، بكلّ ما أحاط بها من فتنةٍ وجمالٍ، جعلا منها صورةً من الفردوس. وأراها ما حدث من تطوّراتٍ داخليّةٍ، ونموٍّ كمينٍ، وثمار حياة المؤمنين الجدُد، منذ انغراس جذور الإيمان بابن الله الحيّ في النفوس، حتّى الاعتراف به من خلال استشهاد اسطفانُس. ورأت تطوّر سرّ يسوع في قلوب طلائع المؤمنين، وما نجم عنه من إشعاعٍ مطّردٍ منبعثٍ من شمس العدل. وبالإجمال لم ترَ الأُخت سوى انعكاس الحقيقة والتاريخ في مرآة نفسها النقيّة..."

يوم ١٨٢٠/٥/٦، صرّحت: "رأيت استشهاد القدّيس يوحنّا المعمدان، والعديد من علاقاته بالربّ. وقد سألني: "إذا زارك الربّ، وأحبّ أن يتناول الطعام عندك، فما عساك تقدّمين له، وأنت لا تمتلكين شيئًا؟" فأجبته: "سأقدّم له ذاتي، فليس لديّ ما أقدّمه سواها". وحينئذٍ جاء الربّ إليّ، فذابت نفسي كلّها في تأثّرٍ عذبٍ".

وقد علّق "الحاجّ" على جوعها إلى الإفخارستيّا بقوله: "جوعها إلى الأسرار غالبًا ما يتخطّى احتمالها، فتكاد تنهار".

عشيّة عيد ميلاد ١٨٢٠، كانت شبه محتضرةٍ، وقد اعترفت: "إنّي مملوءةٌ آلامًا تمزّقني شرّ تمزيقٍ. عطشٌ متلظٍّ يلهبني، ومع ذلك لا أستطيع إرواءه (خشية إثارة نوبات تقيّؤٍ) وقد أسهمت هذه الآلام في تخفيف آلام الأب لمبير".

وتنديدًا بإساءات بعض الكهنة وآثامهم، روت الرؤيا التالية: "رأيت مشهد التضحية بولدٍ، فتوسّلتُ الله أن يزيل هذا المشهد المريع عن نظري، فقال لي قريني الإلهيّ: "إليك مشاهد أفدح بشاعةً: انظري كيف يعاملوني في العالم أجمع". ورأيت كهنةً يحتفلون بالذبيحة الإلهيّة وهم في حالة خطيئةٍ مميتةٍ. كانت القربانة ملقيّةً أمامهم، مثل طفلٍ حيٍّ، ملقًى على الهيكل، ورأيتهم يقطّعونه، ويجزّئونه فوق الصينيّة، منــــزلين به أسوأ الجراح. وكانت تضحيتهم جريمة قتلٍ. ورأيت يسوع مسحوقًا، مقموعًا، معذّبًا، مضطهدًا، من خلال أعدادٍ غفيرةٍ من الفقراء الذين كانوا يسامون هذه المعاملة عينها".

يوم ١٨٢١/١/١٩، وجدها "الحاجّ" خارجةً من رؤيا، ومحيّاها يحاكي وجه ولدٍ نصف باكٍ، ونصف مبتهجٍ، وروت: "كنت على مقربةٍ من المغارة، ورغبت رغبةً مضطرمةً في مشاهدة الطفل يسوع، والتحدّث إليه... فجاء إليّ، وبسط معطفه بقربي، وجلس على طرفه. إنّه ليتعذّر عليّ وصف ما انطوت عليه هذه الرؤيا من عذوبةٍ ومتعةٍ، كما يتعذّر عليّ نسيانها، فهي غالبًا، وحتّى في غمرة آلامي، تفجّر فيّ ضحكة فرحٍ. لقد حدّثني يسوع الطفل بأسلوبٍ تغمره الصداقة، وروى لي الكثير عن تجسّده، وعن ذويه، ولكنّه لامني لومًا قاسيًا بسبب شكاواي المستمرّة، وصغاراتي. ومع ذلك أراني كيف جرت أموره، وأيّة أمجادٍ تخلّى عنها، والمكائد التي حيكت له منذ سنواته الأولى، ومدى ما احتمله من مهانةٍ، وسرد لي سيرة طفولته كلّها. وكم من الوقت انقضى قبل أن يتهيّأ له المجيء إلى الأرض، من جرّاء العقبات التي تمادى البشر في إقامتها، وفي تدميرهم للطريق. وأشاد بأفضال القدّيسة حنّة، وبمكانتها الشاهقة لدى الله. ووصف لي عيش مريم ويوسف في

الخفاء والإغفال والازدراء، وأراني لوحاتٍ تبرز ذلك. وروى لي رغبة المجوس في استصحابه مع مريم ويوسف، بعد أن تبيّنوا، في الحلم، الحنق المتفجّر في نفس هيرودس، وأشار إلى عمى جواسيس هيرودس عنه، لأنّهم كانوا يبحثون عن ابن ملكٍ، فلم يقيموا وزنًا لطفلٍ يهوديٍّ ثاوٍ في مغارةٍ..."

يوم ١٨٢١/١/٢٤، كتب "الحاجّ": "السعال وضيق الصدر تفاقما بحيث غدت (الأُخت) عاجزةً عن الكلام، وتكاد تختنق. وقد صلّى لها معرّفها، وألقى بطرشيلاً مطويًّا على عنقها وصدرها. وفي الحال وقعت في انخطافٍ، وارتسمت على محيّاها ملامح ورعٍ فرحٍ ومضيءٍ، وأمست تحاكي ولدًا محاكاةً تامّةً".

وكان يضاعف آلامها ويزيدها حدّةً احتضار الأب "لمبير"، في حجرةٍ محاذيةٍ لحجرتها، قبل أن يفارق الحياة في السابع من شباط. فقد كان ذلك الكاهن من أوفى أصدقائها، ومن أشدّهم دعمًا لها. وكانت قد نشأت بينهما علاقةٌ روحيّةٌ وثيقةٌ، لمّا كان مسؤولاً روحيًّا في الدير الذي انتمت إليه، فكان لها الأب الساهر اليقظ، وكانت هي له الابنة الوفيّة المطيعة، ومصدر عزاءٍ. العناية الإلهيّة كانت قد دعته من قلب فرنسا، كي يضحي حارس نفسٍ ناضلت، ربّما أكثر من أيّة نفسٍ أُخرى في حقبتها، ذودًا عن الإيمان المسيحيّ الذي كان عرضةً لأشرس الهجمات. وقد ارتضى ذلك الكاهن المنفى، ومكابدة الفقر والحرمان، بعد أن اكتشف الكنـــز المُغفَل والخفيّ عن العالم، المتمثّل في تلك الصوفيّة الغنيّة بالنعم والآلام الفدائيّة، العزلاء في مواجهة حملات الإلحاد الشرسة، فوطّن ذلك الكاهن النفس على مناصرة تلك البريئة المضطهدة، وقد شقّ عليه أن يشهدها متألّمةً صامتةً، ضحيّةً للشكوك والتنكيل، وتُهَم الخداع بسبب سماتها، ولا يزوّدها بالسكون والعزيمة وصفاء الفكر سوى تناول الإفخارستيّا.

يوم العاشر من شباط ١٨٢١، بدت الأُخت محتضرةً، مشوّهة القسمات. وأثناء الليل تقيّأت دمًا غزيرًا، وانتابتها، في النهار، نوباتٌ متعاقبةٌ من رعشة بردٍ،

وحمّى حارقةٍ... وبعد خمسة أيّامٍ، أنفذ إليها والد أحد الكرادلة دعوةً للإقامة وسط أُسرته، وتشجيعًا لها أنبأها أنّ معرّفها الأب الدومينيكيّ "ليمبير" (Limberg) قد عُيّن مرشدًا روحيًّا للمحلّة التي دُعيت إليها، لكيلا تُحرم الأُخت من رعايته الروحيّة. هذه المبادرة التي جاءت عقب أيامٍ قاسيةٍ تلت وفاة الأب "لمبير"، قابلتها الأُخت ومعرّفها بكثيرٍ من الشكر والامتنان، ولا سيّما أنّه كان قد سبق للأُخت، في حومة الاضطرابات التي انهالت عليها، قد التمست عون الله كي تستطيع الحفاظ على سلامة نفسها، فدعاها الله إلى التذرّع بالصبر، ووعد بغوثها، وبتوفير السكينة لها، حتّى عندما يتخلّى عنها أوفى الأصدقاء، ويحتقرونها. وصلّت الأُخت ومعرّفها استجلاءً لمشيئة الله. وعقب أسابيع قدمت ابنة صاحب الدعوة مع صديقةٍ لها، وأكّدتا الدعوة، راجيتين تلبيتها بلا تلكّؤٍ. وكان قد سبق لتينك السيّدتين أن قضيتا بضعة أيّامٍ مع الأُخت "إيمّيريك"، وحاكتا معها علاقاتٍ ودّيّةً دائمةً. ومن جانبها أَلِفت الأُخت "أنّا كاتارينا"، الصلاة المتواترة من أجل تقدّمهما الروحيّ. ومن ثمّ كان لهذا العرض السخيّ وقعٌ جميلٌ في نفسها. غير أنّ عقباتٍ عديدةً قامت دون الاستجابة له، فقد أثار بين أطرافٍ مختلفةٍ، خلافاتٍ وصداماتٍ أحزنت الأُخت وأوقعتها في حيرةٍ. وانتهى الأمر بتعذّر تلبية تلك الدعوة، مع أنّ "الحاجّ" كان شديد الحماس لقبولها، وعلّق بحزنٍ: "الخصام والتوتّر يولدان تلقائيًّا من حولها". أمّا هي، ففي تواضعها وبساطتها، أخذت كلّ لومٍ وُجّه لها بهذا الشأن مأخذ الجدّ، وحزنت، ولكنّ الله تداركها برؤى أشاعت في نفسها العزاء. وأخيرًا انتقلت إلى حجرةٍ زريّةٍ وأسوأ حالاً من سابقتها، في بناءٍ آخر.

وكان "الحاج" قد أفلح في إقصاء ابنة أُختها عنها، وفي عزل الأُخت عن العالم، أملاً في حملها على الانصراف بكلّيّتها لسرد رؤاها. ولكن، خلافًا لتوقّعه، زادها غياب الطفلة توتّرًا، وقلقًا وتشتّتًا، ما زاد "الحاجّ" مرارةً، ونفاد صبرٍ.

وفي الملاحظة التالية التي دوّنتها الأُخت صورةٌ عن العلاقة الشائكة بينها وبين

"الحاجّ": "لقد أُجبر "الحاجّ" على أن يريني دفاتره. أنا لا أفهم كيف أعطى نفسه كلّ هذه الحقوق، وكيف استباح أمورًا كثيرةً. ومع ذلك، أنا أُمرتُ بتبليغه كلّ شيءٍ..."

وجاء في مدوّنات الحاجّ بتاريخ ١٨٢١/٨/١٠: "تفاقم مرضها اليوم، وتكرّر إفرازها عرقًا ممزوجًا بدمٍ. وقد غدت من الهزال بحيث لا تقوى على الكلام، ولا على تحريك يديها. ومع ذلك، تعكس تعابير وجهها سلامًا يستعصي على الوصف، وسجوًّا داخليًّا مفعمًا عذوبةً وصفاء نفسٍ. وإنّه ليصعب وصف مزيج عذوبتها وإعيائها. وقد صرّحت: "أنا، الآن، أفضل حالاً. وكلّما اعتراني مرضٌ تتحسّن حالي..."

وباستمرارٍ كان يُطلَب منها أن تتألّم من أجل خلاص خاطئٍ، أو تخفيف معاناة متألّمٍ. ومع ذلك، في غمرة آلامها المضنية لم ترفض، يومًا، استقبال زائرين، ولا سيّما المحتاجين إلى غوثٍ مادّيٍ أو روحيٍّ، أو عزاءٍ. ولا يكاد الزائرون يغادرونها حتّى تأخذ تتلوّى ألمًا، كانت قد تغلّبت عليه أو تناسته من أجل ضيوفها. ولكنّها، عندئذٍ، تصبح عاجزةً، أو غير راغبةٍ في سرد رؤاها. وهذا ما كان يثير حنق "الحاجّ".

يوم عيد مولد العذراء ظهرت لها أُمّ الله، وزفّت لها بشرى قدرتها على اجتياز بضع خطواتٍ، سيرًا على قدميها. فاستشارت معرّفها الذي وافق، بعد لأيٍ، على أن تخطو بضع خطوات داخل غرفتها. وفي الحال هبّت وارتدت معطفها، وخطت بضع خطواتٍ، انتهت بجلوسها على كرسيٍّ داخل غرفتها بضع ساعاتٍ. ثمّ عادت، مساءً، إلى فراشها. ومنذئذٍ أمست تسير بضع خطواتٍ، كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، مستعينةً، أحيانًا، بعكّازٍ أهداها إيّاه "الحاجّ"، وترتدي ثيابها بيديها.

كانت تتعرّض باطّرادٍ لنوبات سعالٍ توجعها، وتكاد تخنقها. وغالبًا ما تقيّأت دمًا وقَيْحًا. وكانت أعراض الآلام التكفيريّة التي تتحمّلها بدلاً عن آخرين هي عين الآلام التي هم يكابدونها. وحتّى عندما تتألّم عمّن يخضعون لمداخلاتٍ جراحيّةٍ تشعر بإجراء الجراحة على جسدها، وتعاني عواقبها. وقد طلب منها رجلٌ، يومًا،

الصلاة من أجل ابنه الذي كان يشكو من علّةٍ في عينيه، وتعاطفت معه، وفي الحال انتابها ألمٌ شديدٌ في عينها، امتدّ على مدى أيّامٍ، وأدّى إلى التهاب إحدى عينيها، وتبيّن أنّ جهة عينها المصابة هي نفس جهة عين الولد المصابة.

وكان الله يسيل إلى نفسها العزاء بإظهاره لها ثمار آلامها. فيوم ١٨٢٣/١٢/١٨، صرّحت: "فيما كنتُ أتحدّث إلى معرّفي، وأنا في حالة يقظةٍ طبيعيّةٍ، أُغمي عليّ، بغتةً، وبدا لي أنّني على شفير الموت. ولحظ معرّفي ذلك، فسأل: "ترى، ما مغزى ذلك؟" فأجبته أنّني شعرتُ بقوّةٍ تخرج منّي، ورأيت هذه القوّة على شكل أشعّةٍ تمضي بعيدًا، وتنسحب على عشرين شخصًا، من بلدانٍ مختلفةٍ. ورأيت أولئك الأشخاص مدعوّين إلى مقاومة قدرةٍ رهيبةٍ. وقد أنعشتهم القوّة التي حلّت عليهم. فامتلأت حبورًا..."

وكانت الأُخت تعي قيمة آلامها الفدائيّة، وتستمدّ منها غبطةً ورضىً. فقد ألفاها "الحاجّ"، ذات صباحٍ، منهكةً، محطّمةً، فريسةً لآلامٍ مبرّحةٍ، شاحبةً، منهارةً، ومع ذلك محتفظةً بوجهٍ ساكنٍ يفيض مودّةً، وبنفس ساجيةٍ، وكلّ كيانها يقطر طيبةً. وقد باحت: "أظنّ أنّني قد كابدت، هذه الليلة، كلّ الآلام وكل أوجاع الاستشهاد التي يمكن لجسدٍ بشريٍّ معاناتها. واكتملت هذه الآلام بأوجاعٍ مريعةٍ في أُذنيّ".

وفي نوبةٍ أُخرى، عرض أحد الكهنة عليها، وهي في حالة أوجاعٍ لا تطاق، أن يتلو عليها صلوات التعزيم علّها تخفّف عنها، فنهته موضحةً أنّ هذه الآلام التمستها، هي، من يسوع، كي تنقذ بها آخرين، فلا يمكن طلب إزالتها.

وذات يومٍ كان "الحاجّ" يصف لمعرّفها ما كانت تكابده من آلامٍ طاحنةٍ، بصوتٍ خافتٍ يتعذّر سماعه، وفي شبه همسٍ. ومع أنّ الأُخت كانت في حالة انخطافٍ، إلاّ أنّها اعترضت، منددّةً، وهتفت: "كيف تستطيع الجلوس وسط حديقتي، وتدوس هذه الأزاهير الجميلة؟". فآلامها، في يقينها، هي حديقة زهورها.

رؤى الكنيسة المضطهَدة

ذات صباحٍ وجد "الحاجّ" الأُخت وقد تورّم عنقها ولسانها. وبمشقّةٍ روت أنّها عانت آلام الصلب من جرّاء شدّةٍ جسيمةٍ ألّمت بالكنيسة، بسبب إهمال مسؤوليها وتخاذلهم، وخياناتهم. ومع أنّ أوضاع كنيسة بلادها كانت مريعةً، إلاّ أن ما رأته في كنائس بلدانٍ أُخرى كان أفظع وأدهى. وهذا ما بيّنته بروايتها: "رأيت كهنةً يرتادون ملاهي برفقة شبّانٍ ماجنين، في حين كان أبناء رعاياهم يموتون محرومين من الأسرار. ورأيت بدعةً سرّيّةً دائبةً على نسف كنيسة القدّيس بطرس من كلّ جوانبها. وكان أفرادها يستخدمون، لهذا الغرض، أدواتٍ من كلّ نوعٍ، ويجرون في كلّ اتّجاهٍ، حاملين حجارةً انتزعوها من البناء. كانوا قد عجزوا عن انتزاع الهيكل فتركوه في مكانه. ورأيت إيقونةً لمريم العذراء تُسرَق وتُدنّس. وقد أدهشني المدمّرون بعملهم المتقن والبارع. فقد كانوا يعملون وفق مخطّطٍ معَدٍّ سابقًا، ولا يحدثون ضجيجًا؛ كانوا متيقّظين لكلّ شيءٍ، ويستفيدون من كلّ شيءٍ، ويلجأون إلى خِدَعٍ من كلّ لونٍ. كانت الحجار تبدو كأنّها تتوارى من بين أيديهم. وكان بعضهم يعيدون البناء، فيدمّرون ما هو مقدّسٌ وعظيمٌ، ويبنون ما هو فارغٌ وأجوف، ونافلٌ، ويبنون بحجار الهيكل درجًا للمدخل. فرفعت شكواي إلى الحبر الأعظم، متسائلةً كيف يسمح لعددٍ غفيرٍ من الكهنة بالمشاركة في أعمال الهدم. وبهذه المناسبة أدركت سبب إقامة الكنيسة في روما... ورأيت أنّ روما ستبقى صامدةً مثل جزيرةٍ، مثل صخرةٍ وسط البحر، عندما سيتداعى كلّ شيءٍ من حولها وينهار. ورأيت كيف زوّد يسوع بطرس بهذه القدرة، بسبب وفائه واستقامته. ولّما قال له الربّ: "اتبعني"، كان بطرس قد أدرك أنّ مصيره، هو أيضًا، الصلب.

أيّامها الأخيرة ووفاتها

يوم الجمعة العظيمة لعام ١٨٢٣، صرّحت: "لن أشهد عيد فصحٍ آخر. وقد قيل لي إنّني سأموت قريبًا، ما لم يحدث تغييرٌ. إنّي أتضوّر جوعًا إلى القربان

المقدّس". وكان يساورها حدْسٌ بأنّها إذا تخطّت عيد الجسد الإلهيّ فستحظى أيّامها بتمديدٍ. ولّما حلّ ذلك العيد كانت حالتها مريعةً، وخشيت أن تحول نوبات التقيّؤ دون قدرتها على تناول الإفخارستيّا، فالتمست من الله، وهي ترتعد وجَلاً، ألاّ يحرمها هذا العزاء، واستجيب دعاؤها، فتناولت، وتحسّنت حالها.

غير أنّ أوجاعها راحت تتفاقم شهرًا فشهرًا، فدوّن "الحاجّ": "لقد دخلتْ في سلسلة عذاباتٍ مريعةٍ، وهي تتحمّلها من أجل الكنيسة. إنّها تتعذّب، وتُصلَب. ويتورّم عنقها ولسانها، وتمضي قُدُمًا في الألم حتّى فقدان حواسّها، فتفقد القدرة على الكلام والرؤية. ومع ذلك لا تضعف ولا تتراجع، ولا تتخلّى عن رغبتها في أخذ آلام الآخرين على عاتقها، ومنها آلام عيني كردينالٍ. وكانت هذه الآلام من الحدّة، بحيث صاحت: "إنّ مطارق تضرب عينيّ".

ومع ذلك استمرّت في مشاطرة كلّ مُعانٍ من شدّةٍ روحيّةٍ أو جسديّةٍ. وقد دوّن "الحاجّ" عشيّة عيد ميلاد ١٨٢٣: "مع أنّ المريضة كانت، آنفًا، ترحّب وتبتهج بهذا العيد، هي، اليوم، على شفا الموت، بنتيجة الأوجاع التي أخذتها على عاتقها عن آخرين. إنّها عاجزةٌ عن الكلام، ولا تني تئنّ وتقحّ، وقد انتهت إلى دركٍ من الوهن يتعذّر وصفه".

وكانت قد رأت فتاةً تبتاع عقدًا رائعًا، بدافع العُجب والغرور، وخشيت تردّيها إلى انحلال أخلاقها، وفي سبيل وقايتها من هذا المصير، طلبت أن تعاني من الآلام، في عنقها وصدرها، بقدر ضربات المنقش والأدوات الأُخرى التي أنـــزلها الصائغ بالمعدن، من أجل صنع العقد...

وفي ما يلي تدويناتٌ يوميّةٌ تصف تطوّر حالتها الصحّيّة:

٦/١/١٨٢٤: "استهلّت السنة الجديدة، استهلالاً بائسًا فهي تعاني الحمّى، وآلام النقرس، وتشنّجاتٍ شديدةً، ولكنّها دائبةٌ، روحيًّا، على العمل من أجل الكنيسة، ومن أجل المحتضرين. وقد صرّحت، في هذا السياق: "لقد ألقى البابا

على كاهلي عبئًا باهظًا. كان معتلاًّ، متألّمًا من تدخّل البروتستانتيّين في شؤون الكنيسة، وسمعته، مئات المرّات، يقول إنّه يؤثر أن يُقتَل أمام كنيسة القدّيس بطرس، على أن يحتمل هذه التجاوزات. فعلى كرسيّ بطرس أن يظلّ حرًّا.

١٨٢٤/١/١٠: لا تني تئنّ وتتلوّى ألمًا، مثل دودةٍ، منتحبةً وكأنّها فريسة عذاباتٍ مبرّحةٍ. وقد باحت لمعرّفها: "حتّى الآن كنتُ أتألّم عن آخرين، والآن أتألّم عن ذاتي". وهي تستنجد بيسوع، بصوت من يحتضر.

١٨٢٤/١/١١: قالت: "يوم الميلاد أتاني يسوع بآلامٍ جمّةٍ وحادّةٍ. وعاد ليلة أمس بالمزيد منها".

وفي اليوم التالي عبّرت عن فداحة آلامها بأنّاتها المتواصلة، وبشكاواها المخنوقة إلى الله، وبالصلوات التي كانت تتمتمها ملتمسةً عونه، مع أنّها، آنفًا، كانت تلتزم الصمت في غمرة أقسى آلامها. وقد أعلن الطبيب أنّ وفاتها متوقّعةٌ في كلّ لحظةٍ. وهي تكثر في استدعاء معرّفها، كي توضح له رغبتها في كيفيّة التصرّف بالأشياء الزهيدة التي تخلّفها. إنّها تتقيّأ باستمرارٍ، وتمضي الليل جالسةً على سريرها، ولا تقوى على كبح أنّات الوجع، ومع ذلك تتجلّى على محيّاها أسمى دلائل الصبر، والوداعة، والاستسلام التامّ لاستشهادٍ مريعٍ. وغالبًا ما ينتابها الإغماء، وتنضح عرقًا يحاكي تعرّق الاحتضار.

١٨٢٤/١/١٣: أقرّت أنّ يسوع حدّثها عن آلامه، ومعاناة أُمّه، وما قاسيا من حرمانٍ، واعترفت: "إنّي أستسلم كالعمياء لاستشهادٍ مريعٍ، جاهلةً هل عليّ أن أموت أو أن أستمرّ في الحياة – فلتتحقّق فيّ مشيئة الله الخفيّة. إنّي، في قرارة نفسي، مرتاحةٌ ارتياحًا تامًّا، ولا أفتقر، في غمرة آلامي، إلى مواطن عزاءٍ كبيرةٍ. وفي هذا الصباح بالذات، غمرتني سعادةٌ كبرى.

١٨٢٤/١/١٦: "لا تبدو عليها من حركةٍ سوى انتفاضاتٍ يسبّبها الوجع.

يداها ترتجفان باستمرارٍ، وأنينها الوجيع لا يصمت. عيناها مغمضتان، ومحيّاها يعبّر عن الوقار، ويوحي بآلامٍ مريعةٍ. يظنّ طبيبها أنّها مصابةٌ بأكالٍ باردٍ، ولا يستشفّ أيّ رجاءٍ، بل يتوقّع وفاتها في كلّ لحظةٍ. بالإجمال حالتها تحطّم القلب، وهي تسوء لحظةً فلحظةً. حشرجاتها وأنّاتها متواصلةٌ، وعيناها مغمضتان، وجسدها كلّه قروحٌ".

١٨٢٤/١/٢٦: "للمرّة الأولى استدعت إخوتها وأبناءهم من القرية. لم تستطع التحدّث إليهم، ولكنّها طلبت منهم المكوث إلى جانبها بعض الوقت. وعندما ودّعها ابن أخيها الفلاّح، كلّمته بصوتٍ واضحٍ تقريبًا، وحثّته على سَوْق سيرةٍ صالحةٍ، وإبقاء الله نصب عينيه. وطلبت ألاّ يتجشّم والداه عناء المجيء إليها.

١٨٢٤/١/٢٧: "إنّها ميتةٌ أكثر منها حيّةٌ. وجنتاها مضرّجتان بحمرة الحمّى. يداها بيضاوان، وأماكن سمات الصلب تلتمع كالفضّة من خلال جلدها المشدود".

"طلبت أن تموت بصفتها راهبةً، وأن تشهد رئيسةُ جمعيّتها السابقة منحها المسحة الأخيرة. ثمّ تناولت القربان، ثابتة الجأش، بكامل وعيها، واستصفحت رؤساءها عن كلّ ما قد تكون ارتكبت من إهاناتٍ بلا قصدٍ. ثمّ لم تعد تكلّم سوى معرّفها، ونادرًا ابنة أُختها".

١٨٢٤/٢/٢: تمتمت: "ما أكثر الصنائع التي أغدقتها عليّ أمّ الله! ولكم وددتُ أن أمكث معها!" وبغتةً استدركت وقالت: "ينبغي أن أمتنع عن أيّ كلامٍ في هذا الشأن"، فقد كان كلّ مديحٍ يُكال لها يضاعف آلامها.

وبما أنّ السادس من شباط كان يوافق ذكرى وفاة الأب "لمبير"، فقد اتّخذت كلّ التدابير التي تضمن إقامة قدّاسٍ لراحة نفسه.

وغدت، كلّما احتدّت آلامها، تخاطب الله بصوتٍ واضحٍ، مردّدةً: "أيّها الربّ يسوع، آلاف الشكر لك عن كلّ مدّة حياتي! لا تكن مشيئتي بل مشيئتك!". وكانت تبتهل من أجل حماية ابنة شقيقتها، وابن أخيها الإكليريكيّ.

يوم الثامن من شباط كان النائب الأسقفيّ يصلّي على مقربةٍ منها، وفي لحظة وعيٍ، حاولت تقبيل يده، فرفض. ولكنّها سألته أن يحضر وفاتها. وإثر لحظات صمتٍ قالت: "يا يسوع، أنا أحيا من أجلك، وأموت من أجلك. تبارك الله... ما عدت أسمع شيئًا، ولا أرى شيئًا".

يوم التاسع من شباط، ناولها معرّفها منذ الفجر، للمرّة الأخيرة، فتلقّت القربان بورعها المعتاد. وكانت قد أسرّت له ليلاً أنّها أدركت معنى الألم، ولكانت باحت به له، لو امتلكت القدرة على ذلك. وبعد الظهر بدت عليها علامات دنوّ أجلها. وتفاقمت أوجاع ظهرها الذي كان قد تحوّل ساحة قروحٍ. وحاول المحيطون بها التخفيف عنها بتغيير وضع وسائدها، ولكنّها أبت قائلةً: "أنا على الصليب، وسينتهي كلّ شيءٍ قريبًا". وشدّت على يد معرّفها الذي كان يتلو صلاة المحتضرين، وشكرته، وودّعته. حينئذٍ دخلت شقيقتها، واستصفحتها، فحدّقت إليها مليًّا، واستوضحت معرّفها عمّا قالت شقيقتها، فأوضح لها أنّها تطلب الصفح، فأجابت بوقارٍ: "لا يوجد إنسانٌ على الأرض لم أسامحه". ثمّ انطلقت تكرّر قول: "تعالَ، إذن، ربّي يسوع!" وراح معرّفها يشدّ أزرها، ويدعوها إلى مشاركة آلام المخلّص الذي غفر حتّى للّصّ على الصليب، فقالت: "إنّ حساب جميع الذين حضروا الصلب، وحتّى القاتل المصلوب، أخفّ من حسابنا. فهم لم يتلقّوا من النعَم مثل ما تلقّينا. إنّي أسوأ من اللصّ المصلوب"، ثمّ أردفت: "أظنّ أنّني لا أستطيع أن أموت، لأنّ أشخاصًا طيّبين كُثُرًا يظنّون فيّ خيرًا، وهم مخطئون. أخبر الجميع أنّني لست سوى خاطئةٍ بائسةٍ... آه! لو استطعت أن أصرخ، فيسمعني البشر أجمعون أنّني أسوأ من اللّصّ الذي صُلب!".

وبعد أن هدئت وصمتت وافى النائب الأسقفيّ، وجثا أمام سريرها حيث قضى نحو ساعةٍ يصلّي خاشعًا.

عند الساعة الخامسة والنصف أعلن معرّفها: "انتهى الأمر". وكان في الحجرة

شقيق المحتضرة وشقيقتها، وابنة شقيقتها، والنائب الأسقفيّ، وجميعهم يصلّون ركوعًا. كان تنفّس المحتضرة يتباطأ، ويقصر، وقد طاف الوقار على محيّاها. وكان معرّفها قد وضع صليبًا أمام شفتيها، فحرصت على تقبيل قدمي المصلوب دون سائر جسمه. وبغتةً أبدت رغبةً في اعترافٍ أخيرٍ، فخرج الجميع، واعترفت هي بهنةٍ كان قد سبق لها الاعتراف بها مرّاتٍ عديدةً. وحينئذٍ همست: "الآن أنا مرتاحةٌ، وواثقةٌ كما لو أنّني لم أرتكب خطيئةً قطّ". وقبّلت الصليب مردّدةً: "أعنّي، يا ربّ، ساعدني، يا يسوع ربّي!". وقرع المعرّف جرسًا صغيرًا منبئًا بدنوّ وفاة الراهبة. وكانت الساعة الثامنة والنصف.

وجاء "الحاجّ" ولمس يدها، تلك اليد التي أودع فيها الخالق قدرةً فائقةً على تعرّف كلّ ما هو مقدّسٌ ومباركٌ، بمجرّد لمسه، اليد المروَّضة التي كانت تستشفّ في كلّ عناصر الطبيعة، وحتّى في ذرّة التراب، جوهرها المقدّس، اليد المتواضعة المعطاء التي طالما أطعمت جياعًا، وكست عري فقراء وأدفأتهم، تلك اليد وجدها "الحاجّ" باردةً، فاقدة الحياة.

وأوكل المعرّف إعداد الجثمان للدفن إلى زوجة أخيه. وعلّق "الحاجّ" على ذلك الخيار بقوله: "لم يكن ممكنًا إيجاد يدَين أشدّ تواضعًا. فهي كانت تقيم لتلك المهمّة شأنًا كبيرًا، وتعدّها نعمةً وامتيازًا". وقد أدّت السيّدة تلك المهمّة يوم الأربعاء الحادي عشر من شباط، وأقرّت أنّها، تلبيةً لوصيّة المتوفّاة، لفّت جثمانها كلّه بكفنٍ كبيرٍ، ولاحظت أنّ رجليها كانتا مضمومتين إحداهما إلى الأُخرى ضمًّا وثيقًا، وتجلّت سمات الصلب في يديها وقدميها أشدّ حمرةً من المألوف. ولمّا نقلتها من سريرها تدفّق من فمها دمٌ وماءٌ. ومع أنّها كانت قد أوصت بأن تودع في نعشٍ مسرفٍ في البساطة والفقر، كان قد جيء لها، ظهر يوم الخميس، بنعشٍ جميلٍ. وكانت كلّ أعضائها ما زالت ليّنةً، طريّةً، وقد اكتسى وجهها منظرًا بهيًّا.

وتمّ دفنها يوم الجمعة، الثالث عشر من شباط ١٨٢٤، في موكبٍ حافلٍ

مهيبٍ، لم تشهد له مدينة "دولمن" مثيلاً. اشترك به جميع الكهنة والوجهاء، وتلاميذ المدارس، وجميع فقراء المدينة.

وكانت الأُخت "أنّا كاتارينا" قد كلّفت معرّفها بالحرص على أن يقيم النائب الأسقفيّ قداديس من أجل راحة نفسها مدى تسعة أيّامٍ متتاليةٍ، في كنيسة القدّيسة حنّة، وأن تضاء شموعٌ أمام صورة تلك القدّيسة. وكانت قد طلبت، أيضًا أن تُدفَع حسناتٌ لامرأةٍ عاملةٍ فقيرةٍ، كي تقوم، مع أبنائها بدرب الصليب على امتداد تسعة أيّامٍ متعاقبةٍ، أيضًا.

وجاء في تقرير طبيب الأُخت: "لقد عانت، طوال الشتاء، آلامًا رهيبةً في عينيها. ولّما قضيتُ على الالتهاب الخارجيّ بالوسائل المعهودة، هاجم المرض داخل حدقة العين بعنفٍ، وأخفقت كلّ العلاجات المستخدمة في شفائها. وقد فسّرت الأُخت أسباب هذا الفشل، وهي في حالة انخطافٍ، موضحةً أنّ العلّة التي مُنيت بها هي ثمن عملٍ كُلِّفت به تعويضًا عن آخرين، وأنّ هذا العمل سينتهي بحلول عيد الميلاد. وفي الواقع برئت علّتها برءًا تامًّا غداة عيد الميلاد. غير أنّ سعالاً تشنّجيًّا مؤلمًا عقب علّة عينيها. وقد توقّعت وفاتها، عدّة أسابيع قبل حصولها، وودّعت ذويها أُسبوعين قبل رحيلها، بطريقةٍ جديرةٍ بالإعجاب. وفي أيّامها الأخيرة لم تكلّم سوى معرّفها، وكرّست السوَيْعات المتبقّية لها للصلاة الداخليّة. وحافظت، في غمرة آلامها المضنية، وحتّى نَفَسها الأخير، على صبرٍ صامدٍ، وطيبة خاطرٍ، ومودّةٍ غامرةٍ، كانت تعبّر عنها، عندما يستعصي عليها الكلام بشدّ أيدي المحيطين بها.

"صباح يوم التاسع من شباط بدت مريعة المنظر، واستحوذت عليها أوجاعٌ عتيّةٌ حتّى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، واتّضح أنّ صراعها مع الموت قد بلغ غاية شوطه. فكان نبضها يتلاشى، والبرد يجتاح أطرافها، ولكنّها استعادت سجوّ نفسها، حتّى النهاية، محتفظةً بكامل وعيها، وكان موتها مثاليًّا، كما كانت سيرتها كلّها".

وعرض مسؤولون هولنديّون شراء الجثمان بمبلغٍ طائلٍ. وبالطبع رُفض عرضهم وآن لتلك المعذَّبة أن تخلد إلى الراحة.

لا ريب أنّها استحقّت لآخرين نعمًا جلّى. غير أنّ مسؤولين كنسيّين لم يقتصروا على إهمالها، بل حاربوها وغمروها بالشائعات المهينة، والتهم الباطلة. ومع ذلك كانت هي المبادرة إلى استغفارهم قبل وفاتها.

وعقب مضيّ ستّة أسابيع على وفاتها، سرت شائعاتٌ ببيع جثمانها إلى هولنديّين، أثارت عاصفةً في مدينة "دولمن"، وبات لا مفرّ من تهدئتها بنبش القبر، وتبيان الحقيقة. وفُتح القبر بإشراف سلطاتٍ مدنيّةٍ ودينيّةٍ، فتبيّن أنّ الجثمان ما زال مثلما دُفن، ولم تمتدّ إليه يد الفساد، ولم تنبعث منه روائح تعفّنٍ. لا بل اتّضح أنّ وجه الميتة اكتسب جمالاً لم يكن يتمتّع به ساعة الموت. ولا بدّ من التنويه بأنّ الأُخت "أنّا كاتارينا" كانت قد تنبّأت، في أثناء حياتها، بأنّ قبرها سيُفتح.

في كاتدرائيّة نفسٍ

الفصل الثاني

« سأُعطيكِ من جراحاتي ما تفينَ به ديون الخطأة.
فهذا هو الينبوع الذي ترتوي منه كلُّ نفسٍ. »

(من أقوال يسوع في الصوفانية)

رؤاها

من أكثر ما اشتُهرت به الأُخت "أنّا كاتارينا" رؤاها التي أطلعتنا من خلالها على العديد من تفاصيل حياة يسوع وأُمّه، وذويه، وأتباعه، وأعدائه، وعلى مسيرة الكنيسة بما حفلت به من أمجادٍ وإنجازاتٍ، وأيضًا من كبوات مسؤوليها، وأخطاء خدّامها، مؤكّدةً صمودها رغم كلّ الزلازل التي هزّتها، والسهام التي انصبّت عليها، والتي فشلت في تقويضها، وأكّدت انتصارها النهائيّ، بقوّة مؤسّسها.

فمع أنّ الأُخت التصقت، معظم أيّام حياتها بفراش الألم، ولم تقوَ على مغادرته، إلاّ أنّها، جابت بالروح، في الزمن والمدى، ما لم يجتزه رحّالةٌ قطّ، وحملتها رؤاها إلى كلّ أصقاع المسكونة. فهي، منذ طفولتها، نعمت برؤى خارقةٍ، ومنها تعلّمت ما عمي، لا على أترابها فحسب، بل على معلّميهم، وعلى كثيرين من المتعلّمين ومن مُدّعي العلم. وقد واكبها في ترحالها يسوع وكوكبةٌ من ملائكته وقدّيسيه، وأطلعوها على أسرار الكون، فاستطاعت القول: "بحمد الله، ومع أنّني لم أقرأ شيئًا، كان حسبي أن أُلقي نظرةً على كتابٍ حتّى ينتابني شعورٌ بأنّني أحفظه عن ظهر قلبٍ". وكان ما ترويه الكتب عن سيَر القدّيسين يبدو باهتًا حيال ما عرفته هي عنهم. حتّى يمكن القول إنّ الرؤى زوّدتها بمعارف موسوعيّةٍ.

وقد أقرّت: "لم تكن تلك الرؤى تخطر لي ليلاً، فقط، بل كانت تحدث، أيضًا، في وضح النهار، في الحقول، وفي المنـــزل، وأنا أسير أو أعمل، أو أكون منهمكةً بشتّى المهامّ".

وفي غروب حياتها، باحت لمدوّن رؤاها: "كنت أعدّ رؤاي كتاب صورٍ، أتصفّحه بهدوءٍ وسلامٍ. أمّا ما يتعلّق بالأمور الروحيّة، فلم أُومن، يومًا، إلاّ بما أعلنه وأوحاه الربّ، وقدّمه لإيماننا من خلال الكنيسة الكاثوليكيّة. ولم أُولِ رؤاي، قطّ، ما أوليته من إيمانٍ راسخٍ لتعاليم الكنيسة، بل كنتُ أُحِلّ تلك الرؤى منـــزلةَ مغارات الميلاد المتباينة، التي أتخشّع فيها، هنا وهناك، ولا يقلقني تعدّد أشكالها، ما دمتُ، في كلٍّ منها، أصلّي للطفل يسوع عينه".

بعضٌ من رؤاها لا يتعدّى كونه رموزًا على غرار رؤيا القدّيس يوحنّا، أمّا رؤاها المتعلّقة بيسوع والعذراء، فهي أقرب إلى مشاهداتٍ واقعيّةٍ، وهي تضيء لأذهاننا بعض مقاطع الإنجيل.

حبّها ليسوع وأمّه كان نُسغَ حياتها التي أنفقتها في تأمّل مراحل حياة الربّ، والغوص تمعّنًا في تعاليمه. وكلّما توغّلت في تأمّل عقائد إيمانيّةٍ، أو في استقراء سيرة يسوع كانت تلك السيرة والتعاليم تمثل أمام ناظريها بكلّ تفاصيلها وواقعيّتها، نابضةً حياةً.

كان يلازمها شعورٌ، أثناء رحلاتها الروحيّة، أنّها كانت تسافر جسديًّا، وواقعيًّا، ناعمةً بما نعمت به قلّةٌ من المختارين، أي الوجود في مكانين مختلفين، تفصل بينهما مسافاتٌ شاسعةٌ، في آنٍ واحدٍ. وحيثما وُجدت كانت تستطيع إغاثة أشخاصٍ في مِحَنٍ. والأمور التي كانت تُكلَّف بمعالجتها كانت تعطى معرفتها معرفةً عميقةً، والأشخاص الذين كانت تُكلَّف بإغاثتهم كانت تعطى معرفتهم عن كثب. أمّا المظاهر الخارجيّة، التي لم يكن لها كبير شأنٍ في مهمّتها الفدائيّة، فكانت تشاهدها مشاهدةً فضوليّةً سطحيّةً، غير أنّها، بفضل تلك الأسفار، عبر الأقطار، أمتعتنا بمشاهد مرابع جمالات الكون، وأطلعتنا على تواريخ الشعوب وتقاليدها، وتوقّفت بنا عند محطّات الخلاص، ومواقع القداسة، وبصمات الله في كلّ مكانٍ. ولا ريب أنّ كلّ ما يتّصل بحياة يسوع الأرضيّة كان جوهر رؤاها، وإن جاءت رواية رؤاها على أمورٍ جانبيّةٍ عديدةٍ، فلأنّ لا شيء في الأرض وفي السماء ينفصل عن شخص يسوع الإلهيّ.

ومن المحقّق أنّ هذه الرؤى ترتدي قيمةً فائقةً، لأنّها تمثّل أسرار خلاصنا، مُدرجةً في إطارها التاريخيّ والجغرافيّ. فقد واكبت كلّ مسيرة الخلاص، منذ العهد القديم، ورأت مواكب الذين دُعوا إلى المساهمة في سرّ التجسّد، وسيَرهم بأدقّ تفاصيلها، والنعَم التي أسبغها الله عليهم، وثمار فضائلهم، واستمرارها جيلاً فجيلاً.

وفي الآن عينه رأت عمل جهنّم، ومنشأ عبادة الأصنام وانتشارها، وتعدّد ألوان الضلال التي يلهمها وينشرها إبليس، في سبيل إعاقة التقدّم السليم الوحيد، وهو تقدّم حلول الملكوت.

لقد تأمّلت، يومًا فيومًا، تاريخ الفداء، واقتفت خطوات المخلّص، واستمعت إلى كلّ خطاباته، وشاهدت معجزاته العديدة، ووصفت البلاد التي عبر بها، وسواقيها وجبالها وغاباتها، وأشكال مبانيها الهندسيّة، وكتاباتها اليونانيّة والعبريّة. وقد أثبتت الأبحاث التاريخيّة والجغرافيّة دقّتها. حقًّا، لقد زوّدتنا تلك القرويّة الأُمّيّة الفقيرة بكنوزٍ أثريّةٍ تزري بأبحاث أوفر العلماء تبحّرًا في البحث، وألقت الضوء على ثروات دفينةٍ من إرثنا المسيحيّ. وحسبنا ذكر البيت الذي قضت فيه العذراء أيّامها الأخيرة مع الإنجيليّ يوحنّا، على تلّةٍ مطلّةٍ على مدينة أفسس التي تحتلّها تركيّا اليوم. وقد تمّ اكتشاف هذا البيت بتتبّع وصف "أنّا كاتارينا" لموقعه، كلمةً كلمةً، وخطوةً خطوةً. وقد ألفت الأُخت أيضًا أنوارًا كاشفةً على جماعة الأسّينيّين الذين ظلّوا شبه مجهولين حتّى العثور على مخطوطات البحر الميت، كما أنّها زوّدتنا بتفاصيل هامّةٍ عن قطع رأس يوحنّا المعمدان وما واكبه من مجونٍ وإجرامٍ.

وربّما كان من أخطر ما كشفته الأُخت قضيّة كفن يسوع المقدّس، المحفوظ حاليًّا في مدينة "تورينو" الإيطاليّة، والذي دوّى أمره في دنيا الإعلام عام ١٨٩٦. وكانت الأُخت إيمّيريك قد أشارت إليه عام ١٨٢١ من خلال روايتها لزيارة السيّدة "سيرافيا" (المعروفة باسم "ڤـــيرونيكا") إلى الإمبراطور الرومانيّ المعتلّ، والذي برئ من علّته بمجرّد رؤيته لصورة يسوع المصلوب مطبوعةً على الكفن.

وتركت لنا الأُخت إيمّيريك وصفًا دقيقًا لأزياء نساءٍ فلسطينيّاتٍ، وأُخرياتٍ وافينَ من خارج فلسطين لرؤية يسوع والتماس شفائه لهنّ. وفي هذا الوصف دليلٌ إضافيٌّ على مصداقيّة رؤاها وروايتها لها، إذ لم يكن من اليسير على أوروبيٍّ من القرن الثامن عشر، لم يغادر وطنه، يومًا، أن يتخيّل تلك الأزياء، ويصفها وصفًا دقيقًا مطابقًا.

وكانت الأُخت تروي ما رأته، بلا تعليقٍ، ولا إبداء رأيٍ، ولا إعداد مسبّقٍ، ولكن بتفاصيل دقيقةٍ تضفي على رؤاها مصداقيّةً لا سبيل إلى دحضها. فهي لم تكن تتخيّل الأشياء، بل كانت تشاهدها عيانًا، بفضل سرٍّ من أسرار الله. فكانت روايتها لرؤاها تعكس بأمانةٍ ما رأت. ولكنّها قد لا تجد، أحيانًا، العبارة الملائمة، عندما تتعلّق الرؤى بأمورٍ يصعب التعبير عنها تعبيرًا بسيطًا.

كانت لوحات تاريخ الخلاص تخطر أمام عينيها، في إطار زمانها ومكانها وأشخاصها، ومثلما جرت واقعيًّا، فتشهدها كما شهدها معاصروها مع أنّ عشرات القرون تفصلها عنها. غير أنّ رؤيتها لها كانت أعمق وأبعد نفاذًا وإدراكًا ممّا رآها شهود العيان، لأنّها كانت تشهدها بعيون الإيمان، وكانت ترى، في آنٍ واحدٍ، الأحداث وعواقبها، وتداخلها تداخلَ حلقات سلسلةٍ. وكان ذلك يمكّنها من فهمٍ أعمق للعقائد الإيمانيّة. ومن ثمّ غدت كلّ صلاةٍ كنسيّةٍ، وكلّ كتابٍ مقدّسٍ، يولّدان في نفسها صورًا حيّةً لأحداث الفداء، ويضفيان على الكلمات معانيَ تضجّ حياةً. غير أنّ كثيرًا ممّا كانت تراه بقلبها لا بعينيها، لم تكن تجد للتعبير عنه أو لوصفه، كلماتٍ. وغالبًا ما كانت رؤاها تحجب عن بصرها الأشخاص المقيمين بجوارها. وكانت تحيا رؤاها، فإن هي، مثلاً، كُلِّفت، في الرؤيا، بحراثة حقلٍ، أو تشذيب كرمٍ، تستفيق في الصباح، منهكةً، موجعة اليدين.

ولا ريب أن تفاصيل رؤاها قد فتحت لنا نوافذ على الحياة اليوميّة التي ساقها يسوع في الجليل واليهوديّة، يومًا فيومًا، ممارسًا إنسانيّته ببساطةٍ بشريّةٍ، وألوهته ببساطةٍ ساميةٍ، وترينا كيف ذرع دروب فلسطين، وكيف تكلّم وعلّم، وعمل وسط لغط الجماهير ودهشتها.

ولم تندرج كلّ رؤاها على أرض الواقع الأرضيّ، بل جرى بعضها في محيط السماء. وقد فاق بعضها كلّ وصفٍ، لأنّها غاصت في لجّة السرّ الإلهيّ. وكانت، من خلال بعض رؤاها، تتلقّى تعاليم وإرشاداتٍ، على شكل مشاهد مادّيّةٍ تذكّر

بأمثال الإنجيل. وكانت، أثناء انخطافاتها، تُفصح، أحيانًا، عمّا تراه، وتكشف عن وقائع لاهوتيّةٍ عميقةٍ، بعباراتٍ فائقة البساطة.

ولطالما تساءلت، إثر رؤى تتخطّى إدراكها سموًّا: "علامَ أرى كلّ هذا، أنا الخاطئة البائسة، وأنا لا أستطيع الإفصاح عنه، لأنّني لا أفقه منه شيئًا"؟ وتتابع: "حينئذٍ قال لي دليلي: ستقولين ما تستطيعين قوله. وليس بوسعك إحصاء عدد الذين سيقرأونه، يومًا ما، والنفوس التي ستستمدّ من روايتك العزاء، وتتحوّل صوب الخير. وسيُصاغ ما ستروينه بأسلوبٍ مفهومٍ، وسيؤتي خيرًا لا يمكنك تخيّله".

فمن المحقّق أنّ الأُخت "أنّا كاتارينا" لم تكن بحاجةٍ إلى تلك الرؤى لكي تدعم إيمانها الراسخ. ولكنّنا نحتاج إليها نحن الذين فقدَ ماءُ عمادنا مفعوله، وتحوّل جليدًا. ولذلك استنبط الله آلةً تُسمع الصمّ، وتوري النار في الجليد. وصاغها وصقلها بالألم، وبأوجاعٍ مريعةٍ تقبّلتها باندفاع حبٍّ لاهبٍ.

وذات يومٍ التمست من الربّ أن يُقصي عنها الرؤى التي لا تدرك معناها وأبعادها. فقيل لها: "ليست هذه الرؤى من أجلك، بل لكي تبلّغيها. هكذا فعلتُ في كلّ زمانٍ كي أُظهر أنّي مع الكنيسة حتّى آخر الدهور. الرؤى، وحدها، لا تضمن خلاص أحدٍ، بل عليك أن تمارسي المحبّة والصبر والفضائل كلّها". وفي مناسبةٍ أُخرى طلب منها الربّ أن تروي رؤاها حتّى إن عدّها العالم مجنونةً، وإن رفض رجال دينٍ تصديقها.

كُلِّفت، إذن، تلك الأُمّيّة المقعدة، بتدوين رؤاها، وهي لا تملك للتعبير عن أسرارٍ سماويّةٍ سوى عباراتها القرويّة. ولكنّ الله هيّأ لها خير من يضطلع بمهمّة التدوين، وهو الشاعر الألمانيّ "كليمنس برينتانو"، الذي كان من وجوه الأدباء الألمانيّين، آنذاك، ومن ألمع رفاق الشاعر العبقريّ "غوتيه" (Goethe). كان برينتانو، آنذاك، بعيدًا عن عالم الدين والروح، ووافى، صدفةً، إلى "دولمن" حيث كان يعتزم المكوث أيّامًا معدوداتٍ. ولكنّه اكتشف هناك كنـــزًا روحيًّا فريدًا، يستأهل أن يُضحّي، في سبيله، بكلّ أمجاد العالم، فمكث ستّ سنواتٍ إلى جانب

الأُخت إيمّيريك، حتّى وفاتها، ودوّن كلّ ما استطاعت إلى روايته سبيلاً من رؤاها. وكانت الأُخت قد رأته، روحيًّا، قبل مجيئه إليها، وتيقّنت أنّه هو من أوكلت إليه السماء وديعة رؤاها، وأطلقت عليه اسم "الحاجّ" الذي عرفناه به في هذا الكتاب.

عزف، إذن، "كليمنس برينتانو" عن مستقبلٍ أدبيٍّ متوهّجٍ، لكي ينصرف بكلّيّته إلى مهمّةٍ لا ألق اجتماعيًّا فيها، مهمّة تدوين الرؤى التي كانت الراهبة المقعدة ترويها له يومًا فيومًا. وكانت مشقّةُ تلك المهمّة متبادلةً. فالرائية ملزمةٌ بالإفصاح عن كلّ ما رأته وخبرته، والذي يعجز، غالبًا، الكلام البشريّ عن التعبير عنه، فكان عليها أن تبذل، في هذا السبيل، كلّ طاقاتها. والشاعر الذي تيقّن من سموّ كرامات الأُخت، نادرة المثال، كان يتوجّس خشيةً من تبديد تلك الكنوز، فائقة الطبيعة. غير أنّ تباين ميولهما ومواقفهما كان غالبًا مصدر توتّرٍ بينهما. فهو كان حريصًا على ملء كلّ دقيقةٍ من وقتها من أجل البوح بأكبر قدرٍ ممّا رأته، وسمعته وأوحي إليها به، فيما كانت هي لا تتحرّج من العزوف عن تبليغ رؤاها من أجل استقبال زائرين، أو لغوث محتاجين. وكانت، غالبًا، تؤثر معاناة الآلام الفدائيّة على رواية رؤاها. وكم كان الشاعر، "الحاجّ" يحزن كلّما شغلتها زائرةٌ فضوليّةٌ عن واجبها المقدّس، واجب رواية رؤًى فائقة السموّ، لأنّ دوافع محبّتها كانت تطغى، غالبًا، على كلّ واجبٍ آخر! هذا فضلاً عن الأيّام والأسابيع التي كانت تعتورها وتملأها آلامٌ مريعةٌ، فيضطرّ "الحاجّ" إلى انتزاع نُتَف اعترافاتها وكأنّها اعترافات محتضرةٍ.

وفي الواقع، حظيت الأُخت "أنّا كاتارينا"، على غرار رائياتٍ سابقاتٍ، بنوعين من الانخطافات: انخطافاتٍ رفيعة المستوى، كانت قد انحفرت كلّ تفاصيلها في أعماق قلبها وذاكرتها، فكانت ترويها بعباراتٍ واضحةٍ، محكمةٍ، سماويّةٍ، تستثير ذهول "الحاجّ"، في حين كانت تتعثّر في سرد انخطافاتٍ من مستوى أدنى، مستخدمةً طاقاتها التعبيريّة المتواضعة، فكان "برينتانو" يمعن في الاستيضاح، واستبيان التفاصيل كي يصوغها بلغةٍ مفهومةٍ، وكان يقرأها عليها، فتظل تصحّحها مستبدلةً لفظةً هنا، وعبارةً هناك، حتّى تتأكّد من مطابقتها الكاملة للواقع. وبذلك

كان كلٌّ من الرائية والمدوّن يحقّق مشيئة العناية الإلهيّة. ومن المحقّق أنّ برينتانو كان يجهل الكثير ممّا يدوّنه، وممّا ورد من إشاراتٍ جغرافيّةٍ ولغويّةٍ، وتقاليد شرقيّةٍ قديمةٍ، ولا سيّما أنّ الرائية، أثناء مواكبتها يسوع، كانت تحيا في فلسطين أكثر ممّا تعيش في مدينةٍ ألمانيّةٍ، وكانت تشاهد وتصف أحوال الفلسطينيّين، وأعمالهم اليوميّة، وأزياءهم، مسمّيةً الأشياء بالأسماء التي يعرّفها بها أهلها.

وسرعان ما اتّضح للحاجّ أنّ أوفر المواهب الأدبيّة عبقريّةً، لا تتعدّى كونها ظلاًّ باهتًا حيال الشمس التي كانت تضيء تلك الراهبة الأمّيّة، ولذلك كان حريصًا على ألاّ يحوّر من أقوالها حرفًا. ومع ذلك لم يتورّع بعض ذوي النفوس الزاحفة في المستنقعات والتي ترعبها الذرى، والعيون الحسيرة التي لا تقوى على مواجهة النور، من اتّهام "برينتانو" بالتصرّف على هواه بأقوال الرائية، وبتنميقها حسب ذوقه.

والواقع أنّ "برينتانو" وجد في تلك الراهبة المقعدة، النبوغ الشعريّ الذي كان قد اكتشفه لدى "غوتيه" وأُعجب به، وكان نبوغ الراهبة متجسّدًا، مصلوبًا، فائق السموّ، فتلك الصوفيّة كانت تحيا في العالم ببدهيّةٍ مدهشةٍ، ترتقي وتنحدر بكلّ بساطةٍ، على السلّم الذي يصل المألوف بالسامي، وكانت تنتقل بيُسرٍ بين مشاعر البهجة ومشاعر الكآبة الإلهيّة، وكانت كلاًّ للجميع لأنّ الجميع يخصّون الكلّيّ. وقد تميّزت موهبتها بطاقة رؤيا منقطعة النظير، صفاءً، وعمقًا، ودقّةً، وسعة مدى.

وهي بقدر ما التزمت بما جاء في الإنجيل، بنفس القدر أضافت إليه تفاصيل ممتعةً، فقد نعمت بومضاتٍ أنارت الماضي والحاضر. وبرهنت الاكتشافات التي أسفرت عنها رؤاها صحّة تلك الرؤى، ودقّتها.

لقد قرأت التاريخ، كما يراه الله، حيث يندمج الماضي والحاضر والمستقبل في مشهدٍ واحدٍ، لا مثل سمفونيّةٍ غير مكتملةٍ، بل مثل قصيدةٍ مكتملةٍ، ولكنّها لا تنفكّ تولد على وقع الزمن. لقد رأت الزمن من خلال الأبديّة، وامتلكت موهبةً نبويّةً، وخطرت بيُسرٍ على دروب الماضي والمستقبل. وفي سياق انخطافاتها جابت العالم، فعادت مريضًا في المشرق، وآخر في أقصى الغرب.

وقد قرنت، حتّى أرفع مستوى، مَلَكَتَيْن مختلفتَيْن، مَلَكة الاستعارة، والمجاز، والرموز الشعريّة، من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر المَلَكة التاريخيّة التي تحيي الأحداث في أدقّ تفاصيلها. وهي، بذلك، تكاد تكمل الإنجيل الضنين بالتفاصيل، بما أضافته من أحداثٍ صغيرةٍ، ولكنّها حافلةٌ بالمغزى.

كانت مواطنة الأُخت "إيمّيريك"، الصوفيّة الألمانيّة القدّيسة "هيليغارد" (١٠٩٨-١١٧٩) قد قالت:

« يصعب على إنسانٍ خاضعٍ لتأثير الحواسّ إدراك الانخطافات والرؤى... إنّي أتلقّى رؤاي، وفقًا لمشيئة الله، في اليقظة، وفي وضوحٍ لا يشوبه أيّ ضبابٍ فكريٍّ، وبعين الإنسان الداخليّ وأذنيه، وفي أماكن مشرعةٍ للجميع... الله يعمل حيث يشاء من أجل تمجيد اسمه، لا من أجل تمجيد الإنسان الأرضيّ. إنّي في وَجَلٍ وقلقٍ دائمَيْن، لأنّني لست أجد في ذاتي ما يؤهّلني لهذه الموهبة، ولكنّني أرفع يديّ نحو الله لكي يحملني مثل ريشةٍ لا وزن لها...في الرؤيا، وفقًا لمشيئة الله، ترتقي نفسي حتّى السماء، ومن خلال حركات الريح المختلفة، وتتوغّل بعيدًا، صوب شعوبٍ متباينةٍ تفصلني عنها مسافاتٌ شاسعةٌ. »

ولكأنّ القدّيسة هيلديغارد كانت تنطق بلسان الأُخت "أنّا كاتارينا".

ومن المحقّق أنّ الله لا يُري ذاته إلاّ لمن تغلّب حبّهم له على كلّ علاقةٍ أرضيّةٍ، وانعتقوا من كلّ ما يبعدهم عنه. فالنور الإلهيّ لا يسكن نفسًا لم تمت عن كلّ ميول حواسّها، وعن أناها، وعن كلّ تعلّقٍ بالخلائق يتعارض مع قداسة الله. ولذلك موهبة الرؤى نادرةٌ، لأنّ البشر الذين تمرّسوا بالطهر والتواضع، والاستسلام التامّ للمشيئة الإلهيّة هم نادرون. وقد احتلّت الطوباويّة "أنّا كاتارينا" موقعًا مميّزًا وسط هذه الفئة النادرة. فقد اندرجت حياتها كلّها في الخضوع لله، وفي حبّه المضطرم، ولم يجتذبها، يومًا، فضولٌ نافلٌ، ولم يُغوِها أيّ متاعٍ زائلٍ، ولم تتطلّع، قطّ، إلاّ إلى الله، وإلى ما يرضيه، ولم تنشد سلوى في أمورٍ أرضيّةٍ، ولم تُخضِع حكمها على الخلائق والمخلوقات إلا لنور الإيمان، ومعيار وصايا الله. وهي، على حدّ قول

مواطنتها القدّيسة "هيلديغارد"، كانت، دائمًا، ريشةً تطير كيفما يوجّهها الروح القدس. فكانت كلّ أفعالها، في حال اليقظة، كما في حال الانخطاف، تنطلق من مسكن الروح القدس الذي احتلّ قلبها.

وفي الختام، لا بدّ من التنويه بأنّ إيماننا لا يقوم على رؤى مهما سمت، فلا شيء يُغنينا عن الإنجيل الذي يحتوي كلّ مقوّمات عقيدتنا، وكلّ ما نحتاج إليه لخلاصنا. ولكنّ الإنجيل اقتصر على الجوهريّ، ولم يروِ كلّ عطشنا إلى تفاصيل عذبةٍ، وخلّف مساحات ظلٍّ يطمح فضولنا إلى غمرها بالنور.

أوَلم يختم الرسول يوحنّا إنجيله بقوله: "أشياء أُخرى كثيرةٌ صنعها يسوع لو كُتبت، واحدًا فواحدًا، لما ظننتُ العالم كلّه يسع الصحف المكتوبة"! فبارك الله من زوّدنا بصفحات تطلعنا على بعض ما لم يُكتب في الإنجيل، وتسعدنا معرفته. وقد لخّص "الحاجّ" نظرته إلى رؤى الأُخت إيمّيريك بقوله: "إنّها ملحمةٌ دينيّةٌ تندرج بين السماء والأرض، مستقريةً حقب التاريخ. إنّها تحاكي يمًّا جمًّا متدفّقًا من نبعٍ سرّيٍّ، يطهّر بمياهه الأرض، ويعكس روعة الشواطئ، والكنوز التي كدّستها القرون. إنّ هذه المياه النقيّة الشفّافة تتيح للعين التغلغل إلى الأعماق، مكتشفةً، وسط عالمٍ من العجائب، العلاقات الحميمة والسرّيّة بين الأشياء.

"هذه الرؤى كلّها مدموغةٌ بطابع الدقّة، وهي ليست، مثل رؤى الصوفيّة "داغريدا"، خواطر حول وقائع، بل هي لوحاتٌ بسيطةٌ نيّرةٌ عن الأحداث التي انعكست في نفسها انعكاس صورةٍ في مرآةٍ".

آلامٌ فدائيّةٌ

لا ريب أنّ آلام المخلّص كافيةٌ لفداء البشر أجمعين. ومع ذلك كلّ مسيحيٍّ مدعوٌّ – بقدر طاقته، وبالأُسلوب الذي يلائم مواهبه – إلى المشاركة في عمل الفداء. وفي كلّ زمنٍ يختار الربّ نفوسًا سخيّةً كي تعوّض عن تخاذل الجبناء، الذين

لا يكتفون بالإعراض عن مواساة جسد يسوع السرّيّ، وتخفيف وطأة آلامه، بل يمعنون في إرهاقه بخطاياهم، ويضاعفون آلامه.

ومن المحقّق أنّ النفوس المختارة التي تتطوّع لمواكبة يسوع في جلجلته هي نادرةٌ جدًّا، في حين أنّ الربّ ينشد العديد من أصدقاء أوفياء يكفّرون، طوعًا، عن عالمٍ ناشطٍ في ارتكاب الفظائع، ولا يني يتردّى، أعمق فأعمق، على دركات التخاذل، والانهيار الروحيّ، والغوص في دياجير الضلال، والاستسلام اللاواعي واللامبالي لقوى الجحيم.

وقد لبّت الأُخت "أنّا كاتارينا" دعوة الربّ هذه، وقابلت ما أغدقه عليها من كراماتٍ فريدةٍ بمشاركة آلامه، مشاركةً فرحةً سخيّةً، وأشرعت قلبها وذراعيها لأشدّ الآلام ضراوةً، علّها تخفّف شيئًا من آلامه الفدائيّة، ومن أوجاع إخوته المعذّبين، في دنيا البشر، ومن أوصاب جسده السرّيّ الذي تمثّله الكنيسة، وعلّها تكفّر عن غيضٍ من فيض طوفان الخطايا الذي يغمر المسكونة، ويجرح قلب الخالق الفادي.

فكانت حياتها كلّها سلسلةً متّصلةً من الآلام الفدائيّة. وقد كانت في إحدى رؤاها تتأمّل عذابات الشهداء وبطولاتهم، وتمنّت أن تلقى مثل مصيرهم، فقال لها ممثّلٌ عنهم: "نحن نتعذّب مرّةً واحدةً، أما أنت فعليك أن تعاني الاستشهاد في كلّ لحظةٍ. نحن لنا عدوٌّ واحدٌ، أمّا أعداؤك فكُثُرٌ".

وكان حبّ الله قد نمّى فيها، منذ صباها، رغبةً حارقةً في التألّم من أجل يسوع، ومن أجل إخوته المعانين. وقد أُلهِمَتْ، منذ طراوة عودها، كلّما شاهدت أترابها، في أثناء عبثهم، يقترفون أفعالاً مشينةً، أن تتمرّغ بالأشواك تكفيرًا عن ذنوبهم.

وقد استفسرها مرشدها الروحيّ، يومًا، عن صلواتها في صغرها، فاعترفت: "كنت أُصلّي من أجل الآخرين لكيلا يرتكبوا خطايا، وتفاديًا لهلاك أيّ نفسٍ، أكثر ممّا كنت أُصلّي من أجل ذاتي. كنت أسأل الله كلّ شيءٍ، وبقدر استجابته كنت أُمعن في السؤال ولا أكتفي أبدًا. كنت مسرفةً في جرأة توسّل الله، مدعومةً بيقيني أنّ كلّ ما أطلبه هو له، وأنّه يستعذب توسّلي له من كلّ قلبي".

وفي أثناء صلواتها المتمادية كان الربّ يريها لوحاتٍ لكوارث ومخاطر تهدّد النفوس والأجساد، ويتعيّن عليها درؤها بتوسّلاتها وتضحياتها. ومن خلال تلك اللوحات كانت ترى مرضى عيل صبرهم، وسجناء سحقهم الحزن، ومحتضرين غير مستعدّين روحيًّا، ومسافرين تائهين أو غرقى، وقومًا يعانون الضيق والانهيار، وآخرين واقفين على شفا الهاوية، وترغب رحمة الله في إنقاذهم بفضل الصلاة والتضحية. وكان الربّ يبيّن لها أنّها إن لم تبادر إلى غوثهم بصلواتها وتضحياتها، فلن يتولّى عنها أحدٌ تلك المهمّة، فيفقد أولئك المساكين جميع فرص الخلاص. وكانت محبّتها للمعانين تزوّدها بالجرأة، وبالبلاغة في التوسّل، وبالمثابرة في السؤال، بحيث تبدو لها الساعات التي تنفقها في هذا التوسّل مغرقةً في القصر. وكان يُخيَّل لذويها، وهم يشهدونها مستغرقةً في طلب غوث ملوكٍ أجانب، وشخصيّاتٍ مرموقةٍ، أو نكراتٍ مُغفَلين، أنّ عقلها مُسَّ بلوثةٍ، أو أنّها تمارس السحر، وكان هذا الظنّ يحزنها، ويُقلق ضميرها، فتلجأ إلى معرّفها لعلّه يبدّد هواجسها.

وغالبًا ما استغاثت بها نفوسٌ مطهريّةٌ، ولطالما ركعت، ليلاً، فوق الثلج، وصلّت من أجلها، باسطةً ذراعيها، إلى أن يجمّد الصقيع ظهرها. وهي، لكي تجعل صلواتها وتضحياتها أوفر ثمرًا، كثيرًا ما كانت تركع فوق لوحٍ خشبيٍّ له نتوءاتٌ حادّةٌ، أو فوق نباتات القرّاص، وتجلد ذاتها بها. ولطالما نالت عزاءً جمًّا عندما كانت النفوس التي خلصت بفضل صلواتها وتضحياتها تأتيها شاكرةً.

وكانت تحزنها رؤى المظالم النازلة بأبناء الله الضعفاء العزّل، المهملين، وكذلك أوجاع المرضى المتألّمين.

كانت تتحسّس كلّ احتياجات الآخرين وآلامهم، وتتمنّى تحمّل وقرها عنهم. وحينئذٍ كنت تعاني في جسدها وفي نفسها عللهم الجسديّة والروحيّة، ولا تبرأ منها حتّى يستعيد أولئك عافيتهم واستقرارهم وسكونهم.

وكان ملاكها يقتادها إلى جميع أرجاء المسكونة، وكلّ بؤر المعاناة، من سجونٍ

وأكواخٍ ومشافٍ، وكلّ مطارح البؤس والجريمة، ويريها مواكب من اليائسين والمنبوذين، والمنسيّين، في وطنها وفي الأوطان الأُخرى، وحتّى في روسيّا والصين، ومجاهل أفريقيا، فتواسي محتضرين مهملين، وتنقذ أشخاصًا من الموت، وتحول دون ارتكاب جرائم.

وفي سنتها الأخيرة على الأرض، شقّ عليها حؤول وهنها دون إتمام مهمّتها الخلاصيّة، وسألت الله أن يتيح لها، بصلواتها في الآخرة، إنجاز ما عجزت عنه على الأرض.

وكان يُطلب منها هبوط وديانٍ، عبر دروبٍ متعرّجةٍ تجتازها جاهدةً، متألّمةً، ممارسةً أعمال محبّةٍ وتوبةٍ، دائبةً على إرشاد الضالّين إلى سواء السبيل، وإنهاض الواقعين، وأحيانًا حمل المقعدين، وجرّ المقاومين عنوةً. وكانت هذه المهامّ تضاعف ثقل صليبها، فيتعثّر سيرها، وتنوء بالحمل، وتهوي أرضًا. ولطالما كُلِّفت بمهامّ شاقّةٍ وموجعةٍ، وتألّمت، وضحّت في سبيل أفرادٍ يواجهون مِحَنًا، وبعضهم غير مسيحيّين! ولطالما ابتُليت بأمراضٍ وأوجاعٍ مباغتةٍ، من أجل إعتاق مرضى مُهمَلين يعانون مثل هذه الأمراض والأوجاع عينها!

وكان كثيرون يلتمسون شفاعتها من أجل نوال شفاءٍ، أو نعمةٍ معيّنةٍ، ويخيّل إليهم أنّ ذلك لن يكلّفها سوى ترديد بضع صلواتٍ مألوفةٍ، غافلين عن الكلفة الحقيقيّة، المتمثّلة في كتلةٍ مريعةٍ من الآلام والتضحيات. ومع أنّ طالبي غوثها هؤلاء لم يكونوا يراعون هزالها ومعاناتها إلاّ أنّها كانت راضيةً بالأوجاع والأسقام، بما أنّها كانت تأمل منها شفاءً لآلام آخرين وإنقاذًا لنفوسٍ من الهلاك. وقد صرّحت في هذا السياق: "منذ يوم تثبيتي الرهبانيّ، لم أكفّ، لحظةً واحدةً، عن طلب معاقبتي عن الخطايا التي أراها تُرتَكب". وقد أنّبها ملاكها، ذات يومٍ، بسبب مغالاتها في تمنّي تحمّل آلام الآخرين. وإنّما كانت مغالاتها نابعةً من وعدٍ قُطِع لها بشراء خلاص الآخرين وشفائهم بثمن آلامها.

وكانت كلّ مواقع البؤس في العالم حقلاً مشرعًا لمبادراتها الفدائيّة، كما يتّضح من تصريحها: "غالبًا ما يقتادني دليلي صوب كلّ ألوان البؤس البشريّ. فأزور تارةً مسجونين، وطورًا محتضرين، وأحيانًا مرضى وفقراء، وأراقب، داخل البيوت، مطارح يسود فيها الخصام والخطيئة. وأرى، أيضًا، كهنةً سيّئين، وصلواتٍ سيّئةً، وانتهاكًا للمقدّسات وتدنيسًا للأسرار. وأرى أشرارًا يزدرون ما يُغدقه عليهم الربّ من نِعَمٍ، وأزرٍ، وعزاءٍ، وإنعاشٍ دائمٍ بواسطة القربان المقدّس، وأرى كيف يزورّون عن الأسرار، ويطردون الله بعيدًا عنهم، طردًا عنيفًا. وأرى جميع القدّيسين ينحنون عليهم بمبادرات غوثٍ رقيقةٍ. وأرى المعونات المخصّصة لهم من كنوز يسوع واستحقاقاته، التي يكلّف الكنيسة بإيصالها لهم. وأشكر يسوع عنها وأقول له: "أشفق على خلائقك البائسة المبتلاة بعمى البصيرة، فهي لا تعرف ما تفعل. آه! يا ربّ، احفظ هذه النعم للعميان الفقراء، احفظها لهم لنوبةٍ أُخرى، لعلّهم ينعمون بالعون. ولا تسمح بأن يهدروا دمك الغالي". وغالبًا ما يستجيب الله لتوسّلي، وأرى كيف يوصل نعمه إليهم، فيغمرني عزاءٌ جمٌّ".

وعقب إحدى رؤاها شخّصت الأُخت الرائية أسقام العصر، فقالت: "رأيت حشدًا غفيرًا من البؤساء المسحوقين المعذّبين، المضطهَدين، الآن، في أماكن مختلفةٍ، ومن خلالهم رأيت يسوع مهانًا. إنّنا نجتاز حقبةً رديئةً، حيث انتفى كلّ ملجأٍ من الشرّ، ورانت سحابةٌ كثيفةٌ من الخطايا على العالم، وبات الناس يرتكبون أدهى الفظائع بهدوء بالٍ، ولامبالاةٍ كلّيّةٍ. هذا ما رأيته فيما كانت نفسي تجوب بلدانًا عديدةً، في المسكونة كلّها".

وبالإجمال، آمنت الأُخت "أنّا كاتارينا" مثلما آمن كثيرون من المفكّرين واللاهوتيّين أنّه لا يمكن للإنسان أن يخلص بمعزلٍ عن سواه، وأنّ البريء يتألّم لكي يفتدي الآثمين، وأنّ الأبرار والخطأة يكوّنون، معًا، "شركة القدّيسين". قد ينتمون إلى عصورٍ مختلفةٍ، وقد تمتدّ عقودٌ بل قرونٌ بين فادين ومُفتدين، فليس لدى الله قبلُ وبعدُ، بل حاضرٌ دائمٌ، كما أنّ الأسباب والنتائج متشابكةٌ في نسيج التاريخ.

وليس فينا من يعلم أيّ دورٍ لعبته الأُخت إيمّيريك في حاضرنا وفي مستقبل أبنائنا. وهي لم تتحرّج من إعلان: "أمتلك قدرة رؤية كلّ شيءٍ من خلال كلّ شيءٍ، ولم يحجب أيّ إنسانٍ نظري عن إنسانٍ آخر".

آلام من أجل الكنيسة

تميّزت مسيرة الأُخت "أنّا كاتارينا" باتّحادها الحميم بالفادي الإلهيّ، الذي كرّمها بسمات صلبه المقدّسة، وأحظاها بمشاركته مسيرة فدائه. كانت تدعوه خطيبها السماويّ، ويحدوها نحوه حبٌّ يستعصي على فتورنا الروحيّ إدراكه، ويجعلها متّحدةً بتضحيته، وآلامه، وصلبه. وبدافعٍ من هذا الحبّ كانت تأخذ على عاتقها كلّ احتياجات جسده السرّيّ، أي الكنيسة، والمخاطر المحيقة به، وآلامه، فتتحرّق توقًا إلى التألّم الكفيل بتعزيته، وشفائه وافتدائه بالاتّحاد مع الفادي الإلهيّ. وكان يوجعها حتّى النـــزاع الأذى الذي تلحقه بالكنيسة الثورات التي خضّت تلك الحقبة، ولا سيّما أنّها وُلدت في زمنٍ، خضّبت الدماء فجره، من جرّاء نأيه عن الله، وانقلابه عليه، فحفل بفظاعاتٍ مريعةٍ، وأدار فيه المسيحيّون ظهورهم للكنيسة وشاركوا أشرس أعدائها مناصبتهم العداء لها.

هذه النـــزعة واكبت الأُخت، منذ سنّ الحادية عشرة، إذ كان ملاكها يجوب بها الأقطار ويريها في السجون والأكواخ، وعلى أسرّة الاحتضار، وفي ساحات الوغى، وفي الكنائس المدنّسة، وحتّى في مغاور إبليس السرّيّة كلّ ألوان الشقاء التي يتعيّن عليها تخفيفها، والجرائم التي يتعيّن عليها التكفير عنها... فدأبت على مواساة محتضرين، وإنقاذ أشخاصٍ من الهلاك، والحؤول دون ارتكاب جرائم، ودفع خطأةٍ قساة القلوب إلى التوبة والتماس الغفران، والتألّم بكلّ آلام الإكليريكيّات والجمعيّات الكنسيّة. وفي أيّام بابويّة بيوس السابع الأخيرة، كانت ترحل بالروح، كلّ يومٍ، إلى روما، كي تعزّي الأب الأقدس، وتكشف له مؤامرات الأشرار المحاكة ضدّه.

كانت رؤاها قد خطّت لها طريق حياتها الروحيّة، فما رأته من طوفان الخطايا، واستفحال فظاعتها وبشاعتها، والسهام التي تصوّبها إلى قلب الربّ كان يدمي صميم قلبها. وكان الألم يغزو نفسها كلّما تراءت لها أخطارٌ تهدّد الكنيسة أو نفوس بعض المؤمنين، وتغوص في لجّةٍ من القلق والكمد، ويستحوذ عليها شعورٌ بواجب التكفير عن التجاديف والخيانات وخطايا الحنث بالنذور المقدّسة، المرتكبة في أماكن متعدّدة.

وكانت رؤاها لآلام الربّ هي الأشدّ إيجاعًا لها، كما يتّضح من روايتها للرؤى التالية: "بدا لي أنّني أرى مكانًا فسيحًا يغمره دفقٌ من نور النهار، ولكأنّه صورة مدينةٍ في بقعةٍ من العالم الذي نسكن فيه. وتراءى لي فيه مشهدٌ مريعٌ: فقد شهدت صلب ربّنا يسوع المسيح، وارتعتُ حتّى نقيّ عظامي، إذ لم يكن، ثمّة، سوى معاصرين لنا... واتّضح لي أنّ ما نلحقه نحن بربّنا يفوق هولاً وقسوةً كلّ ما أنــزله به اليهود. فاليهود كانوا يرون في يسوع مارقًا ومجدّفًا. أمّا المسيحيّون الذين يصلبون المسيح، اليوم، فهم محيطون بهويّته، ويعلمون أنّه ابن الله، المخلّص. ومع ذلك يرتكبون جريمة الجرائم، لأنّهم يقتلون إلههم، ويقترفون رجس جحودٍ وخيانةٍ".

وكانت الأُخت، كلّما عبَرت تلك الرؤى بذاكرتها، تُمنى برعدةٍ واختلاجاتٍ، وتعجز عن مواصلة سردها، مقتصرةً على قول: "إنّها أرجاسٌ يقترفها من أعمت الظلمة أبصارهم".

وقد أوضحت أنّ من يرتكبون هذه الخيانات والأرجاس مصابون بموتٍ روحيٍّ، وفقدوا الشعور بفداحة خطيئتهم. غير أنّ الخطيئة الكبرى هي التي يقترفها المروّجون، عن قصدٍ خبيثٍ، لبغض يسوع، والأخطر منهم هم الذي يزوّرون أقواله، والساعون إلى إفراغ الكنيسة من أسرارها وسموّها، وتسليمها للشرّير. وأضافت الأُخت بحسرةٍ: "رأيت بين هؤلاء العديد من معارفي، وبينهم كهنةٌ..."

وقد رأت جسد يسوع السرّيّ في حالة احتضارٍ على امتداد المعمورة،

والصامدين من أعضائه يتعرّضون لكلّ ألوان الاضطهادات. أمّا حيث ما زال مؤمنون ينعمون بشيءٍ من الحرّيّة، فهم يخضعون لنير المجدّدين الجاهدين في الحيلولة دون ارتقاء العالم إلى مستوى الكنيسة، وفي التردّي بالكنيسة إلى مستوى ضحالة العالم ورداءته.

كانت ترى في يسوع رأس البشريّة، ومصدر تجدّدها الدائم. ومثلما اتّحدت بالربّ اندمجت بالكنيسة، جسده السرّيّ. فكان مجرّد رنّة جرسٍ يدعو المؤمنين إلى الصلاة يخطف نفسها، ويغوص بها في تأمّل تضحية الربّ الخلاصيّة. وهذا ما عبّرت عنه بقولها: "أرى فوق الهيكل، والكاهن المحتفل، مشهد الآلام العظيم، وربّنا مقدّمًا ذاته لأبيه على الصليب، وعلى جانبيه العذراء القدّيسة، ويوحنّا الإنجيليّ... وأرى ملائكةً عاكفين على التعويض عن كلّ ما أغفله الكاهن... ما أعظم حبّ يسوع لنا! إنّه يواصل، باستمرارٍ، عمل خلاصنا في الذبيحة الإلهيّة. فما القدّاس سوى الفداء يتحقّق في الزمن..."

وكانت ترى في كلّ المناسبات الكنسيّة عملاً إلهيًّا يستهدف إصلاح وشفاء البشريّة المنحطّة والمعتلّة. وترى النعم التي يُغدقها على الكنيسة في كلّ مناسبةٍ طقسيّةٍ، وتعامُل الكنيسة مع تلك النعم تعاملاً إيجابيًّا حينًا، وسلبيًّا أحيانًا، وعواقب هذه المواقف. وحينئذٍ كانت تمعن في الصلاة، جاهدةً في تقديم كفّاراتٍ عن أُمّها الكنيسة ملتمسةً لها الرحمة واليقظة، ومتطوّعةً لتحمّل وزر كلّ ما يصدر عن أعضائها من تقاعسٍ وتقصيرٍ وخطأٍ. وعندما كان الله يذكّر الأُخت بنقائصها التي تحرمها من جدارة التكفير عن الكنيسة، كانت تُقرّ بضعفها، وتزداد إلحافًا في التماس رحمة الله اللامحدودة، وكأنّها في نقاشٍ حادٍّ مع الربّ، نقاشٍ يوري نارَه حبٌّ ملتهبٌ. وكانت تنتابها، حينذاك، آلامٌ تندّ عن الوصف، تتلقّفها بصبرٍ وفرحٍ وتسليمٍ. وغالبًا ما كانت تبقى، أيّامًا عديدةً، فاقدة الوعي، وشبه محتضرةٍ. وإذا سُئلت عن حالها، واستطاعت الإجابة، فتهمس، باسمةً: "إنها آلامٌ خلاصيّةٌ".

وكان الربّ يبادر، أحيانًا، إلى تلطيف آلامها، فيريها بعض مراحل حياة العذراء على الأرض، ويتيح لها أن تواكبها، خطوةً خطوةً، وأن تقدّم لها ما تقوى عليه من خدماتٍ.

وكانت الأُخت تقرأ الأعياد والطقوس الكنسيّة، مثلما تقرأ فصول الطبيعة ومغزاها، وتتأثّر بها جسديًّا وروحيًّا، فتحزن وتكتئب في ذكرى أحداث حياة يسوع الأليمة، وتضجُّ فرحًا في ذكرى أحداثها السعيدة.

وكانت أدهى آلامها هي التي تقاسيها تكفيرًا عن الشرور المنصبّة على الكنيسة سواءٌ من السلطات المحلّيّة، أو من حقد الملحدين وهجماتهم، ومن نـــزعة كهنةٍ إلى الحياة العلمانيّة. ومن دسائس الماسونيّة. وكانت حياتها كلّها تجسيدًا رائعًا لشركة القدّيسين، وسيرة فداءٍ. ووفقًا للمحن التي كانت تجتازها الكنيسة، كانت تعتريها عللٌ متعدّدة الألوان والأعراض، تقودها، أحيانًا، إلى شفا الهلاك، ثمّ تختفي، فجأةً، اختفاءً لا يخلّف من أثرٍ سوى إذهال الأطبّاء وحيرتهم. ولا ريب أنّها، من خلال تلك الآلام، كانت تؤدّي خدماتٍ جليلةً للكنيسة ولأعضائها. ولطالما شوهدت، وهي في حالة انخطافٍ، تتحرّك ولكأنّها دائبةٌ على اقتلاع أشواكٍ. وتظهر على يديْها وأصابعها آثار وخزٍ وتورّمٍ. وكانت تفسّر ذلك بأنّها كانت تنتزع أشواكًا من كرم الكنيسة، وتقدّم آلامها لكي تنعم الكنيسة بكلّ استحقاقات المخلّص.

وقد أُعطيت الأُخت أن تشهد صراعات الكنيسة الماضية والحاضرة واللاحقة، وأن تقرأ مسبّقًا فصولاً وافيةً من تاريخ الكنيسة والعالم. وقد أُوحي لها أنّ أحداث التاريخ ملازمةٌ ومتكيّفةٌ مع أوضاع الكنيسة وأنّ البشريّة تتردّى إلى الانحطاط أو تهبّ ناهضةً، وفقًا لمناعة الكنيسة أو وهنها. وقد دلّلت على ذلك الواقع بقولها: "رأيت حقل حصادٍ، حيث لمحت جسمًا منتصبًا صوب السماء، مشوَّهًا تشويهًا مريعًا، وقد بُتِرت أجزاءٌ من يديه ورجليه... وفسّر لي دليلي أنّ هذا الجسم هو جسم الكنيسة وجسم الجنس البشريّ، وبيّن لي أنّ كلّ جرحٍ وبترٍ يتعلّق بجزء من

العالم... وقد بُترت أجزاء من يدَي الكنيسة وقدميها، لشلّ حركتها، والحؤول دون نهوضها بالمهمّة التي وُجدت من أجلها، أي نشر الملكوت".

وتكمل الرائية روايتها فتقول عن الانقسامات التي شرخت جسم يسوع السرّيّ:

« من مسافةٍ بعيدةٍ رأيت شعوبًا وأقوامًا كان قد انفصل بعضهم عن بعضٍ. وشعرت بألم انفصال هذه الأعضاء، ولكأنّها انتزعت من جسدي. أفلا يصبو كلّ عضوٍ إلى الالتحام بالآخر، أوَلا يتعيّن على كلّ عضوٍ أن يتوجّع حتّى يبرأ الآخر؟ وقد قال لي دليلي: "إنّ الأعضاء الأوثق قربًا، والتي أحدث انفصالها الوجع الأشدّ إيلامًا، هي التي انتُزعت من الصدر، من جوار القلب"، وظننت، في سذاجتي، أنّه يعني الإخوة والأخوات، وذوي القربى الأدنين، وخطرت شقيقتي ببالي، ولكنّه لاحظ: "من هم إخوتي؟ هم الذين يحفظون وصايا أبي. وليس الأقرباء، حسب الجسد، هم الأقرب والأوثق إلى القلب". إنّ أقرباء يسوع هم المتّصلون به بمشاعرهم. والذين يوجعونه هم المسيحيّون الذين ارتدّوا عنه، وانشقّوا عن الكنيسة. ».

وفي مناسبةٍ أُخرى رأت جسدًا بشريًّا غشته القروح والتشوّهات، وأُوحي لها أنّه يمثّل الكنيسة التي مزّقت أعضاءها الانقسامات، وشوّهتها الملل والهرطقات. وكانت هذه الرؤى توجعها وتكاد تودي بها، فتهتف: "يا رب، إذا كانت صلواتي وآلامي تؤتي نفعًا فدعني أحيا ألف سنةٍ، وإلاّ فلأمُتْ قبل أن أُهينَك!".

وتعدّدت رؤاها للاضطهادات التي تُشَنّ على الكنيسة، والأسقام التي تمنى بها من جرّاء أخطاء أعضائها وتقاعس مسؤوليها. فرأت ما سيحدث في ألمانيا وروسيّا ومعظم أوروبا. رأت مجيء ما سُمّي "عهد الأنوار"، أنوار منبعثةٍ من ظلام كهوف "الجمعيّات السرّيّة" الساعية إلى محاربة الله، وترسيخ كره يسوع، وقالت: "رأيت العواقب المريعة الناتجة عن مبادرات ناشري تلك الأنوار الزائفة المضلّلة، الساعين إلى القبض على مقاليد الحكم، وإحكام نفوذهم، في سبيل إلغاء عبادة الله وجميع

الممارسات التقويّة، وإثبات بطلانها، كما هي باطلةٌ ألفاظ "الأنوار" و"المحبّة" و"الروح" التي كانوا يموّهون بها مبادراتٍ لا شأن لله بها.

ربّما نحن لا نتبيّن بوضوحٍ شدائد العالم والكنيسة الكبرى، لأنّنا نشأنا في جوّها، فغدت تبدو لنا أمرًا طبيعيًّا، ولأنّ سمّها خفيٌّ، وخبثها متدثّرٌ بمظاهر أخّاذةٍ، ولأنّ الشرّير الدائب على استلاب الكنيسة التي افتداها المخلّص بدمه، يتزيّا بثياب الاستقامة والمحبّة. ولكنّ الخطر الأدهى هو ترويض كلام الله، وتشويهه، وإضعافه، وتحويله عن غايته.

فقد جابت "أنّا كاتارينا"، من خلال رؤاها، أقطار المسكونة، ولم تشهد فيها سوى عالم الرذيلة، الرذيلة التي كانت تتخفّى، وتصمت خجلاً. وباتت، اليوم، تتظاهر تظاهرًا وقحًا، متحدّيًا، وتسعى إلى بسط سلطانها بعد أن أغوت الجماهير، وحوّلت الفضيلة والاستقامة والورع إلى مواضيع سخريّة، وغزت العقول والشوارع والمنازل، ناشرةً، في كلّ مكانٍ شرورها الشيطانيّة، التي غدت شتّى طبقات الجماهير تتقبّلها بلامبالاةٍ، ولادهشةٍ، وتهوي إلى وهادها، وتعلق بشباكها.

هذه المشاهد كانت تشيع الرعب في نفسها، وقد صرّحت في هذا الشأن: "كنت أستفيق، غالبًا، ممتلئةً غمًّا وجَزَعًا، فأسأل الله، منتحبةً، ألاّ يريني المزيد من هذه المشاهد المريعة. ولكن سرعان ما يتعيّن عليّ الهبوط مجدّدًا إلى أجواء الأرض المعتمة ومشاهدة ما يُرتكب فيها من أرجاسٍ. وقد وُجدتُ، مرّةً، في منطقة خطيئةٍ مريعةٍ، بحيث خِلتُ نفسي في جهنّم. حينئذٍ قال لي دليلي: "أنا على مقربةٍ منكِ، وحيث أكون أنا، لا وجود لجهنّم".

وكانت الأُخت ترى أنّ الخطيئة ليست جديدةً، بل الجديد أنّ الخطيئة لم تعد ترى ذاتها خطيئةً، بعد أن أُقصي الله عن حياة البشر، وشُرِّع الإثم، وبات للجرائم مدّاحون، وللإثم منظّرون، وغدت الفضيلة موضع سخريّةٍ وازدراءٍ. فهل سيُعلن دين الشرّ؟

وهالتها رؤية استفحال الجحود والإلحاد، والنأي عن الله، وولادة أصنام

إيديولوجيّات تدّعي إثبات الإنسان في مواجهة الله. وفي هذا الشأن قالت: "عبادة الوثنيّين كانت أفضل من عبادة الذين يعبدون، في ذواتهم، ألف صنمٍ، ولا يفسحون أيّ حيّزٍ للربّ، وسط هذه الحماقات".

وروت أيضًا: "رأيت كنيسة الجاحدين تتّسع اتّساعًا خطيرًا. ورأيت الظلمات المتدفّقة منها تنتشر، وقومًا كثُرًا يهجرون الكنيسة الشرعيّة، ويتوجّهون صوب الأُخرى مردّدين: "ها هنا كلّ شيءٍ أجمل، وأكثر طبيعيّةً، وأحسن تنظيمًا. ولا غروَ أنّه أكثر طبيعيّةً بعد أن تجرّد من كلّ فائق الطبيعيّة". و"رأيت في المستقبل تردّي الدين الذي لم يبقَ له حضورٌ إلاّ في بعض الأكواخ، وفي بعض الأُسر التي وقاها الله، أيضًا، من نكبات الحرب".

ولطالما شهدتْ جهود أعداء الكنيسة، الدائبين على تدميرها تدميرًا ممنهجًا، مستخدمين أحدث الأدوات وأخبث الأساليب، بارعين في تفعيل الأدوات، وفي تنفيذ الأساليب، براعةً يقابلها، غالبًا، تقاعس المكلّفين بالذود عن الكنيسة، وعقيدتها ومقدّساتها.

مشاهد تدميرٍ مريعةٌ، وهزائم نكراء، كفيلةٌ بزرع القنوط في نفوس المؤمنين، لولا بوارق عونٍ سماويٍّ، تسارع دائمًا إلى القضاء على أسباب اليأس، بتأكيدات الرجاء، وبيقين الخلاص. وهذا ما يتجلّى من خلال الرؤى التي سنوردها:

"رأيت فتور الإكليروس المحلّي يتعاظم، والظلاميّة تتمادى... في كلّ مكانٍ رأيت الجماعات الكاثوليكيّة مسحوقةً، مقموعةً، محرومةً من الحرّيّة. رأيت عددًا كبيرًا من الكنائس يُغلق، وأهوالاً كبرى تحدث في كلّ مكانٍ، والشعب الجاهل، الفظّ، يتدخّل بعنفٍ".

ورأت أنّ هذا الاضطهاد لم يقتصر على الكنيسة الكاثوليكيّة، بل قاست منه الكنيسة الأورثوذكسيّة أدهى مقاساةٍ. ولكنّ الرائية أضافت قولها: "هذا الاضطهاد لن يدوم طويلاً. فبعد أن روى إبليس حنقه، وخُيِّل إليه أنّه بات سيّد العالم بلا

منازعٍ، انهارت الثورة التي أعلنها. ولكنّها كانت قد أفسدت نفوسًا كثيرةً. وهنا تشير الرائية: "رأيت العون آتيًا في ساعة الضيق القصوى".

وتلحظ الأُخت "أنّا كاتارينا" أنّ رجال الدين السابقين كانوا يرون الدمار ويجزعون، ولكنّ الرجاء الذي يتخطّى الزمن كان يسكنهم. أمّا اليوم فمعظم الكهنة متفائلون، رغم المخاطر الداهمة، ويشاطرون العالم تباهيه بإنجازاته وحرّيّاته الآثمة. يرون العالم يتقدّم مادّيًّا، والكنيسة تتقهقر روحيًّا، ومع ذلك يتفاءلون!

"إنّي أشهد خيانات الإكليرُس وانحطاطه، وأحيا العقابات التي تُعدّ لهم".

"لقد أمعن خدّام الكنيسة في الجبن، وأقلعوا عن التذرّع بالقوّة التي يزوّدهم بها الكهنوت... سيؤدّون الحساب عن كلّ ما تخلّفوا عن إغداقه من محبّةٍ، وعزاءٍ، وإرشادٍ إلى الواجبات الدينيّة، وعن كلّ ما أغفلوا فعله تشبّهًا بيسوع، مع أنّ يد يسوع عليهم ومعهم. اكتفوا بمداعبة روح العصر، وباعوا لتجّار الآثار والعاديّات ما ورثوه من مقدّساتٍ. وبسببهم حُجِب سبيل التنعّم بينابيع النعم المتفجّرة من قلب يسوع عن جموع أصحاب النوايا الحسنة، من جرّاء إلغاء الممارسات التقويّة، وإغلاق الكنائس وتدنيسها، ورأيت العديد من الأساقفة الطيّبين الورعين، ولكنّهم مائعون وضعفاء بحيث غالبًا ما تتغلّب عليهم نزعات الشرّ".

"رأيت في إحدى المدن اجتماعًا ضمّ مكرّسين وعلمانيّين ونساءً معًا، يتذوّقون طعامًا شهيًّا، ويتبادلون دعاباتٍ عابثةً، وقد امتدّ فوقهم غمامٌ قاتمٌ حتّى سهلٍ غارقٍ في الظلام. ووسط هذا الغمام جلس إبليس، بكلّ بشاعته، وقد تحلّق حوله عددٌ من رفاقه يساوي عدد المجتمعين تحتهم. وكانت تلك الأرواح الشرّيرة لا تفتر لها حركةٌ، دائبةً على دفع المجتمعين إلى الشرّ، هامسةً في آذانهم، مؤثّرة عليهم بكلّ الوسائل الممكنة. وكان المجتمعون في حالة إثارةٍ شهوانيّةٍ قصوى، يتبادلون أحاديث ماجنةً مثيرةً. وكان المكرّسون ممّن يؤمنون بمبدأ "فلنعِش وندع الآخرين يعيشون"، فلا يجوز، في حقبتنا التظاهر بالتميّز، وكره المجتمع، بل الأجدر بنا مشاركة المتمتّعين متعتهم".

ورأت "كهنةً يتهاونون بكلّ شيءٍ، ويقيمون القدّاس بكثيرٍ من القحة. قليلون منهم احتفظوا بالورع، وبالحكم السليم. وقد أحزنني ذلك أشدّ حزنٍ. حينئذٍ قيّدني عريسي الإلهي من وسطي، مثلما قُيّد هو بعمود الجلد، وقال لي: "هكذا ستقيّد الكنيسة، وسيُشدّ عليها القيد، قبل أن تقوى على النهوض".

ومضة رجاء النهوض هذه، تلتمع، أيضًا، في الرؤيا التالية:

"رأيت كنيسةً بنتها أرواح الكبرياء، كلّ ما فيها معتمٌ، معكوسٌ، فاقد الحياة، ولا وجود فيها إلاّ للسخريّة والدمار"، ولكن بالمقابل "رأيت في جوارها كنيسةً أُخرى يسود فيها النور الذي تشعّه كلّ أصناف النِعَم العلويّة. ورأيت الملائكة تصعد وتهبط فيها، وفيها شهدت الحياة والنموّ..."

وعن الذين ينسفون دعائم كنيسة يسوع بحجّة بناء كنيسةٍ تلائم العصر، رأت تعاليمهم مثل "حطبٍ يأتون به، ويضعونه أمام درج منبر الواعظ، ويشعلونه، وينفخون فيه بكلّ قواهم، ولكنّ جهدهم لا يوري نارًا، ولا يُحدث سوى دخانٍ خانقٍ يشيع الظلام". وقد علّقت على هذه الرؤيا بقولها: "كلّ ما بقي على الأرض وانتهى فيها، ومات، كان زائفًا، مصنوعًا بأيدٍ بشريّةٍ. إنّها كنيسةٌ صنعها بشرٌ، وفق أحدث طرازٍ... (ولكنّي) لم أشهد ملاكًا واحدًا، ولا قدّيسًا واحدًا يشارك في بنائها. بيد أنّي شهدتُ، على بُعدٍ منها، وفي مشهدٍ خفيٍّ، عرش شعبٍ متوحّشٍ، مسلّحٍ بالحراب، ورأيت شكلاً يقهقه قائلاً: "ابنوا وادعموا البناء بما استطعتم من متانةٍ ومناعةٍ، ونحن سنقوّضه".

ورأت كنيسة ظلامٍ جديدةً، حيث "يُنسف الدين، ويُخنَق ببراعةٍ فائقةٍ، بحيث لن يبقى في روما سوى نحو مئة كاهنٍ نجوا من الغواية. لست أُدرك كيف تفعل هذه الغواية، ولكنّي أرى غمامًا وظلامًا يمتدّان، أكثر فأكثر. الأعداء لا يكفّون يجهدون في تدميرها، ولكنّهم يخفقون، مع أنّ الجميع يشاركون في عمليّة التدمير حتّى الكهنة. ولكنّ هناك ثلاث كنائس لن يقوى الأعداء على النيل منها، وهي كنيسة القدّيس بطرس، وكنيسة القدّيسة مريم الكبرى، وكنيسة الملاك ميخائيل".

هذه الكنائس الصامدة الثلاث، ترمز إلى صمود الحبر الأعظم، خليفة بطرس، وحماية العذراء مريم للكنيسة التي بقيت وفيّةً للبابا، وتولّي الملاك ميخائيل قيادة المعركة الروحيّة.

ورأت "أنّا كاتارينا" كنيسة العلماء الزائفين الجاهدين في إقامتها على التربة الخضراء المعدّة لقطيع الربّ، وقالت: "ظهرت كنيسةٌ جديدةٌ حيث التأموا. كانت مستديرة الشكل، وقبّتها رماديّة اللون. وكان الوافدون إليها من ضخامة العدد بحيث لم أفهم كيف يستطيع البناء استيعابهم، فقد كانوا يحاكون شعبًا كاملاً".

إنّ الأوصاف التي أوردتها الرائية لتلك الكنيسة ذات دلالاتٍ بليغةٍ. فشكلها المستدير يعني العزوف عن شكل الصليب التقليديّ، وهو دليلٌ على التراخي الأخلاقيّ المتفاقم، والصدوف عن روح التضحية الذي يفرضه الصليب؛ وقبّتها الرماديّة تعني أنّ نور الله لا يجد إليها سبيلاً، وبالإجمال يعني شكلها تنامي النـــزوع إلى حداثةٍ تزري بتعاليم الإنجيل، وارتياد هذه الكنيسة مناهل مسمومة. وبالفعل تابعت الرائية روايتها فقالت: "هذه الكنيسة الجديدة سرعان ما تحوّلت سوداء قاتمةً. وكلّ ما كان يدور فيها غدا يحاكي بخارًا أسود، انتشر إلى الخارج، فذبل كلّ خضارٍ، وغزت العتمة عدّة رعايا مجاورة وانتشر فيها اليباس، وحتّى مسافاتٍ بعيدةٍ عنها أمست البراري مستنقعًا مظلمًا قاتمًا... حينئذٍ شهدتُ حشودًا من حسني النوايا يجرون صوب جانبٍ من البرّيّة لم يغب عنه الخضار والنور. وحيثما كانوا يصلّون كان الخضار ينمو من جديدٍ، والنور ينتشر، والحياة تضجّ. ثمّ رأيت انهيار الكنيسة المظلمة".

وتواصل الرائية روايتها، فتقول: "عندما انفصل العلم عن الإيمان، ولدت كنيسةٌ بلا مخلّص، وأعمالٌ صالحةٌ مزعومةٌ خاليةٌ من الإيمان، وجماعات ملحدين يرتدون مظاهر الفضيلة. وبالإيجاز وُلدت عدوّةٌ للكنيسة التي يسكنها المكر، والخطأ، والكذب، والرياء والجبن، وحِيَل جميع أبالسة العصر. إنّها مليئةٌ كبرياءً وادّعاءً، وفضلاً عن ذلك، هي

هدّامةٌ وتقود إلى الشرّ بكلّ ما تتزيّا به من مظاهر برّاقةٍ. وخطرها يكمن في براءة مظهرها". وعن أعضاء هذه الجماعة قالت: "يتعذّر عليّ إيضاح كم كلّ ما يفعلونه مقيتٌ وضارٌّ، وباطلٌ. لقد أخذهم العالم الذي نأى عن الكنيسة، ولم يتّقوا خطر الكبرياء الذي يقطّره العلم. ولم يلتزموا بالتواضع الملازم للإيمان".

وللأخت "أنّا كاتارينا"، عن أوهان الكنيسة وأسقامها رؤى وأقوالٌ مخيفةٌ، منها:

"رأيت البابا يصلّي وحيدًا محاطًا بأصدقاء زائفين، يفعلون، غالبًا، نقيض ما يقوله هو".

"رأيت الأب الأقدس في اضطرابٍ شديدٍ، وفي غمٍّ جمٍّ، بشأن الكنيسة، وقد أحاطت به الخيانات".

"أحيانًا كثيرةً رأيت يسوع نفسه يُضحّى به، بقسوةٍ، على الهيكل، من خلال الاحتفال بالأسرار المقدّسة احتفالاً غير لائقٍ. رأيت، أمام كهنةٍ مدنّسين، القربانة المقدّسة على الهيكل، بهيئة يسوع الطفل الحيّ، يقطّعونه، إرْبًا إرْبًا، على صينيّةٍ تُسام استشهادًا مريعًا. ومع أنّ قدّاسهم كان يحقّق، فعلاً، الذبيحة المقدّسة، إلاّ أنّه كان يبدو لي جريمة قتلٍ مروّعةً".

"ليس سوى كنيسةٍ واحدةٍ: الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة. وحتّى إن لم يبقَ على سطح البسيطة سوى كاهنٍ كاثوليكيٍّ واحدٍ، فهذا سيكون الكنيسة الواحدة الجامعة، كنيسة يسوع المسيح، التي لن تقوى عليها أبواب الجحيم. إنّ إدراك عظمة وبهاء هذه الكنيسة حيث الأسرار ما زالت مصانةً بكلّ قدرتها وقداستها الراسختين، بات، في أيّامنا، وا أسفاه، أمرًا نادرًا، حتّى في الوسط الكهنوتيّ، ولا سيّما أنّ العديد من الكهنة غدوا يجهلون ما هم حقًّا، وكثيرين من المؤمنين، أيضًا، ما عادوا يعرفون ما هم، ولا يدركون معنى الانتماء إلى الكنيسة. إنّ الحياة وفق إيمان هذه الكنيسة المقدّسة، لأمرٌ فائق العظمة، وهو، في الآن عينه، مستحيلٌ بمعزلٍ عن النور الحقيقيّ، وبمعزلٍ عن البساطة والطهارة".

وعن الكهنة الداعين، باندفاعٍ، إلى تجديدٍ ينسف أسُس الكنيسة، تقول:

"أرى لدى جميعهم، كبرياءً مريعةً، ولا ألمح لدى أحدٍ منهم تواضعًا وبساطةً وطاعةً. إنّهم يتحدّثون عن الإيمان، والنور، و"المسيحيّة الحيّة"، في حين أنّهم يهينون ويزدرون الكنيسة المقدّسة، التي، وحدها، تحتوي النور والحياة.

"يصنّفون ذواتهم فوق كلّ سلطةٍ، وكلّ تراتبيّةٍ كنسيّةٍ، ولا عهد لهم لا بطاعةٍ ولا باحترامٍ للسلطة الروحيّة. وفي ادّعاءاتهم وزهوّهم بأنفسهم، يزعمون فهمَ كلّ الأمور خيرًا من الرؤساء الكنسيّين، وحتّى من الآباء الملافنة القدّيسين إنّهم يعزفون عن الأعمال الصالحة، ومع ذلك يزعمون امتلاك الكمال كلّه، باستنارتهم المزعومة، ولا يرون حاجةً لديهم للتضحيات والتوبة، ولا للطاعة والخضوع للأنظمة. أراهم ينأون باطّرادٍ، أبعد فأبعد عن الكنيسة، وأرى جسامة الشرّ الذي يسبّبونه.

"ما من ضلالٍ يُحدث مثل ما يُحدثه موقفهم من عواقب كارثيّةٍ. ولا علّة أصعب شفاءً من كبرياء الفكر التي توحي للإنسان الخاطئ ادّعاء بلوغ الاتّحاد الأقصى بالله، بمنأًى عن اجتياز درب التوبة الشاقّ، وعن ممارسة الفضائل المسيحيّة الأساسيّة".

وإنّه لجديرٌ بالتنويه أنّ الكهنة المنتمين إلى هذه الفئة قد تخلّوا عن كلّ ما يميّزهم، زيًّا، وسلوكًا، والتزامًا، ولكنّ الشرّير حريصٌ على بقائهم داخل الكنيسة، كي ينفّذ، من خلالهم، مخطّطاته التدميريّة.

ورأت الأُخت "أنّا كاتارينا"، مرّةً، يسوع واقفًا في ميدانٍ فسيحٍ، ومن حوله جموعٌ تتدافع، دائبةً على السعي نحو غاياتٍ مختلفةٍ، فقال لها الربّ برقّةٍ: "انظري كيف يتوجّع هؤلاء، ويُهلكون أنفسهم، وينشدون، في كلّ مكانٍ، عونًا وعزاءً. يجرون وراء الربح، ولكنّهم لا يأبهون بي، أنا ربّهم والمحسن إليهم، الماثل أمامهم. قليلون منهم يعترفون بجميلي نحوهم. ولكنّ حتّى هؤلاء يكتفون بإلقاء كلمة شكرٍ

عابرةٍ... وحينئذٍ مرّت ثلّةٌ من الكهنة، أظهر لهم الربّ مودّةً خاصّةً، ولكنّهم اجتازوا مستعجلين، وألقوا له شيئًا، بسرعةٍ، وتاهوا وسط التيّار الهادر. ولم أرَ إلاّ واحدًا دنا منه أكثر من الآخرين، ولكن بلامبالاةٍ. فأمسك الربّ بكتفه، وقال له: "علامَ تنأى عنّي؟. ولِمَ لا تسدّد لي ديني، مع أنّي أحبّك حبًّا جمًّا؟" وعندئذٍ اختفت الرؤيا، ولكن خطرت لي عدّة رؤى تتعلّق بسلوك إكليرُسنا، وأحزنتني حزنًا سحيقًا. فبسبب تأثير روح العالم، والفتور العامّ، والانحطاط السائد، أرى أنّه إذا عاد المخلّص، شخصيًّا، اليوم، لكي يعلن عقيدته، لوجد من المعارضين الممتلئين حقدًا، بقدر ما وجد لدى اليهود الفرّيسيّين".

هذه الرؤى الموجعة انتزعت من نفس الأُخت هذه الصرخة الوجيعة:

« أنتم، أيّها الكهنة، ألا تتحرّكون؟ إنّكم غافون، والحظيرة تلتهمها النيران من كلّ صوبٍ ولكنّكم لا تحرّكون ساكنًا. آه! كم ستبكون، ذات يومٍ، على تقصيركم! يا ليتكم تلوتم فقط دعاء "أبانا"! كم من الخونة أرى! إنّهم لا يطيقون أن يقال إنّ الأمور سيّئةٌ، فكلّ شيءٍ، في نظرهم جيّدٌ، طالما استطاعوا التباهي مع العالم! »

تكفيرًا عن هذه الخيانات وهذا التقاعس، ودرءًا للسهام المصوّبة إلى الكنيسة، قدّمت الأُخت "أنّا كاتارينا" تضحياتها وآلامها حتّى النفس الأخير. وفي سنتها الأخيرة على الأرض، خطرت لها رؤى رهيبةٌ أظهرت لها بوضوحٍ كلّ جراح الكنيسة وعللها، ومعها تنامى حبّها للكنيسة أُمّها، وقدّمت ذاتها ضحيّةً وكفّارةً، فرأت ذاتها، بمزيجٍ من التواضع والجزع، مثقلةً بخطايا جمّةً، تحاكي وحشًا مريعًا. هذه الرؤيا لم تزد حبّها إلا استعارًا، فهتفت: "صحيحٌ أنّني بائسةٌ مثقلةٌ بالخطايا، ولكنّني، يا ربّي وإلهي، خطيبتك، وثقتي بك تغطّي كلّ أخطائي بمعطف استحقاقاتك الملكيّة. لا، يا إلهي، لن أنأى عنك حتّى تتقبّل تضحيتي، فأنت لا تغلق أبدًا أبواب كنوز استحقاقاتك اللامحدودة في وجه من يدعونك بإيمان".

وعندما كان يُخيّل إليها أنّ الربّ لا يصغي إلى تضرّعاتها، كانت أدعيتها تزداد

إلحاحًا، وترتدي لهجتها نبرة عتابٍ يلهمها جنون حبٍّ مقدّسٍ، كفيلةً بخدش الآذان غير المعتادة على مثل تلك النبرة.

فيا أختنا الحبيبة، "أنّا كاتارينا"، يا من تطوّعت لمكابدة أدهى الآلام، ونسجت بها حياتها كلّها، تكفيرًا عن الإهانات التي تدمي قلب خطيبها الإلهيّ، وإنقاذًا للخطأة اللامبالين، ومواساةً وشفاءً للمتوجّعين، الآن وقد أضحيت في جوار حبيبك الإلهيّ، وأُمّه فائقة القداسة، نتوسّل إليك أن تتشفّعي بضعفنا، وتنالي لنا الغفران عن خطايانا، وخياناتنا، وتقاعسنا عن تلبية نداء الصليب.

ونشكرك لأنّك لم تقتصري على بسط لوحات الظلمة والبشاعة التي تغشى عالمنا، والعلل التي تنخر جسم الكنيسة أُمّنا، بل أثلجت صدرونا بإعلان بشرى الخلاص الذي سيختم تاريخنا، وبرؤى القيامة التي ستنتشل أجيالنا من قبورها. واختزلتِ هذه البشرى بقولك: "إذا لم يبقَ سوى كاثوليكيٍّ واحدٍ، فستنتصر الكنيسة مجدّدًا".

فالكنيسة لم تفتقر قطّ إلى متطوّعين من أبنائها للتكفير عن أخطاء أعضائها. قد يكون عديدهم ضئيلاً، ولكنّ ثمار تضحياتهم وفيرةٌ. هذا ما أشارت إليه الأُخت بقولها:

« أظهر لي يسوع أنّ ما من زمنٍ خلا من أشخاصٍ يصلّون ويتألّمون من أجل الكنيسة. وأراني كلّ ما عاناه، هو نفسه، من أجلها، وأيّة قدرةٍ أضفاها على استحقاقات الشهداء وبطولاتهم، مؤكّدًا أنّه، لو كان بوسعه التألّم أيضًا، فسيُقدم على كلّ ألوان الآلام التي يتعذّر تخيّلها. وبيّن لي، من خلال العديد من اللوحات، السلوك الذميم الذي يسوقه مسيحيّون، وأعضاء الكهنوت، في دوائر لا تني تتّسع على امتداد العالم أجمع... ثمّ حرّضني على المضيّ قُدُمًا في الصلاة والتألّم. وبيّن لي أنّ وجود مسيحيّين وفقًا لمعنى الكلمة الأصيل، يكاد يكون مفقودًا، وأنّ يهود اليوم ما هم إلاّ محض فرّيسيّين، ولكنّهم أشدّ تحجّرًا من أسلافهم... »

وروت، أيضًا: "رأيت أنّ مرسلين انطلقوا إلى معظم أرجاء المسكونة، من أجل

تقويض سلطان إبليس، في كلّ مكانٍ، ومن أجل نشر البركة. وأنّ المناطق التي عمل فيها هؤلاء المرسلون هي التي عانت أكبر قدرٍ من سموم العدوّ. وإن لم تستمرّ هذه البلدان في الإيمان المسيحيّ، وإن هي كانت الآن مهملةً، فقد كان ذلك. كما رأيت، تدبير الحكمة الإلهيّة. فقد بوركت تلك البلدان وسُمّدت، على نحوٍ ما، للمستقبل، وتُركت بورًا لكي تؤتي ثمارًا وفيرةً، عندما سيُنشر فيها البذار مجدّدًا، وتُهمل بلدانٌ أُخرى (سبق لها أن أثمرت) بلا استثمارٍ.

وشدّدت الأُخت على مبادرات أُمّ الكنيسة العذراء، وتدخّلها الفعّال في حماية جسد ابنها السرّيّ، ووقايته، وشفائه، ودرء السهام عنه. فإثر محاولات تدمير كنيسة القدّيس بطرس الحثيثة، الخبيثة، المعدّة بإتقانٍ ومكرٍ، التي رأيناها، تروي الأُخت أعمال ترميم تلك الكنيسة "ببهاءٍ لم يُشهَد له مثيلٌ". وتمضي في روايتها فتقول:

« رأيت امرأةً تفيض جلالاً، تتقدّم إلى الفناء الفسيح الممتدّ أمام الكنيسة، وقد ألقت معطفها الرحب على ذراعيها، وارتفعت إلى الفضاء على مهلٍ، وبسطت على كلّ امتداد الكنيسة، ذلك المعطف، الذي بدا يطلق أشعّةً ذهبيّةً. كان الهدّامون، آنذاك، قد نالوا فترة استراحةٍ، ولكنّهم عندما حاولوا استئناف أعمال التدمير، استحال عليهم، استحالةً مطلقةً، الاقتراب من المساحة التي كان المعطف يغطّيها.

"ثمّ رأيت، من بعيدٍ، اقتراب كتائب عديدةٍ، انتظمت، دائريًّا، حول الكنيسة، بعضها على الأرض، وبعضها الآخر في الجوّ. تألّفت الكتيبة الأولى من شبّانٍ وفتياتٍ، والثانية من أزواجٍ آتين من كلّ الطبقات، ضامّةً ملوكًا وملكاتٍ. والثالثة من رهبانٍ، والرابعة من محاربين. وأمام جميعها رأيت رجلاً يمتطي حصانًا أبيض. وتألّفت الكتيبة الأخيرة من بورجوازيّين وفلاّحين، وكانت جباه معظمهم تحمل دمغة صليبٍ أحمر"...

"طُرد جميع الهدّامين والمتآمرين من كلّ مكانٍ، وتجمّعوا عشوائيًّا، في كتلةٍ

مبهمةٍ، يكتنفها الغمام، لم يكونوا يدركون ما فعلوا، وما يتوجّب عليهم فعله. كانوا يجرون، ويتصادمون... ولمّا التمّ شملهم كتلةً واحدةً، رأيتهم يتخلّون عن مهمّة تدمير الكنيسة، ويتشرذمون.

"في فريق المحاربين، رأيت بعضًا منهم يأبون التقدّم. وكانوا جميعهم مكفهّرين، متراصّين. وفي جميع الفرَق، رأيت أشخاصًا قُيّض لهم الألم والاستشهاد من أجل يسوع. وكان ثمّة، أيضًا العديد من الأشرار، فكان لا بدّ من انفصالٍ آخر.

"ومع ذلك رأيت الكنيسة، وقد اكتمل إصلاحها، ومن فوقها على جبلٍ، رأيت حمل الله محاطًا بكوكبةٍ من العذارى حاملاتٍ سعف نخيلٍ، ورأيت، أيضًا، خمس دوائر مؤلّفةً من جحافل سماويّةٍ، تواجه الجحافل الأرضيّة..."

"ورأيت في منطقتين متقابلتين: مملكة إبليس، ومملكة المخلّص. في مدينة إبليس رأيت امرأةً، عاهرة بابل، وأنبياء ذلك الشعب، ونبيّاته، وصنّاع معجزاته، ورسله. هناك كلّ شيءٍ بدا غنيًّا، متألّقًا، رائعًا، مقارنًا بمملكة المخلّص، ورأيت هناك ملوكًا وأباطرةً وكهنةً متدثّرين ثيابًا فاخرةً، وممتطين عرباتٍ، ورأيت إبليس تسنّم عرشًا فخمًا. وفي المقابل رأيت مملكة المخلّص، فقيرةً، تكاد لا تُشاهَد على الأرض، غارقةً في الحداد والغمّ. وفي الآن عينه رأيتُ الكنيسة في ملامح العذراء، وملامح المخلّص المصلوب، وجنبه الفاغر يرشد الخطأة إلى منهل النعمة".

وتعدّدت روايات الأُخت المماثلة:

"رأيت فوق الكنيسة المعتلّة، امرأةً جليلةً متدثّرةً معطفًا سماويّ اللون، يمتدّ إلى البعيد. وكانت هامتها متوّجةً بالنجوم".

"لمحت ضربًا من معطفٍ رحبٍ، لا يكفّ يتّسع حتّى غمر عالمًا كاملاً وسكّانه. وفي الآن عينه، كان لي هذا الرمز صورةً للزمن الراهن، ورأيت كهنةً يحدثون في هذا المعطف ثقوبًا، وينظرون من خلالها".

وتخلص الأُخت إلى عرض مشاهد الانفراج:

"ها قد أخذ كلّ شيءٍ يزدهر من جديدٍ، وبابًا جديدًا يُشرَع. ورأيت الهوّة القاتمة تزداد تقلّصًا، حتّى أمسى بإمكان دلو ماءٍ أن يسدّ ثغرتها.

"وفي نهاية المطاف رأيت ثلاث جماعاتٍ تضمّ قومًا ينعمون باستنارة جيّدةٍ. تتّحد بالنور، وتدخل إلى الكنيسة.

"مياهٌ غزيرةٌ من كلّ صوبٍ. وكلّ شيءٍ مخضوضرٌ ومزهرٌ. وكنائس وأديرةٌ تُشاد".

وفي غمرة الأزمة المُلمّة بالكنيسة:

"رأيت الغوث قادمًا في أوج فترة الشدّة. ورأيت العذراء القدّيسة تصعد ثانيةً فوق الكنيسة، وتبسط معطفها. حينئذٍ، غاب عن عينيّ البابا الحاليّ. ورأيت أحد خلفائه يقرن الرقّة بالحزم، بارعًا في استقطاب الكهنة الصالحين، وإقصاء السيّئين.

"كلّ شيءٍ يتجدّد، والكنيسة تتسامى صوب السماء".

"رأيت، هائمًا على سطح السماء، قلبًا متوهّجًا بنورٍ أحمر، ينطلق منه درب أشعّةٍ بيضاء تقود إلى جرح الجنب... ودربٌ آخر يفضي إلى الكنيسة وإلى بلدانٍ كثيرةٍ... هذه الأشعّة كانت تجتذب حشدًا من النفوس التي، من خلال القلب، والدرب المضيء، كانت تلج إلى جنب يسوع. وقيل لي إنّ ذاك هو قلب مريم.

"انحدر الملاك ميخائيل إلى الكنيسة (التي دُمّر الجزء الأكبر منها)، وأبعد العديد من الرعاة الفاسدين الذين حاولوا الدخول، مهدّدًا إيّاهم بسيفه. طردهم إلى زاويةٍ مظلمةٍ، حيث جلسوا يتبادلون النظرات. وفي غضون لحظاتٍ أحيط جزء الكنيسة المدمَّر بسياجٍ عازلٍ أتاح الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة احتفالاً لائقًا. ثمّ توافد من كلّ أرجاء العالم كهنةٌ وعلمانيّون، أعادوا بناء الجدران الحجريّة، لأنّ المخرّبين فشلوا في زحزحة أحجار الأسس المنيعة".

وعن السيّدة العذراء، إليكم بعض رؤاها:

"رأيت ابنة ملك الملوك ضحيّة الاعتداء والاضطهاد. كانت تذرّف وابلاً من الدموع حزنًا على الدماء التي ستُسفك، وتجيل أبصارها في قبيلةٍ من العذارى القويّات المتطوّعات للنضال إلى جانبها وعقدتُ معها أحاديث مستفيضةً، وسألتها العناية ببلدي وببعض المناطق التي أوصيتُها بها. والتمستُ بعض كنوزها للكهنة، فأجابتني: "أجل، لديّ فيضٌ من الكنوز، ولكنّها تُداس بالأقدام..."

"رأيت كيف كانت جماعةٌ كبيرةٌ دائبةً على إعداد سلاح ابنة الملك. فكان أفرادها يقدّمون صلواتٍ، وأعمالاً صالحةً، وانتصاراتٍ على الذات، وتضحياتٍ من كلّ لونٍ. وكانت هذه الموادّ تنتقل من يدٍ إلى يدٍ حتّى السماء. وهناك كان كلّ شيءٍ يخضع لإعدادٍ خاصٍّ يصبح جزءًا من سلاح العذراء. وما أعجب الدقّة التي كان بها يكتمل العمل! وكم كان مذهلاً كيف كان كلّ شيءٍ يعني شيئًا آخر! تسلّحت العذراء من رأسها حتّى قدميها. وقد تعرّفتُ العديدين ممّن أسهموا في العمل. ولكن أدهشني أنّ مؤسّساتٍ بكاملها، وعلماء مرموقين، لم يقدّموا أيّ إسهامٍ، فيما قدّم أجزاءً هامّةً من السلاح قومٌ فقراء، ضئيلو الشأن الاجتماعيّ" (وكان أفتك سلاحٍ قدّمه هؤلاء هو المسبحة الورديّة).

وتروي الأُخت أيضًا: "حثّني دليلي، مجدّدًا، على أن أُصلّي، وأحرّض العالم أجمع، بقدر المستطاع على الصلاة، من أجل الخطأة، وخاصّةً من أجل الكهنة الضالّين. وقال لي: "إنّ أيّامًا سيّئةً جدًّا قادمةٌ... سيُغوي غير الكاثوليكيّين الكثيرين، وسيجهدون، بكلّ الوسائل التي يمكن تخيّلها في سلب كنوز الكنيسة. وستنجم عن ذلك فوضى عارمةٌ. ولكن بعد هذه العاصفة سيستعيد الإيمان رسوخه..."

ورأت الأُخت تحقّق حلمٍ غالٍ، طالما تاقت إلى تحقيقه قلوبُ المسيحيّين:

"رأيت مصالحةً تتحقّق في الكنيسة، تواكبها شهادات تواضعٍ. رأيت أساقفةً ورعاةً يقترب بعضهم من بعضٍ ويتبادلون كتبهم. ورأيت المنفصلين يعترفون

بالكنيسة الحقّة، بدليل انتصارها الرائع، وأنوار الوحي التي شاهدوها بعيونهم تشعّ عليها".

ورأت الأُخت الاحتفالات البهيجة بقيامة الكنيسة، قيامة ستظلّ تلقى مقاومةً، داخليّةً وخارجيّةٍ. ولكنّ قوّة الربّ ستلازمها، وتقيها، وتدعمها، وتزوّدها بالمنعة:

"شهدت عيدًا كبيرًا يقام في الكنيسة التي غدت مشعّةً كالشمس، عقب النصر المحقّق. ورأيت حبرًا أعظم جديدًا ممعنًا في التقشّف والنشاط. وقبل بدء الاحتفال بالعيد، رأيت هذا البابا يطرد العديد من الأساقفة والرعاة الذين وجدهم فاسدين. ورأيت دعاء "ليأتِ ملكوتُك" على وشك التحقّق.

"اعترافي شعورٌ عميق التأثير باقتراب ملكوت الله. وشعرت بسنًى وبحياةٍ ساميةٍ يتجلّيان في الطبيعة جمعاء، وتأثّرًا صحّيًّا يستحوذ على البشر أجمعين، مثلما حدث عندما دنا موعد ولادة الربّ. وكان شعوري باقتراب ملكوت الله من شدّة الأسر بحيث تولاّني إحساسٌ بوجوب الجري لملاقاته، مطلقةً صيحات فرحٍ... رأيته يدنو مجذوبًا برغبةٍ مضطرمةٍ لدى مسيحيّين كثُرٍ، ممتلئين تواضعًا، وحبًّا، وإيمانًا. هذه الرغبة هي التي كانت تجتذبه".

"ورأيت طغمةً من القدّيسين مرتدين حلًى كهنوتيّةً قديمةً، ينظّفون عدّة أجزاءٍ من الكنيسة، ويزيلون عنها شبكات العنكبوت. كان الباب مشرعًا، فغدت الكنيسة أحسن إضاءةً. وتبيّن أنّ الأسياد هم الذين يضطلعون بالعمل، فيما القاطنون في بيت العرس لم يكونوا يحرّكون ساكنًا، وكثيرون منهم كانوا غير راضين".

"كانت، هناك حركةٌ شديدةٌ، والجميع يهمّون بدخول الكنيسة حالما يكتمل إعدادها، ولكن كان لا بدّ من أن يُطرَد بعضهم ويُبعدوا.

وحدث ما يشبه عنصرةً جديدةً:

"فيما كانت الكنيسة تزداد بهاءً وضياءً، تفجّر في حرمها نبعٌ جميلٌ رائقٌ، وتدفّق في كلّ جانبٍ ماءٌ صافٍ كالبلّور، وتسرّب من خلال الجدران، وسال حتّى الحديقة، باعثًا الحياة في كلّ شيءٍ. وبتفجّر هذا النبع غدا كلّ شيءٍ مضيئًا، وأكثر فرحًا. وفوق النبع رأيت هيكلاً متألّقًا، يحاكي روحًا سماويًّا، ينبئ بظاهرةٍ قادمةٍ، وبنموٍّ آتٍ.

"واصل القدّيسون عملهم الذي تسارع، متناولاً الجدران، والأسقف، وجسم البناء، وبالإجمال كلّ شيءٍ.

"وخطرت لي رؤيا جديدةٌ: فرأيت العذراء القدّيسة فوق الكنيسة، محاطةً برسلٍ وأساقفةٍ. ورأيت، في الأسفل، على الأرض، تطوافاتٍ حاشدةً، واحتفالاتٍ علنيّةً.

"رأيت بَرَكاتٍ عظمى تتدفّق من العلاء، وتحوّلاتٍ كبرى تحصل. ورأيت البابا ينظّم، ويضبط كلّ شيءٍ. ورأيت ظهور أشخاصٍ فقراء وبسطاء، ما زال معظمهم في مقتبل العمر. ورأيت عددًا من أصحاب المراتب الكنسيّة الذين وظّفوا نفوسهم لخدمة أساقفةٍ سيّئين، مُغفِلين مصالح الكنيسة، يجرّون ذواتهم مستعينين بالعكاكيز، ولكأنّهم عرجٌ ومشلولون، وقد جيء بهم، اثنين اثنين، كي ينالوا الغفران".

ولكن:

"رأيت عددًا من الأساقفة السيّئين الذين توهّموا القدرة على تحقيق أُمورٍ بقدراتهم الذاتيّة، وبمنأًى عن قدرة المسيح، ووساطة الكنيسة وأسلافهم القدّيسين. هؤلاء رأيتهم يُطرَدون، ويُستعاض عنهم بآخرين.

"ورأيت سلك الكهنوت والرهبنة ينهض، عقب انحطاطٍ طويلٍ. وبدا لي أنّ كتلةً من الأشخاص الأتقياء قد انبثقت، وأنّ كلّ شيءٍ يخرج منهم كان ينمو.

"ورأيت أنّ على البابا الجديد أن يكون صارمًا، وأن يُقصي الأساقفة الفاترين والباردين. ولكن لا بدّ من أن ينقضي وقتٌ طويلٌ حتّى يتمّ ذلك.

"وا أسفاه! لا تكاد تنشر نار الروح التي أراد الله أن يلهب بها الأرض حتّى تطفئها نارٌ أُخرى! ستنشب بالكنيسة نارٌ وتهدّدها بدمارٍ تامٍّ".

"هذا الحريق، مريع المنظر، كان يشير، في مرحلةٍ أولى، إلى خطرٍ جسيمٍ، وفي مرحلةٍ ثانيةٍ، إلى بهاءٍ جديدٍ يغشى الكنيسة، عقب العاصفة.

"رأيت الروح يفيض بغزارةٍ على الأرض جمعاء. كان، أحيانًا، يحاكي برقًا يهبط على كنيسةٍ. وكنت أرى المؤمنين في الكنيسة، وبينهم من تلقّوا النعمة، أو كنت أراهم يصلّون في عزلة مساكنهم، أو في الكنائس التي حلّ فيها النور والقوّة. وكان ذلك يسيل في نفسي فرحًا غامرًا، وثقةً بأنّ الكنيسة لن تنهار، رغم الاضطرابات المتفاقمة، فقد رأيت في كلّ أقطار العالم الروح القدس يستنهض أدواتٍ. أجل لقد شعرت بأنّ القمع الذي تمارسه السلطات على الكنيسة، كان يُعدّها، أكثر فأكثر، لتلقّي قوّةٍ داخليّةٍ.

"ورأيت عيدًا حافلاً يقام في كنيسة القدّيس بطرس في روما، وسط طوفانٍ من الأنوار المشعّة، ورأيت الأب الأقدس، وكثيرين آخرين، قد تلقّوا قوّةً ومنعةً من الروح القدس".

بالإجمال احتلّت رؤى الأُخت المتعلّقة بالكنيسة حيّزًا واسعًا من مجمل رؤاها وقد قرنت تلك الرؤى الرعدة بالرجاء، والفزع بفرح الانتصار. ولا ريب أنّ القسم الأكبر منها كان مبعث أدهى آلامها وأوجاعها.

فشكرًا، يا ربّ، لرعايتِك كنيستَك وأبناءك المؤمنين بك، وللثقة في المستقبل التي تزوّدنا بها.

وشكرًا، يا أُختنا "أنّا كاتارينا"، لأنّك أشركتنا برؤاك التي أضاءت لنا فداحة أخطائنا، وحذّرتنا من عواقب تقاعسنا، وطمأنْتنا إلى مستقبلٍ زاخرٍ عزاءً ورجاءً، قد لا نشهده، نحن، ولكنّنا نؤمن به.

آلام سمات الصلب

مكافأةً لتحمّلها الآلام الفدائيّة الطوعيّة، كرّمها الربّ بطبع سمات صلبه فيها، وجعلها صورةً له في صلبه.

ألم يقل يسوع، في الصوفانيّة: "من نظر إليّ، أرسم صورتي فيه!" فكيف بتلك التي لم تكتفِ بالنظر إلى يسوع، بل قضت عمرها كلّه وهي تتأمّله، وتواكب مسيرة حياته على الأرض، لحظةً فلحظةً، وقاسمته، وقاسمت أُمّه العذراء أفراحهما وأحزانهما. وبنوعٍ خاصٍّ، شاركت الفادي آلامه، جسديًّا وروحيًّا، وقدّمت ذاتها ضحيّةً تكفيريّةً عن حقوق الخطأة وذنوبهم، وتخفيفًا لأوجاع إخوتها البشر، في كلّ مكانٍ؟ وقد فسّرت معاناتها الأوجاع والآلام، بالوكالة عن آخرين، بقولها:

"رأيت يسوع في قامةٍ جسيمةٍ تصل الأرض بالسماء، وفي الوضع الذي كان عليه عندما نكّل أعداؤه به. ورأيتُ، في هيئة أشعّةٍ ملوّنةٍ، شتّى أصناف البؤس، والوجع، والألم، تنزل بجموعٍ من شتّى الفئات، ورأيت الصلوات التي أرفعها رأفةً واسترحامًا بهم، تجعل سيولاً من الآلام المتعدّدة تحيد عن الجموع، وتتوغّل فيّ، وتوسعني عذابًا، بألف طريقةٍ. وكان معظمها يأتيني من معارفي. ولم يكن يسوع، فقط، طيّ هذه الرؤيا، بل كان الثالوث الأقدس بأجمعه. لم أرَه، ولكنّي شعرتُ به".

لقد عاشت الأُخت إيمّيريك في اتّحادٍ وثيقٍ وعميقٍ مع يسوع المتألّم والمصلوب، فوسمتها آلامه، ودمغت جسدها بطابعها، وجعلتها إحدى كبريات صوفيّات الأزمنة الأخيرة. ومع ذلك لبثت على اتّصالٍ وثيقٍ بالبشر، ولا سيّما المعانين منهم، متضامنةً معهم، موظّفةً آلامها لخدمتهم. ولم تقوَ الكرامات والامتيازات التي نعمت بها على انتزاعها من تواضعها السحيق، ومن بئر تأمّلاته وعبادتها، ولم تطفئ شيئًا من لهيب اندفاعها إلى الخدمة.

ولطالما تساءلت عن معنى سمات الصلب التي حُفرت في جسدها، إلى أن رأت،

يومًا، كيف رُسمت سماتٌ مماثلةٌ في جسد القدّيس فرنسيس الأسّيزي، وفُسِّر لها سبب ظهورها عليه، وكيف دأب القدّيس على إخفائها. وعلى غراره، دأبت الأُخت على كتمان سماتها، ما استطاعت. ولطالما أقرّت أنّه لم تساورها، قطّ، رغبةٌ في التشبّه، ظاهريًّا، بيسوع، من خلال علاماتٍ خارجيّةٍ، بل كانت مشاركتها آلام الفادي مشاركةً "وجوديّةً".

بيد أنّ كلّ جهودها الرامية إلى إخفاء وكتمان سماتها، لم تُفلح في منع ذيوع أمرها. وربّما آتاها هذا الذيوع شيئًا من الاحترام والتقدير، إلاّ أنّه اجتلب لها وابلاً من الاضطهادات والاتّهامات، وغمارًا من المعاناة.

فابتغاء المخلّص جعلها شريكة فدائه كان بعيدًا عن إدراك محيطها، الذي أنكر حتّى الحقائق المسيحيّة المتعلّقة بافتداء ابن الله للذين اتّخذ جسدًا مثل جسدهم. وحتّى الكهنة المقرّبون منها، والذين كانوا يقدّرون فضائلها أمست سمات صلبها موضع إحراجٍ لهم، فباتوا يتمنّون زوالها. وحتّى خادم الرعيّة التي كانت تنتمي إليها جهد في النأي بنفسه عنها، لظنّه أنّ سماتها تصيب سمعته بالضرر، وتجعله محطّ ريبةٍ. أمّا رئيسها الكنسيّ الأعلى فقد أخضعها لأقسى تحقيقٍ، مثل ما يُخضَع له الدجّالون والمحتالون، وعندما فشل الجميع في اكتشاف أيّ دليلٍ على ما اتُّهمت به، أُهملت، بلا عونٍ، ولا من يذود عنها الفضول الوقح، والأذى القاتل. ولّما رفعت شكواها إلى السماء، لم تسمع سوى قول الربّ: "تكفيك نعمتي". وبالإجمال غدت تلك السمات لها محنةً أليمةً، ومجلبةً لاتّهاماتٍ مهينةٍ، واضطهاداتٍ مضنيةٍ. وقد أوجز "الحاجّ" برينتانو وضعها ذاك بقوله:

« لقد أُرسلت إلى صحراء الإلحاد المعاصر، مدموغةً بطابع الحبّ المصلوب، كي تشهد لحقيقة هذا الحبّ. ويا له من عبءٍ باهظٍ أن تحمل في جسدها، على مرأى العالم، وأزلام أمير العالم، علامات انتصار ابن الله الحيّ، يسوع الناصريّ! هذه الرسالة تحتاج إلى جرأةٍ كبرى، إلى عونٍ خاصٍّ من النعمة الإلهيّة، لأنّ

على المعنيّ أن يضحي محطّ استنكارٍ، وريبةٍ، وشبهةٍ من قبل كثيرين، ولغزًا للجميع، وأن يظلّ معرَّضًا، مشبوحًا على الصليب، وسط ملتقى تقاطع الإلحاد والخرافة، والخبث والحماقة، وكبرياء العلم البشريّ، وسخافة ادّعاء الاستنارة وتفاهته، والخضوع الدائم لتحرّي فضول كلّ عابر سبيلٍ، وتحمّل الأحاديث العبثيّة، والتفسيرات اللامعقولة. وكان عليها أن تحيا فقيرةً، مهملةً، وضحيّة علّةٍ مجهولة المصدر، تسبّب لها استشهادًا دائمًا؛ فضلاً عن معاناة نبذ المحيط الأقرب، ومن ثمّ التعرُّض غالبًا لإهاناتٍ غير مقصودةٍ، والشعور بوحدةٍ سحيقةٍ، وسط حشود الفضوليّين المتوافدين، من كلّ صوبٍ، شعور بالوحدة يضاعف حدّته الافتقار إلى من يقاسمها هذه المعاناة؛ وفي كلّ لحظةٍ، وبلا هوادةٍ، تحمّل مطالب لامنطقيّةٍ، وشبهاتٍ يصعب تخيّلها؛ ومع كلّ ذلك التذرّع بالصبر في كلّ لحظةٍ، والاحتفاظ دائمًا بالبشاشة، والتواضع، والحكمة، والفهم، وبالتالي التحوّل إلى مثالٍ وقدوةٍ لكثيرين مختلفين، لا يُلزمون أنفسهم بشيءٍ من ذلك القبيل. إنّها، حقًّا، مهمّةٌ جبّارةٌ، مناطةٌ براهبةٍ مسكينةٍ، ابنة فلاّحين متواضعين، زادُها الثقافيّ مختزَلٌ في ما تلقّنته من دروسٍ دينيّةٍ أساسيّةٍ، تعيش في حقبةٍ خوت فيها الأديرة من روحها الأصيل، وحيث لا يوجد سوى القليل من الكهنة المتمرّسين بإدارة نفوسٍ تواجه مثل هذه الأوضاع".

ومع كلّ هذه المعاناة، متعدّدة الأشكال والوجوه، لم تشكُ، يومًا، من تُهَم الاحتيال والخداع التي أُطلقت بحقّها. ولم تكن مبادرات الثناء والاحترام والإعجاب التي تحاط بها، بين حينٍ وآخر، قادرةً على تسريب العزاء أو المواساة لها، ليقينها بعدم استئهالها هذه المبادرات، التي لا تليق إلاّ بالفادي، ولا تحقّ إلاّ له، دون سواه.

كانت قد كابدت، على امتداد سنواتٍ طويلةٍ، أوجاع الجراح قبل تجلّيها للعيان، ولم ترَ فيها سوى نعمةٍ منّ بها الله عليها، استجابةً لتوسّلها التخفيف عن آلام

الآخرين. ثمّ، عدّت تلك السمات التي طبعها عليها خطيبها الإلهيّ رمزًا، لا واقعًا، وجهدت في محو ذكرها من ذهنها، ساهيةً عن نـــزف الدم منها، دائمة التأهّب لكيلا ترى إلاّ ما يراه معرّفها والسلطة الكنسيّة فيها. وكان لهيمنة شعورها بعدم استحقاقها، ولخشيتها من المديح والتكريم، ما جعلها تخجل من ذاتها ومن رؤاها، وتؤثر أن تُعاقَب وتُزدرى، وكأنّها خادعةٌ حقًّا. وكان إبليس يستغلّ شعورها هذا كي يوهمها بأنّ سماتها، وعجزها عن الحركة والطعام، إن هي إلاّ أساليب خداعٍ مصطنعةٌ. وحينئذٍ كانت تساورها رغبةٌ في فتح نافذتها، والإعلان على مسمع العالم أجمع أنّها كاذبةٌ وخادعةٌ، وتحذير الناس منها، ودعوتهم إلى ازدرائها وتجنّبها. ولكن سرعان ما تعي أنّها ضحيّة الشرّير، فتنهدّ مرهقةً على فراشها.

غير أنّ إبليس لم يقنط، بل أمعن في حملات وسوساته ومراوغاته المضنية التي روتها بقولها: "كانت أوجاع جراحي من الحدّة بحيث كدتُ أصيح ألمًا، ومشقّةً في احتمالها. وبغتةً جاءني إبليس مموّهًا بشكل ملاك نورٍ، وقال: "أتريدين أن أثقب جراحك من جانبٍ إلى آخر، فتخفّ أوجاعك، وغدًا ستنعمين بأفضل حالٍ؟" ولكنّني ما لبثت أن تبيّنت هويّته، وقلت له: "ابعد عنّي، فلست أحتاجك في شيءٍ. لستَ، أنت من أحدث هذه الجراح، وأنا لا أبتغي منك شيئًا". فمضى وأقعى مثل كلبٍ خلف الخزانة. ولكنّه لم يلبث أن عاد وقال لي: "لا تتخيّلي أنّك أحسن حالاً مع يسوع، لأنّك تجرين معه هنا وهناك. فأنا من يفعل كلّ ذلك، وأنا من يرسم اللوحات التي تشاهدينها. وأنا، أيضًا، لي مملكتي!". ولكنّني أفحمته، ثانيةً، بأجوبتي، فانصرف: ولكنّه عاد، بعد برهةٍ، وتحدّث بوضوحٍ، وقال: "علامَ تعنّين نفسك بكلّ شيءٍ، وأنتِ لا تعرفين أبدًا كيف ولماذا؟ إنّ كلّ ما لديك، وكلّ رؤاكِ صادرٌ عنّي، وإنّك لفي حالةٍ تستحقّ الرثاء! ولن تفلتي من قبضتي. فما حاجتك إلى تعذيب ذاتك على هذا النحو؟" حينئذٍ أجبته: "ابعد عنّي، فأنا أريد أن أكون خاصّة يسوع، وأُريد أن أُحبَّه وألعنك! أريد أن أتألّم حتّى ترهقني الآلام، وفقًا

لمشيئته". ولكنّ اضطرابي كان من الشدّة ما جعلني أستدعي معرّفي الذي باركني. وحينئذٍ نأى العدوّ عنّي.

"ولكنّه، هذا الصباح، فيما كنت أتلو قانون الإيمان، عاد إليّ، بغتةً، وقال: "وما جدوى تلاوتك قانون الإيمان الذي لا تفقهين منه كلمةً؟ دعيني أبيّن لك كلّ شيءٍ بوضوحٍ، وحينئذٍ ستدركين وتفهمين". فأجبته: "أنا لا أبتغي الفهم، بل أريد أن أومن فحسب..."

ولم يكن صراعها مع إبليس هو مصدر إرهاقها الوحيد، بل كان يحزنها، تمادي بعض الناس في تقديرها وإجلالها. وقد شكت، ذات يومٍ، للأب "ڤـــيزنر"، باكيةً:

"يحزنني حتّى الموت تقاطر الزائرين إليّ، ولا سيّما عندما ألحظ أنّ كثيرين يكرّمونني أكثر ممّا يكرّمون القربان المقدّس. أجل أودّ أن أموت خجلاً، عندما أرى كهنةً مسنّين أجلاّء، يفوقونني قداسةً، بلا قياسٍ، يطلبون مشاهدتي". ولم يكن يسكن لها روعٌ إلا عندما كان الكاهن يؤكّد لها أنّ من يُظهرون علامات الاحترام والإجلال، لا يجلّون شخصها، بل أعمال الله فيها.

ويبقى أنّ أولئك الذين تبرّمت الأُخت من إسرافهم في تكريمها هم فئةٌ شديدة الضآلة، قياسًا إلى الأعداد الكبرى من شتّى فئات معاصريها، الذين لم تلقَ منهم، في معظم الأحيان، سوى الصدوف، والإهمال، والازدراء، لا بل الكثير من الاضطهاد، ما جعل الأب "لمبير" الذي واكبها طويلاً، يُقرّ: "إنّ ما أستطيع قوله، بيقينٍ تامٍّ، هو أنّني، بعد مطالعتي سِيَر النفوس التي نالت من الله حظوةً، وكراماتٍ استثنائيّةً (وقد عرفت منها عددًا وفيرًا)، لم أعهد من فاقها حظوةً، وفي الآن عينها من واجه مثلما واجهت من إهمالٍ، وتخلٍّ، وإرباكٍ، وامتحانٍ..."

لقد كانت لها كرامة السمات مصدر آلامٍ نفسيّةٍ وجسديّةٍ جمّةٍ، فقد استثارت عليها حنق الجحيم، وهمم البشر الباطلة، وتخرّصاتهم المذلّة، وأقسى اختبارات السلطات الكنسيّة والمدنيّة والعلميّة على السواء.

وبالإجمال كانت سمات صلبها مدعاة آلامٍ ومضايقاتٍ لها، في حياتها، أكثر ممّا كانت محطّ تقديرٍ واحترامٍ، إلى أن انقلبت الموازين، وتغلّبت الحقيقة، فأعلنها البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، عام ٢٠٠٤، طوباويّةً.

طيلة حياتها مارست من التضحيات الفدائيّة، ما أهّلها لأن تُدمَغ بسمات صلب يسوع التي كرّست فضائلها وأبرزتها.

ودوّن الفادي فيها علامات آلامه الخلاصيّة الممجّدة، فأضحى دمها النازف نورًا ومنارةً، مع أنّ هذا الدم لم يكن يتغذّى بأيّ طعامٍ مادّيٍّ، بل اقتصر غذاؤها على ما كانت تفيض به نفسها من حبٍّ وإيمانٍ.

كان خوري أرس القدّيس قد قال عن فتاةٍ توفّيت في الثالثة والعشرين من عمرها الخاطف الذي قضته ممارسةً إماتاتٍ قاسيةً: "ما زال في العالم أمثالها، وهم الذين يحولون دون اندثار العالم".

وربّما غاب عن علم الأب ڤـــيانّي أنّه فيما كان يباشر، في قريةٍ فرنسيّةٍ، خدمته الراعويّة التي بذل في سبيلها كلّ ذاته وحياته، متحمّلاً تضحياتٍ بطوليّةً تليق بقدّيسٍ يمثّل المخلّص، كانت الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" قد بلغت غاية شوط مسيرتها القصيرة، في قريةٍ ألمانيّةٍ، مسيرةٍ حفلت بالآلام الفدائيّة الطوعيّة، تكفيرًا عمّا يلحق بالفادي من خياناتٍ ونكران جميلٍ، والتماسًا لتزويد الكنيسة بكهنةٍ غيورين على نصاعتها وفاعليّتها، وأوفياء لدعوتهم. وإن لم يسمع أحد القدّيسَيْن بالآخر، إلاّ أنّه من المحقّق أنّ نفسيْهما الرائعتَيْن ارتبطتا بأواصر حبٍّ للفادي تتخطّى الحدود والأزمنة، وآتت ثماراً يانعةً.

وإنّه ليسعدني اكتشاف تزامنٍ مذهلٍ بين تينك النفسين الرائعتين. ففيما كان الأب "جان ماري ڤـــيانّي" يباشر رسالته في قرية أرس الفرنسيّة خطرت للرائية الألمانيّة رؤيا أقلقتها، فيها، ضآلة عدد الأبطال الذائدين عن حياض الكنيسة، حيال ضخامة كتائب أعدائها، فشكت هذا القلق للربّ الذي سكّن روعها مذكّرًا

بإنجازات اثني عشر رسولاً، كان جُلّهم صيّادي أسماكٍ، وهزيلي الثقافة، ومع ذلك، وبعون الروح القدس، استطاعوا نشر الإنجيل في كلّ أنحاء المسكونة، وأضاف الربّ قوله: "إنّ الذين أُرسلهم اليوم، في زمنك هذا، سيؤتون الحصاد عينه، مهما بدوا مجهولين ومحتقرين".

فيا ربّ، أنت تشهد كيف يدأب عالمنا الأحمق على إفناء ذاته بالتنكّر لك، وعصيان مشيئتك، ومخالفة تعاليمك، فاستنهض طغماتٍ من النفوس السخيّة، على غرار الأُخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك"، تتطوّع للتضحية بذاتها تكفيرًا عن آثام هذا العالم، وإنقاذًا لروح أبنائه.

على دروب القداسة

وصفت "رئيسا ماريتان" الأُخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك"، بقولها:

"إنّها، بلا منازعٍ، إحدى أكبر صوفيّي القرن التاسع عشر".

وكتب الفيلسوف الفرنسيّ "جان غيتّون": "بعد مرور قرنين، يسوغ التساؤل ألم تكن إحدى أكثر شخصيّات القرن التاسع عشر تميّزًا؟ بل يمكن التساؤل هل لم تكن أحد محرّكات التاريخ الخفيّة، في تلك الحقبة.

"لم تقلب عروشًا وإمبراطوريّاتٍ، ولم تحرز انتصاراتٍ مذهلةً في معارك مدوّيةٍ، ولكنّها اكتشفت السماء التي نحملها في داخلنا، والتي تفوق جمالاً كلّ جمالات الأرض... قضت حياتها تتألّم، وتضحّي، وتحتضر، تكفيرًا عن الآخرين، وأحدث عملها هذا أعمق تأثيرٍ على مجرى التاريخ".

ولا ريب أنّ تطوّعها للتكفير عن الآخرين هو أجلّ ميزاتها شأنًا.

مع أنّها نشأت قرويّةً، مغرقةً في الفقر، ترعى بهائم ذويها وجيرانهم، ولم تحظَ من العلم إلاّ بالزهيد الأساسيّ. ولكنّ السماء غمرت نفسها، منذ الطفولة بعلومها السامية. ثمّ عملت خادمةً بلا أجرٍ، وقضت أيّام رهبنتها في الدير، مجهولةً، مهمّشةً، مزدراةً، مضطهدةً، ومع ذلك أذهلت سلطات زمانها العلميّة، وأحرجت سلطاتها السياسيّة.

وقد أوجز "جان غيتّون" تقييمه لها بقوله: "إنّها ماسةٌ يتعذّر تفسيرها". وأذاع سرًّا عندما أكّد أنّ ابن الأديب العبقريّ "پـــول ڤـــاليري" (Paul Valéry) باح له بأنّ والده كان يبدي اهتمامًا شديدًا، ويكنّ احترامًا عميقًا للراهبة "أنّا كاتارينا إيمّيريك".

فقد جمعت تلك الراهبة من المفارقات والمتناقضات ما يُذهل. فهي، تارةً، بسيطةٌ، ساذجةٌ، جاهلةٌ كالأطفال، وتارةً متبصّرةٌ، حكيمةٌ، زاخرةٌ بالرؤى العميقة، والغيرة البطوليّة، حتّى إنّ "غيتّون" وصف نبوغها بأنّه "جوهرةٌ نادرة النقاء". وهي، في جميع الأحوال، سحيقة التواضع، متجرّدةٌ، مستمدّةٌ قوّتها من يسوع وحده. فكلّ ما نعمت به وتألّقت به ناجمٌ عن غوصها في لجّة الله. فقد كانت حياتها كلّها حوارًا مستمرًّا معه، وتأمّلاً دائمًا في مراحل حياة المخلّص، والإصغاء إلى إيحاءاته وإرشاداته، والعمل بها، وتعميمها.

وكان القربان المقدّس غذاءها الروحيّ، وحتّى الجسديّ طوال مرحلةٍ مديدةٍ من حياتها. وكان أكبر عزاءٍ تستمدّه من وجوده على مقربةٍ منها. وكانت تحيط المقدّسات بأسمى إجلالٍ.

نسج التأمّل والصلاة وجودها الذي اندرج على وقع الأعياد الكنسيّة، التي كانت، من خلالها تواكب مسيرة يسوع وأمّه العذراء على أديم كوكبنا، وما خلّفاه من مناهل حياةٍ، ووسائل خلاصٍ. ولطالما كانت الصلاة، والتأمّلات سدى نهاراتها ولحمة لياليها، في زمنٍ لم يكن يقيم وزنًا إلاّ للإنجازات المادّيّة والعلميّة الباهرة، وأضحت فيه الأوقات الموقوفة على العبادة نافلةً لا طائل تحتها، وأمست النفوس المكرّسة للصلاة، تعويضًا عن الذين محوا الصلاة من سجلاّت وجودهم، موضع سخريّةٍ وازدراءٍ، مع أنّها هي التي تنقذ روح العالم من الموت جوعًا وعطشًا وفراغًا.

لقد خضعت، دائمًا، لصوتٍ داخليٍّ يرشدها إلى حيث يتوجّب عليها أن تكون، وإلى فعل ما ينبغي عليها فعله، ولم يخطر لها، قطّ، أن تخالفه، أو أن تتوانى عن الانقياد له.

وبفضل هذه القيادة العلويّة، وإرشادها، تزوّدت بأسمى الفضائل، وعاشت، منذ طفولتها، مع أهل السماء.. وفرّت من كلّ مكانٍ تفوح منه رائحة خطيئةٍ أو شرٍّ، كما رأينا في مطلع مسيرتها.

وكان الإيمان هو الحليب الذي رضعته، وأضحى قوام وجودها، والهواء الذي تتنشّقه في كلّ لحظةٍ، والدم الذي يسري في عروقها، والغذاء الذي يقيم أوَدها، ويبقيها على قيد الحياة. فتحقّق فيها وعد الربّ بمنح المؤمنين به القدرة على صنع المعجزات. ومن ثمّ، أعلن البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، في معرض تطويبها، أنّ حياتها اندرجت في الإيمان الحقّ بإنجيل يسوع، الذي وجدت فيه اكتمالها النهائيّ، ما أهّلها للانتماء إلى جماعة قدّيسي السماء. وما جعلها نموذجًا ومحرّضًا لجميع أبناء زماننا. وأضاف البابا القدّيس قوله إنّها كانت متينة الإيمان، وإنّها تخطّت كلّ الصعاب لكي تظلّ وفيّةً لدعوتها...

وقال أُسقف مدينة "منستر" (Munster) إنّها تنعم بمعاصرةٍ راسخةٍ لأنّها تتيح لنا أن نلمس لمسًا يكاد يكون علميًّا، دافع عالم الإيمان.

وقد أثبتت الأُخت "أنّا كاتارينا" صدق إيمانها، بمحبّةٍ شاملةٍ معطاء، على نحو ما أرادها وحقّقها يسوع الذي قال: "ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من أن يبذل نفسَه عن أحبّائه". فهي، حبًّا بيسوع، بذلت حياتها تكفيرًا عن الخطأة الذين استخفّوا خطورة خطاياهم، وعن المتألّمين، تخفيفًا لأوجاعهم، وتكبّدت طوعًا أعتى الأوجاع والتضحيات، في هذا السبيل. وحتّى عندما أوهنتها الآلام، وأفقدتها القدرة على الحركة، وعلى تمثّل الطعام. لم تُفقدها ذرّةً من محبّتها، ولم تحجب عن ذهنها احتياجات الآخرين، ولم تُعِقها عن المسارعة إلى غوثهم.

في زمنٍ تصدّر فيه نشدانُ المتعة أهدافَ البشر وغاية مساعيهم، اختارت هي التضحية بذاتها، نيابةً عمّن خاطروا بخلاص نفوسهم، وعن الأبرياء الذين أرهقتهم الأوجاع.

وقد تجلّت محبّتها، ساطعةً، في علاقاتها مع أخواتها في الدير. وما أكثر وأبلغ الشهادات على ذلك! فقد شهد مرشدها الروحيّ، الأب "أوڤـيربيرغ" (Overberg)، في هذا السياق:

"كانت "أنّا كاتارينا" تكنّ من المحبّة لأخواتها الراهبات، ما يجعلها تبذل دمها في سبيل كلٍّ منهنّ. ومع علمها أنّ العديدات منهنّ لا يضمرنَ لها مودّةً، كانت تفعل كلّ ما يسعها من أجل إرضائهنّ. وكانت البهجة تغمرها كلّما التمست منها إحداهنّ خدمةً. وتأمل، آنذاك، أن تصبح أخواتها أكثر تسامحًا حيالها. وشاء الله ألاّ تعرف رئيستها وأخواتها حقيقة نفسها معرفةً حقّةً، بل كنّ يعدُدْن كلّ ما تفعله رياءً، أو مداهنةً، أو كبرياءً. ولم يكنَّ يتردّدنَ في تأنيبها وفقًا لظنّهنّ الخاطئ بها. وهي بادئ الأمر، كانت تلتمس العذر عن كلّ ما بدر منها. ولكن عندما لم تؤتِ اعتذاراتها جدوى، غدت تجيب واعدةً بإصلاح حالها.

"وكنّ، غالبًا، يؤنّبنها، بسبب دموعها التي كنّ يعتبرنها دليل استياءٍ ونـزوةٍ... أمّا هي فقد باحت: "لم أكن أتمالك نفسي عن البكاء، عندما أشهد تلك الرفيقات اللواتي كنتُ مستعدّةً لبذل حياتي من أجلهنّ حانقاتٍ عليّ. وكيف لا أبكي عندما أتبيّن، في بيت السلام، وبين ظهراني أشخاصٍ مكرَّسين، ومنفصلين انفصالاً كلّيًّا عن العالم، أنّني حجر عثرةٍ، وأنا لا أملك وسيلةً لاتّقاء ذلك. لم أكن أقوى على حبس دموعي، وأنا أشهد وألمس بؤس تلك الحياة، وفقرها وعماها، حيث تذبل النفوس، وتوصد القلوب، وهي على مقربةٍ من فيض النعم التي يغدقها المخلّص القدّوس".

وعام ١٨٢٣ طلبت السلطات الكنسيّة شهادةً على سلوك "أنّا كاتارينا" فأفادت رئيسة ديرها، ومرشدة المبتدئات فيه، وخمس أخواتٍ أُخرياتٍ، بما يلي:

"كانت دائمًا دمثة المعشر، ومسالمةً جدًّا. في علاقاتها بالآخرين، كانت متواضعةً، متنازلةً، مندفعةً إلى الخدمة، بعيدةً عن كلّ شجارٍ وخلافٍ. وفي

أثناء مرضها، كانت فائقة الوداعة والمودّة، مستسلمةً لمشيئة الله، صبورًا. وإذا أُسيء إليها كانت هي المبادِرة إلى المصالحة، وكانت تستصفح عن كلّ انفعالٍ قد يبدر منها..."

وشهد راعي أبرشيّة "دولمن": "تنامى إليّ أنّ "أنّا كاتارينا" كانت قد أسدت خدماتٍ كبرى لراهبةٍ معتلّةٍ، واستفسرتُها عمّا دفعها إلى ذلك، فأفادت: "كانت تلك الأُخت مبتلاةً بقروحٍ في قدميها، وكانت الخادمات يأنفنَ العناية بها بسبب غرابة أطوارها. ولكنّني رأيت في العناية بها عمل رحمةٍ، وطلبتُ تكليفي بغسل أضمدتها. وفضلاً عن ذلك، كانت مصابةً بالجرب، ما جعل الخادمات يخشين الإصابة بالعدوى. ومع يقيني باحتمال إصابتي، أنا أيضًا، بالعدوى، وطّنتُ عزمي على الاضطلاع بعمل الرحمة هذا، أيضًا، معتمدةً على الوقاية الإلهيّة. ولم يغب عن بالي أنّ تلك الأُخت، من جرّاء غرابة أطوارها، لن تشكر لي خدماتي لها، عندما ستنعم بالشفاء، ولن تكفّ عن اتّهامي بالرياء، كما أُلِفت أن تفعل سابقًا. ولكنّني أيقنتُ أنّ ذلك سيضاعف ثوابي لدى الله، ومضيتُ قدمًا في غسل ضماداتها وثيابها، وفي ترتيب سريرها، وفي العناية بها خير عنايةٍ".

وإلى ذلك تسنّمت قممًا شاهقةً في الفقر، والتجرّد، والزهد. وقد لازمها، سحابة حياتها، شعورٌ بأنّ الفقر هو الذي يناسبها، وأنّها لا تحتاج إلى أيّ شيءٍ خارجيٍّ، لأنّها تمتلك كلّ شيءٍ في داخلها.

نشأت في بيئةٍ فقيرةٍ، ولكنّ فقر ذويها لم يعكّر صفو طفولتها وصباها، ولم يخلّف في نفسها أيّ طعم مرارةٍ، ولم يوحِ لها أيّة رغبةٍ في الانتقام منه، كما يحدث لكثيرين ممّن سمّم فقر الطفولة نفوسهم. ولم تصبُ، يومًا، إلى رغد عيشٍ، بل حتّى وهي في غمرة مكابدتها أدهى حالات العوَز والإملاق، لم تكن تتوانى عن التبرّع لمن هم أشدّ منها فقرًا وحاجةً، بنصيبها من الطعام، وبقسمٍ من مؤونة أُسرتها الزهيدة، وبكامل أجرها عن عملها في الخياطة، الذي اندفعت إليه بغية تأمين

مقتضيات دخولها الدير. وارتضت، دائمًا، بفرحٍ غامرٍ، وبشكرٍ صادقٍ، أكثر ظروف العيش قسوةً، حتّى إنّها عدّت فردوسًا الحجرة الزريّة الضنكة التي خصّصت لها في الدير، والتي كانت عاريةً من كلّ أثاثٍ ما عدا كرسيًّا بلا مسند ظهرٍ، وآخر بلا مقعدٍ.

وهي لم ترتضِ الفقر مضطرّةً، بل مقتنعةً بأنّ كلّ نافلٍ ضارٌّ، وبأنّ حبّ الله ورضاه هما الكنـــز الوحيد الجدير بالسعي إلى اقتنائه، والكفيل بملء النفس رضًى.

واحتفظت "أنّا كاتارينا"، حتّى مماتها، ببساطة طفلةٍ بريئةٍ، سحيقة التواضع، ناصعة الطهر، غير مباليةٍ بذاتها، وزاهدةٍ بمتاع الدنيا ومباهجه، لأنّها كانت، بكلّيّتها، ساكنةً في الله... وقد استمطرت عليها هذه الكتلة الرائعة من الفضائل امتيازاتٍ سنيّةً، نادرةً من السماء. ولكنّ هذه الامتيازات لم تنتقص ذرّةً من براءة طفولتها، ومن بساطتها، وتواضعها.

وحبًّا بالمخلّص، انبرت لتحمّل أدهى الآلام تكفيرًا عن خطايا البشر التي تدمي قلب الفادي، وتخفيفًا لأوجاع المعذّبين الأبرياء؛ والمدهش هو أنّ تضحيتها البطوليّة هذه ارتدت، دائمًا، ثوب الخَفَر العذب، وأنّ قسوة رسالتها وسموّها اصطبغا بسذاجةٍ مذهلةٍ.

ولم تستسلم، يومًا للحزن، ما عدا الحزن الذي يسبّبه مشهد الخطيئة والظلم. وحتّى عندما كانت الدموع مزدحمةً في مآقيها، كانت تستعيد في غضون لحظاتٍ، سجوًّا فرحًا متحرّرًا من كلّ همٍّ أو هاجسٍ، لا يعهد مثله إلاّ من برئت نفسه من جراح الخطيئة. وكان حسبها شعاع عزاءٍ خاطفٍ، لتهدئة عواصف هوجاء منقضّةٍ عليها. وقد يتمثّل هذا الشعاع في لوحاتٍ من طفولتها تطوف بمخيّلتها، فتسترجع قدرًا وافيًا من الشجاعة الهادئة التي تدفعها قُدُمًا على درب الصليب الذي لا يني يزداد وعورةً.

وبدَهيٌّ أن يثمر هذا المناخ الروحيّ طهرًا متألّقًا، ناصعًا، وقى "أنّا كاتارينا" الطفلة، والفتاة، والراهبة من كلّ خاطرةٍ عكرةٍ، ومن كلّ عملٍ يخدش العفّة، ومن كلّ ميلٍ دنسٍ، وكلّ هوًى جامحٍ. فلم تلطّخ نقاءَ نفسها لوثةٌ، طوال حياتها. وليس كالطهر ما يُبرز بشاعة الدنس والخطيئة.

هذه الكوكبة من الفضائل التي جلّت "أنّا كاتارينا" في ميدانها، والتي قرنت التأمّل والصلاة، والإيمان الوطيد، والمحبّة السخيّة، بالطهر والبساطة والتواضع، والتضحية، والتجرّد، والزهد، وسجوّ النفس، تمكّنت منها الأُخت بفضل الصبر في المعاناة، والجهاد النفسيّ العنيد، والتجرّد التامّ، والمثابرة، والعطاء بلا حدودٍ، والامتثال الفطِن، المستمرّ لإرشاد دليلها السماويّ.

ولئن ضاهاها كُثُرٌ من القدّيسين والقدّيسات في ممارسة تلك الفضائل، إلاّ أنّ ما يميّزها عن معظمهم هو تقديم ذاتها ضحيّة تكفيرٍ عن الآخرين، تمثّلاً بالفادي، واحتمالها البطوليّ لأوجع الآلام الخلاصيّة، وأعتى المِحَن النفسيّة، احتمالاً أهّلها لدمغ المصلوب سمات صلبه في جسدها.

وما أحوجنا إلى كتائب من أمثال الطوباويّة "أنّا كاتارينا إيّميريك" في هذا الزمن الذي نأى أشواطًا عن الله، فطفح ميدانه بالموبقات، وتوغّل بعيدًا في معاقرة المحرّمات، وفي تبرير الخطيئة وتشريعها، وفي تسويق الرذيلة، وفي استعباد الأقوياء للضعفاء، واستغلال الأغنياء للفقراء، وفاض طوفان مظالمه!

الفهرس

تمهيد ٧

الفصل الأوّل

حياةٌ حافلةٌ برؤى السماء وبصلبان الأرض ١١
نشأةٌ ريفيّةٌ فقيرةٌ ورعةٌ ١٢
طفولةٌ مغمورةٌ بأنوارٍ سماويّةٍ ١٤
رؤاها ٢٠
نشأتها في البيت الوالدي ٢٥
"أنّا كاتارينا"، تنال أسرار التوبة والإفخارستيّا ٣٢
مكائد الشرّير ٣٥
علاقتها بملاكها الحارس ٣٧
دعوةٌ إلى الحياة المكرّسة ٤٠
ثلاث سنواتٍ في "كوسفيلد" ٤٣
ضحيّةٌ طوعيّةٌ ٤٨
محاولة تعلّمها العزف على الأُرغُن ٥٤
إكليل الشوك، ودخولها الدير ٥٩
ابتداءٌ رهبانيٌّ، في "دولمن" ٦١
الصليب في حياتها ٦٤
النذور الرهبانيّة، في ١٨٠٣/١١/١٣ ..... ٦٨
أمراضٌ وعِللٌ فدائيّةٌ ٧٣
رؤًى وانخطافاتٌ ٨١
تكريمها لسرّ الإفخارستيّا ٨٤

إغلاق الدير وظهور سمات الصلب ٨٦
بدء التحقيق الكنسيّ ٩٠
تضميد الجراح ٩٧
شهادة طبيب بروتستانتيٍّ ١٠٠
أُسبوع آلامٍ، وعيد الفصح ١٠١
محاولاتٌ لطيّ التحقيق، وعناد النائب الأسقفيّ ١٠٤
رأي الأب "رينسينغ" في الأُخت "أنّا كاتارينا" ١٠٦
واستمرّ التحقيق ١٠٩
زيارة النائب الأسقفيّ الرابعة ١١١
تقرير كاهنين وطبيبٍ عن السمات ١١٢
مراقبةٌ شديدةٌ مدى عشرة أيّامٍ، وإغلاق التحقيق الكنسيّ ١١٨
زيارة النائب الأسقفيّ الأخيرة إلى "دولمن" ١٢٦
بعد التحقيق ١٣٠
كيف واجهت "أنّا كاتارينا" سمات الصلب؟ ١٣٣
شهادة الدكتور "غيّوم ڤيزنر" ١٤٠
محاولاتٌ جديدةٌ لاستقدام الأُخت إلى "منستر"، ولإخضاعها لمزيدٍ من الاختبار ١٤٥
"كليمنس برينتانو" ١٥٠
يوميّاتٌ فدائيّةٌ ١٦١
مرحلة آلامٍ تكفيريّةٍ كبرى: ١٨١٨–١٨١٩ ..... ١٦٣
رؤى عن سيرتها الذاتيّة ١٨٢
صراعٌ في كنيسة القدّيس بطرس ١٨٤
خدمة الكنيسة بالصلاة والألم ١٩١
رحلات المحبّة ١٩٧
رحلةٌ إلى المطهر ٢٠٣
الأُخت "أنّا كاتارينا" والكنيسة ٢٠٥
"أنّا كاتارينا والذخائر" ٢١٠
حالة الأُخت منذ عام ١٨٢٠ ..... ٢١٤

رؤى الكنيسة المضطهَدة ٢٢٥
أيّامها الأخيرة ووفاتها ٢٢٥

الفصل الثاني

في كاتدرائيّة نفس ٢٣٣
رؤاها ٢٣٤
آلامٌ فدائيّةٌ ٢٤٢
آلام من أجل الكنيسة ٢٤٧
آلام سمات الصلب ٢٦٨
على دروب القداسة ٢٧٤
الفهرس ٢٨١

صدر للمؤلّف

أ – منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠

٢ – يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦

٥ – أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩

٦ – مختارات مريميّة – ٢٠٠٩

٧ – أمّ الرحمة – ٢٠١١

٨ – باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣ – صوتُ من لا صوتَ لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤ – حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و ٢٠٠٣

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي بايپيني) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبـيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتـشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – **٢٠٠٥**

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – **٢٠٠٧**

٣ – العذراء في حياتنا (مترجم) – **٢٠٠٥** و **٢٠٠٧**

٤ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – **٢٠١٥**

٥ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل، الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – **٢٠١٦**

كتب مترجمة

١ – يد اللّه – **١٩٨٨** (سلسلة الشهود)

٢ – ثلاث عشرة قصّة – **١٩٩٠** (سلسلة الوداع)

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – **١٩٩٥** (سلسلة الوداع)

٤ – اذكروا اللّه: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – **١٩٩٥**

٥ – حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – **٢٠٠٥** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – **١٩٨٤** و **٢٠٠٠**

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – **١٩٩٨** و **٢٠٠٠**

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان